



Bibliotheca Alexandrina



0123366











# خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ

بقلم

صَادِقُ ابْرَاهِيمَ عَرْجُون

هل قامت النساء عن مثل خالد  
[ عمر بن الخطاب ]

عجزت النساء أن ينشئن مثل خالد  
[ أبو بكر الصديق ]

الطبعة الثانية

[ ١٢٧٨ هـ — ١٩٦٧ ]

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية  
للتأليف

حسين محمد إسماعيل المنياوي

٩ شارع الصحافة ميدان التحرير







## مقدمة

اللهم إني أستهلكك محمد تبلغ من شكرك ذرى نعمتك ، وأستمنحك توفيقاً  
مستظلاً به في ذرى رحمتك ، وأستهديك بلج الحق ، وأستعينك على السداد ، وأعوذ  
بكفك من مساقط الهوى ، وميل اليراعة عن جواد الرشاد .

وأسألك أن تصلى على محمد عبدك ورسولك وخاصتك من خلقك ، صلاة ترضيك،  
وترضيه ، وتبلغ بها من رضوانك ما أنت أهله من الطول والإحسان

أما بعد . فهذا كتاب «خالد بن الوليد» أرفعه إلى قراء العربية طرزاً في دراسة  
«الشخصيات» ذات النواحي المتعددة في مياسم العظمة ، ومعالم العبقريّة ، قائماً على  
تصوير بعض تلك المياسم وتوضيح هاتيك المعالم .

لا أزعّم له كمالاً في التصوير ، ولا أدعى له فوقاً في التعبير ، ولكنه لون من  
البحث يبرز مآثر التربية الإسلامية في سيرة رجالات الإسلام ، وهو فن لا تستغنى  
عنه حياة المسلمين في هذا العصر ، بل ربما كانت أشدّ تطلباً له الآن ، لحاجتها إلى  
الحوافز الدافعة بها إلى طريق التبصرة والإدكار .

والأمة إذا بصرت اعتبرت ، وإذا اعتبرت تطلعت إلى منافذ الهداية في حاضرها ،  
إن كان لها من وسائل النهوض رصيد ، وإلا اشترأبت إلى الماضي تستوحيه إن كان لها  
في سجل الحياة تاريخ .

وهن عجائب التوفيق أن رصيد الأمة الإسلامية من وسائل نهوضها في حاضرها  
مستمد من منابع ماضيها في التاريخ . وكل ما في يدها اليوم من هذا الرصيد يقظة  
مبصرة ، ولكنها مبددة الأهداف ، حائرة التفكير ، يخذعها سراب الحياة الصاخبة  
من أفق الغرب «المتحلل» واشرق «الملحد» في آيات الله الكونية ، فتعشى إليهما  
بمجردة معظمة مشاكهة حتى إذا أدركها ظلامهما المادي الكثيف بأشباحه البشعة الخيفة،  
وأفكاره السوداء المدمرة ، ارتدت إلى أفقها الشرق متطلعة إلى شمس الهداية في ماضيها  
المشرق الزخار بآيات المجد والسؤدد ، الغنى بمثل الإصلاح ونماذج العبقريّة .



فإذا أبصرت ظلال ذلك الماضي وقفت حيرى بين كابوس الغرب الفاجر المروع ،  
والشرق الجاحد الكفور ، وبين مجد ماضيها المسطور في صحائف التاريخ .

وما غناء الماضي في بعث أمة طال عليها الأمد في مراقب الزمن مسلوقة الإرادة  
والفكير إلا من طريق الإيحاء والتلقين ، لو لم يسور لها هذا الماضي في نماذج حية  
تعيش معها في سيرتها ؟

وما غناء الفكرة لو لم تبرز إلى واقع الوجود في نموذج حي بمثابة أصدق التمثيل ؟  
وما قيمة الشرائع في حياة الناس إن لم يكونوا بأعمالهم في هذه الحياة معنى  
لألفاظها ، وقالبا لحقيقتها ، ومثلاً « مكيمة » في تطبيق نصوصها ؟

والنماذج الحية في تاريخ الأمة الإسلامية هي المنبع الفيض بمظمة الإسلام ، وهي  
الآية الكبرى على أن الإسلام في حقيقته العليا عمل مؤلف من عمل الضمير ،  
والفكر ، والجوارح ، وهي شواهد ناطقة على عمل التربية الإسلامية في الأفراد والجماعات  
وعلى أثرها في تكوين الأمة عندما تتخذها تلك الأمة مصدر الإصلاح في نهضتها .

ومن ثم كان عرض هذه النماذج بتصوير حياتها الواقعية حاجة من سمات العالم  
الإسلامي في حاضره ليجد الأسوة في ماضيه الواقعي مثلاً من مشاهد الحياة .

وبطل الإسلام « خالد بن الوليد » نموذج من أخصب النماذج الحية في الإسلام ،  
الملئ بالخصائص الإنسانية النبوية ، وشخصيته تمثل جانباً من جوانب الحياة الإسلامية  
في صدرها الأول ، نجلت فيه آثار التربية الإسلامية ، فسكان في سيرته عنواناً على  
واقعيتها كاملة كما نزلت من السماء .

وهذا النوع من النماذج في تاريخ الإسلام حجة دامغة على من زعم أن الإسلام  
دين مثالي الأهداف والمقاصد ، بعيد عن الواقعية . وهؤلاء يقيسون الإسلام بمعايير  
المسلمين ، ويحاكمونه إلى أحوالهم ومظاهرهم ، ويقدرونه بأفكارهم ، ويزنونه بأوزانهم ،  
وهذا غلط أو مغالطة ، وإلا فأين شهادة التاريخ الواقعي في حساب الفياس والقدر ،  
يوم أن كان الإسلام كله مدرسة لتخريج العبقريات الإنسانية ؟ ويوم أن كانت تعاليمه  
مثلة في أشخاص حاملي ألويته ورافعي راياته الحفاقة في العالمين ؟

كان خالد بن الوليد نموذجاً فريداً في العبقرية العسكرية والبطولة الحربية ، فكانت



خصيصة « الجندية » أظهر خصائصه حتى لا يستطيع من يردد النظر في سيرته باحثاً عن مجالى العظمة ، إلا أن يرى تلك الخصيصة عنواناً لكل فصل من فصول حياته .  
ولسنا فى هذا البحث نقصد إلى الحديث عن هاته الخصيصة فى خالد من وجهها الفنى ، فذلك حديث له أفلامه الفنية ورجاله من فنى الحرب ، والأبطال العسكريين ، وإنما نقصد إلى تصوير الإسلام فى توجيه النبوغ وإعطائه مجاله فى الحياة بأوسع ما تتسع له حياة الأفراد ، وإلى تصوير أثر التربية الإسلامية فى إبراز كوامن العبقريات فى حياة الأمم والجماعات .

فصورة التى يراها القارىء فى هذا البحث لبطل الإسلام « خالد بن الوليد » هى صورة من صنع الإسلام للنماذج الإنسانية فى ميادين الجهاد والتفكير الحازم فى الخروج من مأزق الحياة .

وقد سلكنا فى عرض الملامح المقومة لشخصية خالد الإسلامية طريقنا فى تتبع الروايات التاريخية ونقدناها على ضوء الخطوط الأولى للشخصية المصورة ، وناقشنا حوادث وأحداثاً اضطربت فيها الروايات ، وانحرف بها التاريخ أو حملت عليه حملاً ، فكانت مزلة لبعض كبار الباحثين ممن جانبهم التوفيق فى دراستها ، وانتهينا بها إلى مكانها من الحق فى سجل التاريخ على قدر ما وسعته الطاقة ، واتسع له مدى البحث .

والناظر فى هذا البحث لا يجد فيه شيئاً غريباً على معارفه التاريخية إذا كان ممن أجال النظر فى معارج التاريخ الإسلامى بشىء من التأمل الناقد ، والفكر الممحس . ومن هنا لم تكن بنا حاجة إلى ثبت من المراجع والمصادر نكث به على القارىء ، فهى مبنوثة فى غضونه وثناياه ، أو معروفة مشهورة لا تحتاج من أولى العلم إلى كبير معاناة .

وحسب الدين لم يعنوا بدراسة التاريخ الإسلامى أن يشعروا عند قراءة هذا البحث بدفع الصدق وبرد اليقين ، وأن تدبعت فيهم رغبة الدراسة والتفقه فى حوادث وأحداث ذلك التاريخ ، وفهم سير رجالاته ، وتعرف العوامل الأصيلة فى تربيتهم تربية جعلت منهم نماذج لروح الإسلام ، وحيويته على مدى الأزمان ، وما بقليل فى باب الجزاء أن نظفر بهذا الثواب .

المؤلف

صادق إبراهيم عرمون



خصيصة « الجندية » أظهر خصائصه حتى لا يستطيع من يردد النظر في سيرته باحناً عن مجالي العظمة ، إلا أن يرى تلك الخصيصة عنواناً لكل فصل من فصول حياته .  
ولسنا في هذا البحث نقصد إلى الحديث عن هاته الخصيصة في خالده من وجهها الفني ، فذلك حديث له أعلامه الفنية ورجاله من فني الحرب ، والأبطال العسكريين ، وإنما نقصد إلى تصوير الإسلام في توجيه النبوغ وإعطائه مجاله في الحياة بأوسع ما تتسع له حياة الأفراد ، وإلى تصوير أثر التربية الإسلامية في إبراز كوامن العبقريات في حياة الأمم والجماعات .

فصورة التي يراها الفارسي في هذا البحث لبطل الإسلام « خالد بن الوليد » هي صورة من صنع الإسلام للنماذج الإنسانية في ميادين الجهاد والتفكير الحازم في الخروج من مأزق الحياة .

وعد سلكنا في عرض الملامح المقومة لشخصية خالد الإسلامية طريقنا في تتبع الروايات التاريخية ونقدها على ضوء الخطوط الأولى للشخصية المصورة ، وناقشنا حوادث وأحداثاً اضطربت فيها الروايات ، وانحرف بها التاريخ أو حملت عليه حملاً ، فحانت مزلة لبعض كبار الباحثين من جانبهم التوفيق في دراستها ، وانهينا بها إلى مكانها من الحق في سجل التاريخ على قدر ما وسعته الطاقة ، واتسع له مدى البحث .

والناظر في هذا البحث لا يجد فيه شيئاً غريباً على معارفه التاريخية إذا كان ممن أجال النظر في معارج التاريخ الإسلامي بشيء من التأمل الناقد ، والفكر الممحص .  
ومن هنا لم تسكن بنا حاجة إلى ثبت من المراجع والمصادر نكث به على الفارسي ، فهي ماثلة في غفونه وثناياه ، أو معروفة مشهورة لا تحتاج من أولى العلم إلى كبير معاناة .

وحسب الدين لم يعنوا بدراسة التاريخ الإسلامي أن يشعروا عند قراءة هذا البحث بدفع الصدق وبرد اليقين ، وأن تنبعث فيهم رغبة الدراسة والتفقه في حوادث وأحداث ذلك التاريخ ، وفهم سير رجالاته ، وتعرف العوامل الأصلية في تربيتهم تربية جعلت منهم نماذج لروح الإسلام ، وحيويته على مدى الأزمان ، وما يقليل في باب الجزاء أن نظهر بهذا الثواب مآ

المؤلف

صادق إبراهيم عرمونه





## تمهيد

من بحوث التاريخ ما يكتب لتسجيل الماضي ، يصوره حسبما اتفقت ألوانه ورسومه في إطار الزمن ، وهذا الطرز من البحث لا يقصد به إلى الحقائق التاريخية التي شهدت حتما وجه الحياة ، وإنما يقصد به في الأعم الأغلب تصوير الحياة السالفة لأمة من الأمم ، أو جماعة من الجماعات أو فرد من الأفراد الذين كان لهم بروز على أقرانهم في اتجاه من اتجاه الحياة ، أو عمل من أعمالها ، وخاصة هذا المسلك من البحث الاستقصاء في التدوين ، وتتبع الروايات المتلقاة من أفواه المتحدثين ، دون تحقيق لصحة الوقائع والأحداث والأشخاص .

ومن بحوث التاريخ ما يكتب للحاضر ، شعذراً لمهمة رائدة أو طبيعة فائرة ، أو تنبيهها لجماعة غافلة . وهذا اللون من البحث لا يقصد فيه إلى الاستقصاء في الرواية ، ولا يلزم الباحث فيه نفسه بتحقيق الحوادث التاريخية ، وإنما تلتقط صوره من الألوان البراقة التي تكون أقرب إلى تحقيق المقصود منه ، ومن ثم كان هذا اللون مصدراً خصيباً لنوع من الأدب الخيالي تصور فيه البطولات في صورة قصص تجسم فيها الحوادث لتكون أعون على التأثير ، وأبلغ في تأدية المطلوب .

ومن بحوث التاريخ ما يكتب للمستقبل كوسيلة من وسائل التربية والتوجيه للجماعات والأفراد ، وهذا النوع من البحث يعتمد :

أولاً : على تحقيق صحة الحوادث بالقدر الذي تسمح به الشئون التي احتقت بتلك الحوادث حين وقوعها ، أو الشئون التي نحيط بالكاتب حين يكتب ما يريد . ويعتمد : ثانياً : على استقصاء الوقائع لربط بعضها ببعض ، وموازنة المتشابهات منها ، وقرن المتصلات ، ووصلها بطبيعة الحوادث والأحوال التي وقعت فيها ، فالاستقصاء في هذا النوع استقصاء نظر وإطلاع ، وليس استقصاء تدوين وتسجيل . ويعتمد :

ثالثاً : على الاستنباط ، وإظهار العبرة الخافزة في صورة مشعة وضاعة ، وألوان مشرقة براقة ، لتسكون أذرع على العمل وأدعى إلى التأسي ، وهو جماع ما ينبغي الباحث من نقل صور الحوادث والأشخاص من الماضي إلى المستقبل .

وبهذا التمايز بين فنون البحث يتميز الباحثون في التاريخ ، فصاحب الرواية المتكثر من القصص والأحاديث ، الحاكي لكل ما يبلغه ، الناقل لكل ما يسمعه ، يجد سبيله معبدة في منابع التاريخ ومصادره ، الناقلة لأحداثه ، المبتدعة لأفانتيته ، المحسورة لأشخاصه .

وصاحب الفن يجد في أخيلة الماضين ، وأسلوب القصصيين مرتعا لفنه ، ومسبجاً لخياله ، ومعرضاً حافلاً لما يشاء من الصور والألوان .

وصاحب التحقيق بين العلماء - الذين لا يطعنون إلا إذا آمنوا ، ولا يؤمنون إلا إذا تيقنوا - يجد لعقله المحقق مجالاً واسعاً للتوازن بين الأحداث والروايات ، وتطبيقها على سنن الوجود ، لاستنباط العبرة من أطوائها ، حتى يالحق الآخر بالأول ، ويربط الحادث بالتقديم ، والحاضر بالماضي ، ليكون جديد الحياة من التفكير والأعمال قائماً على أساس من قديم الوقائع والأحداث ، والماضي أبداً مصدر إلهام صادق لتفكير العلماء وأعمال النابهين .

والتاريخ الإسلامي : مثل غيره من تواريخ الأمم والجماعات ، والملل ، والمذهب ، والأفكار ، والأشخاص ، ملء بما يرضى رغبات الباحثين في شتى مناحيهم ، وفيه الحقائق الواقعة حافلة بالعبء والأسى ، وفيه القصص البارة التي تدخل الخيال في نسج خيوطها ، دائرة حول الأشخاص والأحداث .

بيد أن هذا التاريخ انصب في مدوناته ومصادره الأولى خليطاً من هذا وذاك ، فلم تتميز فيه واقعة صادقة من حادثة مصنوعة ، ولم تلبين فيه معالم الشخصيات وألوانها خالصة من شوائب الإغراق في طرفي الاستزادة والتقصيص ، انقياداً لعوامل موضوعية يتأثر بها التاريخ .

فالذي يقصد إلى هذا التاريخ باحثاً في أحداثه وشخصياته قد يجد غنماً فادحاً إذا أراد تحقيقاً علمياً يصفى الحقائق ويصور الشخصيات الفارعة بألوانها الأصيلة ، ولكنه يجد عيناً ثارة إذا أراد مادة لعمل أدبي يقصد إلى الفن الذي لا يرى الصدق لازماً في تدوين وسائله ومراميه .

قد يكون جانب دراسة الشخصيات وبحوث التراجم أقل جوانب التاريخ الإسلامي حظاً من العناية في التدوين ، ولا سيما الدراسات التحليلية التي تعنى برد الحوادث إلى



مناقشتها النفسية من الشخصيات ، أو إلى بواعثها المستترة من البيئات التي لها أثر في تكوين تلك الشخصيات .

ومن هنا كانت بحوث التراجع ودراسة الشخصيات الإسلامية دراسة لا تقف عند حد الرواية من أشق البحوث ، وأحوجها إلى الأناة والرفق . وهذه البحوث أحفل ضرعاً بالعوامل التربوية التي يريد إليها الباحث لتسكون طريقاً من طرائق تبصير الناشئة في مستقبل الأمة ، لأن موضوعاتها مثل حياة من النماذج الإنسانية التي أفرغت فيها الحياة أفضل ما تملك من قوى حسية ومعنوية ؛ ولكل نموذج منها خصيصة في منحى من مناحى الوجود ، تمثل أرفع مباحث الحياة في منزعتها من العصر الذي كان مجالاً لتلك الشخصية تغدو في جوانبه وتروح .

فإذا اتفق لعصر من الأعصر أن يضم بين جنباته مجموعة من تلك النماذج العالية ، وتربطها وشائج جنسية ، أو فكرية ، أو عقيدية ، أو لغوية ، كان ذلك العصر من التاريخ في مكان البؤرة المشعة من جرم الشمس ، وعلى قدر ما في تلك النماذج من خصائص موزعة على مناحى الحياة يكون التفاوت في مقومات الأمم ، والجماعات والأفراد .

وتاريخ الإسلام من أوفر التواريخ حظاً في هذه النماذج الإنسانية ، ونماذجه من أوفر النماذج السامية حظاً في خصائص المثل العليا ، التي تتمثل فيها مجموعات من الفضائل المخصصة .

وقد ضمت أوائل صحائفه سجلاً حافلاً للشخصيات اللامعة ، والحوادث الوافة ، التي وثقت عرونها وحدة الزمن ، والجنس ، والبواعث ؛ فلما اختلفت الوشائج بين المسلمين في ظل وحدة العروان ، وصار الزمن أزمنة ، والجنس أجناساً ، والباعث بواعث ، تتابعت النماذج حاملة خصائص جديدة تختلف قليلاً أو كثيراً مع خصائص النماذج الأولى ؛ ولكنها على كل حال ظلت حيناً من الدهر عنواناً على سلامته التكويني في هذا العالم الإسلامي الذي نشر أحد جناحيه على السور الأعظم في بلاد الصين ، ومد جناحه الآخر على قمة البرنات من رأس أوربة الأشمط .

غير أن كثرة العناصر والأجناس التي انتشرت تحت لواء الإسلام في هذا المنع من الكرة الأرضية ، والتي أصبحت تاريخها جزءاً من التاريخ الإسلامي ، ولم تكن كلها من يحمل لقاح الإخصاب في صنع النماذج الإنسانية الفاضلة ؛ وليتها كانت عقبا ؛ إذن لكان أمرها أهون ، وشأنها أضعف ؛ ولكنها كانت تنتج نماذج كره الإسلام تبنيها ،

وأبى عليها أن تتخذ حاضناً لها ، وكانت معه كالمعود الذي لا يطيق دسم الغداء ، فكلمها أرضعها من تعاليمه وآدابه شخصاً تقاياًته دماً ، ورجعت إلى موروثها من العقائد والتعاليم والآداب فتخلبته ، فكانت في العد والحساب مسلمة ، وكانت في التكيف الوافعى مختلفة مضطربة .

وهكذا زاحمت هذه النماذج الشاردة عن طبيعة الإسلام ، نماذجه الفاضلة في غمرة هذا الخضم من البشرية المسلمة في حسابان « الجغرافيين » حتى فقدت خصائصها ، وعادت كشيء من أشياء الناس ، لا تحمل من المزايا التي تطلب للتأسي إلا كما يحمل السراب نيمير الماء .

ومنذ فقد التاريخ الإسلامى هذا اللون من النماذج الإنسانية أصيب في حيويته بما يشبه العقم ، فلم يشهد في فترات من الزمن مهاد العبقرية تهتز بالمثل الواحية بالتوثب إلى أمجاد الحياة .

فما عسى أن يصنع الباحث في التاريخ الإسلامى — وهو يشهد الأهم الإسلامية مضطربة السير في الحياة ، لا تجد لها منها في حاضرها نماذج حية تأخذ بها في جواد تنهى بها إلى غاية من السؤدد وقف على سفحها أسلانها الأولون — أفضل من أن يستوحى الماضى فيبرز ما فيه من صور العبقرية الراضة في النماذج البشرية الحية ، التي حفل بها مهد التاريخ الإسلامى ، فيعرضها عرضاً تحليلياً يمثل الحوادث تمثيلاً صادقاً ، بالقدر الذى تسمح به أوضاع التاريخ ورواياته وطرائق تدوينه في كتب الأقدمين .

وفى الحق إن هذا المسلك يحترف بالأسف والأمل ، وليس فى الأسف غنية من شيء ولكنه شعور يردد صدى الطبيعة المصادمة بالألم ، وفى الأمل روح للنفس يبسط لها وجه الحياة فتراه من جانبه اليانع المثمر ، وهو الذى يدفع إلى العمل . وكأنا جعلاً الله تعالى أول طلائع الجزاء على احتمال المشاق .

بهذه الصورة المهددة التي انزعجت من نفى انجذبت إلى معالجة البحث فى سير رجالات الإسلام من النماذج الحية للإنسانية الفاضلة ، الذين حفلت شخصياتهم بالخصائص السامية فكانوا ولا يزالون مثلاً عليلاً لأسوة الكاملة ، وقد حجب إلى أن أبدأ بالذين فى تاريخهم لمع من الشبه ، أو حوادث عميت حقائقها فى غضون الروايات المتضاربة ، لأحاول بقدر مستطاعى إزاحة هذه الشبه ، وتحقيق الروايات بميزان الشخصيات أنفسها ، وهى فى



طبيعتها الأولى وقدرتها الأصيلة على الصورة التي أخرجها الإسلام بآدابه وشرائعه .  
وتطويعه شخصيات رجالاته ونماذجه للتكيف العمل في تطبيق تعاليمه وتحقيق مقاصده وأهدافه .

\* \* \*

مهدت البحث فيما قصدت إليه من سيرة «عثمان بن عفان»<sup>(١)</sup> رضى الله عنه .  
وأظهرته للناس كتاباً مبيناً ، وقع من قراء البحوث الإسلامية موقعاً كريماً . فقال لى  
بعض قراء تلك البحوث من المثقفين : فى أية شخصية سيكون بحثك بعد «عثمان»  
من رجال الإسلام ؟ قلت : فى بطل الإسلام «خالد» فقال وعلى وجهه علامة غير  
معبرة : ألا ترى أن «خالد» قد كتب عنه كثير من الباحثين ؟ فما عساك تقول فيه ؟  
قلت : أجل ؛ وما من شخصية من شخصيات رجال الإسلام الذين لهم فى الحياة  
أثر مشهود إلا وقد كتب الباحثون عنها فأطنبوا أو أوجزوا ؛ ولكن هذه الشخصيات  
مثلها مثل الأرض السوداء المخصبة يزورها الغيث فتزداد على كثرة التقلب إثماراً ،  
وكما حركتها آتتك ثمراً أخصب وأشهى ، أو هى كالشمس تطلع على الناس فى إشراقها  
كل يوم ، وهم لا يزالون منها فى جديد مطلوب ، وأثر مرغوب .

على أن كثرة الكتابة فى التاريخ ، ولا سيما الكتابة فى حياة الأفراد الممتازين  
لا يلزمها أن تحيط بمقومات الشخصية إحاطة تكشف عن عوامل النبوغ كلها ، إذ منها  
عوامل خفية لا يلموها إلا الزمن فيستطيع الباحث البعدى أن يلتقطها وقد فانت الباحث  
القبلى ، ويستطيع أيضاً أن يصبها فى قالب ينتزعه من مصانع الزمن الذى كشفت عنها ،  
ولكل عصر أسلوبه فى التعبير ، ولكل مفكر طريقته فى التفكير ، ونعنى بالأسلوب  
الفكرة المدركة من الحوادث التى تفحصها الرواية التاريخية ؛ والعبرة قائمة بين أيدينا  
فيما كتب ولا يزال يكتب عن أفذاذ الشخصيات الإسلامية ؛ وحسبنا ما كتب ويكتب  
فى سيرة سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت ولا تزال سيرته منبعاً فياضاً  
لأقلام نبغاء السكاتبين فى الشرق والغرب وفى كل يوم لهم منها جديد ، ولسيرته عباقرة  
أصحابه من سيرته نفحة الإمداد الروحى الذى يكسبها الخلود .

---

(١) كتابنا «عثمان بن عفان» كتبناه قبل كتابنا خالد بن الوليد ووضعنا فيه منهجنا فى البحث  
وقد طبع مرتين وستظهر طبعته الثالثة قريباً بعد ظهور «خالد بن الوليد» إن شاء الله تعالى .

على هذا الوضع فهمت ما كتبه الكتّابون ، من القدامى والمحدثين ، وعلى هذا  
الوضع سأكتب مستفيداً من كتاباتهم محاولاً كعادتي أن أضيف إلى ما سجلوا فكرة  
مستخرجة من ثنايا الحوادث ؛ أو أدفع شبهة تشبث بها جاهل أو متجاهل ، أو أحقق  
حادثة تجاذبتها الروايات واختلفت فيها الأفاضل .

ولست أنسى هما تأثير الجو الذي يسود العصر الذي نكتب فيه هذه البحوث ،  
ولاسيما هذا الشرق الإسلامي الفوار بالحيوية الوثابة ، فالحرب حديثها يكتنف الناس  
من كل جانب ، ومن الحروب ولدت بطولة «خالد» ، وفي ظلالها نهدت عبقريته  
وعلى ذروتها تسنمت عظمته ، فلتكن هي الواحي القريب بالحديث عن بطل من أعظم  
أبطال الحروب في القديم والحديث .

# الفصل الأول خالد قبل الإسلام

مطالع الحديث عن الشخصيات — البيئة العامة وأثرها في حياة الأفراد —  
موطن خالد وبلده — قبيلة خالد — بيته وأسرته — مكانة أبيه في قريش وموقفه —  
من دعوة الإسلام — إخوة خالد ومن أسلم منهم — مكانة خالد في الجاهلية —  
موقفه من الإسلام — في غزوتي أحد والخنديق .





مطالع  
الحديث عن  
الشخصيات

أول ما يرتقب قارئ مثل هذه البحوث ، الحديث عن أولية الشخصية المحدث عنها  
والأطوار التي مرت فيها حتى عقد لها لواء العبقرية ، ونحن إذا كنا وكان السكاتبون  
الذين سبقونا في جهالة غامضة من أولية « خالك » كغيره من عظماء رجالات الإسلام  
السابقين ، فإن هذا الغموض السكثيف في حياة ذلك الجيل الذي كان مهد الحياة « خالك »  
وأمثاله ، لا تتأثر به الأسباب الحقيقية التي لها تأثير في تكوين الشخصية ، فالبيئة العامة  
طبيعية أو اجتماعية ، والبيئة الخاصة في الأسرة والأزواج ، وهما من أهم العوامل في ذلك  
التكوين ، لا يستطيع غموض الحياة الجاهلية أن يمحو معالمها في شخصية أصبح لها  
في الحياة ذكر مشهور .

البيئة العامة  
وأثرها في  
حياة الأفراد

والحديث عن البيئة العامة التي نهد « خالك » بين أحضانها يقتضى استعراض أحوال  
الأمة العربية ، وأحلافها وعاداتها في سلمها وحربها ، وأحوال منازلها من جزيرتها التي  
عاشت فيها أحقابا متطاولة ، والتي ألفت على أبنائها ظلا من طبيعتها الخاصة في جوها  
ومناظرها ، وخصبها وجدها ، ويسرها وعسرها ، وهذا أمر أشبعته بحثا كتب التاريخ  
العامة ، ومباحث الأدب المستحدثة فهو على طرف الثمام<sup>(١)</sup> من كل مثقف أراد علم  
شيء منه .

ولست أدري أي الأمرين أرجح ميزانا في نظر علماء الاجتماع ؟ هل حياة الأفراد  
أصدق تمثيلا لحياة الأمة وتصوير خصائصها العامة ، أو حياة الأمة أصدق في تمثيل حياة  
أفرادها ؟ وتوضيح هذا أنك إذا قرأت سيرة رجل من رجالات الأمة ، فهل أنت  
مستطيع أن ترسم من ألوان تلك السيرة صورة مقاربة لمقومات الأمة واستخراج  
خواصها الطبيعية والعقلية والاجتماعية ؟ وإذا قرأت تاريخ أمة فهل أنت مستطيع أن  
نضع لأفرادها خطوطا أصيلة لا تختلف في ألوانها وإن اختلفت زواياها واتجاهاتها ؟  
ومعناه بعبارة أوجز : هل الفرد صورة للأمة أو الأمة صورة لأفرادها ؟ ومنزى ذلك  
أن نتعرف هل الأفضل أن نعى بدراسة حياة الأفراد ، وبحوث الترجمات ؟ أو الأفضل  
أن نوجه عنايتنا لدراسة حياة الأمة ؟ وقد يتفرع عليه أن يتساءل منسائل : هل الأجدى  
على الإنسانية أن تعنى بتربية الأفراد ثم تتركهم ليحددوا علاقاتهم في المجتمع ؟ أو الأجدى

(١) الثمام بضم التاء المثناة : نبت معروف في البادية ، قال ابن منظور في اللسان : والعرب  
تقول للشيء لا يسر تناوله هو على طرف الثمام ، وذلك أن الثمام نبت لا يطول فيبقى تناوله .

أن تعنى برسم الروابط وتحديد العلاقات حتى لا يكون للفرد اختيار إلا أنه ذرة في جسم  
يجب أن تأخذ مكانها منه حسب مقتضيه صلاحية تلك الروابط ؛ لا حسب ما يرى الفرد بقواه  
الفكرية والجسمية ؟

ولعل دأري القرآن الكريم - وهو دستور الإسلام - واجدون فيه حديثاً  
عجيباً عن نظرية « الفرد والجماعة » لا يذهب فيه إلى جانب واحد ، ولكنه يرى  
للفرد استقلالاً إرادياً هو منشأ الجزء الشخصي ، ويرى للجماعة وجوداً خاصاً  
يندمج فيه الفرد باستقلاله فيأخذ منها ويعطيها ويحمل عنها وتعمل عنه ، فهو منها ،  
ولكنه جزء عامل لا تستغنى الجماعة عن عمله ولا تقوم بغيره .

ومهما يكن من اقتناع الناس بأثر الفرد في الجماعة ، أو أثر الجماعة في الفرد ، فإن سيرة  
الشخصيات الإسلامية التي عاصرت جاهلية العرب ، ثم نقاهها الإسلام إلى أحضانه ، أقرب  
تمثيلاً لحياة الأمة العربية ، وتصوير خصائصها العامة في نطاق تهذيبات الإسلام وأدابه ،  
وسيرة « خالد » رضى الله عنه أصدق مثل على تحقيق ذلك . .

موطن خالد

وإذا زوينا النظر إلى دائرة أضيق رأينا « خالداً » ينهد بين أكناف « مكة »  
بلد الله المحرم ، وموطن بيته المعظم ، إليها تشد رجال القبائل من أقطار الجزيرة العربية  
ليعظموا الكعبة التي بناها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل برؤفة ابنه اسماعيل عليهما السلام ،  
وقد كان للعرب في مكة إلى جانب هذا الغرض الروحي غرض مادي جارٍ ، فقد كانت  
متسوقهم ، وملقى تجارتهم الرائحة والنادية ، فهي ميناء برى للجزيرة العربية ، وربطها  
بما صارتها من الأقطار كالحبشة وفارس والشام ، بل كانت نرد إليها سلع البلاد النائية  
كالهند فتجد فيها رواجاً ، إلى ما كان يرد لها من أقاصى جنوب الجزيرة وسواحلها من  
اليمن وحضر وموت وعدن وبلاد الخليج الفارسي . وكانت مكة مجتمع القبائل العربية  
يفدون إلى أسواقها ومحافلها للخصامة والمراجعة ، وإقامة المحاكمات الأدبية والفلس في  
الخصومات الشخصية ، وكان يأمن فيها الخائف ، ويظعم الجائع ، وينصف المظلوم ،  
وترد المظالم ، ويناث الملهوف .

قبيلة خالد

وفي هذا البلد المعظم تقطن قريش سادنة البيت الحرام التي ألقت إليها العرب قاطبة  
زمام طاعتها ومنعتها احترامها فعزت وسادت ، حتى أصبحت بين العرب رمز القداسة  
وصاحبة السلطان ، تشرع للعرب ما يتواضعون عليه من الأحكام والعادات ، وتنفع نفسها



فوق هذه الأحكام والقوانين التي تسرى على الناس ولا تسرى على قريش واضعة القانون، فيرضى لها العرب ويسلمون، وتقر لها القبائل، فلا يختلف عليها أحد .

ذكر ابن الأثير في كامله أنه « لما كان من أمر أصحاب الفيل عظمت قريش عند العرب، فقالوا لهم: أهل الله وقطنه، يحامى عنهم، فاجتمعت بينها، وقالوا: نحن بنو إبراهيم « عليه السلام » وأهل الحرم وولاية البيت وقاطنو مكة، فليس لأحد من العرب مثل منزلتنا، ولا يعرف العرب لأحد مثل ما يعرف لنا، فهاموا فلمتنفق على ائتلاف أننا لنعظم شيئاً من الحل كما يعظم الحرم. فأننا إذا فعلنا ذلك استخففت العرب بنا وبمحرمنا، وقالوا: قد عظمت قريش من الحل مثل ما عظمت من الحرم. فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم، ويرى سائر العرب أن يقفوا عليها ويفيضوا منها، وقالوا: نحن أهل الحرم فلا نعظم غيره، ونحن الخمس - وأصل الحماة الشدة، إنهم تشددوا في دينهم وجعلوا لمن ولد واحدة من نسائهم من العرب سائر الحل مثل ما لهم بولادتهم، ودخل معهم في ذلك كنانة وخزاعة وعامر ولادة لهم، ثم ابتدعوا فقالوا: لا ينبغي للحمس أن يعملوا الأفضل، ولا يسلوا السمن، وهم حرم ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إلا في بيوت الأدمى كانوا حرماً، وقالوا: ولا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل في الحرم إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت طوافهم إذا قدموا إلا في ثياب الخمس، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة، فإن أنف أحد من عظمائهم أن يطوف عرياناً إذا لم يجد ثياب الخمس فطاف في ثيابه ألقاها، وكانوا يسمونها اللقي، فدانت العرب لهم بذلك فكانوا يطوفون كما شرعوا لهم »

وقال الطبري: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث عمرو بن العاص إلى جيفر<sup>(١)</sup> منصرفاً من حجة الوداع فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو بعث فأنزل حتى إذا انتهى إلى البحرين وجد المنذر بن ساوى في الموت ثم سار عمرو حتى قدم المدينة فأطافت به قريش وسألوه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبي<sup>(٢)</sup> إلى حيث انتهت إليكم؛ فتفرقوا ونحلوا حلقاً وأقبل عمر بن الخطاب يريد التسليم على عمرو فمعه جماعة وهم في شيء من الذي سمعوا من عمرو، وفي تلك الحلة عثمان وعلي وطليحة والزبير وعبد الرحمن

(١) قال في القاموس: وجيفر بن الجندى، ملك عمان؛ أسلم هو وأخوه عبد الله على يد عمرو ابن العاص لما وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما وهما على عمان .

(٢) دبي، كمل: سوق للعرب معروفة .

وسعد فلما دنا عمر منهم مكثوا فقال : ففيم أنتم ؟ فلم يجيبوه ، فقال : ما أعلمني بالذي خلوتم عليه ، فغضب طلحة وقال : تالله يا ابن الخطاب لتخبرنا بالغيب ، قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، ولكن أظن : قلتم : ما أخوفنا على قريش من العرب ، وأحلفهم أن يقرؤا بهذا الأمر ، قالوا صدقت ؟ قال : فلا تخافوا هذه المنزلة أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم والله لو تدخلون معانير قريش جحرأ لدخلته العرب في آثاركم فاتقوا الله فيهم .

وقد تألف من عظماء قريش « حلف الفضول » وهو حلف تعاهدوا فيه على الفيا ، بنصر الضعيف ، وإنصاف المظلوم والأخذ على يد الظالم ، ورد الحقوق على أربابها وإغاثة الملهوف ، ورشد العاجز . وقد حضره النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، فقال فيه بعد البعثة « شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما يسرني به حمر الهم ، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت » وهذه مكانة لم تتم لقبيلة في العرب غيرها .

وفي الذؤابة من قريش تسمنت الدوحة المخزومية التي يعزى إلى أرومها وينسب إلى أعز بيوتها وأسمى فروعها « خالد بن الوليد » - مكانها بين الأغصان القرشية ، وإذا كان التاريخ قد جعل بني هاشم ذروة قريش فهو لم يقعد بإخوانهم بني مخزوم عن مسامحتهم في صنائع الشرف وشارات الكرام ، ومن ثم فقد توثقت بين البينين وشائج المصاهرة ، وزاحمت بنو مخزوم بني هاشم في المنازلة والفضائل ، حتى جاء الله ابني هاشم بواحدة جدعت لها أنف الكبرياء من بني مخزوم فاختار الله خاتم البين هاشمياً فمضت بريقها بنو مخزوم ، فحملوا لواء مناهضة الدعوة الحمادية ، وكانوا ألد خصومها وأقوى أعدائها ، وأعند معانديها ، لاجماسة لعقيدة فاسدة أو صحيحة ، ولا لراهة لادين الجديد بعد نظر فيه وتفقه في آدابه ، ولكن ذلك كان منهم حمية جاهلية وعصبية قبلية موروثة .

بيت خالد  
وأسرته

روى أن أباجهل عمرو بن هشام بن المغيرة ابن عم خالد بن الوليد - وكان من غطارفة مخزوم - قال لني هاشم لما اصطفى الله رسوله محمداً منهم : فلما أطعمنا الطعام وأطعمتم ، وازدحمت الركب ، واستقبلنا المجد كفرسى رهان قلتم منا نبي ؟ ! « . » وقد تمثل شرف بني مخزوم في بيت خالد ، وانعقدت لهذا البيت ألوية رعائهم حتى أرخت العرب بؤوت بعضهم .

أما أسرة «خالد» فلم يفتها شرف من شرف الجاهلية إلا وقد أخذت بحظها منه. فقامه من أعرق بيوتات العرب ، وهي لبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية ، وهي أخت ميمونة أم المؤمنين ، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب وأم بنيه الصيد الأمجد . نخالد وبنو العباس أبناء خالات .

مسكنة  
أيه  
في قريش  
وموقفه  
من دعوة  
الإسلام

وأبوه الوليد بن المغيرة ، الذي احتج<sup>(١)</sup> بفناء الكعبة بعد وفاة عبد المطلب سيد قريش طلباً للرياسة بعده فلم يغير عليه أحد . وكانت تنحاز إلى قريش ، وتدعوهم ريحانتها وعدلها لأنه كان يعدل قريشاً كلها وحده في كسوة الكعبة ، فيكسوها من ماله الخاصة سنة ، وتكسوها قريش مجتمعة سنة ، وكان ينهى أن توقد نار للإطعام في منى غير ناره إلا ينزع ، وكان الوليد ممن حرم على نفسه الخمر قبل الإسلام ، وهو الذي جمع قريشاً فقال لهم : إن الناس يأنونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه فيقول هذا : ساحر . ويقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : شاعر ، ويقول : هذا مجنون وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه : ساحر : لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته<sup>(٢)</sup> .

وفي الوليد نزلت على رأى جمهرة المفسرين هذه الآيات الكريمة من القرآن الحكيم ، قال تعالى في سورة المدثر «ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلته مالا يمدوداً ، يوبنن شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياننا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وفذر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ؟ ثم نزل ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر » .

وهذه كما يرى القارىء آيات تصف عنجهيته وغطرسته واستكباره وطغيانه وعتومه وعناده ونخوره بماله وبنيه ، وتقوله على القرآن الكريم أنه سحر ماثور ، وذلك حينما استمع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يرتل بعض آية فأخذته بلاغته ، فقال فيه قولاً خلته قريش ميلاً إلى الإيمان فاضطربت جوانبها ، وقال قائلهم : صبأ والله الوليد ! لتصبأ ن قريش كلها » فأرسلوا إليه من أغراهم ذكر المفسرون وأصحاب السير واللفظ للقرطبي :

(١) أصل الاحتباء أن يضم الرجل رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ويشده عليهما ، ومنه الحديث : الاحتباء حيطان العرب ، وكان عبد المطلب وهو سيد قريش يحتج بفناء الكعبة فلهذا مات جالس الوليد بن المغيرة جلسته فلم تنسك عليه قريش .

(٢) ابن الأثير في الكامل ج ٢ ص ٢٨ .



« لما نزل (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) سمع الوليد النبي صلى الله عليه وسلم يقرأها فقال: والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن لخلوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلو عليه وما يقول هذا بشراً. فقالت قريش: صبأ الوليد لتصبون قريش كلها. وكان يقال للوليد ريش قريش؛ فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فمضى إليه حزينا، فقال له: مالي أراك حزينا. فقال له: ومالي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك. ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على ابن أبي كبشة<sup>(١)</sup> وابن أبي قحافة لتتالما فضل طعامهما؟ فغضب الوليد وتكبر وقال: أنا احتاج إلى كسر محمد وصاحبه؟ فأعرفون قدر مالي، واللات والعزى ما بي حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمد مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لا والله. قال: وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كذاب فهل جرتهم على كذباً قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كاهن؟ فهل رأيتموه تسكنهن قط؟ ولا رأينا للسكنة أسجاءاً وتخالجاء، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فها هو؟ فمك في نفسه، ثم نظر، ثم عبس فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرحمة وأهلها وولده ومواليه؟ فذلك قوله تعالى (إنه فسكر وقدر) إلى آخر الآيات من سورة المدثر.

وذكر المفسرون أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليه القرآن فكان أنه رقى له فبلغ ذلك أبا جهل فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك ما فيعطوك، فإنك أتيت محمداً لتصيب مما عنده، قال: لقد علمت قريش أني من أشرها ما لا قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له وأنت كاره له. فزادوا قولاً، فوالله ما فيكم أحد أعلم بالشعر مني، لا برجزه ولا بتصيديه، ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا؛ والله إن لفولة الذي يقول لخلوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلو: وإنه ليحطو ما تحته!

(١) قال في القاموس: وكان المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: ابن أبي كبشة ههنا بأبي كبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأصنام، أو هي كنية وهب بن عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أمه، أو كنية زوج سلمية السعدية.

قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال دعني حتى أفكر ، فلما فكر قال :  
: هو إلا سحر يؤثر ، فمجبوا بذلك » .

ويقول بعض المفسرين : إنه هو المعنى بقول الله تعالى في سورة « ن » « ولا تطع كل  
حلاف مهين ، هازم شاء بنميم ، منع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم . (١) أن كان  
ذاملاً وبنين ؛ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » وذكروا أنه أحد عظيمي القريتين  
المعنى بقوله تعالى « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .  
ومهما يكن من شأنه فإنه كان من أشد الناس عداوة للدعوة المحمدية وأقسامهم  
في مقاومتها .

إخوة خالد  
ومن أسلم  
منهم

ومشى بنوه في شوطه ، فكانوا قادة قريش وحاملي لوائها في الصد عن سبيل الله ،  
حتى أراد الله الهداية لثلاثة منهم . فكان أسبقهم إلى الإسلام « الوليد بن الوليد »  
وكانت له يد مذكورة في إسلام أخيه بطل الإسلام « خالد بن الوليد » وثالثهم « هشام  
ابن الوليد » .

وفي إخوة « خالد » رضى الله عنه « عمارة بن الوليد » كانت تراه قريش أعزفت  
فيها وأجمله وأشعره ، مشيت به إلى أبي طالب ليأخذه ويخلى بينهم وبين رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، فسمخ منهم أبو طالب ، ورد عليهم أبلغ رد ١١  
قل ابن الأثير في السكامل : « فلما علمت قريش أن أبا طالب لا يخذل رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، وأنه يجمع لعداوتهم ، مشوا بعمارة بن الوليد . فقالوا : يا أبا طالب :  
هذا عمارة بن الوليد أنهد في قريش ، وأشعره وأجمله ، نخذه فملك عقله ونصرته ،  
فأخذه ولداً ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنا ، وخالف دينك ودين آبائك  
وفرق جماعة قومك ، تقتله ، فإنما رجل برجل ، فقال أبو طالب : لبئس مانسوموني .  
أنحطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيككم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً » .

مكانة خالد في  
الجاهلية  
وموقفه من  
الإسلام

\*\*\*

في هذا الجو وهذه البيئة العامة والخاصة نهى « خالد » رضى الله عنه ،  
وفد تجاوزت خصائصها مع سبجايها ، فأخذ منها وأخذت منه ، وأعدته ليكون على

(١) من معانيه : اللثيم الفاجر .

زعامتها ، وحامل لوائها ، فكان من فتيان قريش وذوى بيوتاتها الذين يرون في الـ  
الجديدة هدماً لما أثرهم الجاهلية ، وتقويضاً لعنجهيتهم القبلية . فكان من أشدخص  
وآلد أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر ، ويضعون أمامها العراقيل ، ويصدون الـ  
عن سبيلها .

وقد وجد « خالـد » في أيـه وعمومته وإخوته وأبناء عمومته قوة تدفعه إلى هذه العـد  
البيـسة . فليس بعجيب أن يقف من الإسلام موقف المناوئـة الخاصـم ، وقد نشأ في بيئة جـا  
الدعوة الإسلامية لهدم دعائهم وتطهير الحياة من رذائلها ، وإرغام كبريائها . وكان « خـا  
قد جمع في هذه البيئة بين طرفي الشرف : شرف البيت وشرف الشخصية . فقد أسـ  
قومه في جاهليتهم أهم مناصب الحرب : القبة والأعنة . قال عز الدين بن الأثير في « أ  
الغابة » : وكان خالـد أحد أشرف قريش في الجاهلية وكان إليه القبة وأعنة الخيل  
الجاهلية ، أما القبة فكانوا يضرّبونها يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعـ  
فإنه كان يكون المقدم على خيول قريش في الحرب » وهي عبارة ابن عبد البر في الاستيعاب  
وتقلها ابن حجر بتصرف في الإصابة ، وتقريب هذا في تعرف العصر الحاضر ، وأما  
« خالـد بن الوليد » كان يجمع في الجاهلية زمن الحرب بين منصب رئيس الإمداد  
ورئيس هيئة أركان حرب الجيش لأن الخيل كانت لها المنزلة الأولى في حروب تلك  
العصر ، فقائدها هو القائد الأعلى للحرب .

في غزوتي اضطلع « خالـد » بعـب القيادة الحربية لقومه في حروبهم لجند الإسلام ، فسكان أول  
أحدوا الخندق موقف برز فيه غزوة أحد ومنه كانت نكبة المسلمين في تلك الغزوة لأن خالداً كان  
من أولئك الرجال الذين يملكون أعصابهم عند تفاقم الخطوب وزحف الأعداء ، فـ  
يطرعه شاعاً بالهزيمة النكراء التي أصابت المشركين في أول جولة من الحرب ، وانـ  
ظل قوياً جليداً يقظاً يرتقب ثغرة ينفذ منها إلى قلب الجيش الظافر

كان خالـد على ميمنة قريش وجيشها المهزوم ، فأسمعتته قوة جبرانه ونبات جأشه بأعجب  
نظرات القائد المحيط بدخائل الميدان الذي يحارب به ، وعرف كيف تفسد الحيلة  
وتنجح المكيـدة ، والحرب خدعة .

رمى « خالـد » بنظره في مؤخرة جيش المسلمين يدار إلى الرمـة الذين جعلهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم حماة لظهرهم ، وأوصاهم ألا يفارقوا مكانهم : فقال لهم : « قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ؛ فإن رأيتمونا قد انتحسنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا تقتل فلا تنصرونا . وكان هؤلاء الرماة على جبل يقال له ( عينين ) عن يسار أحد لمستقبل المدينة ، فلما رأوا هزيمة المشركين ، والمسلمون يلاحقونهم ، ويضعون السلاح فيهم حيث شاءوا ، تأول بعضهم وصاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره لهم بالثبات في مصافهم ، وانطلقوا يتبعون جنود الإسلام في ملاحقة المهزمين طمعاً في الغنيمة وثبت أميرهم في نفر قليل أطاعوه .

لم تفزع خالد الهزيمة على نكزتها ، ولم يصبه ما أصاب أقرانه من الاضطراب والبلبلة ، ولم يقف في مكانه وقفة الجريء المتهور ، ولكنه - وهو في الحرب ، وأبو عذريته الناشئ بين أحضانها - كان عبقرى الشجاعة والتدبير ؛ لم ينخه عقله العظيم في ساعة نزالت فيها عقول العطارفة ، وتزلزلت أقدامهم ، ولم يرم به اليأس في مضال الفرار لينجوا بنفسه لو أراد عيشة الجبناء الرعاعيد .

وفي الحق إن « خالد » كان في هذه الواقعة جندياً بأوسع وأعمق ما تجعل الجندية من معنى كريم ؛ والجندية الصادقة هي التي تنسى شخصيتها في مواقف الوئيل ، ولا تعرف إلا واجبتها نحو جيشها الذي يلد به عزها وشرفها . وخالد رأى جيش قومه تعركه الهزيمة عركاً ، وهو أحد فرسانه فاحتال في دورة عسكرية بارعة ورعى بنظره إلى مكان الرماة في مؤخرة جيش المسلمين ، فرأى كتيبهم قد زابت أمانتها ، ولم يبق على الجبل منها إلا نفر قليل ، فحمل عليهم بخيله حتى أبادهم ، وركب أكتاف المسلمين فأدهشهم ، وأوقع الاضطراب والحلل في صفوفهم ، فتبدل الموقف ، وأصيب المسلمون إصابة بالغة ، وورمت آناف المشركين وانتفضت أوداجهم بأوا واختاراً حتى صاح قائدهم أبو سفيان بن حرب : « يوم يوم بدر » قال ابن سعد في الطبقات : « ونظر خالد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فسكربا خيل ، وتبعه عازمة بن أبي جهل ، فحملوا على من بقي من الرماة فقتلواهم . وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير رحمه الله تعالى ، وانتفضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم » .

ولو كان لوقوع الشرك أيام في التاريخ اسمى المشركون يوم أحد بيوم « خالد ابن الوليد » ولكن الله الذي اسطفى « خالد » سيفاً من سيوفه لم يرض أن يجعل اسمه



عنوانا إلا على أشرف صفحات الإيمان في تاريخ الخالدين .

وقد عتب الله على المؤمنين ما صنعوا في آيات من القرآن الكريم كانت أبلغ أدب أدبهم به ، وانتهى بهم فيها إلى العفو الجميل ، قال تعالى « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » ثم قال « إن الذين تولوا منكم يوم النقي الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم » .

لم يكن « خالك » في هذه الواقعة من ذوى أسنان قريش ومشيعتها ، بل كان من فتيانها وشبابها ، فقدموه على أقرانه وسودوه على فرسانهم وأسندوا إليه قيادة أغلظ كتائبهم وأعظمها في أهم الوقائع بعد « أحد » وأوسعها وأكثرها عدداً ، وأجمعها للقبائل والأحزاب ، وإذا كان الله تعالى قد جعل من غزوة بدر الكبرى فتحاً مبيناً للإسلام فكانت في نظر المسلمين أهم وقائع الإسلام في نشأته الأولى ، فإن قريشاً وأحزاب الشرك وإخوان الغدر من اليهود قد أرادوا أن يجعلوا من واقعة الأحزاب المعروفة في كتب السيرة بغزوة الخندق ، أكبر معركة يستعجلون بها نهاية ما بين الحق والباطل من تجاذب واحتدام .

\*\*\*

بعدما أجلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنى النضير من ديارهم جزاء غدرهم ونكبتهم ما كان بينه وبينهم من عهود ، قام نفر من رؤسهم من أضراب سلام (١) بن أبي الحقيق ، وحي بن أخطب ، وكنانة بن الربيع ، فخرجوا الأحزاب على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وخرجوا إلى قريش يقولون لها : إنا سنكون معكم على محمد حتى نستأصله ، ثم أتوا غطفان فخرضوهم ، ومنوهم الأمانى وأخبروهم بما كان بينهم وبين قريش فخرجت قريش ، ومن تابعها من الأحياء وكنانة وأهل نهامة في عشرة آلاف يقودهم أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان يطونها ومن تابعها من أهل نجد في مثل عدد قريش يقودهم ( عيينة بن حصن الفزاري (٢) والحارث (٣) بن عوف المري ،

(١) سلام بن أبي الحقيق بوزن زبير أحد زعماء اليهود وهدراهم ، وكان يهود المسلمين في شهره فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عبدالله بن هتيك فقتله ، وأما حي بن أخطب فهو أبو صفية بنت حيي أم المؤمنين وكان أشد يهود في مداوته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقتله في غزوة بني قريظة ؛ وأما كنانة ابن الربيع فهو ابن أخى سلام بن أبي الحقيق وثلاثهم من بني النضير .

(٢) كان سيداً محققاً وهو أحد زعماء غطفان وقاد أسلماً إسلامية وكان من المؤلفة بأعضاءه إلى صلى الله عليه وآله وسلم يوم حنين مائة من الإبل .

(٣) كان الحارث يسامى عيينة في رئاسة قومه ، وكان قائدهم في غزوة الخندق .

ومسعود ابن ربيعة الأشجعي<sup>(١)</sup> فلما بلغ خبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تجهز للقاءهم ، وأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق فقسمه بين أصحابه وعمل فيه بنفسه تشجيعاً واحتساباً ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة آلاف من المسلمين ، وجعل الخندق بينه وبين أحزاب المشركين ، وكان بنو قريظة من اليهود يساكنون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بلده وكانت بينه وبينهم عهود على المواعدة وعدم الاعتداء ، وقد أصبحوا — ورسول الله في وجه قريش وأحزابها — خائف ظهر المسلمين يأمنون شرهم للمعاهدات التي عقدوها معهم ، ولكن اليهود قوم غدري لا يعرفون الصدق والوفاء ، فخرج حيي بن أخطب النضري إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة يحرضه كما حرض قريشا ، وغطفان فأغلق كعب دونه باب حصنه وقال له : ويحك يا حيي !! إنك رجل مشثوم ، إنى قد عاهدت محمداً ولست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً . ولم يزل حيي يقتل من كعب في الدرة والغارب حتى فتح له فقال ويحك يا كعب جئت بك بعز الدهر ، وبيحر طام ، جئت بك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة<sup>(٢)</sup> ؛ وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقي<sup>(٣)</sup> إلى جانب أحد قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه . فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر بجهام<sup>(٤)</sup> قد هراق ماءه يردد ويرق ليس فيه شيء ، ويحك !! فدعني ومحمداً وما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء فلم يزل حيي بكعب يمسح ضرعه ويمر به حتى استنزل له عند رأيه فدخلت قريظة مع الأحزاب ونبتت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عهده ، وعظم البلاء على المسلمين ونجم النفاق ، واشتد بالناس الخوف وزلزلوا زلزالاً شديداً حتى أنزل الله على المؤمنين نصره وخذل بين الأحزاب فالشمر<sup>(٥)</sup> كل فريق منهم راجعاً إلى مقره بعد اختلافهم واقتراق كلمتهم وردهم الله بنفيظهم لم ينالوا من المسلمين سوداء ولا يضاء .

(١) كان مسعود هذا بقود قومه أشجع وهم أربعمائة خرجوا مع قريش لحرب المسلمين في غزوة الخندق .

(٢) قال ابن سيد الناس في عيون الأثر : دومة بضم الدال وفتحها وهي دومة الجندل بينها وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة .

(٣) ذنب نقي كعالي : واد من أودية المدينة قريب من أحد .

(٤) الجهم : السحاب لا ماء فيه أو هو الذي قد هراق ماءه .

(٥) الشمر : سر جاداً مسرعاً .

وروى أبو جعفر الطبري عن محمد بن كعب القرظي : قال : قال فقي من أهل الكوفة :  
 الحذينة بن اليمان : يا أبا عبد الله رأيت رسول الله وصحبته يومه ؟ قال : نعم يا ابن أخي ، قال :  
 فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نبهده ، فقال النقي : والله لو أدركناه ما  
 تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا ، فقال حذينة : يا ابن أخي والله لقد  
 رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنديق ، وصلى هو يا من الليل ، ثم التفت  
 إلينا ، فقال : من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ يشرط له رسول الله ، أنه يرجع ،  
 أدخله الله الجنة ، فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هوياً من الليل . ثم  
 التفت إلينا فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هوياً  
 من الليل ، ثم التفت إلينا فقال : من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ يشرط  
 له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة ، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة فما قام رجل .  
 من القوم من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فلما لم يقيم أحد دعائي رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم . فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني ، فقال يا حذيفة اذهب  
 فادخل في القوم ، وانظر ما يفعلون ، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا قال : فذهبت ،  
 فدخلت في القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقدر لهم قدرا ولا نارا ولا  
 بناء ، فقام أبو سفيان بن حرب فقال : يا معشر قريش لينظر امرؤ جليسه : قال :  
 فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ قال : أنا فلان بن فلان ،  
 ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم ما أصبحتم بدار منام ، لقد هلك الكراع  
 والحف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولثينا من هذا الريح ما نرون ،  
 والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ؛ ولا يستمسك لنا بناء ، فارعوا فاني  
 مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معتول مجلس عليه ، ثم ضرب به فؤاد به على ثلاث ،  
 فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أني لأحدث  
 شيئاً حتى آتية ، ثم شئت لقتلته بسهم ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو  
 قائم يجلي في مرط<sup>(١)</sup> بعض نسائه مرط<sup>(٢)</sup> ، فلما رأني أدخلني بين رجليه ، وطرح

(١) المرط بكسر الليم : كساء من صوف أو خز .

(٢) المرطل كمعظم : برد فيه تصاوير رجل وهو مركب البعير .

على طرف المرتط ، ثم ركع وسجد فأزلقته (١) ، فلما سلم أخبرته الخبر .

\*\*\*

في هذه الأعاصير القاصفة ، والزعازع العاصفة ، وفي هذه الجحافل الجرارة ، والألوف المؤلفة من جيوش الأحزاب التي أعدتها قريش وحلفاؤها من اليهود ، وألفاف العرب بكل ما يملكون من قوة وبطش وبطولة ، مما لم تعرف مثله من قبل ... كان « خالد ابن الوليد » أحد أبطال العرب الذين عصبت بهم قريش أمر اقتحام الخندق ، فكان يتناوب العدو إليه على رأس الكتائب المهاجمة مع أبي سفيان بن حرب ، وهبيرة بن أبي وهب ، وضرار بن الخطاب الفهري ، فيغدو أبو سفيان في أصحابه يوماً ، ويغدو « خالد » في كتيبته يوماً ، ويغدو هبيرة في قومه يوماً ، ويغدو ضرار يوماً ، وفرق المشركون كتائبهم ، ونحّتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة غايظة فيها « خالد ابن الوليد » فاقتتلوا يومهم ذلك إلى هوى من الليل ، ما يقدرون أن يزولوا عن موضعهم ، ولا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ظهراً ، ولا حسراً ، ولا مغرباً ، ولا عشاء ، حتى كشف الله عنهم جنود المشركين .

وقد قص الله تعالى حديث هذه الواقعة في آيات من القرآن الكريم ، صورت شأن طوائف الناس من المؤمنين والمشركين ومن ظاهريهم من اليهود والمنافقين أربع تصوير ، فقال في سورة الأحزاب : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الذلونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذا قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ؛ ويستأذن فريق منهم النبي يقولون : إن يئوتنا سورة ؛ وما هي بسورة . إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآنها وما تلجأوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا .

(١) أزلقه : نجاه عن موضعه .



قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تتمعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو أراد بكم رحمة ؟ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ، ولا يأتون بالبأس إلا قليلا . أشحذ عليكم فإذا جاء الخوف رأيتمهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ؛ أشحذ على الخير ؛ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يدو الوالد أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبيائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا . ثم قال تعالى «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا» ، وكفى الله المؤمنين القتال ؛ وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبهم وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا .

\*\*\*

إن قريشا لم تكن فى مواقفها لجند الإسلام تزور عن مكانة «خالد» وبطولته التى كانت تعرفها له من قبل ، بل كانت أحفل به وأعرف لحقه ؛ لأن «خالد» كان يعرف مكان نفسه من البطولة فيضعها حيث شاء من أسنمة المجد ، فهى فى هذه العزوة الضخمة تضع بطلها «خالد» على رأس أغلظ كتائبها وأقواها ، وتخصه بشرف الوقوف أمام كتيبة رسول الله صلى عليه وسلم ، وهى تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقوم لشجاعته أحد من البشر ، وتعلم أنه يكون فى أمتع الكتائب وأعظمها ، فتشجى «خالد» للوقوف أمامه فيض من الثقة والتقدير لفقى عزوم انفراده ولم يكن لقائد عربى سواه ؛ وهكذا كان ذلك كله إرهابا لما ينتظر «خالد» من مجد إسلامى عريض ، يملا أرجاء التاريخ ...

## الفصل الثاني

### خالد

### في طريقته إلى الإسلام

مضى أسلم خالد ... كتاب أخيه الوليد إليه وأثره في نفسه . . رؤيا صادقة ...  
خروجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه ... لقاءه عثمان بن طلحة ،  
وعمر بن العاص خارجين الإسلام ... احتفاء النبي بخالد ، وثناءه عليه ... ألوان من  
العبر في قصة إسلام خالد .



مق أسلم  
خالد

قال أبو عمر بن عبد البر في « الاستيعاب » : واختلف في وقت إسلام خالد وهجرته ؛  
فقليل هاجر خالد بعد الحديبية ، وقيل : بل كان إسلامه بين الحديبية وخيبر ، وقيل :  
بل كان إسلامه سنة خمس بعد فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني قريظة ، وقيل :  
بل كان إسلامه سنة ثمان مع عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة ؛ ثم قال أبو عمر :  
وكان خالد على خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ؛ وكانت الحديبية في  
ذي القعدة سنة ست ، وخيبر بعدها في المحرم وصفر سنة سبع ، وكانت هجرته مع عمرو  
ابن العاص وعثمان بن طلحة ؛ فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رمتكم  
مكة بأبلاذ كبدها » .

فهذه أربعة أقوال ؛ حكى عز الدين بن الأثير في « أسد الغابة » ثلاثة منها ، وأعرض  
عن أولها ، وكأنه رآه حديثاً عن الهجرة ، لا عن الإسلام .

والهجرة إنما تعتبر بعد استقرار الإسلام في النفس واطمئنان القلب بالإيمان ؛  
وابن عبد البر جزم في آخر عبارته : بأن خالد أكان في الحديبية مسلماً ، وأميراً على خيل  
رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة التي كانت في أواخر سنة ست ، وإلى ذلك  
جنح فريق من الرواة كما حكاه أبو جعفر الطبري وصححه أبو نصر الفشيري على ما صرح  
به القرطبي في تفسير قوله تعالى ( وهو الذي كف أيديهم عنكم ) الآية . قال الطبري :  
« لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم بالهدى وانتهى إلى ذي « الخليفة » قال له عمر :  
يا رسول الله تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ؟ فبعث النبي صلى الله  
عليه وسلم إلى المدينة فلم يبيع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حملاً ، فلما دنا من مكة منعه  
أن يدخل ، فسار حتى أتى « منى » فنزل بمنى ، فأتاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد  
خرج إليك في خمسمائة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : يا خالد :  
هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل ، فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله - فيومئذ سمي  
« سيف الله » - يا رسول الله : ارم بي حيث شئت . فبعثه على خيل فلقى عكرمة في الشعب ،  
فهمزته حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثانية ، فهمزته حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد

في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، فأنزل الله تعالى فيه « وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ». إلى قوله : « عذاباً أليماً » .

هذه رواية لا نستطيع أن نقبلها كما جاءت ، لأن أبا جعفر الطبري الذي حكاه ، ذكر قبيلها عن الزهري ما يخالفها فقال . « قال الزهري : نخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بعسفان ، لقيه بشر بن سفيان السكبي . فقال له : يا رسول الله . هذه قريش قد سمعوا بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر ، وقد نزلوا بذي « طوى » يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد ابن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع النعميم » وذلك يطابق الرواية الصحيحة الآتية عن البخاري .

وذكر القرطبي نحو هذا في قصة الحديبية ولم يرد فيه . وإذا كنا لا نستطيع قبول رواية أن خالد كان في الحديبية مسلماً وأميراً على خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنما نزعهم أن وهما دخل على الرواه فيها ، فنقلوا حديثها من موضع كان فيه خالد على خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا الموضع ، ويشبه أن يكون الموضع المذكور . الحديث فتح مكة ، ففي هذا الفتح كان خالد - بإجماع الرواة - على خيل المسلمين .

ومهما يكن شأن هذه الرواية فإنها لم تعين وقت إسلام « خالد » فيجوز أن يكون في نفس سنة الحديبية ، أي سنة ست ؛ في أولها أو وسطها ، ويعتدل أن يكون في سنة خمس ، ولم أر من صرح بالأول ، أي بدخول خالد في الإسلام سنة ست . وأما الثاني ، فهو قول صريح من الأقوال الأربعة التي ذكرها ابن عبد البر ، وجزم به القسطلاني في المواهب عن ابن أبي خيثمة ، ورده ابن حجر في الإصابة فقال : « وهم من زعم أنه أسلم سنة خمس ، وهو حري بالرد ، وعدم القبول ؛ لأنه ثبت من رواية من لا يرقى إلى روايته الشك ، الإمام البخاري ، أن خالد كان في الحديبية على خيل المشركين ؛ فقد جاء في صحيحه عن المسور بن مخرمة ، ومروان بن الحكم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن خالد بن الوليد بالنعميم في خيل قريش طليعة ، نخذوا ذات اليمين » ولا يمكن أن يتفق ذلك مع القول بإسلام خالد سنة خمس إلا إذا زعم أن خالد أسلم ثم رجع ، ثم أسلم ، ولم يقل أحد مطلقاً بنحو هذا .



بقى قول خامس لم يذكره ابن عبد البر ، وهو أن خالداً أسلم سنة سبع ؛ ذهب إلى ذلك الحاكم ، وجزم به ابن حجر في « الإصابة » فقال : وشهد خالد مع كفار قريش الحروب إلى عمرة الحديبية . كما ثبت في الصحيح أنه كان على خيل قريش طليعة ، ثم أسلم في سنة سبع بعد خيبر ، وقيل قبلها .

وأرجح هذه الأقوال ميزانا قول من ذهب إلى أن إسلام خالد كان بهجرته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ثمان من الهجرة ، لأن رواية البخاري ، وهي أرفع الروايات ، بيّنة في أن خالداً كان في آخر سنة ست من الحديبية طليعة لقريش وأميراً على خيائها . ولم أر من الروايات ما ذكر خالداً في وقائع سنة سبع لا مع قريش ، ولا مع المسلمين . ويبعد جداً أن يكون خالد دخل في الإسلام معلناً سنة سبع ، ثم لا يرد له ذكر في وقائعها بجانب جنود الإسلام ، اللهم إذا فهمنا أن المقصود بإسلامه استقرار الإيمان في قلبه من غير إعلان إسلامه وهجرته للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا يبعد أن تكون معركة الإيمان بدأت بين عقل خالد وقلبه منذ الحديبية وموقفه فيها ، فكان ذلك آية من آيات الله فتح بها قلب هذا البطل العبقري إلى نور الإسلام ، فدفق إليه ، وشع في أرجائه ، وانكشف عنه حجب الجاهلية ، واستقام له الميتم ، وتبينت له الطريق ، وظهر له الحق ، وذهبت عنه نخوة العنجهية ، وتعززها بموروثها ، ولم يبق عليه سوى الإعلان والجلوس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتلقى منه راية الفتح ولقب البطولة .

وقد يكون من الخير أن يترك الحديث لخالد نفسه ، يحدثنا ونحن نصغي إليه ، ويحك لنا كيف دخل حب الإسلام إلى قلبه ؟ وكيف أسلم ؟ وكيف استقبلته النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟

روى ابن سعد في الطبقات عن الحارث بن هشام قال : سمعت خالد بن الوليد يقول لما أراد الله بي من الخير ما أراد ، قذف في قلبي حب الإسلام ، وحضرتني رشدي ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فليس موطن أشهد إلا وأنسرف وإني أرى في نفسي أني موضع في غير شيء ، وأن شهداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية خرجت في خيل قريش ، فلقيت ( م . ٤ خالد بن الوليد )

رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه بعسفان ، فقامت بإزائه ، وتعرضت له ،  
فصلى بأصحابه الظهر إماماً : فهممنا أن نغير عليه فلم يعزم لنا ، وكان فيه خيرة ، فأطلع  
على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني  
موقعاً ، وقلت : الرجل ممنوع ، واقتربنا ، وعدل عن سنن خيانا ، وأخذ ذات اليمين  
فلما صالح قريشاً بالحديبية ، ودافعتة قريش بالراح قلت في نفسي : أي شيء بقي ١١ ؟  
أين المذهب ؟

ألى النجاشي ؟ فقد اتبع محمداً ، وأصحابه آمنون عنده .

أفأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية !

أفأقيم في عجم ؟

أو أقيم في داري فيمن بقي ١١ ؟

وبينا أنا على ذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة الفضية ، وتبعت  
فلم أشهد دخوله ، وكان أخى الوليد قد دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم في تلك العمرة  
فطلبني فلم يجدني فكتب إلى كتابا ، فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإني لم أر أحج من ذهاب رأيك عن الإسلام  
وعقلك عقلك ١١ ومثل الإسلام يجهله أحد ؟ وقد سألت رسول الله صلى الله عليه  
وسلم . فقال : أين خالد ؟

كتاب أخيه  
الوليد إليه  
وأثره في  
نفسه

فقلت : يأتي الله به .

فقال : ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على  
المشركين لكان خيراً له : ولقد مناه على غيره ؟ فاستدرك يا أخى ما فاتك ، فقد فاتك  
مواطن صالحة .

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج ، وزادني رغبة في الإسلام وسررتي بمقالة رسول  
الله صلى الله عليه وسلم :

ورأيت في النوم كأنني في بلاد ضيقة جديدة فخرجت إلى بلد أخضر واسع ، فقلت : إن

رؤيا صادقة

١ . هذه الرؤيا حق ، فلما قدمت المدينة ، قلت : لأذكرنها إلى أبي بكر ، فذكرتها فقال :  
 للـ هو مخرجك الذي هداك الإسلام ، والضيق الذي كنت فيه : الشرك .  
 بنـ فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من أصحابي إلى محمد؟  
 بنـ فلقيت صفوان بن أمية ، فقلت : أما ترى يا أبا وهب ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن  
 ١ . أكاة رأس ، وقد ظهر محمد [صلى الله عليه وسلم] على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه  
 فاتبعناه ؟ فإن شرف محمد شرف لنا . فأبى على أشد الإباء ، وقال : لو لم يبق غيري من قريش  
 ما تبعته أبداً ، فافترقنا ، فقلت . هذا رجل مواتور ، يطلب وتراً ، قتل أبوه وأخوه  
 بيدر ؟

فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال لي مثل ما قال  
 صفوان ، فقلت له فاطو ما ذكرت لك ، قال : لا أذكره .  
 وخرجت إلى منزلي ، فأمرت براحاتي تخرج إلى أن ألقى عثمان بن طلحة بن  
 بن طلحة ، فقلت : إن هذا لي لصديق ، فلو ذكرت له ما أريد ؟  
 بنـ نعم تذكرت من قتل من آبائه ، فسكروها أن أذكره ؟ ثم قلت : وما على وأنا راحل  
 بنـ من ساعتي ؟ فذكرت له ما صار الأمر إليه وقلت إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر ، لوصب  
 العاص عليه ذنوب من ماء خرج !  
 بنـ وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه ، فأسرع الإجابة ، وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد  
 أن أغدو ، وهذه راحاتي بـ « فجع » مناخة ، واتعدت أنا وهو « يأجج <sup>(١)</sup> » إن سبقني  
 أقام ، وإن سبقته أقت عايه ، وخرجنا جميعاً ، فأدبلنا سحراً ، فلما كنا بـ « الهدم »  
 إذا عمرو بن العاص ، فقال : مرحباً بالقوم ، قلنا : وبك .

قال . أين مسيركم ؟

فأخبرناه وأخبرنا أنه يريد النبي صلى الله عليه وسلم ليسلم ، فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة  
 على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول يوم من صفر سنة ثمان ، فأنحنا بظاهر الحرة  
 ركائبنا ، وأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » .  
 وفي رواية أخرى فقال : أين سيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟

(١) مكان على ثمانية أميال من مكة في طريق المدينة كان قرية عامرة في غابر الزمن ، وبه الآن  
 هلم التميم ومسجد عائشة حيث اعتبرت أم المؤمنين عائشة وكان معها أخوها عبد الرحمن بن أمية  
 صلى الله عليه وسلم .

قال : فما الذى أخرجكم ؟

قلنا : الدخول فى الإسلام واتباع محمد ، قال : وذلك الذى أقدمنى فاستطعننا حوا  
قدمنا المدينة ، ثم لبست من صالح ثيابى ، وعممست إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، فلتينى أخى ، فقال : أسرع . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
أخبر بقدمك فسر به ، وهو ينتظر ، فأسرعت المشى ، فلما طلعت على رسول الله صلى  
الله عليه وسلم سلمت عليه بالنبوة . فرد على السلام بوجه طلق ، فأسلمت وشهدت شهادة  
الحق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحمد لله الذى هدانا لهذا قد كُنْتُمْ لَكَ عَقَا  
رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير » .

احتفاء النبى  
صلى الله عليه  
وسلم به  
وأنشأه عليه

وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقلت : استغفر لى كل ما أوضعت فيه من  
صد عن سبيل الله ، فقال : إن الإسلام يحب ما كان قبله . قلت : يا رسول الله على ذلك  
فقال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك . ثم تقدم عمر  
ابن العاص ، وعثمان بن طلحة فأسلموا وبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما كان  
رسول الله صلى الله عليه وسلم من يوم أسلمت يعدل بى أحداً فيها محزبه .

هذه الرواية فى إسلام خالد رضى الله عنه وردت فى مصدر من أهم مصادر السير  
وتاريخ الصحابة وأقدمها ، وهى من حديث « خالد » نفسه عن نفسه ، وفيها تبيين وقت  
دخوله فى الإسلام بالسنة والشهر ، وفيها بيان الدواعى التى حركت وجدان البطل حتى  
دلف إلى ساحة الإسلام بإيمان يجمع بين رضا العقل ، وراحة الضمير ، وبها الرواية  
قطعت جبهة قول كل خطيب ، وإليها ينتهى المسير فى تحديد وقت إسلام « خالد »  
 وهجرته .

\*\*\*

فى قصة إسلام « خالد » وحديث هجرته ألوان من النظر والاعتبار ، وضروب  
من المناقب والآثر ، وأفانين من مجالات العبقرية المحسة بذاتها ، الشاعرة بقيمتها فى  
الحياة ، وفيها لفتات من الرعاية النبوية السكرية أبانت عن حساس فى حياة خالد  
موصولة البداية بالنهاية .

ألوان من  
المبر فى  
قصة إسلامه

وأول ما يطالع الباحث من ذلك : الشعور النفسى الذى اضطربت به نفس البطل العظيم فى مرحلة الانتقال من دين الآباء والأجداد ، وعقيدة الأوثان والأنداد إلى دين بنام الإسلام وعقيدة التوحيد ، وهى مرحلة من أشد مراحل الحياة على النفوس القوية ، صلى لأنها مرحلة يتسلط فيها الشك المريب على نفس الإنسان فيذيبها على ما فيها من عقيدة به و إيمان موروثة ، ثم يخرجها خالية من الصور والأحاسيس ، حتى إذا أتاها اليقين الله بشواهد الحق تمثلت فى مرآتها آيات الإيمان باهرة قاهرة .

نشاهد كذلك بدأ إيمان بطل الإسلام « خالد بن الوليد » رضى الله عنه ، فهو قد شك فى هذا الشك ، شك فيما هو عليه من دين وعقيدة ، وشك فى مواقفه التى وقفها دفاعاً عن ذلك الدين الذى لا يعرف ما هو سوى أنه دين الوليد ، ودين قريش ، ودين العرب ، ثم انتقل من الشك إلى أولى درجات الإيمان ، فعرف أنه كان فى مواقفه كلها التى وقفها معانداً للإسلام ، موضعاً فى غير شيء ، لأنه يمشى إلى غير هدف ، فماذا إذا؟

هذا قلبه قد خلا من الماضى ، ماضى الوليد ، وماضى قريش ، وماضى العرب ، فى ما كان الدين والعقيدة ، ولكنه لا يستطيع أن يخليه من عقيدة ينطوى عليها ، وأى عقيدة تلك التى يرتضيها لتعمر قلبه ؟ وهنا يبدأ طور جديد من الشك ، ولكنه شك لعله أهدأ من الشك الأول ، لأن ذاك اقتلاع لجذور متأصلة ، وهذا اختيار لعقيدة جديدة ، تملأ فراغ قلبه .

يصور لنا خالد رضى الله عنه هذا الطور من حياته بأروع ما يمكن أن تصور به حياة نفس حائرة ، تتنازعها عوامل متجاذبة ، لا تشبه ماضى قبلها ، ولا ما هو آت بعدها ، وكأنها برزخ يفصل بين فناء لا أظلال لأشباحه ، وخلود لا انتهاء لمقوماته فيقول :

« فلما صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا بالحديبية قلت فى نفسى : أى شيء بقى ؟ أين أذهب ؟ أ إلى النجاشى ؟ فقد اتبع شعثاً ، وأصحابه آمنون عنده ؟ أ فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دىنى إلى نصرانية أو يهودية ؟ أ فأقيم فى عجم ؟ أم أفيم فى دارى فيمن بقى ؟ فبينما أنا فى ذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فى عمرة القضية فتغيبت ولم أشهد دخوله . »

كانت هذه الحيرة النفسية تمحيصاً لعقل خالد وقلبه ، وإعداداً له ليستقبل حياته



الجديدة ، وليواجه الحياة بوجه جديد ، يعرف به بين أبطال العبقرية الإسلامية الخالدة

لو أن باحثاً كان يدرس حياة أحد فلاسفة الإلهيات ، ثم وقف من هذه الحياة في مرحلة كهذه المرحلة الشاكة الممحصنة التي رأيناها في حياة « خالد بن الوليد » أذانه من عقله وروحه موروث العقائد ، لرأينا من متفلسفة الباحثين من بعدهم هذا اللون من الشك أعلى درجات اليقين في مراتب الإيمان ، ولرأينا منهم من بعدهم أعمق طرائق الفلسفة للوصول إلى ذروة الإيمان ، ولرأينا منهم من بعدهم أعظم عمل من أعمال العظماء المحررين من أغلال التعقيدات الجوفاء .

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في قصة إسلام خالد ذلك الكتاب الذي كتبه إلى « خالد » أخوه الوليد بن الوليد ، وكان قد دخل في الإسلام ، وطاب خالد آ في مكانه مع المؤمنين فلم يجده ، وفيه يقول : « فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيتك عن الإسلام وعقلك عقلك » .

وهي عبارة تصور شخصية « خالد » ومكانته وامتيازاته بعقل قارس ورأي ناضج .

ومن هذا الكتاب يظهر احتفاء النبي صلى الله عليه وسلم بخالد ، وتقديره لمسيرته وعرفانه لحق بطولته ، فهو يسأل عنه ، ويعجب لإعراضه عن الإسلام ، ويرى أن لو كان خالد جعل نكايته وحده مع المسلمين لسكان خير آله ، وهو يقدمه على يد من أبطال المسلمين ، وفي ذلك من التقريظ والثناء ما ليس بعده غاية لأحد ، وفيه شهادة عظيمة على ما كان يحتله « خالد » من مكانة سامية ، وما كان ينتظره الإسلام منه في بطولته المستقبلية .

وقد حقق الله ذاك في مستقبل حياة « خالد » التي انما ينافح عن الإسلام ، فكان فيها القائد المظفر والبطل العبقرى ، ولم يشهد النبي صلى الله عليه وسلم في حياته الكريمة من بطولة « خالد » مثل ما شهدت معجزته فيه وتناؤه بعقربته ، فإذن ذلك آية الآيات على ما خص الله به نبيه صلى الله عليه وسلم من بصر بمخالفات الرجال وورعهم بميزان الخصائص التي تكون فيهم كالعنوان على الكتاب ، ولكن لا يقرؤها إلا من أوى نظراً نقاداً إلى ما وراء حجب الغيب . وفي سيرة أصحابه ومنافيتهم وأسمائهم غيب في ذلك وتصديقه .

والأمر الثالث في هذه القصة: أن إسلام خالد رضي الله عنه كان عن فكر مقتنع ورأى مدبر ، وكرامة موفرة، فهو إذ يلقي داهية العرب عمرو بن العاص في طريق الهداية - وقد بدره عمرو بهذا السؤال ليكشف به خبيثة نفسه، وهو أعلم به وبمقامه في قريش - «يا أبا سليمان أين تريد ؟» ولو كان غير خالد ماسأله عمرو ولا التفت إليه ويحجيه «خالد» جواب الرجل المثبت الذي جعل عقله قائده ، فلم يتأثر أحداً ، ولم يخش أحداً ، ولكنه آمن لأن دلائل الحق أنارت جوانب نفسه، وفتحت قلبه، وأيقظت ضميره ، فقال : « والله لقد استقام الميسم وإن محمداً لنبي ، اذهب فأسلم ، فحقى متى ؟ » ويفصح عن ذلك أكمل إفصاح مقالة عكرمة ابن أبي جهل مع خالد ليصده عن الإسلام ، قال عكرمة بعد أن أطلعه خالد على ذات نفسه رجاء صحبته : « قد صبوت يا خالد » فقال خالد : « لم أصب ولكني أسلمت » قال عكرمة : « والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت » قال خالد : ولم . قال عكرمة : « لأن محمداً وضع شرف أبيك ، وقتل عمك وابن عمك ببدر ، فوالله ما كنت لأسلم ، ولا أتكلم بكلامك يا خالد ، أما رأيت قريشاً يريدون قتاله . » قال خالد : « هذا أمر الجاهلية وحميتها : ولكني والله أسلمت حين تبين لي الحق . »

هذا لون من التفكير لا يجوز الباحث في سير الرجال وتاريخ الأبطال في غير تأمل ، بل هو يدعو إلى التأمل ، وإطالة النظر فيما انطوى عليه من انجاهات تحدد قيم الرجال في موازين الحياة .

فهذا عمرو بن العاص داهية العرب ، وأحد الأبطال الناجحين في تاريخ الإسلام، له من خصائص «خالد» ما يجمعها في قرن العبقريّة ، ولكنها عبقرية ذات ألوان وفنون ، لا يستوى في كلها حفظ الرجلين ، فالدارج يعنون كتاب عمرو بالدهاء، ويطلو في صفحاته ماله بعد ذلك من منافع ومميزات ، ولكنه لا يعنون كتاب ( خالد ) إلا باسم خالد ، فسأله يرى أن عبقرية خالد إنما هي في خالد كاه ، لا في خبيثة من خصائصه ، لأننا لا نعرف في خصائص ( خالد ) خبيثة تنفرد بطرة الكتاب في مكان العنوان ، ثم يأتي غيرها بعد ذلك في الصفحات .

يبقى «خالد» عمراً في عرجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما قد أجمع في نفسه

على الإسلام ، وكلاهما يقدر صاحبه قدره ، ويزنه بميزانه ، فهل قرأ أحدهما منسجداً على صفحة قلب الآخر ، فاتتيا إلى غاية واحدة لم يسالكما إلا محبة اليقين في باع وإشراق التوفيق ؟ !

وهذا عكرمة بن أبي جهل أحد الأبطال وقواد الجيوش في الجاهلية والامة من عبقرية ابن عمه «خالد» هذه الحماسة في البطولة المبتكرة ، ياتاه «خالد» - سليل بيته وفرع أسرته - في حديثه «خالد» عن وقوع الإسلام في قلبه ، فيرد عليه رد رجل يعيش مع الجاهلية في حمايتها ، يعزز بمعازها ، ويتأخر من مظاهرها ، و «خالد» نازح من لم يرتفع عن - شيفش التناقص الفيل والعنصرية الدامية ، وراح ليرده عن قصده بأسلوب كان يجتاز به خلافاً لآله أو ظلت شمس في أفق الواو جهل تدور .

ولكن الله تعالى قد خلق من خالد بن الوليد وابن عم أبي جهل ، خلافاً للمسلمين وسيف الإسلام ، فما شرف آية النبي ونعمه محمد «صلى الله عليه وسلم» وما عمه وابن عمه اللذان قتلا يدر ؟

هذا كله أصبح في نذر خالد سيف الإسلام «أمر الجاهلية وسميتها» وهو جعله في مواطن قديمه ، وألم إسلاماً دكاه إليه خالد ، واستجاب إلى ما عظمته تبين له الحق .

والأمر الرابع في حديث إسلام «خالد» استجاب النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة الحبشي ، هانئ قال - بنو راحمة - من ملة بأفلاذ كبدها « وهذا أول وسام من أوسمة الشرف والسؤدة ، تلبس «خالد» الإسلام ، وشارك فيه وفق سهم ، وفق عبد الدار ، رضى الله عنهم ، وهي ثقة من نه السكام النبوي ، تأخذ بنسبى من مخزوم خالد رضى الله عنه إلى ما يستلزمه من «ونيل في ظلال الإسلام ، وهي إذا صورت خلافاً وصاحبيه في السوءاء من وباهة وعزتها ومجدها ، فإنما تعنى وصل هذا الجيد بمجد المود في تاريخ الإسلام - طهر حمانف البطولة النافرة تحت سمع الدنيا وبسرها .

والأمر الخامس في حديث إسلام «خالد» تلك الرعاية التي اختص بها النبي صلى الله عليه وسلم «خالداً» وذلك السرور الذي أشرق به وجهه الكريم فرحاً بإسلامه، وتقريبه وإظهار فضيلته في عقله وشجاعته . قال خالد : «فابست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتمبني أخى ، فقال : أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر بك فسر بقدومك ، وهو ينتظركم ، فأسرعنا المشى ، فاطلعت عليه فما زال يتسهم إلى حقى وقفته عليه ، فسأمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق » . وهنا يقف «خالد» رضى الله عنه ليسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يملأ عليه السطر الأول من كتاب البطولة وسفر العبقريّة الخالدية في مشهد من المهاجرين والأنصار، مصوراً في تلك السخامة الباردة التي فالها لحالد بعد أن شهد شهادة الحق : «الحمد لله الذي هدانا لهذا» .

وقد تسنم خالد بهذا الناج العبقري الذي توجه به النبي صلى الله عليه وسلم ذروة الحياة الجديدة ، وهو لما نزل في أولى درجاتها ، وما كان الإسلام وهو دين الهدى والنور وشريعة العزة والسرامة لهار خصائص الأفراد التي كانت لهم قبل إشرافه في أرجاء نفوسهم ، مادامت تلك الخصائص مما يسمو بالإنسانية ويعزها .

وخصيصة العتل التي أشاد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بطل الإسلام «خالد» ردى الله عنه من الكلمات التي لا تحدها الأمكنة ولا تخضع لقيود الأزمنة .

فهو من خرج إذا أن يعرف «خالد» لنفسه قيمتها ، ويضعها من الشرف والسيادة موضعها ، ثم يفتح عن ذلك تحدّثاً بعمّة الله تعالى عليه ؟

قال «خالد» وهو يابى الستار على أول فصول روايته «والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدل بي أحداً من أصحابه فيما يحزبه»

والرسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق الناس فراسة وأدقهم نظراً ، وأنفذهم بصيرة وأصوبهم حجة ، وأبأنهم حكمة ، وأهداهم سبيلاً ، وأعدلهم ميزاناً .

وفي قول «خالد» فابست من صالح ثيابي ، ثم عمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألتج . «لفتة لطيفة تطاعها على تنجديد من أخلاق «خالد» في مظهره، فابسه من صالح ثيابه لياقى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في زى جميل ، وهيئة منتفاه تعطينا صورة من نزوعه إلى الجمال وحب النجمل في المخافل ، ولقاء من لم يكن قد رفع يده

ويبينهم حجاب الاحتشام ، وهذا لون من حياة السكينة أو المتكاملين في طبقات الحيا  
من الناس ، وهو ليس عارية ولا تصنعاً في حياة خالد ، ولكنه خلق وطبيعة يتفق  
نشأته وتربيته ومظاهر الحياة في أسرته وبيته .

لعظامم الأمور أراد الإسلام « خالداً » ولها زكى رسول الله صلى الله عليه و  
« خالداً » وأثنى عليه .

ومثل خالد إنما يراد للشدائد يكشفها ، ولا بطولة يمثلها . قال ابن عبد البر  
الاستيعاب ، وابن الأثير في الأسد : ولم يزل خالد من حين أسلم يوليه رسول الله صلى  
عليه وسلم أعنة الحيل ، فيسكون في مقدمتها في محاربة العرب .

وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم « سيف الله » :

روى الترمذى عن أبي هريرة قال نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من  
جعل الناس يسمون ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا ؟ فأقول : فلا  
حتى مر خالد بن الوليد ، فقال : من هذا ؟ قلت : خالد بن الوليد ، فقال : « نعم عبد الله  
هذا ، سيف من سيوف الله » .

وفي الاستيعاب عن عبد الله بن أبي أو في قال : اشتكى عبد الرحمن بن عوف  
خالد بن الوليد للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال « يا خالد لم تؤذى رجلاً من أهل بدر  
لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله » قال يا رسول الله إنهم يفتنونني ، فأرسل إليهم  
فقال النبي صلى الله عليه وسلم ( لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله : صبه الله  
على الكفار ) .

وروى عن ابن عباس أنه قال : وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر كلام  
فقال عمار : لقد هممت ألا أكلمك أبداً ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم : فقال :  
« يا خالد مالك وعمار رجل من أهل الجنة ، قد شهد بدرآ ؟ » وقال عمار : إن خالداً  
يا عمار سيف من سيوف الله سله على الكفار ) قال خالد : فمأزات أحب عماراً من يومئذ .

وفي الإصابة : لما عقد أبو بكر لخالد على قتال أهل الردة قال : إني سمعت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يقول : ( نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف  
الله سله على الكفار ) . وروى الإمام أحمد أن عمر استعمل أبا عبيدة على الشام وعزل



خالد بن الوليد ، يقال خالد : بعث عليكم أمين هذه الأمة . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله :

فقال أبو عبيدة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خالد سيف من سيوف الله ، نعم نقي العشرة .

وفي هذه الأحاديث من نفحات النبوة ما يؤكد الذي أُلغنا إليه من صادق النظرات النبوية في الشخصيات التي اتصلت بالنبي صلى الله عليه وسلم انصال تربية وتهذيب ، فلكل شخصية منهم فضلها ومكانها ؛ وخالد بن الوليد من ذلك خصيصة التي عقدت بناصيته لواء العبقريّة وبطولة الإسلام . وهو في كل حالة ومع كل شخص « سيف من سيوف الله » وقد كان خالد رضى الله عنه في خلائقه الإيمانية متساوقا مع سائر خلائقه الفطرية ، فهو ضرب من العبقريّة الشاملة التي تستطيع أن تضع عنوان باطنها على ظاهرها ، وعنوان ظاهرها على باطنها .

وإذا كانت مساريف الحياة أملت على التاريخ سيرة خالد بن الوليد تحت عنوان « البطولة » ، فذلك لأن خالد أَرْضَى الله عنه كان في هذا الجانب من العبقريّة نسيج وحده فاستجاب التاريخ في تدوين سيرته إلى ما ألقى إليه من وحي الخصائص في حياة الرجال .

وهو وراء ذلك مع الصفوة المختارة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سائر الخصائص التي نعرفت فيهم طوائف وأفراداً ... وإن تعجب فعجب أن ترى عبقريّة خالد تنفذ إلى لون من الخصائص ، أبعد ما يكون — في الظاهر — عن خصيصة البطولة التي عنوان بها التاريخ سيرة خالد بن الوليد بين رجالات الإسلام . ذلك هو خصيصة الإيمان التام الذي يبلغ في بعض وثباته حد الإعجاز ، ومجاوزه قوانين الطبيعة في مشاهد الحس المحدود .

وهذا الإيمان — عند التحقيق — هو منشأ العبقريّة في جانب البطولة عند الأبطال . وإنما موضع العجب فيه موضعه من سيرة خالد ، وسياقة التاريخ له في أسلوب ينأى به عن مطارح البطولة وهزوماتها ، ويتف به عند حدود الخوارق والكرامات ، وهو بهذا العنوان يقع هنا وهناك ، فلا تقبله خصائص خالد رضى الله عنه إلا على ضرب من التأويل يردّه إلى عنوانه الأصيل .

وتأويل ما يروى من هذا النحو في سيرة خالد أنه ضرب من سيطرة القوى الروحية في الأبطال على نرائزهم وليانهم المادى وصورهم الجثمانية فتتفعل أمامها انفعال

المادة إذا أضيف عليها من ينج يندبها ، على أن أعمال البطولة لا يسوغ أن يبرهن ما بالها  
العرف والعادة فهي في أكثر أمورها فوق هذه القوانين ، فالحكمة جعلت المادة  
وقوانين خاصة تحكمها في شئونها الخاص وحدودها المطلقة .

وعلى هذا النحو نفهم ما جاء في بعض الآثار المشهورة من زيارات الحجاج إلى مكة  
مظهرا لهذا الإيمان الشاهر عند بطل الإسلام خالفه بن الوليد ، فالتفت إليه بن الوليد - جبر  
الإصابة قال : لما قدم مالك بن الوليد الحيرة أتى بسهم معه فمعه في راسه سهم من حديد  
فلم يضره ، وقال أيضاً : وروى ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن رجل من بني النضير  
ابن الوليد رجل معه زق خمر ، فقال اللهم اجعله مسالا فصار مسالا ، وفي رواية  
هذا الوجه : مر رجل بخالك ومعه زق خمر ، فقال ما هذا ؟

قال : خل ، قال : جعله الله خلا ، فظنوا فاجأهم ، قال : ومن أين هو ؟  
وروى الطبري قصة السم بشي ، من التفسير فقال : إن السم الذي في السمكة

(١) قد تكون بعض العقول وقفة في معاني هذه الأحاديث ومبراهينها ، وهي وقفة لا تأتي  
من النظر العلمي أكثر من الخنوع للألوف المتكررة فيما سمعه الآباء من الطائفة ، ونحن  
نعرف ما هذه الطبيعة في حقيقة لها : وما هذه القوانين السمعية التي تخضع لها العقول ؟ إذا  
كما نفهم من الطبيعة وقوانينها سنن الله تعالى في الوجود ، قلنا : نعم ، ولكن من الذي أودع  
أن سنن الله بحري دائما على وفق مشهودهم وما ألقم في الهام لأن الله الذي خلق البشر وهو مطروء  
هو القادر على أن يجرها في أي اتجاه شاء لإشياء ومن شاء فالحقيقة أنه ليس إلا الله من لم يؤمن  
بهذا فليس للإسلام به كبير حاجة .

ولم نشأ أن نذهب في تحليل نصوصنا الفكرية بما ذهب إليه علماء الفلاسفة من سيطرة العقل  
الباطنة في الإنسان على قواه الظاهرة ، وأنير الإيهام بما يجعل الإحساس خاصا لما هو أدنى منه ، بل  
تقريباً العقول الذين أخذوا تفكيرهم لتقايدهم سموه ، ولما لم نشأ أن نذهب في تحليل مثل هذه الحوادث  
بما يذهب إليه الروحانيون في جميع الملل من تأثير الأرواح ، إلا بما رأينا من حقائقها ومبراهينها  
أمر لم يؤمن بها جمهور أهل العلم والمثقفين .

ولم نشأ أن نضرب الأمثال ونسوق المبراهين بما وقع على أيدي العلماء والباحثين في العلوم ، بل  
يفطن في بدء النظر أنه خرق لما يزعمون أنه قانون الطبيعة ، لم نشأ أن نذهب إلى هذا أو ذاك ، بل  
نذهب مذهب جمهور المسلمين في اعتقاد أن الله يؤيد المصلحين من الناس بما يتخضع لهم الطبيعة  
في بعض أحداثها . وقد اتفق أهل الأديان قاطبة على وقوع ذلك الأبداء في دولهم من سائر الأمم  
والأمم فيهم عندنا بحجة التل وثقة الرواية كيفما كانت طبيعة الحادث وسوره .

الحيرة . نظر إلى ابن ببيعة وكان معه منصف له متعلق كيساً في حقوه ، فتناول خالد الكيس وثرما فيه في راحته فقال : ماهذا ، قال : هذا وأمانة الله سم ساعة . قال : ولم تحتقب السم ؟ قال : خشيت أن تكونوا على غير مارأيت ؛ فقد أتيت على أجلي ، والموت أحب إلى من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي . فقال خالد : إنها لن تموت نفس حتى تأتني على أجلها ، وقال : بسم الله خير الأسماء ، رب الأرض ورب السماء ، الذي ليس يضر مع اسمه داء ، الرحمن الرحيم .

فأهروا إليه لينعوه منه ، فبادرهم فابتلعه ؛ فقال ابن ببيعة : والله يا معشر العرب لتلكن ما أردتم مادام منكم أحد أيها القرن ، ثم أقبل على أهل الحيرة وقال : لم أركليوم . أمراً أوضح إقبالا . .

إلى هنا نتقف بالحديث عن أوائل خالد وإسلامه ، ونفتح كتاب عبقريته العامرة ، ونملى من صفحات بطولته الباهرة أسطرا ليقرأ المسلمون فيها آيات البراعة في سياسة الحروب وقيادة الجيوش قيادة مظهره ، ليستخلصوا منها الأسوة النافعة والعظة البالغة .



## الفصل الثالث

خالد  
في الإسلام على عهد النبي صلى الله عليه وسلم

مجال العبقرية - العرب والعبقرية - مكانة خالد في الإسلام - روح  
الإسلام وطبيعة خالد - أول وقائع خالد في الإسلام - إمارة خالد في غزوة مؤتة -  
القائد المفكر - اختلاف الروايات في هذه الغزوة - رأى في الموضوع - إمارة خالد  
في فتح مكة - خالد يحطم « العزى » .





مجال  
العقريات

لم تكن جزيرة العرب بقبائلها المنثرة هنا وهناك ، وحياتها الاجتماعية الضيقة المحدودة ، لتتسع آفاقها لغايات العقريات الحسية المستنزة ، وجولات البطولة الفاهرة الماهرة ، ومراعى النبوغ الفوى الباهر ، وحاجات الطبائع الفقية الثائرة. وإنما العقريات فى الأمم كالشمس فى الحياة ، ترسل أشعتها فى الآفاق فيصيب ضوءها كل موجود أدركه ، وحظه منه على قدر استعدادده وتعرضه له بغير حجاب ؛ فإذا أقيمت دونه الحواجز الكثيفة انخس معلنا عن وجوده فى صور مشعة تبدد أستار الظلام. ولكل أمة حظ من هذه العقريات ، يستثيرها الزمن إذا تكامل الأمة رشدها وتهيأت للعقريّة أسبابها .

العرب  
والعقريّة

وقد كان حظ الأمة العربية من هذه العقريات حظا وفيرا ، بيد أن ذلك ظل كما نلاحظ استثاره الإسلام بما أراح من -عجب- ، ومرق من أسدال ، فانبعثت شمس العقريّة العربية تشرق فى آفاق الوجود ، ثم قو غريبا بعد أن نالت حبيسة بين أودية الجزيرة ووهادها ، لا تلمس لها الحياة وجودا ، ولا يعلم الناس عنها شيئا غير لمحات خافتة تألق حينما وتخبو أحيانا .. وإذا بهذه الأمة البدوية تخرج من صحرائها معدة تعمل إلى الناس دينامهذبا ، وتشريعا عادلا ، وسياسة حكيمة ، وأدبا فاضلا ، وفكرا سرييا ، وقيادة فى الحروب مظفرة ، وبطولة بارعة ، مما سحر الأمم ، وأدهش المفكرين ، ولتكنها العقريّة الحسية المستنزة أطلقها الإسلام من قيود القبايلة إلى فضاء العالمية ، وفكها من أغلال العنصرية إلى ساحات الإنسانية ، وحاشها من رتبة القومية الزارئة إلى دعوة الأخوة العامة ، ف راحت تستبقي إلى الحلود حتى أنامت على ذروته غير مداعة ولا منازعة ، و« خالد بن الوليد » مثلها المضروب ، وشاهدها المذاور ، فهو فى جاهليته بطل من أبطال الجزيرة العربية ، وفق من فتيان مكة ، وفارس من فرسان قريش ، وهو فى إسلامه بطل من أبطال الإسلام ، وقائد سامى من قواد الحروب لم يعرف الهزيمة قط ، ومفخرة من مفاخر العرب ، ورجل من رجال التاريخ الأفاضل .

مكانة خالد  
فى الإسلام

أسلم « خالد » رضى الله عنه ، وسمع من النبي صلى الله عليه وسلم . . وهو أعرف الناس بأقدار الرجال . من التقريظ والثناء عاياه ما لم يقله لأحد سواه ، ورأى من احتفائه به ما لم ير لغيره مثله ، فأعد نفسه لمكانتها فى الإسلام ، وهل لخالد فى حياته الجديدة مكان غير قيادة الأبطال ، فى معامع الوغى والنزال ؟ نعم ، ولذلك وجهه الإسلام . ( م ٤ — خالد بن الوليد )

ألم يقل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه سيف من سيوف الله » ؟

بلى ! وقد شهد منه الإسلام ما أقر عينه ، وأرضى دعونه ، فسكان في جميع موافقه القائد المحنك ، والسياسي الحكيم ، والبطل الصندي ، والجندى الصادق ، والشجاع المقتحم ، والفارس الجريء ، والمفكر الحازم ، والعقل المسدد ، والقوة الذي لا ترعده الحوادث ، ولا تستطير حمله الشدائد ، والمؤمن الذي لا ينفذه النصر ، ولا يطره العجب ، ولا تملكه الخيلاء الجوفاء ، ولا تخدعه الخدع ، ولا يهجره الأوبلاء ، وهذه المزايا منتهى ما يمكن أن يجتمع لرجل في أمة ، وغاية ما يطمح إليها قائد ماهر من فواد الحرب في القديم والحديث ، ولقد كانت في خاله حقائق هي بعض ما جاء الله به من خصائص أحكامها الأحداث ، وسقطنها الشدائد ، وهذبها العجائب ، ورباهها الإسلام ، وسجلها له التاريخ .

روح الإسلام  
وطبيعة خاله

كان إسلام خاله رضي الله عنه بعد أن حمل الإسلام به السيف ، واشتهر بالعدو ، واستقامت قناته ، ودوى صوته واستطاع أن يرد الموانع عن دعوته ، وأمان في الناس أن القوة يجب أن تنصر الحق ، وتتولى نشر الهداية ، ورفع راية الله الخالصة ، وتنصف المظلوم ، وتوطد دعائم الحرية الفاضلة ، وتؤذن بعظمة الله في رفع المستضعفين عن حضيض الدلة والهبوان إلى مستوى العزة والكرامة : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، وننشان لهم في الأرض » .

لقد نازل الإسلام خصومه ، فسكانت بينه وبينهم وقائع أسماها وأسطرها ، وامتحن ، وكان لا يزال أوارها يستمر حين ذلك « سال » إلى المار ، وراه أنبياءه بين أحضان هذه الدعوة الجديدة التي تجاوزت روحها المجاهدة مع طاعة الخديعة ، وبهذا الوجه الجاد الصارم استقبل الإسلام بطله الجديد ، وبهذه الروح النبوية أذل الشك على دينه الجديد ، ودفع هذا الدين البطل إلى المراتب الأولى ، ونجاة عمره ( سال ) في أول وقعة إسلامية حضرها ، وهي وإن لم تكن به بدأت ، إلا أنها انتهت ، وكان في وطيسها جنديا ، وغدا بنصرها قائدا عبقريا .

أول وقائع  
خاله في  
الإسلام

ومن عجيب صنع الله تعالى في حياة هذا القائد الموفق ، أن يكون أولى موافقه الإسلامية هي أول موقعة يقف فيها الإسلام أمام أعظم دولة في ذلك التاريخ دولة

الرومان — وجهالوجهه . وكانما أراد الله تعالى أن يكون ذلك إرهابا لكبريات الأحداث التي عصبت بهذا البطل العظيم في تاريخ الجهاد الإسلامي . وأعاصير الردة التي كادت تعصف بالحياة الإسلامية لولا معجزة الإيمان الحازم من أبي بكر الصديق ، وعبقريّة القيادة من قائد قواده « خالد بن الوليد »

عرفت تلك الواقعة في كتب السير والتاريخ بغزوة ( مؤنة ) وهم اسم الموضع الذي انحاز إليه المسلمون في أرض البلقاء من أطراف الشام . وجملّة القول فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث ( الحارث بن عمير الأزدي ) رسولا إلى ملك بصرى يدعوّه إلى الإسلام ، فلما نزل الحارث مؤنة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ، فعدا عليه وقتله ، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك في ربيع الأول من سنة ثمان قد سرى سرية بقيادة كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح وراء ذات القرى قريبا من الشام ليدعوهم إلى الإسلام ، فقتل جميع من كان في السرية — وكانوا خمسة عشر رجلا — غير أميرهم ، فإنه نجا بجرأته ، حتى إذا برد عليه الليل نحامل حتى قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فاشتد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ، وندب الناس للجهاد ، وإرهاب الأعداء ، فأسرع جند الله ، واجتمع منهم ثلاثة آلاف عسكريا خارج المدينة بموضع يقال له ( الجرف ) فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن قتل ، فجعفر بن أبي طالب ، فإن قتل ، فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل فليرتض المسلمون منهم رجلا فليجعلوه عليهم ) فوثب جعفر رضي الله عنه وقال يا رسول الله : ما كنت أذهب أن تستعمل على زيدا ، قال : امض . فإنك لا تدري أي ذلك خير ؟

كان « خالد » رضي الله عنه جنديا في هذا الجيش كثيره من المهاجرين والأنصار ورجالات الإسلام ، والنبي صلى الله عليه وسلم يعلم مكانه ، ولم يعينه في القواد ، فلم يعترض كما عترض غيره ، ولم يتخاوص ذهابا بنفسه عن الجندية تحت إمرة مولى من الموالى ، وبذلك وضع الإسلام أعظم مبدأ في تقدير الفئائل الإنسانية في الأشخاص ؛ فهذا عتيق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاه أمير جيش فيه من رجالات قریش وأبناء البيوتات من المهاجرين والأنصار من يصلح لتولي الإمارة ، ولسكن القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم

رأى أن مولاه زيداً أهل الإمارة قبل ابن عمه جعفر فأمره ، حتى يعلم الناس أن الأحساب والأنساب ليست من موازين الفضائل في الرجال ، ومن بطلان عمله لم يسرع به نسبته ، فأى غضاظة على «خالد» رضى الله عنه أن يروض نفسه على أمر الرضا بهذه المقاييس الصادقة في وزن الرجال ، وعنده منها ما يرتفع به إلى الندوة في العند القريب ؟

دفع النبي صلى الله عليه وسلم اللواء إلى القائد الأول زيد بن حارثة ، وأمرهم بالمسير إلى عدوهم ، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم ، فلما ودع عبد الله بن رواحة مع من ودع بكى ، فقالوا له ما بك ؟ فقال : أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباة بكى ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار « وإن منكم إلا واردةا كان على ربك حتماً مقضياً » فلمست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود ؟ فدعاهم المسلمون ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يشيعهم ، فمشوا قدما حتى إذا كانوا يتخوون الالتقاء لقيتهم جموع الروم ومن تبعهم من المستعربة في عدد هائل ، أكثر الرواة في تقديرهم ، وخرجوا حتى صعد به أكثرهم إلى مائة ألف من الروم ، ومثلها من لحى ، وجنات ، وبابليين ، وبهراء ، وبلي ، ممن كانوا تحت حماية الرومان من العرب ، وليس هذا من أدقة التقدير في عدد هذه الجيوش الجرارة ، فما نظن أن إحصاء الفرق والجنات ومعرفة أعدادها بلغ في ذلك الوقت من الدقة والنظام حالة تمكن جيشاً صغيراً منها من معرفة عدد جيوش ضخمة هائلة العدد كالتي تحدثنا عنها الروايات في هذا الموضع ؛ ولا شك أن معرفة ذلك تحتاج إلى نظام خاص في الخبرات ومعرفة أسرار الأول ، وأربعة من بها وإعداد فرقها ، ومقدار كل فرقة ، ولم يذكر لنا الرواة شيئاً من ذلك عند المسلمين في مهدهم ومبدأ نشأة دولتهم .

والذى نطمئن إليه أن الروم كانوا قد زامت إليهم أبناء المسلمين واسرارهم على العرب في داخل الجزيرة ، وكانت دعوة الإسلام قد وصلت إليهم ، وثبت في صحاح الحديث أن هرقل هم بالاستجابة إلى الإسلام ، وأنه دعا دعوته إلى ذلك لئلا يهلكهم الله ، فلم يجيبوه وخصوا عليه ، فترضاهم ، وأقام معهم على نصرانيته ، وذلك لما جاءهم من خبر خيفة من المسلمين ، يترصدونهم ويستعدون لهم ، ويحرضون القبائل الواقعة لهم لئلا يكون معهم حرباً على المسلمين . وهذه القبائل كانت تخشى ما يخشاه الروم من سؤلة المسلمين ،



وقد جاءتهم النذر من قباهم بهذه السرايا التي قتلوا بعض رجالها فكانت من بواعث هذه الغزوة ، وكان الروم في حذر دائم من الفرس أعدائهم المنافسين .

فأيسر ببعيد أن يكون الروم على أهبة عسكرية للقاء عدوهم ، فلما بلغهم مسير المسلمين إليهم استعدوا للقائهم بقوات تنفق مع ما جال في خواطرهم من تقدير قوة الجيوش الزاحفة تقديرأ يعتمد على الحسد والتخمين تبعاً للأخبار التي ترامت إليهم ، وأخبار الحروب مخوفة دائماً بالبالغات المفضضة . فالذي لاشك فيه أن جيوش الروم وأحلافهم في هذه الواقعة كانت أضعافاً مضاعفة بالنظر لجيش المسلمين ، ولا يهم بعد ذلك حصر عددها في مائتي ألف أو أول أو آخر .

نظر المسلمون إلى جيوش أعدائهم فوقعت كثرتها منهم موقعاً ، فأنحازوا إلى قرية « مؤنة » وقالوا نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونخبره بعدد عدونا ، فأما أن يمدنا برجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فمنضى له ، فخطبهم القائد الثالث عبد الله بن رواحة مشجعاً فقال « والله يا قوم إن الذي تسار هون للذي خرجتم تطلبون « الشهادة » وما تقابل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما تقالهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فما هي إلا إحدى الحسينيين ، إما ظهور ، وإما شهادة » فقال الناس : صدق والله ابن رواحة . وثابت إليهم شجاعتهم ، واستقرت نفوسهم ، ومضوا إلى عدوهم بإيمانهم وسيوفهم ، والنعم القتال بين الفوتين على تفاوت ما بينهما في العدد ، والعدد ، وسمل اللواء أمير المسلمين زيد بن حارثة بصدق الجملة ، وقاتل حتى شاط في رماح الروم فأخذ اللواء أمير الناس بعده جعفر بن أبي طالب ومائل وهو على فرس له حتى إذا لجم القتال نزل عنها فعر فيها - وهو أول من صنع ذلك في الإسلام - وقاتل راجلاً وهو يرتجز .

يا حبيدا الجنة واقتربها طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها على إذ لافيتها ضرابها

فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ، فمطعت فاحتضنه بمضديه ، وقاتل به حتى قتل ، ثم أخذ اللواء أمير الناس بعدهما عبد الله بن رواحة ، وكأنا فاجأته الطبيعة البشرية ، وهو يرى الموت يختطف الرجال من حوالبه ، فأراء أن يحدد نفسه يقينا

يدرع به إلى لقاء الموت فيجعل يستنزل نفسه وينههها وهو رجل شاعر فيقول :

أقسمت يا نفس لتنزلني طائعة أو فلتكرهني

إن أجلب الناس وشدوا الرنة ما لي أراك تكرهين الجنة

قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنة (١)

ثم عدل بنفسه إلى واد آخر من أودية القريظ فقال :

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلني فعلهما هديت

وإن تأخرت فقد سقيت

ثم نزل إلى القتال فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال له : شديها صابك فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ، فانتش منه نهشة ، ثم سمع الحطمة في ناحية الناس ، فقال وأنت في الدنيا ؟ ثم ألقاه من يده ، وأخذ سيفه فتقدم إلى القتال وقاتل حتى قتل ، وكان آخر قائد عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ترك الأمر بعد لرأى الجيش ، يختار لنفسه قائداً من أهل البلاء والحنكة .

وفي الحق إن هذه أدق وأخطر ساعة تمر بجيش مشتبك في المعركة ، يفقد قواده المعينين ، ويصبح خالياً من قائد يسوس أمره ، وينظم صفونه ، وماذا ينتظر من جيش انفرط عقد نظامه بفقد أمرائه غير التماس طريق النجاة ؟ ولكن هذا الجيش الباسل إن يكن على قلة عدده قد فقد قواده الأبطال فإنه لم يفقد روحه المعنوية ، وإيمانه القوي ، وتذكروا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يرتب القواد : فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون منهم رجلاً فليجعلوه عليهم .

وإنما قال لهم رسول الله ذلك ثقة بكفاية جند الله الذين أمرنا على الجهاد والطراد ، وتدريباً لهم على سياسة الأمور إذا فاجأتهم الشدائد حتى لا يأخذهم البهر ، ويقعدهم البلاء عن التماس المنافذ في مضائق الأحداث .

إن كل جندي من جنود الإسلام الذين رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائد جليل وبطل أمة ، وذلك هو السر في ترك الأمر بعد القواد الثلاثة شوري بين أفراد الجيش ، يقيمون على قيادتهم أميراً منهم ، يختارونه من أبطال الإسلام وبين أيديهم ميزان الفضائل منصوب .

---

(١) الشنة : القرية البالية .

ابتدر اللواء بعد استشهاد ابن رواحة آخر القواد الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثابت بن أقرم العجلاني حليف الأنصار ، وهو بدرى من السابقين ، وصاح في الناس : يا للأنصار ! فاجعلوا يشوبون إليه ، فقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، فقالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل ، ثم نظر إلى خالد بن الوليد ، فقال : يا أبا سليمان : خذ اللواء ، قال : لا آخذه ، أنت أحق به منى ، لك سن ، قد شهدت بدرأ ١١

قال ثابت : خذ أيها الرجل ، فوالله ما أخذته إلا لك ، أنت أعلم بالقتال منى . ثم قال ثابت : اصطلحتم على خالد ؟ قالوا : نعم ، فأخذ خالد اللواء وتأمر على الجيش .

وفي هذه الرواية يرى رجلاً من أهل بدر يسرع لأخذ اللواء بعد أن لم يكن للناس أمير ، ويدعو القوم إليه ، وقد أصابهم من الاضطراب والفرع ما أصابهم ، فاستجابوا لدعوتهم ، وثابوا إليه فطلب إليهم أن يؤمروا أميراً منهم تحقيقاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم . فقال الناس لثابت : أنت الأمير وقد رأوا من شجاعته وسابقته وسنه ما يجعله أهلاً للإمارة ، فأبى عليهم ثابت ، ولكنه رأى أن ينتهز هذه الثقة التي أضفاها عليه المسلمون في سادة لا تعمل القاول ، فنظر إلى فارس قريش ، فحق محزوم « خالد بن الوليد » فقال له : يا أبا سليمان : خذ اللواء ، فهل هزت هذه الكلمة أريجاً الخلاء وحركت مشاعر الإعجاب في خالد فاستجاب لأول نداء باسم الإمارة ؟ لا . ولكنه أجاب ثابتاً ، والمسلمون يسمعون ، بما دل على بعض ما حباه الله به من أدب رفيع ، امتاز به الفرسان من الظاهرين في أبطال الحروب ، الذين هم في غيبة عن مظاهر الاختراع ، وأساليب التدريب ، فقال : أنت أحق به منى لك سن ، قد شهدت بدرأ .

فخالد يندرج في اثنين من اثنين يجعل ميزانه أرجح للإمارة - في نظر خالد - من خالد نفسه ، فمن دونه من الناس ، ذكر أنه رجل مكتمل العقل ، عالى السن ، قد حنكته التجارب ، وسقلته السمون والسن في الحروب امتياز ، فإنها حاضنة الأناة والريث ، والحرب لا يصاح لها أحياناً إلا الرجل السكيت ، وذكر أنه شهد بدرأ ، وهذا أشرف أوسمة

الإسلام ، وقد علم خالد رضى الله عنه مقام شهيد بدر ، ومكانهم من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخالد إذ يجرى بينه وبين عبد الرحمن بن عوف تعذيب ، تنح إلى سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، فيعتب منه ابن عوف فلا ينضله عليه بأمر من أنه رجل من أهل بدر ، وهو إذ يقع بينه وبين عمار بن ياسر فإثم يألم له عمار ، يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا ينهيه خالد عن عمار ، لأنه من قومه « مالان وعمار » رجل من أهل الجنة ، قد شهد بدر . ولم يمنع الله أهل بدر هذا الله فالعظيم إلا لما خصوا به من الفضائل التي ليس أفعالها ولا أشدونها ، معرفة الحق لأهلها ، ونسب الرجال بخصائصهم ، ومن هنا جاء رد ثابت على خالد ، بقوله له : « يا الله ما أنت اللواء إلا لك ، ويذكر له أبرز خصائص القيادة الحربية التي يحتاج إليها القائد أنت أعلم بالقتال مني . فكأنه يقول بهذه السكامة الجامعة : ليس المؤمنة ، من مالان ، ولا عرض لأوسمة الإيمان بشهود بدر ، ولأنه موقف إنقاذ جبهة عالت ما بالحق ، يطلب قائداً حازماً عبقرياً ، وأنت يا أبا ساهان ذلك ، لأنك سرور من سرور الله . وهكذا توج المسلمون رأس البطل بتاج الإمارة وأصبح خالد قائداً بعد أن كان قائداً . ومن هنا تبدأ صفحة البطولة الإسلامية في تاريخ خالد رضى الله عنه .

\*\*\*

بدأ « خالد » رضى الله عنه حياته الإسلامية جندياً ، يحارب تحت راية أمرام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أطلوع ما يكون جندياً في جيش ، وأوامر من يعرف الناس عن رجل في مكان « خالد » من العزة العربية والعنصرية الحربية والبطولة الشريفة ، والحرب محك الرجال ، ومظهر الأبطال ومصنع العبادة ، ومن في وعودهم في سوي أول وقعة إسلامية حضرها خالد - ثلاثة أمراء ، كان النبي صلى الله عليه وسلم ، ورتب إمارتهم على الجيش ، فالتفت المسلمون إلى أنفسهم ، وعلم في أشد الخرج من عود رجالهم ، ليقموا عليهم من أنفسهم أمير آ يقودهم في هذه الحرب العنصرية ، ولم يجدوا في بديتهم من يسعفهم في محنتهم أشجع من خالد ولا أربع سادات في الحرب ، فاختروه لقيادتهم ، ورضى هو بإمارتهم ، فإذا علم أن يسعف في أيامه من رتبته

الحرب أقسى ما تماله من جبن فليل العدد ، بعيد المسدد يواجه جيوشاً من الروم والعرب  
ضخمة متسلخانة في أهبة تامة وعدة كاملة ١٤

إن قائد آ في مثل موقف «خالد» أخرج إلى الفكر النافذ منه إلى السيف الصارم، وقد حبا الله تعالى «خالد» من ثاقب الفكر وحكم التدبير وبارع السياسة بما أغنى عن الأمداد والسلاح .

رأى القائد الجديد أن لاطافة الجيش في قلة عدده، وكثرة جراحه، بجيوش أعدائه  
التي تآثرت المستعانة في حرب قاصلة، وموقف حاسم، فماذا يصنع؟ أيطلق لهذا الجيش  
دنان الفرار والهرب وحسبه من العزيمة أن يكون قد نجى كتيبة المسلمين من فناء  
محقق؟ أم يدفع به إلى هجوم لا يبالى نتائجه كائنة ما تكون، ما دام القائد قد استعجاب  
لدامي البطولة والجهاد؟ أم ياجأ إلى التسلل يستوحيه خطة لا تحمل على اكتاف  
المسلمين عام الفرار، ويشتدح بهم إلى الملائكة والدمار، وترمى في قلوب أعدائهم الفرق  
والفرق، وينتدح في أديمهم الرهبة والرهبة، ونحيل المزيمة نفساً وفتحاً مبيناً؟

أما ما استدلوا به من أن كتاب السيرة في موقف القائد الجديد ونهاية  
الروايات في هذه الأنواع بعد الجواب ، فهي العايات والراعى .  
هذه العزوة

اختلاف  
الروايات في  
هذه الغزوة

والعجيب في أمرهم الروايات أن بعض كتب السيرة والتاريخ يقصها متتابعة  
لا يترك ما عمله من سائر بنيها عن الحقيق ، فهذا محمد بن سعد يقول في كتاب  
الطبقات : ( فسطح الناس على عهد بن الوليد ، فأخذ الأواء ، وانكشف الناس ،  
فذهب المسلمون ، ومعهما عترة ابن عباس ، فقتل من قتل من المسلمين ، ورفعت الأرض  
ارسل الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير إلى مكة النوم ، فلما أخذ الأواء خاله بن  
الأواء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( الآن حمى الوطيس ) فلما سمع أهل  
المدينة بحديث مؤمنه في عين الله هم بالجوف جعل الناس غسسون في وجوههم التراب ،  
وعبادون : يا فرات ، أو ربه في سبيل الله ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
( ليسوا بفرات ، وإنما هم الذين يريدون أن يشاء الله تعالى ) .

ثم قال ابن جرير رحمه الله : قال ( يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ) : « ما ريت على أمة من الأمم ما ريت على أمتي ، وهم يقاتلون المشركين بهوة » .

قلت والله لا أبرح اليوم حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرهم ، إلى أن قال : ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فطاعن حتى قتل ، ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتموها قط ، حتى لم أر اثنين جميعا ، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار ، ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه ثم قال : إلى أيها الناس ، فأجمع الله الناس حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد ، فقال له خالد : لا آخذه منك ، أنت أحق به مني ، فقال الأنصاري : والله ما أخذته إلا لك ، فأخذ خالد اللواء ، ثم حمل على القوم ، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتموها قط ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا .

وفي تاريخ الخميس للديار بكرى : « فأخذ خالد اللواء ، وحمل بأصحابه ففقد جميعا من جمع المشركين » ثم قال : « وقد جاء في بعض الروايات : اصطاح الناس على يد ابن الوليد ، وأخذ اللواء وانكشف المسلمون وكانت الهزيمة » ثم قال : وفي الأسماء : فلما أخذ خالد الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ثم انحازوا حتى استوف الناس قتالا ولمادوا من المدينة تلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وانهم السريان يشدون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل مع القوم على دابة ، فقال : ( خذوا السيوف فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر ) فأنى بعبد الله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون يا فرار ، أفررتم في سبيل الله ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ( ليسوا بالفرار ولكنهم السكارار إن شاء الله تعالى ) وبالت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم لأمرأة مسلمة بن هشام بن المغيرة : عني لا أرى مسلمة تحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : إنه والله لا يستطيع أن يخرج ، فما خرج صاح به الناس ، يا فرار ، فررتم في سبيل الله ؟ حتى تعبد في بيته ؟ وعن أبي هريرة أنه قال : لما قتل ابن رواحة ، انهزم المسلمون ، فجعل خالد يدعوهم في أراهم وسمهم من الفرار وهم لا يسمعون ، حتى نادى قطبة بن عامر : أيها الناس لأن رسول الرجل في حرب الكفار خير أن يقتل حال الفرار ، فلما سمعوا كلام قطبة راجعوا .

ثم قال الديار بكرى : وروى أن خالد لما أصبح أخذ اللواء ، فبعد ما صعدوا للدباب غير صفوف جيشه ، فجعل المقدمة مكان الساقة ، والساقة مكان المقدمة والمقدمة بين الميسرة ، والميسرة مكان الميمنة ، فوقع الكفار في غلط ، ففسدوا أن لحق المسلمين ، و...



فوقع في فلوهم من ذلك الرعب ، فانهمزموا ، فتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا ، فعلم المسلمون من أموالهم فرجعوا إلى المدينة ، وفي مقلهم مروا بمدينة لها حصن ، وقد كان أهل الحصن قتلوا رجلا من المسلمين في مرورهم إلى مؤتة ، فحاصروهم ، وفتحوا حصنهم ، وقتل خالد كثيرا منهم .

وهذا أبو جعفر الطبري يقول : « فاصطلى الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاصروهم ، ثم انحاز حتى انصرف بالناس » ثم روى بعيد ذلك عن خالد بن سمير قال : « قدم علينا عبد الله بن رباح الأنصاري — وكانت الأنصار تنفقه — فغشيه الناس ، فقال حدثنا أبو قتادة فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : بعث رسول الله جيش الأمراء ، فقال : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر ، فبعد الله بن ربيعة » فوثب جعفر ، فقال يا رسول الله ، ما كنت أذهب أن اسمع زيداً على ، قال : امض فإنك لا تدري أى ذلك خير ؟ فطلقوا ، فابوا ما شاء الله ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر ، وأمر فودي : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إلى رسول الله فقال « باب خير ، باب خير ، باب خير ، أخبركم عن جيشكم هذا الغازي ؛ إنهم انطلقوا فلقوا العدو ، فقتل زيد شهيداً واستغفر له ، ثم أخذ اللواء جعفر ، فشدد على القوم حتى قتل شهيداً ، فشهد له بالشهادة ، واستغفر ، ثم أخذ اللواء عبد الله بن ربيعة فأثبت قدميه حتى قتل شهيداً ، فاستغفر له ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ، ولم يكن من الأمراء ، هو أمر نفسه ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( اللهم إنه سيف من سيوفك ، فأنت تنصره ) فلما يومئذ سمى خالد سيف الله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكروا فأمدوا إخوانكم ، ولا يخالقن منكم أحد ، فنفروا مشاة وركبانا ، وذلك في حر شديد .

وهكذا يجري أثر كتب التاريخ والسير . . إن لم نقل كلها — في تدوين أخبار نقد وتحقيق هاهنا العزوة وغيرها من الحوادث الإسلامية البارزة ، فهذه الروايات التي رويت في مصادر متنوعة لها عند العلماء من المؤرخين قدرها وحرمتها ، وهي عندهم من أصول المراسع ودواوين التاريخ الإسلامي ، لا تقف عند الاختلاف في الأسلوب والعبارة ،

ولكنها تتضارب وتتناقض في معانيها ومراميها وغاياتها تتناقض لا يمكن معه التوفيق بينها في يسر واطمئنان ، ولا مناص من رفض بعضها ، ولستأ نذكر كيف قبل هؤلاء العلماء من أئمة التاريخ هذا التناقض العجيب ، فسجلوه ، ولم ينقدوا هذه الروايات فيخرجوا منها الزائف ويحققوا الصحيح ؟ وكان يسيراً عليهم لو أنهم سلكوا مسلك الموازنة والنظر الفاحص ، والفهم الممحص ، لأنهم أخبر بحال الرواة ، وأعلم بحال الوقائع والأشخاص .

ولا شك أن منهجهم في التدوين من أكبر معوقات التحقيق في روايات التاريخ أمام الباحثين ، فلا يدري الباحث ماذا يأخذ ، ولا ماذا يبدع . وإذا كان الترجيح بين هذه الروايات بحال ، فاعل التي تذهب منها إلى ما تضمنته رواية ابن سعد الثانية ، وهي رواية شاهد معان ، أثقل في ميزان النقد ، وأقرب إلى الوضع المعقول ، لأنها ذكرت الهزيمة على المسلمين في مكانها المعقول ، وهو الوقت الذي خلا فيه جيشهم من قائد مسيب أمره ، بعد أن فقد قواده الثلاثة ، وهذا وضع يحدث في كل جيش يصاب به أعظم الاضطراب . فلا غرابة إذا أصيب بالهزيمة حينئذ . وذكرت السير المم والفصح ما هم في مكانه المعقول لما اجتمع أمر الناس على قائد تسبق شهرته إلى أبواب الجبل أسيروهم إلى شخصه ، فثابت إليهم أنفسهم ، وقويت أرواحهم وعانقهم يقيينهم ، وودعواهم ، وهم شغل عنهم بعض الشيء بنشوة الظفر ، فحملوا صناديقهم ، ونالوا من عدوهم ما نال منهم .

ويؤيد هذا الترجيح ما جاء في رواية الديار بكرى ونحوه من الحطة الحربية التي ابتكرها خالد في تغيير نظام الجيش مما أدخل على العدو في بداية الطريق ، بالاطمئنان به وصول أمداد لجيش المسلمين ، وقد يدخل في باب تأييد ذلك حديث أبي هريرة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس إنما أنا بشر أخطئ وأصيب ، فإذا سمعتم مني حديثاً فليحذر من أن يكون مني حديثاً ، فإنه يمتنع من معين حديث أبي عامر في رواية ابن سعد ، وإذا سمعت رواية الطبراني التي تقول بإرسال مدد لجيش المسلمين بعد تأمير خالد عاياه وأن الناس تفر واليهام الجاهل مشاة وركبانا ، كانت من أقوى مرشحات انتشار المسلمين على يد قائدهم الجديد ، وهو من على هذه الرواية فهم الروايات فهماً يوفق بينها ، وهي أغرب روايات جاءت في هذه الغزوة ، لأن حديث الإمداد والنفر لم نعرفه في غيرها .

وقد أراد بعض المتأخرين من المؤرخين التحرر من المناهضة والتمليد ، فاستلجوا حديثاً

انتصار المسلمين في هذه الواقعة لقلة عددهم وكثرة عدد عدوهم ، ولجأ إلى التأويل في روايات الفتح والانتصار ، وجعله مجازاً عن نجاة المسلمين ، وجرى في هذا الشوط بعض السكتين من المعاصرين .

رأى في.

الموضوع.

ولسنا نذهب هذا المذهب ؛ ولكننا نرجح أن المسلمين انتصروا ورجعوا ظافرين ، غير أنه ظفر الجولة ونصر الحملة الحادثة ، لا ظفر الميدان ، ونصر الموقعة الحاسم ؛ أما حديث الفرار وتعبير الناس للجيش في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ورده عليهم نصيحاً عن أصحابه أن يعيروا بالفرار ، فذلك مالا نستطيع أن نعتمد عليه ، ولا الركون إليه ، ولا نطعن إلى قوله ، لأن استمرار الناس في التعبير بعد ما سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم من جود الجيش إلى حد يمنع سامة بن هشام صهر رسول الله من حضور الصلاة معه ، بعيد جداً من رضا النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يعيروا بالفرار ، وهو لا يراهم فراراً ، وبعبارة أخرى من أدب الناس وطاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر لا يمساه ولا يهينه لأحد من أصحابه .

والاحتجاج بآثارهم ووفاء المسلمين احتجاج لا يقوى على مواجهة التاريخ في حروب المسلمين ، لأنهم لم يعاروا بآثاره عدد قط ؛ وإنما كانوا يماربون بقوة العقيدة وبنات الإيمان ، وجرى ما لا يدرك ، وبطولة الجنود ، وحسب الموت في سبيل الله ، وأشهر مواضعهم مع الروم والبرس كان التفاوت فيها بين عدد المسلمين وقائهم ؛ وعدد المشركين في أكثرهم ظاهراً ، ومع ذلك فقد انتصر المسلمون .

وفي وصية عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص بخل القادسية . ( وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله وطاعتهم ، وأولاً ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عدونا ليس كعادهم ، وعدونا است كعادهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإن لا ينصر عاصمهم بفتننا لم نغلبهم بقوتنا )

والفران الكارم جعل المسلم الواحد بعشرة رجال من الكفار في أول الأمر ، ثم خفف الله عنهم جعل المسلم برجلين من الظافرين ، وهذا تسجيل للتفاوت المعنوي في العزم والجلاد ، وهو الذي درج عليه المسلمون في حروبهم ومشهور وقائعهم .

فالكثرة العددية لا دخل لها في النصر الحربي ، وقد تؤدي مكيدة من مكايدها للقواد والأبطال إلى ما لم تقم له الألوف المؤلفة من الرجال والعتاد ، والله تعالى يحكي عن أولى اليقين من المؤمنين قولهم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

ويمكن تأخيص رأينا في هذه الموقعة بأن المسلمين لما أصيب قائدهم الثالث : عبد الله ابن رواحة ، وكان آخر المعينين من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، فزعوا لمول الخطب بإصابتهم في قوادهم الثلاثة وانفراط عقد نظامهم ، فأحدث هذا الفزع اضطراباً ساعد العدو على كشفهم فأنكشفوا ، وانهمزوا فزعين ؛ حتى إذا أخذ اللواء خالد بن الوليد ، وذاع الخبر في الجنود تراجعوا ، وبات خالد ليلته يعمل فكره ، والمسلمون من حوله في جراحهم يقضون مضجعه ، فلما أصبح كان قد واتاه الفكر العبقري بإحدى حديد الحرب . ذلك أنه أراد :

أولاً : أن يدخل في روع العدو أن مدداً جديداً قدم على المسلمين ، لينسف بذلك الروح المعنوي لدى أعدائه ، ويوهن من قوتهم ، ويكسر من حدة الغرور الذي انتابهم من جراء النصر الذي نالوه على المسلمين .

ثانياً : — أن يقوى الروح المعنوية في جيش المسلمين بتبادل تحمل أعباء الحرب بين الجنود ، ونجديد المواقف في الهجوم ، وتوجيه طوائف الجيش إلى خطة جديدة بالمرح إلى خطة الأمس ، فعمد إلى حيلة تغيير الوضع الأول للجيش على ما ذكرته الرواية ، وهذا تدبير من أحكم التدبير ، حتمق ما قصده الفائد العظيم من وقوع العدو في غائله وظنه وصول مدد للمسلمين ، أوقع الرعب في قلوبهم ، وهو أمر قريب للفهم والمعنوية ، ولا سيما إذا انضم إليه شجاعة القائد الجديد ، تلك الشجاعة التي يقول في مظهرها سالك نفسه في هذه الموقعة : « لقد اندق في يميني يوم مؤتة نسمة أسياف لها ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية » .

ويؤيد رأينا تأييداً يرتفع عن الشبهة ما جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك : « أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدا ، وجعفرأ ، وابن رواحة للناس قبل أن يأتهم خبرهم ، فقال « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ، وعينه تذر فان ، حتى أخذ سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم » .

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر أن الله تعالى قد فتح على المسلمين لما أخذوا  
رايتهم خالد بن الوليد ، وسمى خالداً سيف الله ، ولا تسمى الهزيمة والفرار  
فتحاً ، وإنما عرف الفتح في عرف الحروب الإسلامية بالظفر بالعدو والنصر  
عليه ، وليس لأحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قول ، وليس لراو بعد  
البيخاري كلام .





## الفصل الرابع فتح مكة

أمل المسلمين في فتح مكة . خروج النبي في أصحابه معتمرا . - المفاوضة مع قريش ورجوع النبي بأصحابه عن مكة . وفدة عمر بن الخطاب في هذا الرجوع - نقض قريش العهد - ندم قريش وإرسال أبي سفيان ليؤكد العهد - خيبة أبي سفيان في سفارته . - انبهار رسول الله للفتح - تأهب خالد في فتح مكة - إسلام أبي سفيان وهجرة المسلمين في قلبه . - خالد تعظم العزى .



أمل المسلمين

كان فتح مكة أملاً تجيش به صدور المسلمين منذ أحسوا قوة الإسلام تسرى في قبائل العرب ، فتجذبهم إلى حظيرة قدسه أفراداً وجماعات ، ثم تعاظم ذلك الأمل حتى لهجت به ألسنتهم وتحدثوا عنه في مجالسهم منذ كان العهد بينهم وبين قريش ، ذلك العهد الذي أفصح عن تأييد الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بما جابه به من كامل العقل ، ونافذ البصيرة ، وبحكم التدابير ، مما خفي بعضه على بعض الأكابر فكدوا . . . لولا أن من الله عليهم بالتثبيت فثبتوا ، وأنجز الله تعالى موعوده لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وأتم نعمته على عباده المؤمنين بذلك الفتح المبين .

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون والأنصار في ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة معتمراً ، لا يريد حرباً ، وقد استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي ، وسلك طريقاً ينزل به على مهبط الحديبية من أسفل مكة بعيداً عن طريق قريش حتى لا يصطدم بها ، فلما بلغ موضعاً يقال له ثنية المزار بركت ناقته القصواء ، فقال الناس : خلأت القصواء فقال : « ما خلأت ، وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش إلى خيلة يسألوني صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .

وبينا رسول الله والمسلمون كذلك إذ أبفل عليهم بديل بن ورقاء الخزاعي — وخزاعة عيبة نصيح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة — فقال : إني تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى قد نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلون ، وصادوك عن البيت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنا لم نأت لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددناهم مدة ، ويخاو بنى وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فملوا ، وإلا فقد جموا ، وإن هم أبو أوفال الذي نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفى ، أو لينفذن الله أمره .

المفاوضة مع

قريش

بلغ بديل بن ورقاء قريشاً مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرعدت فرائصها وخضعت لبعض الأمر ، فدبت عروة بن مسعود الثقفي ليلقى رسول الله ، فتحدث إليه ، ورأى من عظمته بهيعة النبوة وتعظيم أصحابه له ما أدهشه وطامن من تنطسه ، فرجع

ورجوع النبي  
بأصحابه عن  
مكة

إلى قريش يقول لها : لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على كافرين ومسلمين والبجاشي ،  
والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ، محمداً .

ثم لم تزل الرسل تغدو على رسول الله حتى بعثت قريش وفداً من بني عمرو  
ليصالحوا رسول الله ، فتكلم سهيل فأطال الكلام وراجعاً حق النام أمر الساج بانها على وضع  
الحرب بين الناس عشر سنين ، وعلى أن من أتى رسول الله من قريش بعد إن وإيه  
رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله لم ترده ما به ، ومن أحب أن يسل في  
عقد رسول الله وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وسهولهم من بعده ،  
وأن يرجع النبي صلى الله عليه وسلم بالمسلمين عامه هذا فلا يدخل منه على قريش ، فإذ كان  
عام قابل دخلها بأصحابه ليس معهم سلاح غير سلاح الرادب ، والوفد في الحرب .

وقفة عمر بن الخطاب في هذا الرجوع  
وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في محرابهم هذا لا بد في المنهج  
لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا ما رأوا من السلاح والرجوع ، ووما  
تحمّل رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه ، دخل الناس من دلائل أمرهم حتى  
كادوا أن يهاكوا ، فوثب عمر بن الخطاب فأبى أبابكر ، فقال يا أبا بكر أليس برسول  
الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟  
قال : بلى ! قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال الصدوق الأول : يا عمر ! إن  
غرزة ، فأبى أشهد أنه رسول الله ؟ قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ؟ قال عمر  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا رسول الله ! أليس رسول الله ؟ قال : بلى !  
قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطي  
الدنية في ديننا ؟ قال : «أنا عبد الله ورسوله ، إن أسألت أمره وإن سألته ، وإن  
رضي الله عنه يقول : ما زلت أصوم وأصدق وأصلي وأعقب من الذين سبقتهم من الأنبياء»  
كلامى الذى تسكمت به حتى رجوت أن يكون خيراً .

نقض قريش  
العهد

لم يكذب « خالد بن الوليد » رضى الله عنه يستقر بالمدينة وقد غارت من  
« مؤتة » أميراً ، وكان جندياً فأظفره الله على عدو كان له في دلوب العربياً بطبيعة  
جعلت غزوهم مثلاً في التندر من صناديد قريش على المسلمين ؛ حتى راحوا إلى أن بان  
قريشاً نقضت ما عاهدت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشبهت جنابها هذا بكر

على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشرافها : صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص بن الأخيف . ومن تبعهم من عبدانهم ، وبيتوا خزاعة ليلاً ، وهم غارون آمنون ، فقتلوا منهم عشرين رجلاً ، وخرج عمر بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من قومه ، يستنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أن ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت « بات عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلتي ، ثم قام وتوضأ للصلاة فسمعتة يقول : لييك، لييك ، لاإنا . فلما خرج من متوضئه قلت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي !! سمعتك تكلم بإسنانا، فهل كان معك أحد ؟ قال : هذا راجز بن كعب يستصرخني ، ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بنى بكر : قالت ميمونة رضى الله عنها : فأقمنا ثلاثة أيام ، ثم صلى الصبح بالناس ، اسمعت راجزاً ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد بين ظهراني الناس وهو يقول : —

لا هم إن نأشد شمسدا حاف أينا وأيه الأنددا  
فوالدا لنا وكنيت ولدا ثمت أسلمنا فلم تنزع يدا  
فانصر رسول الله نصرأعددا وادع عباد الله يأتوا مددا  
فبهم رسول الله قد نجردا أبيض مثل البدر ينمى صعدا  
إن سيم خسفنا وجهه نربدا في فيلق كالبحر يجري مزبدا  
إن قريشاً أخلموك الموعدا وتفضوا ميثاقتك المؤكدا  
وجعلوا لي في كداء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا  
وهم أذل وأهل عسدا هم بيتونا بالوتير هجدا  
فتمتلونا ركنا وسجدا

فقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو يجز رداءه ، ويقول :

« لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب بما أنصر منه نفسي » . ثم ثابت قريش إلى رشدها وأدركت سوء صنيعها ، فأرسلت قائدها وشيخها أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليؤكد العهد ، وبزيد في مدته ، فلما قدم المدينة دخل على ابنته ندم قريش وإرسال أبي سفيان ليؤكد العهد

أم حبيبة ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فطوته عنه فقال : يا بنية : والله ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم أرغبت به عني ؟ قالت : هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس ، وما أحب أن تجلس على فراش رسول الله ! قال : والله لقد أصابك يا بنية بهدى شر .

هنا لفنة روحية سامية ، نسجلها ونمر بها جوازا ، تلك هي قوة الإيمان المسيطرة على العواطف والمشاعر التي لم يبق معها الأبوّة — وهي أعلى درجات الوشائج النسبية — مكان في إحساس الإيمان ، مما سجلته هذه المحاورة الطريفة بين الوالد وولده في صراحة جادة وحزم مؤمن ؛ هذا هو المعنى في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده » .

خرج أبو سفيان من بيت ابنته بعد أن رأى أبداع فصل في رواية بدأها ، إن لم يكن قد أرضاه ؛ وهو لم يرضه ؛ فلاريب أنه حرك نفسه حركة غير إرادية في اتجاه لم تقصد إليه ولم يرده ، ولكنه انتهى إليه في رحلته هذه .

خرج أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكاه بما قام به من أحله فلم يرد عليه رسول الله شيئا . ثم ذهب إلى أبي بكر فسكاه أن يكلم رسول الله ، فقال : ما أنا بفاعل ؛ ثم أتى عمر بن الخطاب فسكاه فقال : أنا أشفع لك إلى رسول الله ؛ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم ! ثم أتى علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة ابنة رسول الله ، وعندها الحسن بن علي ، غلام يدب بين يديهما ، فقال : يا علي : إياك أمس القوم بي رحما وأقربهم مني قرابة ، وقد جئت في حاجة فلا أرجمن كما حبت سائرا ؛ اشفع لنا إلى رسول الله ؛ فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نسكاه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد : هل لاني أن أمرى بريك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت فاطمة : والله ما بلغ بني ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير على رسول الله أحد .

هذا موقف من مواقف الاحتدام النفسي بين العطرسة المخطئة ، والعجيبة الحاجة في ذلة المغلوب ، وتضرع المتخاذل ، يعجز القلم عن تصويره تصويراً يبرز معالم الالويات النفسية في خطوطه ، وإلا فكيف يستطيع القلم أن يرسم بوارع أبي سفيان .



البطحاء، وشيخ قريش، وقائد جمعها فلما في حرب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهو يتضرع إليهم أن يمدوه، فيسكه ابن الخطاب صكة الظافر المكظوم، ويرده على رد المهدد المستعلى، فتصاغر طمطمعة أبي سفيان تصاغراً يأخذ بيده إلى ذيل طفل يدب بين يدي أمه وأبيه، ويسأل أمه سؤال المستعطف المتهاون أن تصعد بابنها من مهد الطفولة إلى سامقات الرجولية المسيطرة، فيجبر قريشاً وخطريتها أبا سفيان من جده رسول الله؟ ولكن فاطمة عليها السلام - وهي بضعة رسول الله - أدركت ما أصاب الشيخ من تفلت الأعصاب عن مرابطتها، ولعلها ابتسمت إذ تقول له : والله ما بلغ بني أن يحير بين الناس !!

هنا تماسك خطريته قريش، ونفخ عن يده ذيل الغلام، وأخذ بعنقه أبيه ربيب النبوة، وقاهر قريش في (بار) يكشف له عن ذات نفسه فيقول له : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانسحني، فقال له : والله ما أعلم شيئاً يغني عنك شيئاً، والكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال : أو ترى ذلك مغنياً شيئاً؟ قال : لا، والله ما أظن، ولكن لا أجدر لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال : أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أنت تقول ذلك يا أبا سفيان).

خية أبي  
سفيان في  
سفارته

ثم انصرف أبو سفيان قافلاً إلى مكة فلقاه زعماءها الذين أوفدوه، فقالوا : ما وراءك؟ قال : جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد علي بشيء، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً، وجئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت علي ابن أبي طالب فوجدته ألين الناس، فقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني شيئاً أم لا؟ قالوا : وما ذلك؟ قال : أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد؟ قال : لا، قالوا : والله إن زاد علي أن لعب بك علي، فما يغني عما قلت. قال : لا، والله ما وجدت غير ذلك.

تجهيز رسول  
الله للفتح

أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بالفتح الأعظم، وأمرهم أن يتجهزوا، وأمر أهله تجهزوا، ولم يعلموا به أحداً حتى دخل أبو بكر رضي الله عنه على ابنه عائشة وهي تصلح بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : يا بنية ما هذا الجهاز؟ قالت : لا أدري، قال : أأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن تجهزوه؟

قالت : نعم ، قال : فأين تريد ؟ قالت : ما أدرى ، قال : ما هذا ؟ ما ن غزو  
بنى الأصفر ، فأين يريد ؟ قالت : لا أعلم لى .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد  
والتهيؤ وقال : ( اللهم خذ العيون والأخبار عن فريش حتى ينهائى بلائها ) . فجهز  
الناس ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من حوله من السائل وأهل البوادي ،  
فأجابه منهم : أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وسار . فسمع له  
منهم إلى المهاجرين والأنصار عشرة آلاف ، كان الهاتى سار الله أحسب إلى أحدهم  
من الحياة ، وسار بهم حتى باعوا موضعاً يقال له ( فابند ) وهناك عند الأنوفه والانت ،  
وسمى الأمراء والقواد ، ووضع تفاصيل خطة العزو .

كانت تلك الخطة أحكم خطة حربية وضعتها قائد يريد فتحاً لأرض مكة والبناء ، لأنها  
قامت على أساس المفاجأة وتطويق العدو فى بلاده ، وأخذه على غرة حتى لم يشب قتال ،  
وكانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتفيه الخضراء مع الأنصار معفوفة  
لقائهم سعد بن عبادة ، وكان على الجنبه اليسرى حوارى رسول الله وابن عمه الزبير  
بن العوام ، وكان على الجنبه اليمين غارز قامة بنى الأصفر سرف الله وسار رسول الله ،  
خالد بن الوليد بطل الإسلام ، وهذه أول إمارة ( رسمية ) يشرف بها رسول الله صلى  
الله عليه وسلم خالداً ، وكان أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح على الخيل والراعى .

تأمير خالد فى  
فتح مكة

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير أن يدخل مكة من ( كذا ) ، وأسفلها ،  
وأمر قائد كتيبته سعد بن عبادة أن يدخلها من ( كذا ) ، بأعلامه ، وأمر سرف الله  
خالداً أن يدخلها من موضع يقال له ( الليط ) ، وكان خالد رسول الله صلى الله عليه وسلم على  
جميع جند القبائل ممن عدا المهاجرين والأنصار ، وكان أوائل أربعين من ثلاث الجيوش  
كله . وهذا بلا ريب تقدير عظيم لمكانة خالد العسكرية وبطولة الحربية وفكره على  
سياسة الرجال من مختلف القبائل والطيون ، وفتح مكة الذى أمر به رسول الله صلى الله  
عليه وسلم خالداً على هذا الجمع العظيم كان أعظم الفتح حركات الإسلام الأولى ، سمى  
الله تعالى فى القرآن الكريم فتحاً مبيناً .

فتأمر خالد على ثلاث جيش يقوده رسول الله بنفسه فى أعظم فتح عند المسلمين

يومئذ دليل ساطع على ما لهذا البطل العبقري من البصر النافذ في سياسة الحرب وقيادة الجيوش .

إسلام أبي  
سفيان وهيبه  
المسلمين في  
قلبه

وقد رأى أبو سفيان بن حرب ووصف من حال جيش الفتح ما يصور حال قريش وما أصابها من الفرق والفرع ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه العباس حين تشهد أبو سفيان شهادة الحق : انصرف يا عباس فاحبسك عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله ، قال العباس فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرت به الكتائب على راياتها حتى مر رسول الله في كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق . فقال أبو سفيان : من هؤلاء يا عباس ؟ قلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ؛ والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً . قال العباس : ويعك يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعيم إذاً ، قلت : الحق بقومك فخرهم . وكان العباس حين استأمن لأبي سفيان حتى أسلم قد قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً يكون في قومه ، فقال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

وهنا موطن من موطن التأمل ، فهذا لون براق من حرب الأعصاب الذي يقصد به إشاعة الفرع في قلوب الأعداء حتى تخور قواهم وتنشف معنوياتهم ، ويتحلل تماسكهم ، وهو ما نحقق ؟ فقد دخل المسلمون البلد الحرام دون قتال إلا ما كان من البطل الصندي خالد بن الوليد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى قواده وأمرائه ألا يقتاتوا إلا من قائلهم ، واسكن خالداً لقي بعض غطارفة قريش لا تزال حمية الجاهلية تنبع في أنافهم ، وأجهروا على قتال المسلمين ، وكان فيهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو في ناس من بني بكر ، وقوم من بني الهون ، وبني الحارث وبني المصطلق ممن يسمون بالأشجاء لثعالفهم بأسفل جبل يقال له « حبش » وكان من البكر بن حماس بن قيس الذي أعد للمسلمين سلاحاً ، فقال له امرأته : لماذا تعد ما أرى من السلاح ؟ فقال لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أراه يقوم لمحمد شيء ، قال :

والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم أنشد :

إن تقبلوا اليوم فمالي علة هذا سلاح كامل وآله  
وذو غرارين سريع السلة

فلما لقي القوم خالد في أصحابه ، وناولوهم شيئاً من القتال وأحسوا حرارة السيوف  
فرحماس لا يلوى على شيء حتى دخل بيته ، وقال لا مرأته ألتقي على بابي ، قالت : فأين  
ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر سفوان وفر عكرمة  
واستقبلتهم بالسيوف المسددة يقطعن كل ساعد وجميعه  
ضرباً فلا تسمع إلا غنمه لم نهيت خالداً ونممه  
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

ولما علا رسول الله صلى الله عليه ثنية كداء نظر إلى البارقة على الجبل مع فئس من  
المشركين قال : ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ قال المهاجرون : نطعن أن خالداً أمرنا  
وبدئ بالقتال فلم يكن بد أن يقاتل من قاتله ، وما كان يا رسول الله احب اليك ، ولا  
ليخالف أمرك . ثم قال لخالد : لم قاتلت ، وقد نهيتك عن القتال ؟ قال : هم بدأوا  
ووضعوا فينا السلاح ، وأشعرونا النبل ، وقد كلفنا ما استطعنا ، فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : قضاء الله خير .

خالد يدافع

وفي رواية أن خالداً أنال قريشاً شيئاً من القتل ، فجاء رجل من قريش ، فقال  
يا رسول الله ، هذا خالد بن الوليد قد أسرع في القتل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم  
لرجل من الأنصار عنده : يا فلان ، قال إياك يا رسول الله ، قال إياك يا رسول الله ،  
قل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن لا تقاتل أحداً ، فقال الأنصاري ،  
فقال : يا خالد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تقاتل من أحببت ، فإني معك .  
فقتل سبعين رجلاً من أهل مكة فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم رسول من قريش ،  
فقال يا رسول الله هلكت قريش ، لا فريش بعد اليوم ! قال : ولم ؟ فقال : لا .  
لا يلتقي أحداً من الناس إلا قتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انزع يدي عنك ، فقال :  
أتى إليه خالد ، قال : يا خالد ألم أرسل إليك أن لا تقاتل أحداً ؟ قال : بل أرسلتني

أن أنزل من قدوت عليه ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : ادع لي الأنصارى ، فدعاه له ، فقال : ألم آمرك أن تأمر خالداً أن لا يقتل أحداً ؟ قال : بلى ، ولكنك أردت أمراً وأراد الله غيره ، فكان ما أراد الله .

هذه الرواية مما لا نطمئن إلى تفصيلاتها ، لأننا نستبعد جداً أن يأمر رسول الله رجلاً بأمر في رسالة يبلغها إلى قائد من قواده ، يعصم بها دماء الناس ، وأرواحهم ، ثم يخالف هذا الرسول أمر رسول الله ، فيبلغ القائد أمراً آخر على تقيضه ، يبيح فيه الأنفس والدماء ، ويكون سبباً في قتل هذا العدد من رجال قريش معاندة لأمر رسول الله في قومه ، ثم يحتج نفسه بهذه الحجة الجدلية ، فيسكت لها النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرضى عنها رضا لا يكون منه تأديب يرشد الناس إلى توقيف أوامر النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغ رسالته على أبلغ درجات الأمانة والصدق . هذا بعيد ، بعيد .

وهي في جملتها ونذيجتها متمشية مع رواية مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد ، وبعث الزبير على الأخرى ، وبعث أبا عبيدة على الحسر ، فقال لي : يا أبا هريرة اهتفلي بالأنصار فهتفت بهم فجاءوا فأطافوا به ، فقال : أثرون إلى أوباش قريش وأتباعهم ؟ ثم قال باحدى يديه على الأخرى : احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفاء ، قال أبو هريرة : فانطلقنا فما نشاء أن نقتل أحداً منهم إلا قتلناه ، فجاء أبو سفيان فقال : يا رسول الله ، أبحث خضراء قريش لا قريش بعد اليوم ! ! فقال صلى الله عليه وسلم : من أغلق باباً فهو آمن . وهذا أثبت وأقوم .

وقد رويت روايات كثيرة مختلفة ، وما ذكرناه أمثلها ، وقد ترتب على اختلاف الروايات في المتن ، تفريعات للعلماء والمؤرخين . ولكن موت خالد من هذه الأحداث هو موقف البطل الذي تأتي بطولته إلا أن تكون عنواناً عليه في جميع مواقفه .

\*\*\*

أعز الله يفتح مكة دينه ، ونصر جنده ، وأقربه عين رسوله فأراه البلد الذي عانده ، وباهض دعوته وأخرجه عنده وهو أحب بلاد الله إليه ، يدخل في طاعته طوعاً وكرهاً ، خالد يحطهم العزى .

وأراه قريشاً واسطة عقد العرب تستجيب إليه راضية خاضعة ، فيبذل خانها حتى كأنما كان هذا الفتح المبين ميلاداً جديداً لها ، لأنه طهرها من دنس الزرابة بالقتل الإسماني ، وانتشلها من وهدة الوثنية البليدة ، وأراها أصدانها تنفتحت إلى حبات من الرمال تحت أقدام جند التوحيد ، فلتقد طهر النبي صلى الله عليه وسلم حرم الله وبيته من رجس « هبل » و « اللات » و « ذراريهما » من أحجار الصحراء ورضراضها ، ورضبت قريش منه هذا التطهير راغمة ، ولكنها لحظة في دورة الملك حتى أدركت فداركت ، وهمت فنفتت ، وعزمت فوصلت ، كانت صاحبة اللواء الأعظم في فتوحات الإسلام ، وكان فتانها حماة الدعوة وأبطال الجهاد ورسول إنقاذ الإنسانية من وصمة النعباء أمير باريء الوجود رب العالمين .

\*\*\*

أتم الله على رسوله صلى الله عليه وسلم نعمة الفتح وتطهير البيت من الأسماء ، ونظر إلى قريش مستسلمة ، وإلى مكة آمنة فلم يثنه ذلك عن متابعة الجهاد وراء حدود مكة الحرام أينما حلت قريش من العرب ، فأذاع خضعت في بلدتها وحررها وأمر أن ترفع راية رآى عينها ، فليلاحقها انكسار الوثنية وتخطيها أينما توجهت حتى يسود بها طاعة التوحيد في ظل الإسلام ، وإذاهوى « هبل » من علياء البلاء القمعية في أسمة عابدة إلى حقيقة الترابية ، فتلك هي « العزى » لا تزال قريباً من مكة رمية سهم ساء ، ماعوف ، معبودة معظمة من كناية ومضمر ، تزورها قريش ، وتحنى أمام صخورها أهواءها ، وهي إليها نفائسها ، وتقرب بين يديها قرايينها ، ويقوم على سدانها بنو تميم - ساميها - تميم سنام قريش وذروتها ، وهذا عرق معرق من أعراق الوثنية لا يزال في قريش راسخاً ، ولا يتم إشراق نور الإسلام في حنايا أفئدتها إلا باستئصاله ؛ فمن العرب الجذوة العنكبوتية « هبل » ؟ ذاك الفقى الخزومي سيف الله خالد بن الوليد .

أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبطل الإسلام الأول علي بن أبي طالب أن يعظم « هبل » ويرى قريشاً أنها كانت في عبادته من الخاطئين ، فكان ذلك سروراً لرب النبوة أى شرف ؛ ثم التفت النبي صلى الله عليه وسلم فرأى سيف الله وارس الإسلام ، وأمير جحافل الفتح خالد بن الوليد ، وكان قد أعده للعطاش ، ورشحته للخيالة ، فجعله



في هذا الشرف العظيم عدل على ، وعلى من رسول الله بمنزلة هارون من موسى عليهما السلام ؛ فكان ذلك من أعظم التكريم لفتى مخزوم .

وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً في ثلاثين فارساً من جند الإسلام إلى « العزى » يحطمها ويححو عار عبادتها عن قومه ، وتراعى نبأ المسير الخالدي إلى سدنة « العزى » فطافوا بها وواعدوها الفتك بمن يهتك حرمتها ويكشف سترها ، ثم جهزها صاحبها « دية » بن حرمي السلمي بسيف صارم علقه عليها ، وتنحى عنها مصعدا في الجبل وهو يخالفها النظر ، وينشدها منذراً متوعداً :

أيا عز شدى شدى لا شوى لها على خالد ، ألقى التناع وشمري  
ويا عز إن لم تقنلى اليوم خالدا فبوئى بإيهم عاجل أو تنصرى  
إي والله لقد اختارت عزاك - يا أخا شيبان - وما بها اختيار - أمر أمريك ،  
فبأت بإيهم عاجل ، وبؤت معها بشر من إيهم ، فخطمكها خالد تعطيها ، وهو يسخر  
منك ومنها .

يا عز كفرانك ، لا سبجانك إني رأيت الله قد أهانك  
ثم رجع خالد رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل إليه بشرى.  
الظفر باجنثا جذر من جذور الوثنية المهينة .



الفصل الخامس  
خالد بن بني جذيمة

خالد في قصة بني جذيمة - روايات القصة - الرواية الأولى - مناقشة في هذه  
الرواية - رواية أخرى - أغرب روايات القصة - نقد وتمحيص - أمثل الروايات - مناقشة  
ونرجيع - تأويل في رواية - استئناس .



كان فتح مكة من أقوى الحوافز على انتشار الدعوة الإسلامية في قبائل العرب بين أودية الجزيرة ووهادها ، فقد حمل أبناؤها من فتيان قريش المشعل في أيماهم ، وقبضوا على السيف بشمائلهم ، وانساحوا في الأرض داعين إلى الله تعالى بالحجة النيرة والبرهان المبين ، فمن قبل ورضى فهو أخو المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ؛ ومن أبى واستكبر ووقف أمام الحق منحوه السيف ليتذوا الحياة من شره المستطير .

لم يكد خالد رضى الله عنه يفرغ من أمر « العزى » حتى أرسله النبي صلى الله عليه وسلم أمير سرية من ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار إلى بني جذيمة بأسفل مكة من ناحية يلم ، فسار إليهم حتى نزل بأصحابه على ماء لهم يقال له « النميماء » وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أمره أن لا يقاتل أحداً إن رأى مسجداً ، أو سمع أذاناً .

وهنا تختلف روايات التاريخ في شأن هذه الواقعة مبتدأ وخبراً كعهدنا بها في كبريات الحوادث ، وبحسب هذا الاختلاف يختلف تصوير موقف خالد في هذه القصة ، وهذا الاختلاف من أقوى الأسباب التي تحملنا على التوقف في التسليم إلى هذه الروايات المتضاربة وعلى أن نعتمد إلى الموازنة بينها ، واستنباط ما نطعن إليه من الرأي والمذهب .

يقول صاحب « الخميس » نقلاً عن الاكتفاء : « لما فتح الله على رسوله مكة بعث السرايا فيما حولها يدعو إلى الله تعالى ، ولم يأمرهم بقتال ، وكان ممن بعث خالد بن الوليد ، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً ، ومعه قبائل من العرب ، فوطئوا بني جذيمة ابن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فقال رجل منهم يقال له جعدهم : ويلكم يا بني جذيمة ! إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر ، وما بعد الأسر إلا ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحى أبداً . فأخذهم رجال من قومه ، وقالوا : يا جعدهم ! تريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضع الحرب ، وأمن الناس ، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح إجابة لقول خالد .

« فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل منهم ؛ ( م ٦ — خالد بن الوليد )

وقال لهم جحدم ، حين وضعوا سلاحهم ورأى ما يصنع بهم : يا بني جندمة ضاع الضرب ، قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه .

« فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ؟ ثم قال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل انفلت منهم ، فأتاه بالخبر ، هل أنكر عليه أحد ؟ فقال : نعم ، قد أنكر عليه رجل أبيض ربة ، فنهمة (١) خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل آخر مضطرب فراجعته فاشتدت مراجعتيها ، فقال عمر بن الخطاب : أما الأول يا رسول الله فابى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبي حذيفة . »

مناقشة هذه الرواية تذكر أن القوم استقبلوا خالداً في أهبة الحرب أخذى سلاحهم ، مستعدين للقتال ، ففاوضهم خالد في وضع السلاح وأنبأهم أن الناس قد أسلموا ، وأبى عليه رجل منهم ، وحرص قومه على الإباء ، فلم يسمعوا له ، ولم يزالوا به حتى نزع سلاحه مع أسلحتهم ، فأمر خالد بهم فأوثقوا ، وقتل من قتل منهم ، وخالفه في ذلك عبد الله ابن عمر ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ولما بانغ الحادث النبي صلى الله عليه وسلم بسببه إلى الله مما صنع خالد بهؤلاء القوم .

ويرى الذين يأخذون بهذه الرواية أن حمل السلاح في وجه المسلمين عند موتى لحاله فيما صنع بالقوم ، ولا سيما أن نزع السلاح منهم كان بعد مناوشة ونخبة ، فلهذا أقرب إلى احتمال التقية والاستتار . ولكن المعترضين لا يتناولون هذا الاعتراض ، ويستندون مذهبهم بالنكار عبد الله بن عمر ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وهما من كبار المهاجرين وأجلّاهم علماً وسابقة ، وبراءة النبي صلى الله عليه وسلم مما صنع خالد ، ويمنذونه بما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت كائناً لهفت لسة من حيس فالتذت طعمها فاعترض في حلق منها شيء حين ابتاعها فأدخل على يده فأنزعه » فقال أبو بكر : « هذه سرية من سراياك تبعها فأتاك منها بعض ما نحب ، وبإذن في بعضها اعتراض ، فتبعث عليا ، فيسبله » .



« ولما كان من خالد في بني جذيمة ما كان ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب فقال له : « يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » فخرج على حتى جاءهم ، ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليدي لهم ميلة الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال فقال لهم على حين فرغ : أبقى دم أو مال لم يود لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإني أعطيك هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يعلم ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال له : أصبت ، وأحسن .

والعاذرون لخالد رضي الله عنه يردون على ذلك بأنه كان فيمن وافق خالداً ولم ينكر عليه من جلة المهاجرين والأنصار كثرة ممن لا يقل فقها في الدين وتقديراً للحوادث ، وشجاعة نفس عن عبد الله بن عمرو وسالم مولى أبي حذيفة ، وبعيد أشد البعد أن يزعم زاعم أن سائر من كان في هذه السرية من علماء الصحابة قد رأى أنسكروا ما ينكر في الدين من قتل قوم مؤمنين وسفك دماهم ، ثم يسكت فلا يغير على خالد . وإنما الذي نفهمه أن إنكار عبد الله بن عمرو وصاحبه سالم كان بضرب من التأويل ، قد تكون العجلة من جهة خالد وأزرتة ، ومن هنا نفهم براءة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله بما صنع خالد في هذه الواقعة حين بلغه الخبر ، وحاشا أن تكون براءته من أجل أن قوماً مؤمنين اعتدى عليهم قائد إحدى سراياه فقتلهم مراغمة ، ثم لا يقتص منه ، ولا يعزله عن الإمارة . وأما المال الذي دفع إلى بني جذيمة على يد علي بن أبي طالب فليس فيه رائحة القصاص ، وإنما هو من قبيل الترضية والاحتياط وتعويض من بقي منهم مؤمناً .

يقول الواقدي في المغازي : « ثم مضى خالد بن الوليد إلى حى من كنانة بالأبرق ، رواية أخرى يقال له بنو جذيمة ، فوجدهم يصلون صلاة الغداة فنشئهم خالد ، فقال : ما أنتم ؟ قالوا : نحن مسلمون ، نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، قال فمضى أسلمتم إن كنتم صادقين ؟ قالوا الليلة — حين بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كف يده عمن ألقى السلاح ، وقال : لا إله إلا الله ، فقلنا ها وصلينا » .

هذه الرواية صريحة في أن خالداً غشى القوم وهم يصلون صلاة الغداة ، وأنهم شهدوا

شهادة الحق بين يديه ، وأن إسلامهم كان ليلة غشيهم ، وأنهم لم يحملوا السلاح في وجهه .  
سرية خاله ، وكل ذلك يدل على أنه لا يجوز قتل أحد منهم بغير حجة وجب ، فكيف  
قتل خاله من قتل منهم ؟ ، قد يجد المتأمل في رواية الواقدي احتمال التقية بهذا الإسلام  
الذي أحدثوه ليلة غشيهم المسلمون قائما ، وخاله قد أبدى شكاً مريباً في إسلامهم بقوله :  
فمضى أسلمتم إن كنتم صادقين ، ومن أين لنا أن الذين قتلهم خاله من القوم هم الذين  
كانوا يصلون صلاة الغداة ، وهم الذين أسلموا وشهدوا بين يديه شهادة الحق ؟

أغرب  
روايات  
القصة

وأعجب ما روى التاريخ في شأن خاله رضى الله عنه وبني جذيمة ما ذكره ابن هشام  
في سيرته ، وعرض له الطبرى وابن الأثير عرضاً عابراً ، قال ابن هشام : « وقد كان  
بين خاله وبين عبد الرحمن بن عوف كلام في ذلك ؛ فقال له عبد الرحمن بن عوف :  
عملت بأمر الجاهلية في الإسلام ، فقال خاله : إنما أثرت بأبيك ، فقال عبد الرحمن : كذبت  
قد قتلت قاتل أبي ، ولكنك أثرت بعلمك الفاكه بن المغيرة ، حتى كان بينهما شر ،  
فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : مهلاً يا خاله دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان  
لك أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته ؛  
قال ابن هشام : وكان الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وعوف بن  
عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة ، وعفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس  
قد خرجوا تجاراً إلى اليمن ، ومع عفان ابنه عثمان ، ومع عوف ابنه عبد الرحمن ، فلما  
أقبلوا حملوا مال رجل من بني جذيمة بن عامر كان هلك باليمن إلى ورثته ، فادعاه  
رجل منهم يقال له خاله بن هشام ، ولقيهم بأرض بني جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل  
البيت فأبوا عليه ، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه ، وقابلوه ، فقتل عوف  
ابن عبد عوف ، والفاكه بن المغيرة ، ونجا عفان بن أبي العاص ، وابنه عثمان ، وأصابوا  
مال الفاكه بن المغيرة ، ومال عوف بن عبد عوف ، فانطلقوا به وقتل عبد الرحمن  
ابن عوف خاله بن هشام قاتل أبيه ، فهمت قريش بنزول بني جذيمة ، فقالت بنو جذيمة  
ما كان مصاب أصحابكم عن ملائمتنا ؛ إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم ، ف نحن  
ننقل لكم ما كان قبلنا من دم أو مال ، فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب . »

فهذه الرواية أو الأقصوصة ترى أن خالد بن الوليد رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمير سريره للدعوة إلى الإسلام ، وقائد جند الله ، صنع ما صنع في بني جذيمة من قتل وسفك دماء شفاء لحزارة نفسه وهواه ، وإجابة لداعى الحمية الجاهلية في الأخذ بثأر عمه الفاك بن المغيرة - على ما تزعمه الرواية على لسان عبد الرحمن بن عوف - أو الأخذ بثأر عوف بن عبد عوف ، والد عبد الرحمن - على ما تزعمه الرواية إقراراً لا التواء فيه على لسان خالد بن الوليد نفسه - فيكون خالد حينئذ قد قتل قوماً ذوي عدد من المسلمين معصومي الدم برجل كافر قتل في جاهلية عمياء .

وتزعم الرواية أن عبد الرحمن بن عوف قد أنكر على خالد صنيعه هذا الذي تعدى به حدود الإسلام ، وعمل فيه بعمل الجاهلية ، وجرى بينهما كلام في ذلك ارتفع إلى حد الخصومة والاحتجاج حتى بلغ أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن منه إلا زجر خالد عن مخالطة عبد الرحمن ، وبيان فضل عبد الرحمن .

وأما أصل القضية وجانبها الأهم منها ، وتلك الدماء المعصومة المهددة المسفوكة بغير ذنب إلا أمر الجاهلية وحميتها ، فلم يخرج لها ذكر في هذا الموضع من كلام النبي صلى الله عليه وسلم على ما تزعمه هذه الرواية العجيبة ! !

وقد يتشبت بعض الباحثين في تصحيح هذه الرواية بما رواه ابن هشام وغيره ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه ما صنع خالد في بني جذيمة دعا علياً كرم الله وجهه ، فقال له : « يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم ؛ فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ، فخرج على حق جاء ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فودى لهم الدماء ، وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدي مبلغه السكاب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه ، بقيت معه بقية من المال فقال لهم على رضى الله عنه حين فرغ منهم : هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم ؟ فقالوا : لا ، قال : فاني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يعلم ، ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال : أصبت وأحسن ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى ليرى ما تحت منكبیه يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات .

فهذه الرواية تصرح بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر علياً بأن يجعل أمر الجاهلية تحت قدميه ، وليس في القصة أمر جاهلية سوى الأخذ بالثأر على عادة العرب قبل الإسلام في تعدى الحدود وتجاوز العدل ، وهذا هو الذي عابه عبد الرحمن بن عوف على خالد في زعم الرواية .

\* \* \*

إن الباحث ليقف من هذه الرواية التي تداولتها أكثر كتب التاريخ والسيرة ، موقف الشاك فيها شكاً يقودها إلى الرفض والتزيف ، حتى يتبين وجه جديد يدفع البحث إلى وجهتها البعيدة ، وليس لها في العقل المسلم وجه من التأويل .

وإنما نبى هذا الشك — وإن شئت فقل هذا الرفض — على دعائم استقامت في نظرنا فلم تجد ما يدفعها :

أولاً — إن هذا الحادث الجاهلي — على فرض صحته — تسجل الرواية نفسها أنه كان قد سوى فيما بين قريش وبنى جذيمة طبقاً لما تعارفوه من قواعدهم الجاهلية ، ورضيت قريش هذه التسوية رضاء العزيز القادر ، وهذا حكم في قوانين الجاهلية لا يقبل التمسك ، والعرب قاطبة ترى نقضه شيئاً من الشين ، يعير به صانعه ، فلو سلمنا بما في الرواية أن خالد بن الوليد سليل قريش أشد قبائل العرب تمسكاً بقواعد العرب ومحافظة على قيمها ، ورضاء بعرفها ، من أكثر الناس استهتاراً بتلك القواعد ، واستهانة بتلك القوانين . وذلك العرف ، ولسان مثلاً مضروباً في العذر ونكث اليهود ، وهذا أبعد ما يكون . من أخلاق الأبطال وفرسان الحروب ، وخالد بن الوليد في طليعتهم في الجاهلية والإسلام .

ثانياً : هذه الرواية تزعم أن عبد الرحمن بن عوف قد أنكر على خالد ، أشد الإنكار حتى لج بينهما الخصام فرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحن ننسأل من كان هذا الإنكار ؟ ! أكان قبل قفول السرية إلى المدينة ؟ فذلك مدفوع برواية المتفلس من بنى جذيمة إلى المدينة ليستصرخ النبي صلى الله عليه وسلم لقومه كما تزعم الرواية ، وقد سأله النبي صلى الله عليه وسلم بمحضر عمر بن الخطاب وكثير من الصحابة : هل أنكر عليه أحد ؟ فقال : نعم قد أنكر عليه رجل أبيض ربة فزجره خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل مضطرب فراجعته فاشتدت مراجعتهما ، فقال عمر : أما الأول فابى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبي جذيمة ، ولم يذكر معهما مطلقاً عبد الرحمن بن عوف ،

وهو أجمل منهما ، وقد كان إنكاره الذي زعمته الرواية أشد من إنكار ابن عمر وسالم .

أم كان هذا الإنكار من عبد الرحمن بن عوف بعد قفول السرية إلى المدينة ؟ فإن زعم هذا زاعم فلا بد من التساؤل ، لماذا أخر عبد الرحمن إنكاره على خالد حتى رجع إلى المدينة ، وقد كان في جند خالد في هذه السرية ؟ أفيستطيع أحد عارف بأخلاق عبد الرحمن بن عوف ومكانته في الإسلام أن يقول : إن ذلك قد كان منه جبناً عن خالد وخشية منه ، وهو الذي وضع عمر بن الخطاب في يده أمر الخلافة من بعده ، وجعله رأس رهط الشورى ؟ !

وإن كان لسبب آخر فلا بد من بيانه حتى يدار النظر في قيمته من الحق كما يقول علماءنا .

ثالثاً : إن هذه الرواية لا تحتل إلا فهماً واحداً لا يقبل التأويل ، ذلك أن خالداً — بزعم الرواية — يكون قد تعمد مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم لسبب ينكره الإسلام أشد الإنكار لأنه بعثه داعياً إلى الإسلام ، ولم يبعثه مقاتلاً ، وأنه قتل قوماً أقروا له بالإسلام ، وشهدوا بين يديه شهادة الحق ، وآثم يسلون — والصلاة أعظم شعائر الدين — برجل كافر قتل في الجاهلية ، وصولح قومه على قتله ، فكان أقل ما يستحقه خالد على فعله هذا أن يقتل منه النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أن ينكل به زجراً لمن تحدته نفسه بخرق قوانين الشريعة والعيب بها . وهل يتوهم مسلم ، لا بل هل يتوهم إنسان يقدر النبوة حق قدرها أن النبي صلى الله عليه وسلم يداهن في حد من حدود الله ؟ !

والروايات كلها شعبة على أنه صلى الله عليه وسلم لم يذكر لخالد حين رآه شيئاً من عتاب ، ولم يزل خالد في مكانه من فلب رسول الله ، ولم يعدل به أحداً من أصحابه فيما حربه ، وبقى على مكانه من الإمارة لم يعزل عنها مدة حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : أية قيمة تبقى للإسلام خالد إن صحت هذه الرواية ؟ فهي تجعله رجلاً قد اتخذ من الإسلام ستاراً لإشباع شهوة جاهلية . لا نقيم للإسلام وزناً ، ولا نرعى لأصوله عهداً ، ولم يزن خالد بن الوليد في دينه بريية تنزل به إلى هذا الدرك السحيق منذ أسلم وجهه لله تعالى ، بل المتواتر المتصاغر أن خالداً ظلت مكانته عند رسول الله هي مكانته التي أحله الله

من قلبه ، وظل به حليماً يقرظه ويثنى عليه ، وسيأتيك نبؤه في غزوة حنين ، ويستحيل على مقام النبوة أن يرفع مكانة رجل قد وقع منه بعض ما تزعم هذه الرواية الزائفة أنه وقع من خالد بن الوليد إلى حيث خاله في الإسلام على الشأو رفيع العماء .

خامساً : أن السكامة التي جاءت في رواية بعث على رضى الله عنه لتلافي خطأ خالد ، وهي « واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ليست بواجبة الحمل على ما زعمته الرواية من أمر الفاكه بن المغيرة وثأر خالد له ، بل هي قرينة الحمل على رسم الخطأ التي يسير عليها على في تلافي ما وقع من الخطأ ورضية القوم ، وأنها خطئة يجب أن تكون إسلامية خالصة ، يحمل عليها بنو جذيمة ، مطرحين أمر الجاهلية من القتل الظالم وتعدد الديات ومضاعفاتها ، وأن يرضوا بأمر الإسلام في أمرهم ، ولا سيما والناس قريو عهد بجاهلية جهلاء ، ومن ثم عمد على رضيتهم ، وتطبيب خوارطهم بما زاد في إعطائهم من المال تأليفاً لقلوبهم ، ونشيطاً لأفئدتهم ، وقد استحسن منه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فصوبه ، وحسن فعله .

ولو صحت هذه الرواية الباطلة فكيف يمكن فهم موقف النبي صلى الله عليه وسلم من خالد ، وهو يصرح - في زعم الرواية - عند تقاوله مع عبد الرحمن بن عوف أنه صنع ما صنع لثأر الجاهلية ؟ فهل يكفي في هذا الموقف أن يبرأ رسول الله إلى الله من ما صنع خالد ؟ وهذا أقصى ما علمناه جاء في صدد الإنكار من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان هذا الموقف - على ما تذكره الرواية - مما تصححه الدية وتوزيع الأموال ؟

وبعد فهذا عرض وتحليل إجمالي لروايات دارت عابها القسمة في كتب السيرة والتاريخ ، ولكننا لا نجد في أنفسنا اطمئناناً إليها ، وحسبنا أننا وجهنا البحث فيها وجهة الكشف عن الأثر الذي تتركه أمثال هذه الروايات في إبعاد الحقيقة عن قلم الباحث إذا استسلم لها ، وليس يكفي أن توجد الرواية أو الأقصوصة في كتاب مشهور من كتب الأولين ، بل يجب البحث عن قيمة ذلك الكتاب في تجميع مروياته ، ويجب تعرف مقدار صلة تلك الرواية بعالم الشخصية التي تتحدث الرواية عنها .

وهذا نهجنا في كتابة حياة من نكتب حياتهم من رجال الإسلام ، نعود إلى أن نرسم الخطوط الأولى لتلك الشخصية من ألوانها الثابتة الأصلية ، ثم نعمل ذلك أساساً



المبحث . وقد عرفنا أن شخصية خالد رضى الله عنه كما عرفها التاريخ الصحيح أبعد ما تكون عن هذه المداورات الغادرة التي ترونها تلك الأقاصيص .

أما وجه القضية في هذه القصة فستراه واضحاً أشد الوضوح فيما سنسوقه إليك بعد من رواية البخارى عن عبد الله بن عمر ، وهو شاهد عيان ، لا يصح العدول عن روايته في البخارى إلى رواية غيره في كتاب غير كتب الصحيح ، وسترى عذر خالد قائماً على حميته الإسلامية التي دافع عنها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا تؤذوا خالد فإنه سيف من سيوف الله ، سله على المشركين » .

\* \* \*

أمثل  
الروايات

روى البخارى عن عبد الله بن عمر قال : « بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صباءنا ، صباءنا ، فجعل خالد يقتل ويأسر ، ودفع إلى كل رجل منا أسيره ، فقلت : والله لا أقتل أسيرى ، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره ، حتى قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم فذكرناه ، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يده ، فقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ؛ مرتين » .

مناقشة  
وترجيح

هذه هي الرواية التي نعتد عليها في فهم هذه القصة ، لأنها :

أولاً : وردت في كتاب أجمعت الأمة على اعتقاده في أخذ دينها وفروع شريعته ، لما تواتر عن مؤلفه العظيم من الدقة في فحص حال الرواة ، واختيار أفضلهم حفظاً وجودة أداء وحسن تاني ، وبعداً عن مزالق العصبية المذهبية أو الطائفية ، وأبلغهم في تحري الصدق والخشية لله تعالى .

ثانياً : رواية مستقيمة النسيج ، لا اضطراب فيها ، لم تدخل حادثة في حادثة ، ولا مزجت حديثاً بحديث ، فهي تحكي الواقعة منذ بدأت إلى حين انتهائها في أسلوب موجز محكم ، يؤدي لباب الغرض في منأى عن الخيال وتلاعبه .

ثالثاً : رواية شاهد معان ، اشتهر بالدقة والتحرى ، وكان زعيم المنسكرين على أمير السرية صديقه ، واحتفظ بأسيره فلم يقتله ، وأمر أصحابه فصنعوا مثل صديقه ، فأحربه . أن يحدث النبي صلى الله عليه وسلم بما رآته عيناه ووعته أذناه .

هذه الرواية الصحيحة نروى أن خالداً رضى الله عنه دعا بنى جذيمة إلى الإسلام كما أمر رسول الله صلى عليه وسلم ، وتذكر هذه الرواية أن القوم لما دعاهم أمير السرية إلى الإسلام لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، وهذا صريح في أن خالداً لم يبدأ القوم بقتال ، ولا أظهر لهم نية في القتال ، بل دعاهم إلى الإسلام كما أمره النبي صلى الله عليه وسلم ، وصريح في أنهم لم يحسنوا الأخبار عن إسلامهم أى دخولهم في الإسلام وإيمانهم بالله وبرسوله ! ففهم عبد الله بن عمر ومن كان معه من أصحابه أن القوم مسلمون بعقيدتهم ، ولم يبال العنوان عن هذه العقيدة أن يكون صريح كلمة التوحيد أو ما يؤدي إلى فهم معناها ؛ وعذر القوم بجهلهم وقبل منهم في حقن دماءهم قولهم : صباءنا .

وفهم أمير المسلمين خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار أن ذلك كان من القوم تقية ، واستبعد أن لا يحسنوا التعبير عن إسلامهم بعنوانه الذى ارتضاه الله للناس ، وهو كلمة التوحيد التى أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقاتل الناس حتى يقولوها ، فإذا قالوها فقد عصموا دماءهم بها ، فلم يكتف خالد من القوم بما اكتفى به ابن عمر ، وخالد أمير الناس ، ولم يرضه عدولهم عن عنوان الإسلام إلى هذه الكلمة ، ووجد منهم إصراراً ، قال بدر الدين العيني في شرح البخارى : « وقريش كانوا يقولون لكل من أسلم صباءً فمن ذلك فهم ابن عمر أنهم أرادوا الإسلام - تقية ، وأما خالد فإنه لم يكتف بذلك حتى يصرحوا بالإسلام » .

ويرشح عذر خالد رضى الله عنه في عدم اكتفائه بقولهم « صباءنا » أن هذه الكلمة كانت عندهم كالتعبير والسب ، وكان كثير من المسلمين إذا قيل له : صباءت ، أنف من قبولها . وهذا خالد بن الوليد نفسه حين خرج مسلماً يأبى أن يقول له غارمة بن أبى جهل « قد صبوت يا خالد » فيقول « لم أصب ولكنى أسلمت » وذلك عمر بن الخطاب في قصة إسلامه يصرخ به جميل بن معمر الجهمي في أندية فريش « ألا إن عمر بن الخطاب قد صباء » وعمر خلفه يقول « كذبت ولكنى قد أسلمت وشهات أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » وهذا ثماله بن أثال الحنفى ، وقد أخذته خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد العمرة فأسلم وبشره النبي صلى الله عليه وسلم وأمره

بالعمرة ، فقال له قاتل بمكة « صبت يا ثماله ؟ » قال : لا ولكني أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أفلا يعذر خالد رضى الله عنه إذا لم يرض من القوم في التعبير عن إسلامهم وإعلانه قولهم « صبأنا » وهو نفسه مع أولئك الأجلة ما كانوا يقبلون على إسلامهم أن يقال فيه صبوا ؟ بلى ، إن له لعذراً واضحاً ؛ وقد عذره النبي صلى الله عليه وسلم ودافع عنه بقوله : « لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » .

وايست براءة النبي صلى الله عليه وسلم مما صنع خالد إلا بياناً لوجه الخطأ في التأويل ، وعدم درء الحدود بالشبهات ، ولا شك أن قولهم « صبأنا » إن لم يكن إسلاماً صريحاً فإنه شبهة قوية تدرك حد القتل حتى يتبين الأمر ، فالخطأ الذي كانت منه البراءة هو الإسراع وعدم التثبت ، ولذلك لم يعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم مواجهة ، ولم يعزله عن الإمارة وقيادة الجنود ، بل أقره على مكانه وفضله .

وقد عذر أئمة الإسلام بطل الإسلام اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأقاموا له صوى الحق في هذه الحادثة . قال الخطابي : يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام ، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين ، فقتلهم متأولاً ، وإنما نقم رسول الله صلى الله عليه وسلم على خالد موضع العجلة وترك التثبت في أمرهم « وقال الداودي : « لم ير صلى الله عليه وسلم القود في ذلك لأنه متأول » وقال ابن تيمية : « فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فقالوا صبأنا ، فلم يقبل ذلك منهم ؛ وقال إن هذا ليس بإسلام ، فقتلهم ، ولم يكن خالد معانداً للنبي صلى الله عليه وسلم ، بل كان مطيعاً له ، ولكن لم يكن في الفقه والدين بمنزلة غيره ، فخفي عليه حكم هذه القضية . إلى أن قال ابن تيمية : فإن خالداً لم يتعمد خيانة النبي صلى الله عليه وسلم ولا مخالفة أمره ولا قتل من هو مسلم معصوم عنده ، ولكنه أخطأ كما أخطأ أسامة بن زيد في الذي قتله بعد أن قل لا إله إلا الله ، وقتل السرية لصاحب الغنيمة الذي قال أنا مسلم » .

ولعل تأول خالد في حادثة بني جذيمة أقرب وجهاً من تأول أسامة في الرجل الذي قتله بعد اعتصامه بكلمة التوحيد صريحة . قال ابن سعد في الطبقات : وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد الرجل الذي قال لا إله إلا الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا

شقت عن قلبه ؛ فتعلم صادق هو أم كاذب ١١٤ » وقال الطبري : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله السكابي إلى أرض بني مرة ، فأصاب بها مرداس بن نهيك حليفا لهم من الحرقة من جهينة ، فقتله أسامة بن زيد ورجل من الأنصار . قال أسامة : لما غشيناه قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فلم تنزع عنه حتى قتلناه ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرناه الخبر . فقال : يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟

وفي معالم التنزيل عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً الآية » في رجل من بني مرة بن عوف يقال له : نهيك بن مرداس ، وكان من أهل فداك ، وكان مسلماً لم يسلم من قومه غيره ، فسمعوا بأن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم تريدهم وكان على السرية غالب بن فضالة اللبثي ، فهربوا ، وأقام الرجل لأنه كان على دين الإسلام ، فلما رأى الحيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فألجأ غنمه إلى حوض الجبل ، فلما تلاحقت الحيل سمعهم يكبرون ، فعرف أنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر ونزل وهو يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم . فقتله أسامة واستاق غنمه ، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجداً شديداً ، وكان قبل ذلك قد سبق ذلك الخبر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقتلتموه إرادة ما معه ١٢ ثم قرأ هذه الآية على أسامة بن زيد ، فقال : يا رسول الله استغفر لي ، فقال : فكيف بلا إله إلا الله ؟ ثلاث مرات ، قال أسامة : فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررها ويدها حتى وددت أني لم أكن أسامة إلا يؤمئذ ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لي بعد ثلاث مرات وقال : أعتق رقبة .

\*\*\*

قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم تأول أسامة واستغفر له ولم يغلظ عليه كما غلظ على محم ابن جثممة الذي قتل صاحب الغنيمة بعد أن حيا بتحية الإسلام وقال : أنا مسلم ، للعلم بما كان بين نيتهم من فرق عظيم ، فأسامه رضى الله عنه ظن السكامة تقية بدليل قوله كما في بعض الروايات ، إجابة عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقتلته بعد أن قال

لا إله إلا الله ! فقال أسامة : يا رسول الله كان متعوذاً بها من السيف . فكان قتله اجتهاد مجاهد في سبيل الله .

أما محم فقد ابتغى بقتل الرجل عرض الحياة الدنيا ، وطمع فيما كان معه من متاع قليل ، إلى ما انطوت عليه جوانحه من قصد الثأر وشفاء الإحن الجاهلية ، ولذلك كان غضب النبي صلى الله عليه وسلم على محم متميزاً بلون خاص ، قرنه بالدعاء عليه ، ثمات بعد سبع فدفنوه فلفظته الأرض مراراً فألقوه في بعض الشعاب ، وقال عليه الصلاة والسلام : «إن الأرض لتقبل من هو شر منه » وفي رواية عن الحسن أنه قال : «أما إنها تحبس من هو شر منه ، ولكن وعظ النوم أن لا يعودوا » .

قال القرطبي : فإن قيل فتعليظ النبي صلى الله عليه وسلم على محم ونبذه من قبره كيف مخرجه ؟ قلنا : لأنه علم من نبته أنه لم يبال بإسلامه فقتله متعمداً لأجل الحنة (١) التي كانت بينهما في الجاهلية .

وها هنا نكتة تشريعية لطيفة ، وهي عدم القصاص من محم مع العلم بسوء نيته ، تطبيقاً لقواعد الشريعة في إقامة الحدود على ظواهر البينات حتى لا تسفك الدماء وتتلف الأنفس بالشبه ، وفي حادثة محم احتمال التأول قائم في الظاهر كما كان قائماً في حادثة أسامة وحادث خالد مع عدم الشك في خلوص نيتهما وطهارة قصدهما ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم رد على أهل صاحب محم غنيمة وحمل إليهم دينته تأليفاً لهم كما صنع مع بني جذيمة إرضاء لمن أقام على الإسلام منهم ، وبقي خالد وأسامة على مكانهما وفضلهما .

\* \* \*

والتأمل في هذه القصص يرى أن وقفة النبي صلى الله عليه وسلم مع أسامة كانت أشد وأعنف حتى تمتى أسامة أن لو لم يكن أسلم إلا يؤمئذ . ولم يكن له صلى الله عليه وسلم موقف مع خالد في مواجهته مع أن حادث خالد كان أعظم لأن قتلاه على بعض الروايات يربون .

على السبعين ، وقتيل أسامة رجل واحد ، وقد يكون في قبول عبد الله بن عمر وأصحابه أن يأخذوا أسرى من بني جذيمة — كما صرحت به رواية البخاري — وجه وجهه في العذر لخالد ، وأن فضلهم عليه كان في التلبث بأسراهم وأنه هو تعجل فأمر بالقتل وقتل من قتل ، وبعيد جداً أن يكون ابن عمر وأصحابه جازمين بإسلام القوم ثم يقبلونهم أسرى في أيديهم ؟ !

بقيت في القصة رواية جاءت عن ابن اسحاق ، وذكرها المؤرخون وأصحاب السير ، وهي في الطبري وابن هشام والديار بكري ، وهم يذكرونها في معرض الاعتذار عن خالد رضي الله عنه ، قال ابن اسحاق : وقد قال بعض من يندر خالداً إنه قال : ما قتلت حتى أمرني بذلك عبد الله بن حذافة السهمي ، وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تقتلهم لامتناعهم عن الإسلام .

رواية  
وتأويلها

وليس هذا تنازلاً من خالد عن إمارته ، وإنما تأويل ذلك — إذا سمحت الرواية — أن خالد أَدْعَا القوم إلى الإسلام ، فلم يجد عندهم صريحاً ، بل قالوا كلمة مخملة ، فكان من رأى عبد الله بن حذافة قتلهم حتى يسموا إسلاماً لا تلجج فيه ، وفهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالكف عن قتالهم إذا أجابوا إلى الإسلام صريحاً ، فإن امتنعوا فقاتلوا ، وهم قد امتنعوا في رأى ابن حذافة فحق — في نظره — قتالهم وقتالهم على الإسلام ، وقد رفع هذا الرأى إلى أميره فوجد لديه موافقة وقبولاً ، فلما عوتب خالد اعتذر بأنه لم ينفرد برأيه ، وإنما سلك مسلك الإسلام في الشورى فيما لم يكن فيه أمر صريح وقد وافقه على رأيه واجتهاده كثير من سادات الصحابة من المهاجرين والأنصار ، لعل عبد الله بن حذافة كان أشدهم تمسكاً وأجهرهم صوتاً في الأخذ به فأُسند إليه الأمر بالنال .

ومما يستأنس<sup>(١)</sup> به في الاعتذار عن خالد رضي الله عنه ما بسطه أبو العرج في كتاب الأغاني ، وعرض له الطبري وابن الأثير وابن هشام وسواهم ، مما يدل على أن الموم لم تخالط بشاشة الإسلام قلوبهم ، أو في الأقل ، قلوب جميعهم ، بل كان منهم من أقام على

استئناس

(١) في تعبيرنا بالاستئناس ما يشعر القارىء بعدم تعويلنا على رواية أبي العرج وما فيها من تفاصيل تتم على أنها من مسامرات الأدباء المتفكرين ، وبكى منها العذر الذي تنفق فيه مع رواية النسائي في مصنفه وهو من كتب السنة المعتبرة .

كفره لم يفارقه ، ولعل في هؤلاء كانت غمرة الواقعة من خالد وأصحابه .

قال ابن أبي حدرد الأسلمي : كنت يومئذ في خيل خالد بن الوليد فأثرنا في إثر  
ظعن مصعدة ، يسوق بهن فتية ، فقال : أدركوا أولئك فخرجنا في إثرهم حتى أدركناهم ،  
ثم مضوا ووقف لنا غلام شاب على الطريق ، فلما اتهمنا إليه جعل يقاتلنا ويقول :

ارفعن أطاف الديول وارتعن مشى حبيبات كأن لم تفزعن  
إن تمنع اليوم النساء تمنعن

فقاتلناه طويلا فقتلناه ، ومضينا حتى لحقنا الظعن ، فخرج إلينا غلام كأنه الأول  
فجعل يقاتلنا ويقول : —

أقسم ما إن خادر ذولبدته يروح بين أثلة ووهده  
يفرس شبان الرجال وحده بأصدق الغداة منى نبجده

فقاتلناه ، حتى قتلناه ، وأدركنا الظعن ، فأخذناهم ، فاذا فيهن غلام وضىء  
الوجه به صفرة كالمهوك فربطناه برمة وقدمناه لنقتله ، فقال لنا : هل لكم في خير ؟  
قلنا : ما هو ؟ قال : تدركون بي الظعن في أسفل الوادي ثم تقتلونني ، قلنا نفعل ،  
فعارضنا الظعن ، فلما كان بحيث يسمع من الصوت نادى بأعلى صوته : اسلمي حبيش  
بعد فقد العيش ، فأقبلت إليه جارية يضاء حسانة وقالت : وأنت فاسلم على كثرة الأعداء  
وشدة البلاء ، فقال سلام عليك دهرآ ، وإن بقيت عصراً ، قالت : وأنت سلام عليك  
عصراً وشفعاً ترى وثلاثاً وترآ ، فقال :

إن يقتلونني يا حبيش فلم يدع هوالك لهم منى سوى غلة الصدر  
فأنت التي أخليت لحي من دمي وعظمي وأسبلت الدموع على نحري  
فقلت تجييه :

ونحن بكينا من فراقك مرة وأخرى وواسيناك في العسر واليسر  
وأنت فلم تبعد فنعم في الهوى جميل العفاف والمودة في السر  
فقال لها :

أريتك إذ طالبتكم فوجدتكم بحلية أو ألفتكم بالخوافق  
ألم يك حق أن ينول عاشق تكلف إدلاج السرى والودائق



فلا ذنب لي أن قلت إذ أهلنا معا      أثيبى بود قبل إحدى الصفائق  
أثيبى بود قبل أن تشحط النوى      وينأى الخليط بالحبيب المفايق  
فإني لا سرّاً لدى أضعته      ولا راق عيني بعد وجهك رائق  
على أن ما ناب العشيرة شاغل      ولا ذكر إلا أن يكون لوايق

قال ابن أبي حدرد : ثم انصرفت به فضربت عنقه ، فجاءت المرأة إليه ، فلم تزل  
تشمه وتقبله حتى ماتت ، فروى أنهم لما قدموا إلى رسول الله صلى عليه وسلم خبروه  
الخبر ، فقال : أما كان فيكم رجل رحيم ؟

فهؤلاء فتيان في ظعن يسوقون بهن وهم يرون الموت يلاحظهم فلا يذكرن كلمة  
الاسلام لينجوا بها من القتل ، بل إن أحدهم ليرضى بالموت قرير العين بعد حديث في  
الهوى والهيام .

وقد خرج النسائي في مصنفه هذه القصة عن ابن عباس وقال : إن النبي صلى الله  
عليه وسلم بعث سرية فغنموا وفيهم رجل فقال : إني لست منهم ، عشقت امرأة فاحقنها ،  
فدعوني أنظر إليها نظرة ، ثم اصنعوا بي ما بدا لكم ، فاذا امرأة طويلة أدماء ، فقال :  
اسمى حبيش ، قبل فقد العيش ، وأنشد أبياناً فقالت : نعم فديتك !

فقدموه فضربوا عنقه ، فجاءت المرأة فوقعت عليه ، فشبهت شهقة أو شهقتين ،  
ثم ماتت ! !

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر فقال : أما كان فيكم  
رجل رحيم ؟

## فصل السادس

# خالد في بعوث شتى

خالد في غزوة حنين - انسحاب لا يخذش البطولة - شجاعة النبي وأثرها - خالد في محاصرة ثقيف - بعث خالد للثابت من بني المصطلق - سرية خالد إلى أكيذر - بعث خالد لهدم اللات - بعث خالد إلى نجران داعياً ومعلماً - كتابه إلى رسول الله مبشراً - كتاب رسول الله إليه يستقدمه بوفد بني الحارث - حنين خالد إلى الجهاد - رواية أخرى في سرية نجران - توفيق بين الروايتين .



عذر النبي صلى الله عليه وسلم خالداً رضى الله عنه في حادث بنى جذيمة وقبل تأوله، وكان خالد في غزوة حنين  
أعظم مظهر لذلك إبقاؤه على الإمارة حتى في الغزوات التي يكون فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم القائد الأعلى للجيش ، فهو لم يكدير جمع من بنى جذيمة على رأس كتيبته حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تجهز لهوازن لما بلغه تجمعهم لحربه بقيادة زعيمهم مالك بن عوف النصري ، وخرج إليهم المسلمون في جموع كثيفة من جمهور المهاجرين والأنصار ، ومسلحة الفتح وطوائف من الأعراب رغبوا في الغنيمة، حتى أعجبت المسلمين كثرتهم فقال قائلهم : لن تغلب اليوم من قلة ، ولكن الله تعالى الذي تولى تربية المسلمين وإعدادهم للحمل رسالته إلى الخلق كافة لم يرض لهم أن يكون اعتمادهم على كثرة العدد وكثافة الجند ، فامتحنهم هنا لهذه الآفة النفسية ، وكانت تلك السكامة الفارة مفتاح المحنة ، كما امتحنهم في غزوة أحد لخالفه أمر القائد الأعلى ، وكان لهم من كل ذلك دروس في التربية والنظام جعلتهم يتخذون من قوة الإيمان عوضاً عن كثرة الجند وأهبة العدة .

روى أبو جعفر الطبري من طريق ابن اسحاق عن جابر بن عبد الله قال : لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط ، إنما انحدرنا فيه انحذاراً ، وذلك في عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادى ، فكنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه ، قد أجمعوا وتهاؤا وأعدوا ، فوالله ما راعنا ونحن منهحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد ، وانهمز الناس أجمعون ، فانشمروا لا يلوى أحد على أحد .

وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر قليل معه من أهل بيته وخاصة المهاجرين والأنصار ، وتمت المحنة وكان الابتلاء فيها شديداً محصت به قلوب المؤمنين ، ثم تداركهم الله برحمته ، وعاد إليهم نصره وتأنيده ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى من الناس ما رأى قال لعنه العباس - وكان العباس صيتاً جهورياً - اصرخ في الناس ، يا معشر الأنصار يا أصحاب السمررة ، فانهطوا يقولون : لبيك لبيك ، فيذهب الرجل منهم ليثني بعيره فلا يقدر عليه ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ثم يقتلهم

عن بعير فيخلى سبيله في الناس ، ثم يؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس فقتلوا ، فكانت الدعوة أولاً بالأنصار ، ثم جعلت أخيراً يا للعزرج ، وكانوا صبراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى مجتله الناس وهم يجتلدون ، فقال : الآن حمى الوطيس .

وهكذا هزمت القلة الصابرة كثرة المشركين الباغية ، وشفى الله صدور المؤمنين من أعدائهم ، وفي ذلك نزل قول الله تعالى : « لقد نصركم الله في موطن كثيرة وبوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليهم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم يروها وعذب الذين كفروا ؛ وذلك جزاء الكافرين »

قال الديار بكري : « كان خالد بن الوليد مع بني سليم في مقدمة الجيش ، وكان أكثرهم حسراً ليس عليه سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوماً كانوا لهم ، جمع هوازن وبني نصر ، وهم قوم رماة لا يكاد يسقط لهم سهم ، والمسلمون عنهم غافلون ، فرشقوهم رشقاً لا يكادون يخطئون ، فولى جماعة كفار قريش الذين كانوا في جيش الإسلام وشبان الأهواب وأخفاؤهم وتبعهم المسلمون الذين كانوا قريباً العهد بالجاهلية .

انسحاب  
لا يخذش  
البطولة

« فلما انعطف الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم محببين لئدائه كان خالد رضي الله عنه في أول من كرم مع أبطال الإسلام يضرب في وجه المشركين ، من كثرة جراحاته ، قال ابن عبد البر في الاستيعاب : وكان خالد على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني سليم يوم حنين وجرح يومئذ ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ربه بعد ما هزم الله هوازن ليعرف خبره ويعوده ، ، فنفت في جرحه فانطلق . »

تقع الأحداث فتترك وراءها آثارها في النفوس ، وتلك الآثار تختلف باختلاف مواقعها وأسبابها ، وهذا الحدث الذي انسحب فيه خالد بن الوليد ، وهو بطل الحرب ، ترك في نفسه أثراً جعله في كراته يمثل غيرة القوم بالمسلمين وأخذهم على سرية ، فامتلأ صدره غيظاً عليهم ، حجب عنه بعض خلائقه ، فكان يقتل كل من آلفه من المشركين ، لا يبالي أكان سيفه في عنق رجل أو امرأة .

ذكر ابن اسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر يومئذ بامرأة ، وقد قتلها خاله بن الوليد ، والناس متقصفون عليها ، فقال : ما هذا ؟ قالوا . امرأة قتلها خاله ابن الوليد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من كان معه : أدرك خالداً ، فقتل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً<sup>(١)</sup> . فكان عند أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

\*\*\*

وليس في هذا الانسحاب خدش لبطولة خالد رضى الله عنه ، لأنه كان مع كتيبته في مقدمة الجيش ، فكان عنفوان المفاجأة التي مكرها الأعداء عليه ، فلو صبر وصبر معه جنده لهذه المفاجأة العاصفة لكانت العاقبة إفناء هذه الكتيبة الباسلة في غير شيء يعود على المسلمين بالنفع والفائدة ، فلا حرج على البطل أن ينحاز ليستعد للوثوب ، ولو كان ذلك في صورة الانهزام والتقهر ، بل لعل ذلك الانسحاب خطة حربية ناجحة ، ولكنها قد تكون بعيدة النتائج ، وقد عرفنا فيما قرأنا من سير أبطال الحروب الحديثة أن الانسحاب لإتقاذ الجيش المأخوذ على غرة من أهم الفنون الحربية ، حتى تخصص فيه قوم من القواد وحذقوه فكان عند أمهم من أقوى عوامل الانتصار .

ولا تتوهم عاقلاً يعترض بموقف النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة ، لأن شخصيته أعظم من أن تقايس بها شخصية في الوجود ، والذين ثبتوا معه هم أقرب الناس إليه نفساً ونسباً فهم أشبه بأركان حرب القائد في الاصطلاح الحديث ، فهم خاصته الملازمون ، فلما رأوا شجاعته الباهرة شجعت أفئدتهم ، وانفقوا به البأس ، أما خالد فقد كان مرتبطاً بكتيبته لأنه قائدها وأميرها فكان عليه أن يعمل على إنجائها من الهلاك ، وليس موقف قائد الفرقة أو قائد الكتيبة كموقف القائد الأعلى ، لأن قائد الفرقة روح فرقته وقائد الجيش الأعلى روح الجيش كله ، ولذلك كان النصر في غزوة حنين هذه أثراً من آثار موقف النبي صلى الله عليه وسلم وشجاعته ، فإن الناس لم يلبثوا أن سمعوا الصوت يناديهم « إلى أيها الناس ، أنا رسول الله » حتى عطفوا عليه عطفة النحل على يعسوبها ، وتم للمؤمنين نصر الله بصورة لم تسبق لهم من كثرة الغنائم ورهبة

شجاعة النبي  
وأثرها

الأعداء . فقد بلغت الغنائم في هذه الغزوة ستة آلاف من الدراهم والنساء وأربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وما لا يحصى من الشاء ، وأسلمت بعد ذلك هوازن فرد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذراريتها ونساءها ، وقسم الأموال في المسلمين ، وأعطى المؤلف عطاء غامراً .

خالد في  
محاصرة ثقيف

كان النصر في هذه الغزوة نصراً مؤزراً ، أربع قلوب من بقي من العرب مباعداً للإسلام ، وكانت قبيلة ثقيف قد اعتصمت بحصونها بعد هزيمة حليفها هوازن ، فزحف عليها النبي صلى الله عليه وسلم بجند الله ، وسير سيف الله خالد بن الوليد في ألف رجل على مقدمته طليعة ، فحاصروا الطائف زمناً اختلفت الروايات في تقديره ، ولم يقع قتال غير تراشق النبل ، وكان بطل الإسلام خالد يخرج فينادي : هل من مبارز ؟ فلا يرد عليه أحد ، فلما أعنتهم بتحديه وأكثر عليهم أجابه زعيم ثقيف عبد ياليل : لا ينزل إليك منا أحد ولكن تقيم في حصننا ، فإن فيه من الطعام ما يكتفيينا سنة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى في حصاره ثقيفاً رؤيا فقام على أبي بكر ، فقال : إني رأيت أنه أهديت لي قبة مملوءة زبداً فنقرها ديك فأهراق ما فيها ، فقال : ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأنا لا أرى ذلك ، فأمر عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل فارتحلوا ، ثم جاء الله بعد قليل بثقيف مسلمين .

\*\*\*

بعث خالد  
للتثبت من  
بنو المصطلق

كان بنو المصطلق قوماً من بني جذيمة ، أسلموا وبنوا المساجد فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة مصدقاً ، وكان بينهم وبين الوليد عداوة جاهلية ، فلما قدم عليهم وسمعوا به خرج منهم عشرون رجلاً يتلقونه بالجزر والغنم وما جمعه من مال الصدقات ، فرحوا بقدمه وتعاضوا لأمر الله وأمر رسوله ، فنهض الشيطان في صدره أنهم يريدون قتله ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه أنهم يحاولون بينه وبين الصدقة وأنهم يريدون قتله ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاد أن يهجمهم ، فلما بلغهم رجوع الوليد مناضباً أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : يا رسول الله ، سمعنا بمجيء رسولك ، فخرجنا لتلقاه ونكرمك ، فرجع ، فمخشيننا أن يكون رده عنا بلوغ .



كتاب منك لغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليهم سيفه وموضع ثقته وعيية نصحه خالد بن الوليد في عسكر خفية ، وقال له : أنظر فإن رأيت ما يدل على إيمانهم ، فخذ منهم زكاة أموالهم ، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار ، فاتاهم خالد فسمع منهم أذاني صلاة المغرب والعشاء ، فأخذ منهم صدقاتهم ، ولم يرمهم إلا بالطاعة والخير ، فانصرف خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخبره الخبر ، قيل : فأنزل الله في شأن الوليد بن عقبة وشأنهم قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيبوا على ما فعلتم نادمين » .

\*\*\*

تراعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن فرغ من حنين ورجع من حصار الطائف وأقام بالمدينة نحواً من ستة أشهر يحجم أصحابه ، أن الروم جمعت له بالشام جموعاً كثيرة ليقاتلوه ، وقد اجتمع معهم من مستعربة الأطراف من بني لخم وجذام وغسان وعاملة عدد كثير ، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة ليستعدوا ، وأنهم تقدموا إلى اللقاء فحاربوا بها ، فأمر الناس بالتأهب والتجهز والمسير إلى الشام ، وكان الزمان زمان حر وعسرة ، وكان هذا الوجه من أهيب وجوه الغزو لدى المسلمين ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوماً ورى عنهم بغيرهم إلا هذه الغزوة التي يقصد بها إلى بني الأصفر ، فإنه أعلن عنها للناس ليتأهبوا لها لبعث السفر فيها وشدة الحال على الناس ، وحض رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجهاد ورغب فيه وأمر بالصدقة والإتيان في سبيل الله ، فأقبل المسلمون فجاءت أنفسهم بما وسعها الخير ، فجاء أبو بكر الصديق بماله كله ، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، وأتفق العباس ، وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن عباد ، ومحمد بن ساه ، وعاصم بن عدي ، نفقات عظيمة القدر ، وجاء عثمان ابن عفان بمال عظيم اختلفت الروايات في تقديره ، وأمثلة ما يرى أنه استقل وحده بتجهيز ثلث الجيش كله ، وكان الجيش في هذه الغزوة ثلاثين ألفاً ، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم وأظهر السرور البالغ بصنيعه . وفي هذه الغزوة نجح النفاق ، وافتضح المنافقون ،

سرية خالد  
إلى أكيدر

فتكاهوا بما في أنفسهم من الضغن على الإسلام والمسلمين ، فأخبر الله نبيه عنهم وأنزل في شأنهم ما أنزل من القرآن الكريم .

مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى تبوك فلم يجد مما بانته عن تأهب الروم لحربه شيئاً ، ولقيه صاحب أيلة ، وأهل حرباء وأذرح فصالحوه على الجزية ، ولم يجد في طريقه كيذاً ، ولا لقي في وجهه هذا حرباً .

كان في هذه الغزوة خالد بن الوليد على ما كان عليه في سوابقه من الإمارة على النرسان والخيـل ، ولـسـكن الروايات لم تجر له فيها ذكر ، لأنه لم يكن فيها موقف حربي يظهر فيه بطولة خالد فيتحدث عنه بما كان . وقد ذهب بفضل هذه الغزوة أهل الثراء ممن أمدوا الجيش بأموالهم وجهزوا الجند بالأسلحة والمؤن ، ولم يعرف عن خالد أنه كان من ذوى الثراء وأصحاب الأموال ، فليس له فيها إلا حظ القائد الذى تأهب لموقفه من الميدان ، فلم يجد أمامه صائلاً يدفعه ولا عدواً يحاربه ، فقل ليبحث عن مكانه في مساحة البطولة الظافرة .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بنـسـع عشرة ليلة ، ثم شاور أصحابه في التـنـدـم إلى الروم والمسير إليهم في بلادهم ، فقال عمر بن الخطاب : إن كنت أمرت بالمسير وسر فقال صلى الله عليه وسلم : « لو أمرت ما استشرتكم فيه » ، فقال عمر : يا رسول الله إن للروم جوعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم وأفزعتهم تبوك ، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله في ذلك أمراً ؟

ولما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانصراف بعث خالد بن الوليد على رأس أربع مائة وعشرين فارساً إلى أكيدر صاحب دومة الجندل - قرية في طرف الشام ولا بد لقاصدها من أن يتخطى بلاد كلب وهي قبيلة من أكثر قبائل العرب عدداً ، وأشدها كلباً - فقال خالد : كيف لي به يا رسول الله وسط بلاد كلب ؟ وإنما أنا في ناس يسير ، فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه سيأخذه غاراً فيظهر به ، فقال : ستأفام يسمد الوحش فتأخذه .

فخرج خالد على كتيبته من تبوك ميمماً دومة ، فلما دنا منها ، وكان بمنظر العين من حصن أكيدر تلبث قليلاً ينظر في شأنه ، وكان أكيدر على سطح قصره في إلهام وراء

صانعة ، ومعه امرأته الرباب السكندرية ، فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن ، فأشرفت امرأته على باب الحصن فرأت البقر ، فقالت له : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا ، والله ؟ قالت : فمن يترك هذه ؟ قال : لا أحد ؟ وكان أكيدر يضممر لهذا الصيد الخيل شهرا ، فنزل وأمر بالخيول فأسرجت ، فركب وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخوه حسان ، فدخل إليهم خالده بفرسان المسلمين فاتبعهم حتى لحق بهم ، فاستأسر أكيدر ، وامتنع أخوه حسان ، وقاتل حتى قتل ، وهرب سائر من كان معه حتى دخلوا الحصن ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال لخالد : إن ظهرت بأكيدر فلا تقتله ، وائت به إلى ، فقال له خالد - وهو في يده أخيد - . هل لك أن أجيرك من القتل حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن تفتح لي دومة الجندل ؟ قال : نعم ، لك ذلك ؟ فلما صالح خالد أكيدر وهو في وثاقه كان أخوه مصاد في الحصن ، فأبى أن يفتح الحصن حتى يطلق أكيدر من وثاقه ، فطلب أكيدر أن يصالحه خالد على شيء معين حتى يفتح له باب الحصن ، ثم ينطلق به وبأخيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجسك فيهما بما شاء ، فرضي خالد ، وتم بينهما الصلح على ألفي بعير ، وثمانمائة فرس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، وخلي خالد سبيله ففتح له باب الحصن ، فدخله المسلمون ، وحقق خالد دمه ودم أخيه ، وانطلق بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقدمه من تبوك ، فضرب عليه وعلى قومه الجزية ، وكتب لهم كتاب أمان ، واختلفت الروايات في شأنه بعد ذلك ، وأثبتها أنه ظل على نسرايته ، ثم نقض العهد فحاصره خالد نفسه زمن أبي بكر وقتله مشركا .

وفي لقائه الأول أخذ منه خالد فباء مخوسا بالذهب مما تلبسه الملوك ، فبعث به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل قدومه به فجعل المسلمون يمسونه بأيديهم ، ويتعجبون منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرد عنهم وساوس الدنيا ، ويصرفهم إلى ما هو أعظم : لناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا .

كانت تسرية خالد من تبوك إلى دومة الجندل مظهرا من مظاهر تعويض البطولة عما فاتها من غمرات الجبال ، وكانت عنوانا بارزا على تقويم خالد بقيمته التي وزنه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم إسلامه ، وإن تكن الأحداث قد غيرت من ذلك

التقويم شيئاً فذلك ما ينتهى إليه الذهب بعد فتنته بالنار ، وطبائع النفوس أقوى في حقائقها الإنسانية من طبيعة الذهب في حقيقته المعدنية .

وكانت آية من آيات عقله السياسى البارع ، فهو يصطنع إلى أسيره الملك عارفة من عوارفه فيجيره من القتل على أن يفتح له الحصن ، فلما لم يرض مصاد أخو أكيدر بفتح الحصن إلا أن يحل وثاق أخيه الملك ، لم تقف عزة الغالب الظافر أمام خالد فيأبى عليه ذلك ، ولكنه يرضى به ويكسب المسلمين صلحا يعود عليهم بأعظم المنافع ، وينهى مع ذلك إلى ما أراده خالد أول المفاوضة من الذهاب بأكيدر وأخيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقر ما صنع بهما خالد ، وردهما إلى مكانهما آمنين .

وقد كشفت لنا هذه السرية عن شيء من خلائق خالد التى تزدان بها البطولة وتغلب في طبع الأبطال ؛ ولنا بكشفه حاجة في حياة خالد تدفع شهية قد تمس الأمانة في أخلاق البطل ، وإن تكن تلك الشهية مدفوعة بما مات عنه خالد من فقر في المال ، وهو الفائدة المظفر الذى خاض أكثر من مائة زحف ظفر فيها وغنم من الغنائم ما لو شاء معه أن يكون أثري أنرياء المسلمين لكان له ما شاء ، لولا خصيصة البطولة في أمانة خالد .

ظفر خالد بأكيدر ملك دومة في متصيد ، وعليه حلة من خال الملوك شروس قباؤها بأسلاك الذهب ، فلم تتحدثه نفسه أن يحتج بحصته هذا القباء الذى يباع قيمته أن يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، لما رأى تعجب أصحابه منه : لناديل سعد في الجنة خير منه ؛ والمؤمنون يعرفون مقدار المفاضلة بين أدنى أشياء الجنة وأعلى أشياء الدنيا في تعظيم ما يراد تعظيمه من حاج الدنيا .

أفليس ذلك أرفع ما يصبو إليه الناس من مراتب الأخلاق في الأمانة والعزف عن زخارف الدنيا ؟ بلى ، إن رجلا أدى ذلك لأمين أى أمين .

لما رجع خالد بن الوليد من دومة ظافر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تقدمه قافلا من تبوك إلى المدينة ، فقدم عليه وفد ثقيف ففاضهم على الإسلام ، وكان فيما فاضهم عليه هدم طاغيتهم « اللات » ، وهو بيت كانوا يتعبدونه ، ويهدون له ، يذبحون به البيت الحرام ، وكانوا قد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك لهم فلا يهدمه حتى يدخل الإسلام قومهم ، فأبى عليهم أن يدعه شيئاً من زمن ، فأسلم الوفد وءادوا

بعث خالد  
لهدم اللات

إلى قومهم ، نخوفوهم بطش الإسلام وقوته ، ورغبوهم في الدخول فيها دخل فيه سائر الناس فأسلموا مستسلمين .

ثم أرسل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رساله ليهدموا معبودهم «اللات» وأمر عليهم خالد بن الوليد ، وكان في الرسل المنيرة بن شعبة ، لأن قومه بنى معتب من ثقيف هم سدنة الطاغية ، فهو يتألفهم ليؤكد دخولهم في الإسلام ، وهم يقومون دونه يحمونه من مثل ما وقع لعروة بن مسعود ، إذ دعاهم إلى الإسلام فقتلوه .

فلما قدم عليهم خالد فيمن كان معه عمدوا إلى «اللات» يهدمونها فتكفأت ثقيف قضيها بتضييضا ، حتى خرج العواتق من الحجال ينظرون ماتصنع ربهم بمن يهدمها ، وهم في جهالتهم لا يصدقون أنها تهدم ، ويرون أنها استمنع نفسها ، ثم أمر خالد المنيرة ابن شعبة أن يكون هو الذي يتولى هدمها ، فضحك المنيرة ، وقال لأصحابه : لأضحكنكم من ثقيف !! فأخذ الكرزون<sup>(١)</sup> فضرب به ، ثم أخذ يرتكمن ، فارتج أهل الطائف بضجة واحدة ، وقالوا أبعده الله المنيرة !! قد قتله الربة ! وفرحوا حين رأوه يسقط ، وقالوا من شاء منكم فليقرب ، وليجهد على هدمها ، والله لا تستطاع أبدا . فوثب المنيرة وقد رأى منهم الشماتة والسخرية بمزوجتين بهذه البلاهة الجاهلة ، فقال : قبحكم الله يا معشر ثقيف ؛ إنما هي لكع حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا على سورها ، وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض ، ولكن جهالة ثقيف كانت على مقدار عنادهم ونسكارتهم ، فما زالت فيهم عقيدة الوثنية تعمل عماها ، فجعل ساداتها وصاحب مفاتيحها يقول : ليغضبن الأساس ، فليخسفن بهما فلما سمع المنيرة هذه الجهالة البليدة قال لأميره خالد بن الوليد : دعني أحفر أساسها ، نخفروها حتى أخرجوا ترايبها ، وأخذوا حليها وثيابها ، فبهتت ثقيف ، وعامت بعد جهالة أن ربهم في حقيقتها إنما هي صورة من بلاهتهم معجونة بحففات من التراب ، لم تلبث إذ رأت شمس الحلق ساطعة أن عادت هباء تذررها الرياح .

هذه الرواية في هدم طاغية ثقيف نقلها السيار بكري في تاريخ الخميس من طريق.

(١) الكرزون : المول .

موسى بن عقبة . وهناك رواية أخرى ذكرها من طريق ابن اسحاق ، رى أن أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة هما اللذان أرسلاه لهدم الطاغية ، فاما قدما الطائف . أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى ذلك أبو سفيان ، وقال للمغيرة : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان في مال له هناك ، فدخل المغيرة وهدم الطاغية ، وأخذ ما وجد فيها من مال وحلى ، فأرسله الى أبي سفيان ، ثم عادا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقضى منه ديناً كان على عروة بن مسعود ، وأخيه الأسود ، وقد سأله في ذلك أبناهما ماسح بن عروة ، وقارب بن الأسود ، وكانا قد أساما قبل يومهما ، ثم قدم سائرهم من يومه .

وقد يظهر للبحث ترجيح الرواية الأولى ، لأنها تتفق مع ما جرى في السوابق من إرسال عدد من الرجال بأمرهم في أمثال هذا الحادث ، ولأنه يبعد أن يرسل إلى ثقيف رجالاً لهدم طاغيتهم ، وهم بعد لم يخالفوا الإسلام قلوبهم ؛ ولأنه يبعد أن يرسل إلى أبي سفيان بن حرب وهو قريب عهد بالإسلام ، لم يسلم طواعية ، ولأنه لو كان هو المرسل فإنه يبعد أن يدع صاحبه المغيرة يدخل على قومه وحده في أمر أثق على أنفسهم من القتل وسفك الدماء ، ثم يتخلف في مال له هناك .

\*\*\*

وارسال خالد أميراً على سرية لهدم «اللات» وكان هو الذي هدم العزى ، أقرب من إرسال أبي سفيان بن حرب ؛ وقد كان خالد في ثقيف موقفاً يرشحه لهذا العمل ؛ وكان لأبي سفيان موقف في ثقيف وهي مع هوازن في حنين لما غلب عليه كثير زعماء ؛ يبعد بينه وبين ذلك .

لم يزل خالد بن الوليد رضى الله عنه منذ أسلم حظى المسكنة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يعدل به أحداً من أصحابه فيما حربه ؛ يوليه أعنة الخيل ؛ ويمنه أمره على سراياه ، ويعقد له على كتائب جيوشه الخافرة ؛ ويرسله معاً وداعياً إلى الله .

يبحث خالد الى  
تجرا ان هاديا  
ومعلما

واذا كانت عبقرية خالد العسكرية من العبقریات القاهرة الناضرة حتى غابت على سائر خصائصه وفواضله في جوانب الحياة الأخرى فلم يجعل بجانب سواها ذكراً معها في سجل الخلود ؛ فلم يجهل التاريخ فضائل خالد كإمام من أئمة الدين ومعانيه ؛ فقد احتارمه

رسول الله صلى الله عليه وسلم معلماً لكتاب الله وسنة نبيه ، ومبيناً لمعالم الإسلام وشرائعه ، وهذا لا يكون إلا عن يقين من رسول الله صلى الله عليه وسلم بفقده خالداً في الإسلام وعلمه بالكتاب والسنة ، لأنه أرسله إلى قوم بعيدة دارهم عن موطن النبوة والوحى ، وقد لا يمكن مع هذا البعد تلافي ما يقع من الخطأ في الأحكام الشرعية ، فلو لم يكن أمير القوم ومعلمهم فقيهاً في الدين علماً بتأويل الكتاب وفهم السنة لكان في بعثه معلماً لتبليس وحرج على من بعث معلماً له ، وهذا ما لا يمكن وقوعه من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عرف أنه وقع قط ، بل الذي تظاهرت به الأخبار الصحيحة أن معلمى المسلمين على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا من علماء الصحابة المشهود لهم بالفقه في الدين والعلم بالتأويل ، واختلافهم في العلم والفقه ودقة النظر في المسائل والفناوى أمر طبيعي يقع بين طبقات الناس جميعهم في كل عصر ومصر ، وهذا تأويل ما نقل عن خالد رضى الله عنه : شغاني الجهاد عن الكثير من القرآن .

روى أصحاب السير والمؤرخون أن النبي صلى الله عليه وسلم : بعث خالد بن الوليد على سرية إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، وقال له : « فإن استجابوا لك فاقبل منهم ، وأقم فيهم ، وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الإسلام ، فإن لم يفعلوا فقاتلهم » .

فخرج إليهم خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يخبرون في كل وجه ، يدعون الناس إلى الإسلام ، يقولون : « أيها الناس أسلموا تساموا » فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه ، فأقام خالد فيهم يعلمهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وقد سجل خالد لنفسه هذه المنقبة العظمى في كتاب أرسله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم لحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خالد بن الوليد ، السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثتني إلى بنى الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام ، وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم

كتاب خالد  
إلى رسول  
الله مبشراً



ركبانا ، قالوا : يا بني الحارث ، أساموا تساموا ، فأساموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، آمرهم بما أمرهم الله به ؛ وأنهاهم عن مانهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام ، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

وقد أجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتابه هذا فكتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من النبي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فأني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن كتابك جاءني مع رسولك تخبر أن بني الحارث بن كعب قد أساموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . »

كتاب رسول  
الله بوفد بني  
الحارث

وفي كتاب خالد رضى الله عنه إلى جانب تسجيله ما طواه التاريخ من جوانب مفيدة في شخصيته ، ناحية تلفت نظر الباحث ، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أرسل خالداً إلى بني الحارث باليمن أمره أن يقيم فيهم إماماً ومعلماً ، يبين لهم معالم الإسلام ، واسكن خالداً - وهو القائد المفطور على حب الحرب - لم تكن نفسه لتسكن إلى الدعة والمدوء بعد أن أدى مهمته الحربية ، وتم على يديه إسلام بني الحارث ، وعلمهم معالم الإسلام ، بل حنت نفسه الكبيرة إلى الجلال استجابة لما في طبعه من خصائص عسكرية فائقة ، فكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبلغه أنه أدى ما أمره به فدعا إلى الإسلام فاستجاب له الناس ، وأقام فيهم يأمرهم بأمر الله وينهاهم عن مناهي الله ، وأرشدهم إلى شرائع الإسلام ومعالمه ، وهو ينتظر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يسدر إليه بما يواجهه إليه .

حنين خالد  
إلى الجهاد

وكان هذا تلميح من خالد إلى ما يريد من خوض الغمرات جهاداً في سبيل الله ، فأجابه رسول الله إلى رغبته ، فاستقدمه بوفد بني الحارث ، فأقبل خالد من اليمن قافلاً ، وأقبل معه وفد بني الحارث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآهم رسول الله قال يسأل عنهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ قيل يا رسول الله : هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب ، فلما وقفوا عليه سلموا عليه وقالوا : نشهد أنك رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله ، فقال رسول الله : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن رسول الله ، ثم

قال لهم وهو يعلم شدة شكيمتهم وتميزهم عن العرب بأخلاق المغالبة وشدة البأس : أتم الذين إذا زجروا استقدموا ؟ فسكتوا فلم يراجعهم أحد منهم حتى ذكر ذلك أربع مرات ؛ فقال أحدهم — يزيد بن عبد المدان — : نعم يا رسول الله : نحن الذين إذا زجروا استقدموا ، وجعل يكررها حتى بلغ بها مرات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله : لو أن خالد بن الوليد لم يكتب إلى فيكم أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم .

ويبدو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم هذه المقالة الشديدة التي لم تجر بها عادته الكريمة في مخاطبة الوفود ، ليطامن من عنجهيتهم ويكسر من حدتهم ويدخل في قلوبهم رهبة الإسلام حتى يبلغوا من وراءهم من قومهم فتلين أفئدتهم ، وتذهب عنهم نخوة الجاهلية وحمية العصبية ، وغرور الاستعلاء والغلب مما تميزوا به عن سائر قبائل العرب ولذلك جاء ردهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير خلى من جفوة الأعرابية وتعزز الجاهلية ، فقال متكلمهم يزيد بن عبد المدان : أما والله يا رسول الله ما حمدناك ولا حمدنا خالدًا ، فقال رسول الله : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله الذي هدانا لك يا رسول الله . صدقتم .

ولما سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بعض أخلاقهم التي كانت لهم في الجاهلية والتي كانوا بها غلابين مرهوبين ، أجابوا متغضبين : لم نغلب أحداً ۱۱ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى ، قد كنتم تغلبون من قاتلكم ؛ قالوا : يا رسول الله كنا تغلب من قاتلنا إنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبداً أحداً بظلم ، قال صدقتم .

رواية أخرى  
في سيرة خالد  
إلى نجران

هذه رواية يجمع عليها المؤرخون وأصحاب السير في شأن بعث خالد بن الوليد إلى نجران من أقاليم اليمن داعياً بني الحارث بن كعب إلى الإسلام ، وهي صريحة في أن خالدًا ذهب إليهم أمير سرية ، فدعاهم إلى الإسلام وعلمهم القرآن والسنة ومعالم الإسلام فأتهم ما أمر به ، وأداه أحسن أداء ، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب إليه رسول الله فاستقدمه بوفد بني الحارث ، فوفد بهم عليه ، وحدثهم وحدثوه ، ثم ولى عليهم أميراً منهم ، وبعث إليهم معلماً بقي على ولايته حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . بيد أن بعض المؤرخين ذكروا رواية أخرى في بعث خالد إلى اليمن في التاريخ

نفسه الذي تذكر فيه بعثه إلى بني الحارث بن كعب ، وهي مختلفة في تفاصيلها ووفانها وتناجها كل الاختلاف مع الرواية الإجماعية ، لأن هذه الرواية تقول : إن خالداً أرسل إلى اليمن لدعوة قبيلة همدان إلى الإسلام ، وحمدان غير بني الحارث الذين أرسل إليهم خالد في الرواية الأولى ، ولأنها تقول : إن خالد أديع القوم فلم يجيبوه ، وأنه لم يوفق في رسالته ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث على بن أبي طالب لما كان بعث إليه خالد بن الوليد ، وأمر علياً أن يقفل خالداً ومن معه إلا من شاء منهم أن يبقى في سرية على ذلك ، وأن خالد أرجع بسريته بعد ستة أشهر لم يجبه القوم إلى شيء ، وأن علياً كرم الله وجهه قام بدعوة القوم فأجابوه وأسلموا جميعاً ، فسكتب بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لهم وسلم عليهم .

التوفيق بين  
الروايتين

والناظر بعين الباحث الناقد يدرك - إذا فرضنا صحة الروايتين - أن هناك مسينين في بعثتين مختلفتين كان فيها خالد بن الوليد أمير سرية ، وأنه وفق في إداها - وهي بعثة بني الحارث - أتم توفيق ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم استقبله يومئذ السلام ، فقدم بهم عليه ، وجرى حديثهم على ما سبقناه .

وأما البعث الآخر فهذا كان إلى أهل اليمن عامة ، وجماعهم في تهمان ، وهذا هو الذي تتحدث عنه الرواية الثانية ، وهو الذي عتب فيه علي - إلا أن اليوم لم يجيبوا خالداً ، ولم يؤمر بقتالهم فلم يقاتلهم ، فلما قدم عليهم على وأقفل خالداً بمن معه دعاهم إلى الله فأجابوه .

حدث الطبري عن البراء بن عازب قال : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام ، وكانت فيمن سار معه ، فأقام ما هم ستة أشهر ، لا يجيبونه إلى شيء ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب ، وأمره أن يقفل خالداً ومن معه فإن أراد أحد من كان مع خالد بن الوليد أن يعقب معه رده ، فأسلمت فيمن عقب ، فلما اتهمنا إلى أوائل اليمن بلغ القوم الخبر فجمعوا له على بنا على الهجر ، فلما فرغ صفنا صفاً واحداً ، ثم تقدم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم مرأى ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد ، وانتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قرأ كتابه خرم ساجداً ثم جالس وقال : السلام على همدان ، السلام على همدان ، ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام .

ويدل لما ذهبنا إليه أولاً: - أن الطبرى وتابعه ابن الأثير - على عادته - ذكر في موضع بعث خالد إلى بنى الحارث ، وساقه كما ذكرناه ، ولم يعرض فيه لذكر بعث عليّ إلى اليمن ، ولا لذكر همدان ، وذكر في موضع آخر بعث عليّ إلى أهل اليمن معقباً لخالد وأمره أن يقتل خالداً بمن معه ، وساق حديث البراء المتقدم ، ولم يعرض في هذا الموضوع لذكر بنى الحارث ودعوتهم إلى الإسلام .

وجرى في هذا الشوط الديار بكري في تاريخ الخميس ، فذكر بعث خالد بن الوليد إلى بنى الحارث مختصراً على ما ذكره الطبرى فلم يجر فيه ذكر لعلى ولا لهما ، وذكر قصة أخرى في التاريخ نفسه الذى تحدث الرواة فيه أن علياً عقب فيه خالداً إلى اليمن ، ولم يجر فيها ذكر لبنى الحارث ودعوتهم .

ويؤيد ما ذكرناه أن القسطلانى فى المواهب ذكر بعث خالد إلى عبد المدان فى التاريخ الذى ذكر المؤرخون فيه بعثه إلى بنى الحارث ، وعبد المدان بطن من بنى الحارث ، وأن خالداً دعاهم إلى الإسلام فأسلموا ، فهذا هذا .

وكذلك يؤيده ما أخرجه الإمام أحمد والترمذى وأبو داود من حديث على قال : بعثنى النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، فقلت يا رسول الله : تبعثنى إلى قوم أسن منى ، وأنا حديث السن ، لا أبصر القضاء ؟ قال على : فوضع : يده فى صدرى ، وقال اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه ، وقال يا على : إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر ، الحديث .

قال الديار بكري : نخرج على فى ثلاثمائة فارس ففرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك ، ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل حتى حمل عليهم على وأصحابه فقتل منهم عشرين رجلاً ، فتفرقوا وانهزموا فكف عن طلبهم ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام ، ثم قفل فوافى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قد قدمها للحج سنة عشر .

فظاهر جدا من سياق هذه الروايات أن القصة أكثر من واحدة ولكن العقدة فيها هى التاريخ الذى يذكر جميع الرواة أن البعث كان فيه ، فالإجماع منعقد من المؤرخين على أن بعث خالد إلى بنى الحارث كان فيما بين ربيع الأول وجمادى الأول من السنة العاشرة ، ( م ٨ - خالد ابن الوليد )

والروايات التي تذكر بعث علي إلى أهل اليمن معقباً لخالد ورجوع خالد بمن معه تجعله في رمضان من سنة عشر ، فالسنة موضع اتفاق عند الجميع ، وحديث البراء المتقدم يقول : إن خالداً مكث ستة أشهر يدعو القوم فلا يجيبه أحد ، وهذه الستة أشهر هي المدة من ربيع الأول إلى رمضان ، وذلك يحتم أن الفصة واحدة في بعث واحد ، وهو ما تقضى بعده تفاصيل الروايات .

وإذا صح أن يكون للحدس والتخمين موضع في هذا المقام فأقرب ما يتجه إليه البحث أن يكون قد وقع خطأ في تاريخ البعثين أو أحدهما ، ولعل الأشبه أن يكون بعث خالد إلى بني الحارث كان في أخريات سنة تسع فجعل في أوائل سنة عشر متأثراً بالبعث الثاني الذي كان فيها ، وقد كان إلى الجهة التي كان إليها البعث الأول مع اختلاف القوم المذكورين في البعثين ، وكان خالد أميراً فيه كما كان في البعث الأول فمن السهل جداً وموع الاشتباه والغلط في تاريخ البعثين أو أحدهما .

وقد ثبت في الصحيح قدوم علي بن أبي طالب من اليمن إلى مكة حيث أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته فأهل بما أهل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان بعث علي إلى اليمن في السنة العاشرة مما لا اشتباه فيه .

ومهما يكن من شيء فإن رواية بعث علي إلى يمدان وإسلامها على يديه تدفع بعث خالد إلى بني الحارث واستجابتهم له وإسلامهم على يديه ، وإقامته فيهم مدة لهم معالم بالإسلام وكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

# الفصل السابع

## خالد

### في حروب الردة

---

حال الناس بعد وفاة رسول الله - شجاعة الصديق ورسوخ إيمانه - أين رأى  
خالد - توجيه خالد إلى طليحة الأسدي - وصية أبي بكر لخالد - تنبيه وتذكير - خالد  
بوعدي بن حاتم - خالد في وجه طليحة - هزيمة طليحة ورجوعه إلى الإسلام - حملة  
تأديبية - سياسة حكيمة .





حال الناس  
بعد وفاة  
رسول الله

لم ينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وفي جزيرة العرب ركن لم يدخله الإسلام ، بل لقد فاضت به على من حولها حق وقعت دعوته في أسماعهم ، فأقر الله عين رسوله وأتم نعمته على عباده ، وأكمل للمؤمنين دينهم الذي ارتضاه شريعة لعامة خلقه ، ولكن الناس كانوا بين مؤمن موقن ، ومؤمن مفزع ، وكافر عنيد ، ومنافق مفذوح النفاق ، ومتأوج تتطارحه الأهواء ، يصبح مع هذا ويمسى مع ذلك ، وإذا بالطامة الكبرى تفجأ المسلمين بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسرى النبأ فادحا مع الأثير في أرجاء الجزيرة ، وتلقاه الناس فاغرى أفواهم ذهولا وبهرا ، ورفع النفاق رأسه ، وأبدت اليهودية عن ذات نفسها ، وأعربت النصرانية عن كظيم غيظها ، وتراجع الجفافة من الأعراب إلى مضاربهم في أكنان الصحراء ومنازل الجاهلية يقولون لأنفسهم : لو كان نبيا ما مات ، وتنبأ الكذابون والكذابات ، وتجمع الغناء إلى بعضه جسرا بمنع تيار الإسلام أن يندفع إلى مهابط الهداية والرحمة من الأرض .

شجاعة  
الصديق  
ورسوخ  
إيمانه

وبقيت فيما بين المسجدين طائفة المؤمنين الموقنين بإمامة أفضل مولود بعد النبيين ، ذلك عماد الدين وعلم اليقين ، أول مجدد للإسلام ، الصديق أبو بكر ، سيد المؤمنين ، فنهض بحمل العبء وحده ، ولم يبق رجل في الإسلام ، الفاروق فمن دونه إلا كانت له في هذا اليوم كبوة وتردد ، وانفرد الصديق بعزيمة كانت لها بعزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الشعب والطائف وشائج سمت بها عن عزائم البشرية ، فكانت معجزة الخلافة الأولى أصدق آية على معجزة النبوة في تربية الرجال .

فلما رأى أعلام الإسلام الجد في الأمر من الصديق انشرفت صدورهم لما شرح الله له صدره من الحق . قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تصف حال الناس وحال الصديق معهم حينما صدعهم الخطب العاصف . لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، وأشرأت اليهودية والنصرانية ، وعم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم حتى جمعهم الله على أبي بكر ، فلقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضمها .

وحدث أبو جعفر الطبري عن عروة بن الزبير قال : لما بويع أبو بكر رضى الله عنه

وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه قال : ليتم بعث أسامة . وقد ارتدت العرب إمامة عامة وإما خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشترأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون . كالغنم في الليلة المطيرة الشامية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم وقتلهم وكثرة عدوهم ، فقال له الناس : إن هؤلاء جل المسلمين ، والعرب على ما ترى ، قد انتقضت بك ، فأيسر ينبغي لك أن تفرق جماعة المسلمين ، فقال أبو بكر : والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تتخطفني لأنفذت بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرى . غري لأنفذته .

أشفق المسلمون أشد الإشفاق على أنفسهم ودينهم من هذا الحادث الخطير ، وودوا بجمع الأنف لو أنهم هادنوا الناس فهادنهم الناس ، وأعربوا عن خواجهم وإشفائهم أن تجتاحهم العاصفة إلى إمامهم ، وجادلوه وجادلهم حتى تغلب عزمه على ترددهم ، واجتمعت كلمتهم على أن يأخذوا بحجز الناس عن النار ليردوهم إلى ساحة الإيمان . واليقين .

روى صاحب الخميس عن يعقوب بن محمد الزهري : أن العرب افترقت في رد ، فقالت فرقة : لو كان نبياً مامات ، وقال بعضهم : انتقضت النبوة بموته ، فلا نطيع أحداً بعده ، وقال بعضهم : نؤمن بالله ، وقال بعضهم : نؤمن بالله ، ونشهد أن محمداً رسول الله ، ونصلي . ولكن لا نعطيكم أموالنا ، فأبى أبو بكر إلا قتالهم ، وجادل أبو بكر أصحابه في جهادهم ، وكان من أشدهم عليه عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وقالوا له : احبس جيش أسامة بن زيد ، فيسكون عمارة وأماناً بالمدينة ، وارفق بالعرب حتى ينفرج هذا الأمر فإن هذا الأمر شديد عوره ، ومهلك لهم من غير وجه ، فلو أن طائفة من العرب ارتدت قلنا : قاتل بمن معك ممن ثبت من ارتد ، وقد أصفقت العرب على الارتداد ؛ فهم بين مرتد ، ومانع صدقة فهو مثل المرتد ، وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك ، قد قدم رجلاً وآخر رجلاً .

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه لما هم بقتال أهل الردة كره ذلك منه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عمر بن الخطاب : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله .

فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم ؟ فقال له أبو بكر : أليس قد قال : إلا بحقها ؟ ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ، ولو خذلي الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى .

وعند الواقدي أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر : وإنما شجحت العرب على أموالها وأنت لا تصنع بتفريق العرب عنك شيئاً ، فلو تركت للناس صدقة هذه السنة ، وتألفت قلوبهم ورفقت بهم ! !

فقال له أبو بكر : أجبنا في الجاهلية خوار في الإسلام ؟ قد انقطع الوحى ، وتم الدين أينقص وأنا حى ! ! ؟

وقد طمع قوم من جفافة الأعراب ، وشيوخ أهل البادية ممن لم يخالط الإيمان قلوبهم في استغلال هذا الاضطراب استغلالاً مادياً ، وظنوها فرصة قد أكتبت نهزها ، فلا يريدون أن تفلت منهم .

روى أن عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، قدما على أبي بكر في رجال من رءوس العرب ، فدخلوا على رجال من المهاجرين فقالوا : إنه قد ارتد عامة من وراءنا عن الإسلام ، وليس في أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالهم ما كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن تجمعوا لنا جملنا نرجع فنسكن فيكم من وراءنا . فدخل المهاجرون والأنصار على أبي بكر فعرضوا عليه الذي عرضوه عليهم ، وقالوا : نرى أن تطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك من وراءهما حتى يرجع إليك أسامة وجيشه ، ويشدد أمرك ، فإننا اليوم قليل في كثير ، ولا طاقة لنا بقتال العرب .

قال أبو بكر : هل ترون غير ذلك ! ! قالوا : لا ؛ قال أبو بكر : قد علمتم أنه كان من عهد رسول الله إليكم المشورة فيما لم يمتص فيه أمر من نبيكم ، ولأنزل به الكتاب عليكم ، وإن الله لن يجمعكم على ضلالة ، وإنى أشير عليكم ، وإنما أنا رجل منكم ، تنظرون فيما أشرت عليكم ، وفيما أشرت به ، فتجمعون على أرشد ذلك ، فإن الله يوفقكم أما أنا فأرى أن نشد إلى عدونا ، فمن شاء فليؤمّن ومن شاء فليكفر ، وأن لا ترشوا على الإسلام أحداً ، وأن تتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فنجاهد عدوه كما جاهدتم

والله لو منعوني عقلا لرأيت أن أجاهدكم عليه حتى آخذ من أهله وأدفعه إلى مستحقه،  
فأتمروا يرشدكم الله فهذا رأى ، فقالوا : أنت أفضلنا رأيا ورأينا لرأيك تبع . قال  
عمر بن الخطاب : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للتمتال فعرفت  
أنه الحق .

سبحان الله ! رجل من الناس يقف وحده في جانب والناس أجمعون في جانب،  
يتقفون منه موقف المخالف ، قلة منهم تواليه ، وتؤمن بما يؤمن به ، ولكنها تثبطه وتخذل  
عنه ، ويحجزها الفزع عن مجاراته ؛ وكثرة غامرة تناصبه العداوة ، وتترص به الدوائر ،  
وتتأهب لاجتياحه وسحق عصابته .

فما هذا الذي أغرى الصديق أبا بكر بهذا الموقف الفذ في تاريخ الحياة ؟ إنه الإيمان ،  
ولا شيء غير الإيمان ، هو الإيمان وحده الذي هون على الصديق أمر الحياة بأسرها في  
سبيل عقيدته يقول ضرار بن الأزور - وكان فيمن وفد على أبي بكر بأخبار الردة - :  
فما رأيت أحداً ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم أملاً بحرب شعواء من أبي بكر ،  
فجعلنا نخبره ، ولكأنما نخبره بماله ولا عليه .

ذلك طرز من العزائم ، وفن من الإيمان ، ولون من رسوخ العقيدة فوق متناول  
الآحاد من البشر ، فلا يصلح أن نطلب إلى الناس أن يأتوا بمثله ، إلا بضرب من التعدي ؛  
لأنه في سلك الإعجاز منظوم ؛ ولكننا نعرضه للناس ، وليس من شرط الأسوة أن تجيء  
صورتها الحاكية على أسم ما كان للصورة المحسكية من خطوط وألوان ، وحسبها أن  
يكون لها منها ما يكون للولك من طبائع أصوله في ورائة الشخصيات .

الإيمان نفحة من نفحات الأرواح ، فهو أوحى سريانا ، وأفوى صهراً لصدا  
القلوب ، وسرع ما سرى إلى قلوب المؤمنين قبس من إيمان الصديق ؛ فتحويلات أنفسهم  
إلى أرواح صديقية تفدى العقيدة بالحياة ، وبحق ما قال الفاروق عمر بن الخطاب : والله  
لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعا .

\*\*\*

كان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما قضى حجة الوداع « التمام » ورجع إلى المدينة

في المحرم من سنة إحدى عشرة ، قد ضرب بعث أسامة بن زيد ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء حيث قتل أبوه زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ، وأوعب مع أسامة أكثر المهاجرين والأنصار ومن كان حول المدينة من القبائل ، وخرجوا فمكروا بالجرف ، وثقل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتد به المرض ، فلم يلبث أن توفي ، فوقف أسامة بالناس ، وكان في جنده عمر بن الخطاب ، فقال له أسامة : ارجع إلى خليفة رسول الله فساتأذنه ، يأذن لي أن أرجع بالناس ، فإن معي وجوه الناس وحدهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله ، وثقل رسول الله ، وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون . وقالت الأنصار فإن أبي إلا أن نمضي فأبلغه عنا وأطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة ، فخرج عمر بأمر أسامة وأنى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة ؛ فقال أبو بكر : لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال عمر : فإن الأنصار أمروني أن أبلغك وأنهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر ، فقال له : ثكثك أمك يا ابن الخطاب ؛ استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمرني أن أنزعه ؟ فخرج عمر إلى الناس فقالوا له : ما صنعت ؟ فقال لهم : امضوا ثكثكم أمهاتكم ؛ ما بقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله ؟ ! !

ثم خرج أبو بكر حتى أناهم فاشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامه راكب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن ، فقال والله لا تنزل والله لا أركب ، وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ، فإن للنازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة . حتى إذا اتبى قال : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له .

\*\*\*

وسار أسامة بجيشه وخلف وراءه المدينة عاصمة الإسلام ، وليس فيها إلا العدد القليل من أهل القتال وحمل السلاح ؛ والعرب قد أصفقت كلها على الارتداد وحرب المسلمين يريدون استئصالهم ، وزاد في البلاء ما كان من استغلاظ أمر مسيلمة الخنفي وطلحة الأسدي ، وما كان تقدمهما من أمر الأسود العنسي ؛ وجاءت رسل المسلمين ووفودهم

من أنحاء الجزيرة العربية فدفعوا إلى أبي بكر بالكتب وأخبروه خبر الناس ، فقال لهم أبو بكر : لا تبرحوا حتى يجيء رسل أمركم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمر ، وأنتفاض الأمور ، فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبي صلى الله عليه وسلم من كل مكان بانتفاض عامة أوخاصة ، وتبسطهم بأنواع المثل على المسلمين ، فخارهم أبو بكر بما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاربهم بالرسول فرد رسالهم بأمره : واتبع الرسل رسلا ، وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة .

فلما قدم أسامة استخلفه أبو بكر على المدينة ، وقال له ولجنده : أريحوا وأريحوا ظهركم . ثم خرج في الدين خرجوا إلى ذي القصة والذين كانوا من الصحابة على أنقاب المدينة يحمونها ، فقال له المسلمون : نشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك ؛ فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فإن أصيب أمرت آخر ؛ فقال : لا ، والله ، لا أفعل ، ولأواسينكم بنفسى ! فخرج في تعبينه إلى ذي حسي وذى القصة حتى نزل على أهل الربرة بالأبرق فاقتتلوا فهزم الله عبسا وذبيان ، وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة :

وبوم بالأبارق قد شهدنا على ذبيان يذهب الزهابا  
أتيناهم بداهية نسوف مع العديق إذا ترك العتابا

وإذا دلت هذه الروايات كلها على شجاعة الصديق وعزيمته فإن فيها وجهاً من الدلالة على خصيصة عقلية بارعة ، تبرجت في هذا اللون من السياسة الحكيمة التي أخذ بها أبو بكر الناس .

فصارم عزيمته مع المسلمين في مطلع العاصفة هو الذي جمع إليه كتائبهم ؛ وتسييره جيش أسامة ، وفيه وجوه الناس وحدهم هو الذي أربع قلوب المرتدين ، وجعلهم يظنون بقوة المسلمين ، وهو الذي صورها في أفئدتهم بصورة عظيمة ، وتقديره لخطر المرتدين وداهم خطبهم هو الذي جعله على بيته من أمره ، فأعد للعضائم أقرانها من الدهى والسياسة والحرب والقتال ، وخروجه بنفسه في قلة من معه من المسلمين إلى لقاء من حدثهم أنفسهم بمن كانوا قرييين من المدينة من القبائل المرتدة بهاجتها هو الذي بعج عزيمته المتر بصين وراء هذه القبائل فأخافهم ووقف بهم عند شط الحيرة والاضطراب ؛ وتديره .

المحكم مع من بعدت دارهم من المرتدين ، وأخذه إياهم بمتابعة الرسل هو الذي أفسح له المجال حتى عاد إليه جيش أسامة أسلم ما يكون جيش ، فاستطاع أن يسدد ضربته القاصمة إلى عدوه وهو آمن الظهر مطمئن الفئدة .

لم نعرف لخالد رأيا في هذه المقاولات التي وقعت بين أبي بكر الصديق وسائر المسلمين أين رأى خالد .. في شأن المرتدين ، ولم نسمع له صوتا نعلم به أنه كان في أي جانب من جانبي هذا الاختلاف فما سبب ذلك ؟ وخالد بن الوليد ليس بالرجل المغرور الذي ينكر أو يخفي مكانه ورأيه في أعظم حادث فاجأ المسلمين بعد وفاة نبيهم ؟

لعلنا نستطيع أن نجد السبب في شخصية خالد وخلائقه وخصائصه ، فهو رجل حرب ، وقائد جحافل ، وفارس ميدان ، وبطل جلاد ؛ وفي لسان العصر : رجل عسكري ؛ والعسكريون أبعد ما يكونون عن السياسة ودهيها ؛ أو ينبغي أن يكونوا كذلك ، لأن العسكري ينتهي إليه التنفيذ ، ولو أنه كان رجل سياسة تتجاذبه الآراء وتتقارضه المذاهب ، وتتداوله الأحزاب لم يصاح أن يكون أداة متمسكة لتنفيذ ما تنتهي إليه السياسة من رأى يختلف مع رأيه ومذهب شيعته وحزبه .

والرجل العسكري في طبيعته وتربيته صاحب فكرة واحدة ، ولا يرى لتنفيذها إلا طريقاً واحداً ، والرجل السياسي صاحب فكر كثيرة في الموضوع الواحد ، وله طرائق متعددة يرى أن يسلكها لتحقيق أهدافه ؛ ونعني أن الرجل العسكري ينظر إلى الحياة من جانب واحد ، هو القوة الميدانية ، أما الرجل السياسي فإنه ينظر إلى الحياة من جوانب متعددة ليس غفلا منها القوة المادية ؛ ولكنها عنده ليست أهمها ولا أولها .

وخالد بن الوليد في هذا المقام كغيره من العسكريين أبطال الحروب الذين يقفون عند الشدائد وراء رجال الشورى وذوى الرأى من رجالات الدولة متأهبين ، ينتظرون الأمر بامتشاق الحسام ليحكم بين الناس ، والسياسة التي نعيمها هنا ليس منها سياسة تدبير الحرب وإدارة المعارك ، لأن هذه لا تخرج بالرجل العسكري عن نظرته للحياة .

وهناك أمر آخر قد يمت إلى الطبيعة العسكرية بصفة ، ولكنه في خالد بن الوليد يتميز أشد التمييز حتى يظن أنه من خصائصه ، ذلك أن خالد أب فيما عرفنا من طبيعته .



رجل شديد التمسك برأيه إلى حد التعصب ، لا يرى أن يرجع إلى رأى غيره ، ولعل مرد ذلك عنده هو خلق الصرامة الحربية ، والغلو في الاعتداد بالنفس في غير عناد ولا مكابرة ، ولكن عن اقتناع وإيمان ، وليس من الحتم أن يكون الاقتناع والإيمان بالرأى بعيدين عن الخطأ مبرأين عن مجانبة الحق والصواب ، ولكنهما على كل حال بعيدان بصاحبهما عن متابعة الهوى والخضوع لشهوات النفس ، وقد يكون ذلك في قائد لم تشذبه نزعة روحية غلبة — من قبيل الغرور والتعالى والادلال على الناس بما يميز به من الخصائص والصفات .

وإذا كنا لم نعرف لخالد رأيا ولم نسمع له صوتا في مشاورات الردة ، فإنه لينقدح في حدسنا أن خالد أكان أميل إلى رأى الخليفة في أخذ الناس بالحزامة وشدة البأس ، ولذلك كان خالد أول قائد عقد له أبو بكر الصديق لواء الإمارة العامة وأوعب منه الناس ، وأمره بالمسير إلى عدوه ، وأظهر أنه ملاقيه على كتيبته ليرهب بخروجه ويعرف الناس الجدد في الأمر .

روى الطبرى عن طريق ابن الكلابي : أن أبا بكر لما رجع إليه أسامة ومن كان معه من الجيش جد في حرب أهل الردة ، وخرج بالناس وهو فيهم حتى نزل بلى الفصة منزلا من المدينة على بريد من نحو نجد ، فبعى هنالك جنوده ، ثم بعث خالد بن الوليد على الناس ، وجعل ثابت بن قيس على الأنصار وأمره إلى خالد ، وأمره أن يسمد الطليحة وعيينة بن حصن وهما على بزاخة — ماء من مياه بني أسد — وأظهر أني ألاقك بمن معي من نحو خيبر مكيدة » وقد أوعب مع خالد الناس ، ولكنه أراد أن يباع ذلك عدوه فيرعبهم .

وقال صاحب الخيبر : ولما كان من العرب ما كان من التوائهم على الدين ومنع من منع منهم الصدقة جد بأبي بكر الجد في قتالهم ، وأراه الله رشده فيهم وعزم على الخروج بنفسه إليهم ، وأمر الناس بالجهاد ، وخرج هو في المهاجرين والأنصار ، وخالد بن الوليد يحمل اللواء حتى نزل بقاء ، وهو ذو الفصة ، يريد أبو بكر أن يلاحق الناس من خلفه ، ويكون أسرع لخروجهم ووكّل بالناس محمد بن مسامة يستدعهم فأنهضهم إلى ذي الفصة عند غروب الشمس ، وصلى بها المغرب ، وأمر بنار عظيمة فأوقدت ، وأقبل خارجة بن حذيفة الفزاري

في خيل قومه يريد المدينة للإغارة عليها ، فلقية أبو بكر فيمن معه من المسلمين .  
فانكشف خارجة في فلال المرتدين من قومه وولوا منهزمين ، فقويت بذلك شوكة  
المسلمين وشجعت قلوبهم وتحلبوا إلى الصديق وهو مقيم لهم حتى تكاملت منهم حشود  
عظيمة ، وهو يظهر أنه سيقود هذه الحشود بنفسه .

رأى المسلمون عزيمة الصديق فانهعات لها نفوسهم وعزموا عليه أن لا يخرج بنفسه  
وأن يرجع حتى يكون للناس وئدة ورداء ، فلما كثروا عليه وأطمأن إلى صوارم عزماتهم  
أراد أن يستخلف على الناس ، فنثر بين يديه كنانة أبطال الإسلام لينظر أصلها عوداً  
فيرمى به في أول وجهه ، فدعا زيد بن الخطاب فعرض عليه إمارة الجيش ، فقال له زيد :  
يا خليفة رسول الله ، كنت أرجو الشهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أرزقها ،  
وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه ، وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه !!  
فتركه أبو بكر إلى نيته وما يرجو لنفسه من الخير ، ودعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة .  
فعرضها عليه فاعتذر بما اعتذره زيد بن الخطاب ، ثم دعا سالمًا مولى أبي حذيفة فأبى  
عليه .

كأن الله تعالى أذخر هذا المقام لسيفه بطل الإسلام القائد العبقري ، حليف الحروب  
وصنديدها ، وريبب الجلال ، ورضيع الجهاد أبي سايان خالد بن الوليد ، فالتفت إليه  
أبو بكر وهو أعلم بيمين نقيته وطالع سعده ومكانه من سياسة الحرب ، فدعاه فلبى ،  
وأمره على الجيش فأطاع ، وأعلن في الناس ذلك وقال لهم : سيروا على اسم الله وبركته  
فأميركم خالد بن الوليد ، فاسمعوا له وأطيعوا .

ثم خلا بخالد فقال له : يا خالد عليك بنقوى الله ، وإيثاره على سواه ، والجهاد في  
سبيله ، فقد وليتك على من ترى من أهل بدر من المهاجرين والأنصار .

أوجيه خالد  
إلى طليحة  
الأسدي

\*\*\*

كان طليحة بن خويلد الأسدي ممن تكذب فادعى النبوة في حياة النبي صلى الله عليه  
وسلم والتف حوله جمع من طغام قومه وسفهاهم ، فوجه إليه النبي صلى الله عليه وسلم  
ضرار بن الأزور ، وأمره بالقيام مع من استطاع من المسلمين على كل من ارتد ، فأشجعوا  
طليحة وأخافوه ، وهم ضرار به حتى كاد أن يأخذه ، ولم يلبث رسول الله صلى الله عليه

وسلم أن توفي ، فاستطار أمر طليحة ، واستشرى شره ، وعظمت على الناس فنتته ، وتفاقم خطبه ، وكان رجلاً فارساً شجاعاً وداهية منطقاً ، فوجه إليه أبو بكر رضي الله عنه أول جيش في حروب الردة بعد إيقاعه بعيس وذبيان ، بقيادة البطل المظفر خالد ابن الوليد ، وعهد إليه إذا فرغ من طليحة سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له ثم خلا أبو بكر بخالد وألقى إليه وصيته الخالدة فقال :

وصية أبي  
بكر لخالد

« يا خالد عليك بتقوى الله تعالى وإيثاره على من سواه ، والجهاد في سبيله والرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل السابقة من المهاجرين والأنصار ، فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم ، فإذا دخلت أرض العدو ، فكن بعيداً عن الحملة ، فإنني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع تترد لك المنازل ، وسر في صحابك على تعبئة جيدة وأحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقابل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن في العرب غرة ، وأقلل من الكلام ، وأقبل من الناس بالانيتهم ، وكههم إلى الله في سريرتهم ، وإذا أتيت داراً فأقبحهم ، فإن سمعت أذانا أو رأيت مصلياً فأمسك حتى تسألهم عن الذي تقوموا ومنعوا الصدقة ، فإن لم تسمع أذانا ولم تر مصلياً شئ الغارة فاقتل واحرق كل من ترك واحدة من الخمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، حتى إذا أسلموا وأعطوا الصدقة فمن شاء منكم أن يرجع فليرجع ، وإذا لقيت أسداً ، وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لالك ولا عليك ، متربص دائرة السوء ، ينظر لمن تكون الدبره ، فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندي من أهل الإمامة فاستعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفالك الله الضاحية فامض إلى أهل الإمامة ، سر على بركة الله »

يستوقف نظر الباحث في هذه الوصية أمور جديدة بالتمييز والتسجيل ، فالخليفة الأول يأمر قائده بالرفق بمن معه من جنده ورعيته ، لأنهم من أهل السابقة في الجهاد ، وذوى السوابق في الذود عن حياض الدين وحمايته ، والرفق بالرعية دستور الحكمة السامية في سياسة الجند ، والعروة الوثقى بين الراعي والرعية يربط قلوبهم بقلبه ، وتصل

تلميح  
« والتذكير

ألبابهم بلبه ، وتمتد أبصارهم إلى موقع بصره ، وتذيط طاعتهم بإشارته ، وإقدامهم بأمره .

والخليفة الأول يأمر فائده بمشاورة من معه من أهل رأى فى جيشه عند الملهمات . والمشاورة دستور الإسلام ، وقاعدة نظام الحكم فى دولته ، أمر بها القرآن الكريم ، وعمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أغنى الناس عنها ، لو كان لبشر عن الشورى غناء ، واستن بها الخلفاء الراشدون من بعده ، وهى بعد طويل الزمن وكثرة التجارب أعلى مطامح الأمم الراقية ، ولو أن المسلمين حرصوا عليها لما أصابهم هذا التفرق والانحلال .

والخليفة الأول يحذر أمير جيوشه إذا دخل أرض العدو مهاجماً أن يواجه حملة جحفلة وعنقوان قوته . لأنه يخشى عليه صدمة الجولة ، وجولة الدفاع بقوى متجمعة . متأهبة أشد وطأة وأقوى اندفاعاً ، وأصلب قناة من هجمة المهاجم ، وهذا إرشاد إلى تعرف مواطن الضعف فى قوى العدو لأخذه من جوانبها ، وذلك ما يتبارى فى ميدانه قادة الجيوش منذ أقدم الأزمان ، وقد أصبح من أعظم مظاهر العبقرية فى سياسة الحروب الحديثة .

والخليفة الأول يأمر قائده أن يستظهر بالزاد، ويسير بالأدلاء ، يقدم أمامه الطلائع لترتاد له المنازل ، وفى ذلك تنبيه إلى قيمة الاستعداد فى تموين الجيوش ، وتوفير حاجاتها حتى لا يشغل الجندى بأمر نفسه عن واجبه الحربى وموقفه من القتال ، وقد عرفت الحروب الحديثة ، وهى أشد تعقيداً فى طرائقها من الحروب القديمة ، أن تموين الجيوش وتوفير أغذيتها وذخيرتها وأسلحتها أهم أسباب النصر والظفر على الأعداء .

أما السير بالأدلاء وتقديم الطلائع ، فهذا ما تسميه أساليب الحرب الحديثة طلائع الاستكشاف ، وهو أمر من أعظم فنون الحرب ، وعلى أساسه ترسم الخطط هيجوما ودفاعاً ، وفى صحائف الحربين العالميتين ما يقفنا على القيمة العظيمة لهذا الزمن عند قادة الجيوش ويرينا كيف كانت العبقرية الإسلامية تدير دفعة الحياة فى الحرب والسلم بأفكار لا تعرف حواجز الزمان والمكان .

والخليفة الأول يأمر قائده أن يسير إلى عدوه في تعبئة جيدة ومرد ذلك إلى حذق القائد وحزمه ومهارته في إدارة دفعة المعارك ووضع كل فرقة في موضعها ، وترافق الأسلحة وتعاونها ، ونظام الكتائب والفرق ، وقيام كل كتيبة وفرقة بواجبها ، فلا تتعداه إلى ما هو من خصائص غيرها ، وارتباط طبقات الجيش ببعضها وحدة في دفاعها وهجومها .

وفي قول أبي بكر الصديق لقائده البطل العبرى في هذه الوصية « واحرص على الموت توهب لك الحياة » إرشاد إلى أعظم مبادئ الفداية الصادقة في سبيل العقيدة الإيمانية التي يجب أن يربى على غرارها الجندي حتى لا يترضه الجبن المذل ، ولا يقعد به الفزع عن الإقدام ، ولا يردده التشبث بالعيش عن الاقتحام ، ولا يردد فرائسه الفرق فيتقدم وهو ثابت الجأش رابط الجنان .

ويقول الخليفة الأول لقائده البطل : ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، وفي ذلك تنبيه على العناية بالجرحى ، فلا يقتحمون في المعارك وهم يألمون من جراحهم ، لأنهم حينئذ يكونون وزراً ثقيلاً على المقاتلة ، ومشغلة للقيادة عن التفكير في متابعة الخطط وتنفيذها ، وعقبة في سبيل الإقدام والاقتحام ، ولا يخاف قول الصديق من لفنة إلى ما يجب أن يكون في أوائل معدات الجيوش من المشافي الحربية المتقلة تبعاً لحركات الكتائب ، وفي قول الصديق لخالد رضى الله عنهما : واحترس من البيات فإن في العرب غرة ، تحريش على اليقظة الواعية ، وتأكيد للعناية بنظام الحراسة الدقيقة حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة تحت جنح الظلام ومنافسة الغفلة ، ولقد كان خالد لا ينام ولا يذم ؟ ذاكي العيون ، يقظ الحراسة ، نهازا للفرص ؛ لا تقلت منه نهزة إذا حانت

وفي قوله : وأقلل من الكلام ؛ إشارة إلى ما يجب أن يتحلى به القادة والزعماء وولاة الأمر وأصحاب السلطان من حبس ألسنتهم عن الثثرة والنسكثير من الحديث بمرزامن مسقط قد تكشف سراً من أسرار الدولة أو خطة من خطط الحرب مما يؤدي إلى ضياع فرصة كان في انتهازها مصلحة للأمة ، أو ظهر في موقعة ، أو يؤدي إلى إزال نكبة بالجيوش أو الدولة .

وليس أخطر على الأمم ، ولا أفتك بالجيوش من ثروة القادة والزعماء وانطلاق  
ألسنتهم ، وإذا عييت الثروة على عامة القادة فهي في قادة الجيوش ورجال العسكرية  
أخطر وأفدح .

وفي قوله له : وأقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سريرتهم ، وضع لأساس  
العلاقة التي يجب أن تكون بين ولاة الأمور وذوى السلطان من الحاكمين وبين رعييتهم  
من عامة الناس وخاصتهم ، بمن استرعاهم الله مصالحهم وولاهم سياسة أمورهم وإصلاح  
شئونهم ، ونأمين تصرفاتهم في دائرة العدالة والترحام .

ونصيحة الصديق ترمى إلى أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ولا سيما علاقة  
القائد الحربى بجنود جحافلها لا تعدى ما يظهر من صفحات الناس في أقوالهم  
وأفعالهم ؛ لأن المقصود الأهم من نظم الحكم وتولية القادة إنما هو إصلاح حال الأمة ،  
ونأمين حقوق الأفراد والجماعات ، ومنع التعالّب الذى ينتهى إلى إبراز الأقوياء  
الضعفى ، وإضعاف ثقة الرعية والجنود فى الولاة والقادة مما يشيع فى الأمة الاضطراب  
والفوضى ، وينشر فيها الأفكار الخطرة المهادمة .

وليس بالوالى والقائد حاجة إلى أن يفحص عن قلوب الناس ليكشف ما بها من  
خير أو شر ، وإنما به أشد الحاجة إلى أن يرقب بعصر نافذ وبصيرة نيرة أعمال الأمة  
ومن تولى أمرهم من الجنود ليعجزى من أحسن ويزجر من أساء .

وقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم دهره يسوس أمته ، وأهل النفاق منبشون  
فى غمار المؤمنين ، فلم يكشف صفحة أفئدتهم ولا نبش قلوبهم ، بل كان يزود عنهم من  
يريد ذلك بهم حتى فضحهم الله وكشف سوائهم بنعوتهم العامة وأوصافهم الشائعة ، ولم  
يذكر أحداً منهم باسمه ولا عينه بشخصه ، تربية للأمة على عدم إشاعة سوء الظنة فيما بين  
أفرادها وجماعاتها ، مما يقود إلى بلبلة الأفكار واضطراب الحياة الاجتماعية فيها .

وفى ختم به الصديق وصيته للقائد العبرى من الحديث عن قبائل العرب وموقفهم  
من الإسلام ، وتبيين شأن أسد و غطفان وأهل اليمامة ما يدل على إحاطة الخليفة الأول  
علما بشأن الناس ، وأنه بتوجيه خالد إليهم ، وهم على ما وصف ، قد رماهم بالصماء التى  
لا تنطق بإقالة عثرة ، ووجه إليهم بقائد جمع بين أطراف السكفاية السياسية والحربية  
( م ٩ — خالد ابن الوليد )

فرد رسن المتردين المتربصين إلى كاهل الإسلام ، وفنك بمجموع الطغاة المعاندين .

\* \* \*

خالد وعدي      وعي بطل الإسلام خالد وصاة إمامه الأعظم ، فسار إلى عدوه بجيشه ، يقامه حزم  
ابن حاتم      جليد ، وصيت في الحروب تفزع له قلوب الصناديد ، وكان أبو بكر الصديق رضي الله  
عنه - فيارسم له من خطة سيره : أمره أن يبدأ بطيء على أكتاف جبابهم سلمى وأجاء ،  
ثم يكون وجهه إلى البزاحة ليلقي طليحة وألفافه ، ثم يسير إلى مالك بن نويرة بالبطاح ،  
وكان طليحة بعد أن أرزت إليه عبس وديان أرسل إلى طيء غوثها وجديتها بطلب  
إليهم أن ينضموا إليه ، فتعجل إليه ناس من الحيين ، فكانوا في ألفافه ، وحرضوا  
سائرهم على اللحاق بهم ؛ فلما خرج خالد على تعبته ازوار عن البزاحة وجنح إلى أجاء ،  
فبعد ذلك سائر طيء وبطأهم عن اللحاق بانضمامهم الذين انضموا إلى طليحة ، وكان في  
جيش خالد أبو طريف عدي بن حاتم ، فتقدم إلى قومه يقتلهم في الذروة والمارب حق  
أجابوه ، فكان معه من غوثهم ألف رجل ممن يحمل السلاح ، وكانت بقية جديدة قد  
همت أن تلوى أعناقها فقام فيهم مكيث بن زيد الحبي - وكان رجل صدق وحيانة - فقال  
لهم : أريدون أن تكونوا سبة على قومكم ؟ لم يرجع رجل واحد من طيء ، وهذا  
أبو طريف عدي بن حاتم معه ألف رجل من طيء فسكسهم ؛ ولما ذهبهم بتقدموا إلى  
صفوف المسلمين حتى لقيهم عدي ؛ فإن خالد رضى الله عنه أراد أن يبدأ بشالهم لما بلغه  
خبرهم ، فقال لعدي : يا أبا طريف ألا نسير إلى جديدة ؟ فقال عدي : يا أبا سليمان  
« لا تفعل » أقاتل معك يدين أحب إليك أم بيد واحدة ؟ قال : بل يدين ، قال عدي :  
فإن جديدة إحدى يدي فسكف عنهم خالد ، قاتلهم عدي فدخلهم إلى الإسلام فأسلموا  
فحمد الله وسار بهم إلى خالد وهم في أهبة الحرب ، فلما رآهم خالد على عدتهم فزع منهم  
وظن أنهم جاءوا لحربه ، فصاح في أصحاب السلاح ، فقبل له : إنما هي جديدة أنت تقال  
معك ! ففرح بهم خالد ورحب ، واعتذروا إليه من اعتزالهم ، وقالوا : نحن لك حيث  
أحببت ، فضمهم خالد إلى جيشه وعقد لواء طيء ، كلها غوثها وجدياتها لأبي طريف  
عدي بن حاتم الذي كان أيمن مواد وخيره في أرض طيء وأعضاه عاها بركة ، وقد  
فرح المسلمون به وقومه فرحا شديدا فقال شاعرهم :



جزى الله عنا طيئاً في بلادها ومعتزك الأبطال خير جزاء  
هم أهل رايات السماحة والندى إذا ما الصبا ألوت بكل خباء  
هم ضربوا بعلى الدين بعدما أجابوا منادى فتنة وعماء

تقدم خالد بجيوش الإسلام إلى البزاحة وهو ماء لبنى أسد حتى كان قريباً منه ،  
وكان طليحة قد نزل في جموعه من المرتدين على ماء آخر لهم يقال له النمر ، وتراعى  
الجيشان ، فقال عدى بن حاتم لخالد بن الوليد : يا أبا سليمان : اجعل قومي مقدمة  
أصحابك ، فقال له خالد : يا أبا طريف إن الأمر قد اقترب ، وأنا أخاف أن أقدم قومك  
فإذا لمهم القتال انكشفوا فانكشف من معنا ، ولكن دعني أقدم قوماً صبراً لهم  
سوا بق وثبات ، وهم من قومك ( يريد المهاجرين والأنصار ) فقال عدى : الرأي ما رأيته .

خالد في وجه  
طليحة

وهذه نظرة ثاقبة من نظرات أبي سليمان خالد بن الوليد في سياسة الحرب وإدارة  
دفعة الوقائع والعلم بأحوال الرجال وشأن الجند في حومة الوغى ، ومنزلة أهل العقائد  
والإيمان في الإقدام والحرص على الموت استشهاداً في سبيل الله .

انتهى المسلمون إلى معسكر طليحة وهو في قبة من أدم ضربت له ، يسجد لأصحابه  
ويتكهن لهم فدعاه خالد إلى الإسلام تنفيذاً لهذا الحليفة وعملاً بسنة الإسلام ، فأبى طليحة  
وأعرض اغتراراً بكشافة من معه من الحشود ، فانصرف عنه خالد إلى معسكره ،  
وبات يدبر أمره ويشاور أركان حربه ويعيى جيشه ، فلما كان السحر دفع باللواء  
الأعظم إلى زيد بن الخطاب ، وعقد لواء الأنصار لثابت بن قيس بن شماس ، ودنا  
الناس بعضهم لبعض ، وخرج طليحة في كتيبة خاصة ، فوامها أربعون غلاماً جليداً  
أقامهم في الميمنة وقال لهم : اضربوا حتى تأتوا الميسرة فتضع الناس ولم يقتل أحد  
منهم ، ثم أقامهم في الميسرة ففعلوا مثل صنيعهم الأول فانكشف المسلمون ، فصاح خالد :  
يا معشر الأنصار ، الله ، الله ، واقتحموا غمار المعركة وتراجع إليه الأنصار ، وتبعهم سائر  
الناس فاختلفت الصفوف واختلفت فيما بين الناس السيوف ، وضرس خالد في القتال  
فجعل يقحم فرسه ، ويقولون له : الله ، الله ، فإنك أمير القوم ، ولا ينبغي لك أن  
تقدم ، فيقول خالد : والله إنى لأعرف ما نقولون ، ولكنى ما رأيتني أصبر وأخاف  
هزيمة المسلمين .

نعم إن خالد أَرْضَى الله عنه أمير القوم ، ولا ينبغي لأمر القوم أن يباشر القتال بنفسه ، ولكن إمارة خالد بن الوليد في الحرب طرز فريد ، لأنه بطل قبل أن يكون أميراً ، وجندى قبل أن يصير قائداً ، فأنى له الصبر عن الاقتحام وقد حمى الوطيس. والمسلمون ينكشفون ؟

روى السكاكي عن بعض الطائيين : أن طليحة لما حمل على الناس في كتيبته الخاصة نادى منادى الناس : يا خالد : عليك سلمى وأجأ ؛ فأجابه خالد : بل إلى الله الملجأ ، ثم حمل خالد فوالله مارحح حتى لم يبق من أولئك الأربعين رجل واحد ، وقاتل خالد يومئذ بسيفين حتى قطعهما .

يريد الناس من خالد أن يتحصن في ساعة العسرة بالجبال وهو يرى أن يتحصن بالله تعالى خالق الجبال ، وإذا لم يكن قواد الجيوش على مثل هذه الثقة ورسوخ الإيمان والشجاعة في لحظات الشدائد التي لا ينفع فيها التحوز والاحتماء بالحصون والقلاع فليس لهم إلى النصر من سبيل .

هذه حقيقة من حقائق الحرب يعلمها خالد بن الوليد علم اليقين وعليها عاهدته إمامه الأعظم والخليفة الأول أبو بكر الصديق في قوله : واحرص على الموت توهب لك الحياة ، فلم يستطع خالد — وقد قبل هذا العهد الفدائي — أن يصبر وهو يرى المسلمين تضعضعهم أسياف أعدائهم ، وهو واقف ينظر إليهم لأنه أمير ؛ أف لهذه الإمارة التي تحجز سيف الله وبطل الإسلام أن يواسى المسلمين ساعة الهزيمة بنفسه ؟ ! وليس من شك في أن شجاعة خالد في اقتحامه ومخاطرته هي التي كان لها فضل في تثبيت المسلمين وعطفهم على أعدائهم حتى أنزل الله عليهم نصره .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما — وكان في جند خالد — نظرت إلى راية طليحة يومئذ حمراء يحملها رجل لا يزول بها فتراً ، فنظرت إلى خالد أتاه فحمل عليه فقتله فكانت هزيمتهم ، فنظرت إلى الراية تطوؤها الخيل والإبل والرجال حتى تقطعت ، واقتد رأيت خالد يوم طليحة يباشر القتال بنفسه حتى لم يبق في ذلك ، ولقد رأيت يوم اليمامة يقاتل أشد القتال ، إن كان مكانه ليتقى حتى يطلع إلينا منبراً .

هكذا كانت بطولة خالد بن الوليد ، وهكذا كانت قيادته لجند الإسلام في حروب

الردة ، يصفها جندي من جنوده عرف بصدق المقال ، ودقة الوصف ، وشدة التحري ،  
خالد وهو أمير القوم يضرب للناس المثل بنفسه حتى يكون لهم فيه أحسن الأسوة ، فلا  
يبقى منهم أحد إلا وهو في نفسه صورة متحركة لذلك المبدأ الفدائي الذي تكيف به قائدهم  
المعظم ؛ فلقد حرص خالد على الموت في سبيل الحق والعقيدة ، فحرص كل جندي من  
جنود الإسلام مثل حرصه ، فوهب الله لهم عز الحياة وكرامتها ، ونصرهم على أعدائهم  
نصراً مؤزراً .

وقد أدرك أعداء الإسلام هذه الروح القوية في جند الإسلام ورأوا فيهم حب التضحية  
وانتمحام الموت في سبيل عقيدتهم ودينهم فرجعوا إلى هذه الروح الفدائية نصرهم وهزيمة  
المرتدين . روى أن طليحة لما رأى هزيمة أصحابه بعد جواتهم قال لهم : ويلكم ما يهزمكم ؟  
فقال رجل منهم : أنا أخبرك ! إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن صاحبه يموت قبله ،  
وإننا نلقى أقواماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه .

ضرس القتال بين جند الإسلام وأصحاب طليحة ، يقود كل جماعة رئيسها ، وكان هزيمة طليحة  
فيهم عيينة بن حصن الفزاري يقود فزارة ، وكانوا من أشد القوم تزامياً على القتال ، ورجوعهم إلى  
يزمرهم عينة فيقتحمون حتى إذا لحقتهم الحرب وذاقوا حر السلاح نظروا إلى قائدهم عيينة ،  
وطليحة متزمل بكسائه ينتظر شيطانه ، فأتاه عيينة فقال له : لا أبالك ! هل أتاك الوحي  
بعد ؟ فقال طليحة وهو تحت الكساء : لا ، والله ما جاء بعد . فقال عيينة : تبالك سائر  
اليوم ! ثم رجع إلى أصحابه يزمرهم على القتال ويخصهم وقد ضجوا من وضع السلاح فيهم  
فلما طال الأمر على عيينة جاء إلى طليحة وهو مستلق متشح بكسائه فجذبه جبذة جلس  
منها ، وقال له : قبح الله هذه من نبوة ، ما قيل لك بعد شيء ؟ فقال طليحة قد قيل لي :  
إن لك رحي كرحاه وأمرأ لن تنساه ! فقال عيينة : أظن أن قد علم الله أن سيكون  
لك أمر لن تنساه ؛ يا فزارة هكذا وأشار لقومه تحت الشمس لينصرفوا فانصرفوا ، وقال  
لهم : هذا والله كذب ما بورك له ولا لنا فيما يطلب . فتبعهم المسلمون يقتلونهم  
ويأسرونهم ، وكان في الأسرى عيينة قائدهم ، وانكشف عن طليحة شيطانه ، ورأى  
ما حل بأصحابه من بلاء القتل والأسر ، وهم يصيحون به ماذا ترى ؟ وكان طليحة قد  
أعد فرسه فوثب عليها وحمل وراءه امرأته النوار ، ثم قال لأصحابه : من استطاع منكم

أن يفعل هكذا ليفعل ، فهرب إلى الشام ، ونزل هناك على بنى كلب وبلده ، مالقيت أسد .  
وغطفان من جنود المسلمين ، ومعاودة العرب للإسلام فأسلم وحسن إسلامه .

ذكر ابن اسحاق أن طليحة لما ولى هاربا تبعه عكاشة بن محصن ، وثابت بن أقرم ،  
وكان طليحة أعطى الله عهدا أن لا يسأله أحد شيئا إلا أجابه إليه ، فلما أدبر ناداه عكاشة  
للنزال فعطف عليه فقتل عكاشة ، ثم أدركه ثابت فقتله أيضا فاشتد قتلهما على المسلمين .

وذكر الواقدي في قتل عكاشة وثابت رواية تخالف رواية ابن اسحاق فقال : إن  
خالد بن الوليد لما دنا من القوم بعث عكاشة واثبا طليحة أمامه ، وكانا فارسين ، فلقيا طليحة وأخاه  
مسلمة ابني خويلد طليحة لمن وراءهما من الناس ، فلما التقوا انفرد طليحة بعكاشة ومسلمة بثابت ،  
فلم يلبث مسلمة أن أقتل ثابثا ، وصرخ طليحة بمسلمة : أعنى على الرجل فإنه قاتلى ، فسكر  
معه مسلمة على عكاشة فقتلاه ، ثم رجعا إلى من وراءهم ، وأقبل خالد معه المسلمون ، فلم  
يرعهم إلا ثابت بن أقرم قليلا ، تطوؤه المطى فعظم ذلك على المسلمين ، ثم لم يسيرا إلا  
يسيرا حتى وطئوا عكاشة قليلا ، فثقل القوم على المطى حتى ما تسكاد ترفع أخفافها بهم ؛  
وأذكرى ذلك الحمية في أنفس المسلمين حين التقوا بأصحاب طليحة ، وأخذوهم قتلا وأسرا ،  
وصاح خالد في جنده : لا بطبخن رجل قدرا ولا يسخنن ماء إلا أنفيتها رأس رجل !

وقد مر طليحة بعد إسلامه بحجرات المدينة المنورة في خلافه أبي بكر معتبرا ، ولم  
ينزل بها حياء من أبي بكر ، فقبل لأبي بكر : هذا طليحة ! فقال : ما أصنع به ؟ قد  
أسلم ، ولما توفي أبو بكر وقام بالأمر من بعده عمر أتاه طليحة فبايعه ، وقال له عمر : أنت  
قاتل عكاشة وثابت ؟ والله لا أحبك أبدا ، فقال يا أمير المؤمنين ما همك من رجلين أكرمهما الله  
بيدي ولم يهني بأيديهما ؟ وقد كان لطليحة بعد إسلامه مواقف محمودية في الجهاد ، وكان  
له في حرب القادسية قدم صدق ؛ وعرف له عمر بن الخطاب مكاتبه ورأيه في الحرب  
فكتب إلى النعمان بن مقرن أن استعن في حربك بطليحة وعمر بن معديكرب ، واسمك شهد  
طليحة في حرب نهاوند .

سحلة تأديبية ولما انتهى خالد رضى الله عنه من بنى أسد وفزارة بهزيمة طليحة سرى الفزع إلى  
قلوب القبائل العربية الواقفين بالمرصاد ، ينظرون لمن تكون الدبرة ، فلم يلبثوا أن ترامت  
إليهم مع رياح الصحراء أنباء انتصارات المسلمين ، فقدمت وفودهم على خالد ، وألقوا في .

يده مقود طاعتهم بين راغب في الإسلام وخائف من السيف ، وكانت بنو عامر متحيرة تقدم رجلاً وتؤخر أخرى حتى علموا بما صنع خالد بنى أسد وفزارة ، فأقبلوا على خالد يبايعونه فقبل منهم ، وأخذ عليهم عهد الله وميثاقه ليؤمنن بالله ورسوله وليقيمن الصلاة وليؤتن الزكاة ويبايعون على ذلك أبناءهم ونساءهم .

وكانت هذه أول وقعة أوقعها خالد بالمرتدين ، فجعل منها وسيلة عاصفة للترهيب والتخويف ، فنكل بهم وبعج طوائفهم وبخع زعماءهم وشرد بهم من خلفهم ومثل بكل من عدا على أهل الإسلام في رده ، ولم يدخل فيما دخل فيه الناس من الطاعة وحسن الإسلام فقتلهم كل قتلة ، وحرقهم ورضخهم بالحجارة ، ورعى بهم من شواهد الجبال ونكسهم في البئار .

استبقى خالد قرة بن هبيرة القشيري وعيينة بن حنن المزاري وأرسل بهما إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وكتب إليه كتاباً قال فيه : إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض ودخلت في الإسلام بعد تربص وإني لم أقبل من أحد قاتلني أو سألني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين فقتلتهم كل قتلة ، وبعثت إليك بقرة وأصحابه .

قال ابن عباس : فقدم بهما المدينة في وثاق ، فنظرت إلى عيينة مجموعة يده إلى عنقه بحبل ينخسه غلمان المدينة بالجريدة ، ويضربونه ويقولون : أى عدو الله ! أكفرت بعد إيمانك ؟ فيقول : والله ما كنت آمنت بالله ! وكذلك كان أعرابياً جافياً ، أقام ما أقام في حياة رسول الله عليه وسلم مجذوع الأنف مقلم الأظفار ، حتى إذا حانت من الشيطان لفظة الردة فاضطرب لها حبل الإسلام ، ومرج عهده ، وماج أهله ، وبغى الغوائل ، ظن عيينة ومن لف لفه من جفاة الأعراب ومنافي العرب أن قد اكشبت نهزم ، ولات حين الذي يرجون .

روى أن عمرو بن العاص - وهو قافل من عمان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم - لقي عيينة بن حصن خارجاً من المدينة في جماعة على شاكلته ، وكانوا قدموا على أبي بكر في طليعة الفتنة ، يقولون له : إن جعلت لنا شيئاً كفييناك من وراءنا ؟ فقال عمرو بن العاص : ما وراءك يا عيينة ؟ من ولى الناس أمورهم ؟ قال : أبو بكر ، قال

عمرو : الله أكبر ؛ فقال عيينة يا عمرو قد استويننا نحن وأنتم ؛ فقال عمرو وكذبت يا ابن  
الأخابث من مضر !!

\*\*\*

وصل كتاب خالد إلى أبي بكر ودخل الأسرى المدينة ، فروى أبو بكر في الأمر ،  
وكان رضى الله عنه ضليح الرأى ، نفاذا إلى ما وراء الحجب ، فعفا عن قرّة وعيينة مع  
عظيم ذنبهما ، وكتب لهما أمانا لأن الأمر كان لا يزال في إبانته ، وكانت العرب لا تزال  
جامحة ، وكان المسلمون لا يزالون في حاجة إلى تأليف قلوب رؤساء القبائل ليكُونُوا ردماً  
وعونا لهم في محنتهم ، وهذه سياسة أبي بكر كانت تجمع بين اللين والمؤالفة ، والشدة  
الزاجرة .

وكتب أبو بكر يرد على خالد كتابه فشجعه وزمره على أعداء الإسلام ، وأظهر له  
رضاءه عما صنع بهم فقال له : ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً ، واتفق الله في أمرك ، فإن  
الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، جد في أمر الله ، ولا تنين ، ولا تظفرن بأحد  
قتل المسلمين إلا قتلته ، ونكأت به غيره ، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاهه ممن يرى أن  
في ذلك صلاحاً فاقتله .

أخذ خالد بعد ظفـره يتتبع فأول المرتدين ليقضى على الشر في مكائمه ، وأخذ يهيل  
خيله فيما حوله من مضارب العرب ، فلقى جمعاً من بني ساسم ، عليهم أبو شجرة ابن الخنساء  
الشاعرة ، وكان شاعراً يتكذب فقال :

صحا القلب عن مى هواه وأقصرا	وطاوع فيها العاذلين فأبسرا
وأصبح أذنى رائد الجهل والصبا	كما ودها عنا كسذلك تنيرا
وأصبح أذنى رائد الوصل منهم	كما حباها من حبلنا قد تنيرا
ألا أيها المسدلى بكثرة قومه	وحظاك منهم أن تضام وتتهرا
سل الناس عنا يوم كل كريهة	إذا ما التقينا دارعين وحسرا
ألسنا نعاطى ذا الطماح لجامة	ونطمعن في الهيجا إذا الموت أففرا
وعارضة شهباء تخطر بالقنا	ترى الباق من حافاتها والسنورا
فرويت رجمى من كتيبة خالد	وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

وكان أبو شجرة حين لحق بمن ارتد من قومه قبل لقاء خالد قد قال :  
 فلو سألت عنا غداة مزامر كما كنت عنها سائلا لو نأيتها  
 لقاء بني فهر وكان لقاءهم غداة الجـواء حاجة فقضيتها  
 صبرت لهم نفسي وعرجت مهرتي على الطعن حتى صار وردا كميته  
 إذا هي صدت عن كمي أريده عدلت إليه صدرها فهديتها

وقوله : فرويت ربحي من كتيبة خالد : من أكاذيب الشعراء لأن قومه بني سليم  
 لم يقيموا لخالد وكتيبته الظافرة إلا بمقدار ما أدركتهم السيوف المسامة حتى رعبلتهم وفرقت  
 شملهم ، وفر أبو شجرة ، وتقطعت آماله ، ثم أدركته عناية الله فعاود الاسلام ودخل  
 فيما دخل فيه الناس . روى أنه قدم على عمر بن الخطاب في خلافته فلقبه وهو يعطى  
 المساكين ، فاستعطاه فقال له عمر لما عرفه : أأنت القائل :

فرويت ربحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمرها

وعلاه بالدره ، حتى سبقه عدواً ثم ركب إلى أرض قومه وفي ذلك يقول :

ضن علينا أبو حفص بنائله وكل محتبط يوماً له ورق  
 مازال يرهقني حق خذيت له وحال من دون بعض الرغبة الشفق  
 لما رهبت أبا حفص وشرطته والشيخ يفرع أحيانا فينحرق  
 ثم ارعوت لها وهي جائحة مثل الطريدة لم ينبت لها ورق  
 وردتها الخل من شوران صادرة إني لأزري عليها وهي تنطلق  
 تطير مرو أبان عن مناسمها كما تنوقد عند الجهبذ الورق  
 إذا بعارضها خرق تعارضه ورهاء فيها إذا استعجلتها خرق  
 ينوء آخرها منها بأولها سرح اليدين بها نهضة العنق

وكان فلال غطفان ممن نجوا من خالد قد اجتمعوا إلى أم « زمل » ساهي ابنة مالك  
 ابن حذيفة بن بدر ، وهي على مثل عز أمها « أم قرفة » فذهرتهم وصعدت سائرة فبهم  
 وصوبت تدعوهم إلى حرب خالد ، حتى اجتمع لها حشد ، وتأشب إليهم الشراذم من كل  
 جانب ، فلما بلغ أمرها خالداً ، وهو يتتبع فلال القوم ، عاج إليها ، وقد استكشف  
 أمرها وغلظ شأنها فقاتلها قتالا شديداً وهي واقفة على جبل أمها أم قرفة تحرض الناس ،



حتى قتل بين يديها وحول جملها مائة رجل ، ثم قتلت وانطفأت فتنتها ، وبذلك انكسرت شوكة من أرز إلى البزاحة من المرتدين .

انتهت هذه الوقائع وقد أبانت عن مظاهر البطولة الخالدية ، وتجلت فيها عبقرية البطل العظيم سيف الله خالد بن الوليد بما لم يكن فوقه زيادة لمستزيد ، وقد كشفت عن جانب من جوانب الفكر العبقري في سياسة تصفية الوقائع والسير بها إلى نتائجها الطبيعية . ذلك أن خالد رضى الله عنه بعد أن تم له النصر ، وأقبلت عليه القبائل مستسلمة أخذ من كل من جاءه مسلماً بعد ارتداد ما ظهر من سلاحهم ، واستحلفهم على ما غيبتوا منه حتى اجتمع لديه منه شيء كثير ، أعطاه قوماً من جنده يحتاجون إليه في قتال أعدائهم ، وكتبه عليهم فلقوا به عدوهم ثم ردوه بعد ، فقدم به على أبي بكر فسلمه إلى ما كان قبضه من أسد وغطفان من الحلقة والكراع ، فلما توفي السديق رأى الفاروق أن قد الإسلام ضرب بجراحه ، وأن هذا كان عارية لوقت السباحة ، فدفعه إلى أهله أو إلى عصبة من مات منهم .

سياسة  
حكيمه

وفي ذلك من سياسة الحرب ونضائل الأخلاق ما يمكن أن يعد في فرائد المسامعين التي رسيخها في أنفسهم الإسلام بما بث فيها من أدب سام وخلق كريم ، فخالد رضى الله عنه قبل من هؤلاء القوم توبتهم ، وحقق بسلامتهم دماءهم ، ولكن ما كان له أن يطمئن إليهم ، فيترك في أيديهم الأسلحة التي حاربوه بها ، والخناثر التي استعملوا بها عليه ومن الذي يؤمنه إذا تركها لهم وانصرف عنهم أن يطمئنه بها في ظهره ، وهو مشغول عنهم ؟ ثم هو لم يستعن بهؤلاء في حربه فیتخذهم جنداً إلى جنده ، لأنهم استسلموا إليه مفزعين ، فليس لهم رسوخ عقيدته وعقيدة جنده التي أحبوا في سبيلها الموت فزرعهم الله الحياة .

والذي يتأمل ما يجري في أعقاب الحروب بين الدول الكبرى في عصر الحضارة والعلم من معاملة المغلوبين المستسلمين يدرك براعة السياسة الإسلامية التي كان يسوس بها قادة المسلمين الناس في السلم والحرب ، ونظرة إلى جانب صنيع خالد وتصرّفه فيما صنعه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد رد الأمانة إلى أهلها بعد أن نشر الدين رايته ، وقويت شوكته . ورست أوتاده . ترى كيف كان قادة الإسلام يسوسون الناس سياسة كانت أقوى العوامل فيما بلغ إليه المسلمون الأولون من عز وسلطان .

## الفصل الثامن

### أحدوثة مالك بن نويرة

#### عرض وتحليل

قصه غامضة - مالك بن نويرة ومسير خالد إليه - حكمة حازمة - غرور وتيه  
جاهلي - اختلاف الروايات - رواية ملفقة - رواية زائفة - رواية مقبولة - موقف  
أبي قتادة وابن عمر في القصة - لعب الخيال في أقصوصة زواج خالد امرأة مالك -  
وجه الرأي في هذا الزواج - رواية مشهورة ولكنها مريبة - عوامل الريبة في هذه  
الرواية - نتيجة .



هذه قصة من قصص التاريخ الإسلامى ، اختلفت فيها الرواية اختلافا بعيد المدى ، قصة غامضة واضطرب حولها الحديث اضطرابا قصى الغاية ، يعسر معه على الباحث أن يجمع بين أطرافه في صروة واحدة ، ومن ثمة كانت هذه القصة في صفحة التاريخ الخالدى سطرأ غامضاً لا يتضح معناه إلا بشيء من التحقيق فى عرض تلك الروايات المتكاثرة وتحليلها تحليلاً يصل بها إلى وجه الحق من واقع التاريخ .

\* \* \*

كان مالك بن نورة سيداً من سادات تميم ، وكان فيهم رئيس قومه بنى يربوع ، وفارسهم وشاعرهم وفتاهم الذى إليه يجأرون ، ولأمره يطيعون ، وكان فى نفسه تباها معجبا ، ذا مخيلة وجفلة ، وقد عرف بالجفول .

مالك بن  
نورة ومسير  
خالد إليه .

أسلم حين قدم فى وفد قومه بنى تميم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره على صدقات قومه ، فلما ذر قرن الشيطان فى أفق الفتنة ، وارتدت الأعصاب ومنعوا الزكاة ، كان مالك فيمن اضطرب أمره وطاش سهمه ، وكان قد جمع صدقات قومه ، فبلغته وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فعدا على ما جمع وانتهبه وفرقه فى قومه ، فاتتهى ذلك إلى أبى بكر والمسلمين فمعظم عليهم فعله ، وعهد أبو بكر إلى قائد جيوشه البطل خالد بن الوليد فى وصيته : « إن كفالك الله الضاحية قامض إلى اليمامة » وحقق الله ظن الصديق رضى الله عنه ، وفرغ خالد فى الجولة الأولى من أسد وغطفان ومن لف لفهم ، وعزم المسير بجيوشه الظافرة إلى اليمامة ليأخذ الكذاب مسيلمة فى قومه بنى حنيفة كما أخذ طليحة الأسدى فى جموعه وألفافه تحقيقاً لوصية الخليفة الأعظم ، وكان خالد قد تراءى إليه شأن مالك بن نورة ، فمد إليه وإلى من شاركه فى ضلالته يده ليؤمن ظهره ويظهر ما يتركه خلفه من أرجاس الردة ويفرغ إلى أهل اليمامة لقوة شكيمتهم ، وإجماعهم على الارتداد كما أخبر بذلك أبو بكر خالد فى وصيته حيث قال فى خاتمتها : « ولسكن الخوف عندى من أهل اليمامة ، فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم » .

—حكمة حازمة — أظهر خالد للناس عهد أبي بكر إليه بالمسير إلى الجيامة فتوقفت الأنصار، وقال قائدهم ثابت بن قيس بن شماس : ما عهد إلينا ذلك ، وما نحن بسائرين ، وليست بنا قوة ، وقد كل المسلمون ، وعجف كراعهم ، فقال لهم خالد : « أما أنا فلست بمستكره أحدًا منكم ، فإن شئتم فسيروا ، وإن شئتم فأقيموا ، وأنا الأمير ، وقد عهد إلى ، ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة ، وكنت إن أعلمته — الخليفة — فاتتنى ، لم أعلمه ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، فأنا قاصد إلى مالك ومن معى من المهاجرين » .

لابد للقلم هنا من وقفة للتأمل في هذه السياسة الجريئة الحازمة التي تقتضيها الحرب ولا ترضى غيرها ، حتى نرى كيف تتخطى العبقرية الإسلامية مثلة في بطلها خالد بن الوليد حواجز الزمن في تفكيرها السياسي ، وإدارة دفعة القيادة الحربية والحرب يستعراؤها ، والعدو واقف بالمرصاد يتحين الفرص ليثب على جيوش المسلمين وثبة الأباداة والإفناء .

فهذا القائد العبقرى خرج على رأس جيشه ليوقع بالمرتدين ، ويقتضى على الفتنة في منابها ، وهذه الوقعة التي انتصر فيها على أسد وغطفان ليست إلا مقدمة الأمر ، فكيف يقف عندها ، وما قضى للإسلام من أعدائه وطرا ؟

فلا بدله من المسير إلى أولئك الذين أجمعوا أمرهم على الارتداد عن دين الله ، ولكن كيف يحقق مطامع عبقريته وينفذ برنامجه خليفته وهذا جيش المسلمين ينقسم على قائده ، وفريق يعطيه طاعته أنى أراد ، وفريق يختلف عليه ، ويرى أنهم لا يعطون قائدهم مقام الطاعة إلا في حدود عهد الخليفة ، وهم لا يعاونون للخليفة عهدا بهذا المسير الجديد ، ويحتجون لرأيهم بما أصابهم ، فما عسى أن يكون رأى القائد في هذا الموقف الحرج الأزم ، وما سياسته الحكيمة التي ينهجها مع جيشه المتقدم عليه حتى يحفظ له روحه وبسالته ؟

هنا تنفرج العبقرية الخالدية عن أحكم سياسة حازمة تساس بها الجيوش ساعة الأزمات !!

لم يكن بطل الإسلام خالد بن الوليد يجهل قدر الأنصار بين المسلمين ومكانهم من الحرب والجلاد ، ولم يكن كذلك يجهل العقلية العربية في عمومها ، تلك العقلية التي

لا تعرف الخضوع لسلطان بشرى إلا عن طريق العزة والكرامة، فليس يجديهِ في علاج هذا الموقف التدرع بسلطان القدِّد لِيَأْمُرَ فيطاع ، بل هو يعطى هؤلاء السادة فرصة التفكير وتقلب الرأى ، ويريهـم عملياً أنه على عزيمة المسير بمن معه من سائر جنود الإسلام إلى عدوهم عزيمة لا تردد فيها ، وأنه لا يستكره أحداً على المسير معه ، ثم هو لا يدعهم دون أن يشعروهم بسلطان الإمرة ، فيقول : « وأنا الأمير » وأنه إذا تجاوز لهم عن ذلك السلطان القانونى ، فلائنه يقدر لهم مكانهم ولا يرتاب فى إخلاصهم ، ويرجوا أن يراجعوا رأيهم . وقد تحققت فـراسة القائد المظفر ، فإنه لم يكـد ينفصل بمن معه من المهاجرين وأنـاء القبائل عامداً لأرض بنى تميم واليمامة حتى تلاومت الأنصار فيما بينها ، وأدركوا أنهم جانبوا ما عودهم الله تعالى من السداد فى مواقفهم الإسلامية ، وقال بعضهم لبعض : والله ما صنعنا شيئاً ، والله لئن أصيب القوم ليقولن خذلتوه وأسأتموه ، وإنها السببة باق عارها إلى آخر الدهر ، ولئن أصابوا خيراً وفتح الله فتوحاً إنه خير منعموه فابعثوا إلى خالد يقيم لكم حق تـلـحقوه ، فبعثوا إليه رسولا من أنفسهم فاما جاءه الرسول أقام لهم حتى لحقوه فاستقبلهم فى كثرة من معه من المسلمين وفرح يرجعهم فرحاً شديداً وساروا جميعاً حتى انتهى بهم خالد إلى البطائح من أرض تميم .

لم يقف خالد رضى الله عنه عند هذه السياسة الحكيمة الحازمة فى علاج هذا الموقف الذى فاجأه فى أخرج ساعات الحرب ، ولكنه تخطى ذلك إلى أمر هو أفضل . ما يتحلى به القائد العظيم .

ذلك أن خالد لم تشأ له عبقريته أن يقف فى سياسة جنده وقيادة جيشه عند حرفة القانون ونصوص العهود ، بل شاءت له أن يكون قائداً سياسياً بعيد النظر ، نهازا للفرص ، إذا سنحت لم يفلتها ، ولو لم يكن فى ذلك من الخليفة كتاب أو عهد ، ولا سبباً والحال فى البادية يومئذ على ما كان عليه من بـلاء فى المواصلات تقضى به طبيعة الحياة ، ويضيع معه كثير من الغرض لو أنه وقف فى أموره خاضعاً للقانون تلقى الأوامر من الخليفة فى كل جزئية ، وهو لا يأمن المفاجآت ، وهى لا تخضع لسلطان غير سلطان الوقت واللحظة . وفى ذلك يقول القائد العبقرى « ولولم يأت كتاب بما رأيته فرصة ، وكنت إن أعاليته فاتتنى لم أعاليه » بل هو يرمى إلى أبعد من ذلك ، يرمى إلى أن يعلم تلاميذه من قواد

المسلمين وسواسهم أن يتحملوا المسؤوليات ويجعلوا صنيعة قانوناً عاماً يسوسون به جندهم فيقول : « وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه من الخليفة عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به » وفي ذلك قطع لأطباع « الواقفية » الذين تبخعهم الحيرة ويقطع عليهم التردد سبيل الإقدام ، فلا يبقى أحد أمام هذا القانون الخالدي ناظراً إلى الوراء أليس هذا هو أقصى ما يتطلبه النظر الطليق من قيود التزمّت ؟ بلى إن خالد أَرْضَى الله عنه كان في هذا المظهر فارساً من طرز جديد كانت الحياة الإسلامية أحوج ما تكون إلى مثله في محنتها التي كشفها خالد ، لا بشجاعته وحسن سياسته في إدارة دقة الحرب فحسب بل بتفكيره التشريعي الطليق وهذه الروح المشبوبة بشعلة الحرية هي السبب الأول — كما ستري — فيما كان بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

\*\*\*

كان بنو تميم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين وفي بهد الإسلام مقيم على الإيمان ؛ ومتردد ينظر إلى الناس حق أفا ، وراجع اليقين ؛ ومرتد مانع للزكاة ؛ منتهك لحرمات الإسلام ، وكان مالك بن نويرة من هذا الفريق ؛ وكان تياها منروراً ، وكان متلاقاً لتليق يده شيئاً ، جمع صدقات قومه فلما بلغته وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عدا عليها وانتهبها وفرقها في دعاليك بنو تميم ، وبجمع بذلك في شهره فقال :

غرور وتبه  
جاهلي

فقلت خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجيء من الغد  
فإن قام بالأمر الخوف قائم منعنا وقلنا الدين دين محمد

وفي لسان العرب لابن منظور : « ومنه حديث مالك بن نويرة حين جمع بنو يربوع صدقاتهم ليوجهوا بها إلى أبي بكر رضى الله عنه فمنعهم من ذلك وقال :

وقلت خذوها هذه صدقاتكم مصرة أخلافها لم يحرر  
سأجعل نفسي دون ما تحذرونه وأرهنكم يوماً بما قلته يدي

وقد لامة بعض سادة قومه بمن بقي على الإسلام وحذرهم منبهة عمله رجاء أن يرجع نفسه فيبقى إلى أمر الله ، فقال له الأقرع بن حابس وضرار بن القعقاع : إن لهذا الأمر قائماً وطالبا فلا تعجل بفرقة ما في يدك ؛ فأبى مالك إلا اعتوا واستكباراً وأنشدها :



أراني الله بالنعم المنسدى بركة رحران وقد أراني  
إن قرت عيون فاستقيمت غنائم قد يجود بها بناني  
حويت جميعها بالسيف صلتا ولم رعد يداى ولا بناني  
تمشى يا ابن عوذة في نميم وصاحبك الأقيرع تلحيانى  
ألم أك نثار رائبة تلظى فتتقيما أذاي وزهباني

أحس مالك دنو خالد بجيوش المسلمين من أرض قومه وملاً أذنيه صدى انتصار  
الإسلام على طلائع المرتدين فأمر من كان معه بالتفرق فتفرقوا .

وهنا يختلف الروايات اختلافاً تتباعد أطرافه فلا تتجمع . وأشد  
ما في هذه الروايات المتضاربة إقحام أسماء جماعة من سادة الصحابة رضوان الله تعالى  
عليهم الذين لا يرتفع إلى ضمائرهم ظل من الشك في عدالتهم وصدق دياتهم ؛ وحسب  
القارىء الذى لم يتعمق في مغاور التاريخ الإسلامى أن يسمع اسم فاروق الإسلام عمر بن  
الخطاب في جانب حادث أو رواية حتى يندفع إلى الإيمان بما سمع في غير رية ولا تحفظ .  
ويتأكد ذلك إذا انضم إلى اسم عمر أسماء رجال آخرين ممن يعرف لهم المسلمون امتيازاً  
في الديانة وفضلاً في الإسلام من أضراب أبى قتادة الأنصارى ، وعبد الله بن عمر بن  
الخطاب ؛ ومن ثمة يجب على الباحث أن لا تأخذ ههنا ههنا هذه الأسماء فتقف به دون  
الوصول إلى تزييف ما يؤدي البحث إلى زيفه ، فقد يكون إقحام هذه الأسماء إمعاناً في  
ستر الحقيقة التاريخية لسبب خارج عن إرادة الرواة وخاضع للعوامل التي دون في ظلها  
ذلك التاريخ .

من هذه الروايات رواية ترى أن مالك بن نويرة وهنت نفسه وراجع الإسلام بعد  
تردده وأوصى بذلك قومه فقال : « يا بنى ربوع إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطلنا عنه فلم نفلح  
وقد انظرت فيه فوجدت أن الأمر ينأى لهم بغير سياسة وإذا الأمر لا يسوسه الناس ،  
وإياكم ومناوأة قوم صنع لهم ، فتفرقوا إلى دياركم وأدخلوا في هذا الأمر »

وقريب من هذه الرواية تلك التي نقول : إن خالداً لما قدم البطاح بث السرايا وأمرهم  
بدعاية الإسلام ، وأن يأتوه بكل من لم يحب ، وأن امتنع أن يقتلوه ، فجاءته الخيل  
بمالك بن نويرة في نفر من بنى ربوع ؛ فاختلفت السرية فيهم ، فشهد قوم أنهم أذنوا  
( م ١٠ — خالد بن الوليد )

وأقاموا وصلوا؛ وشهد آخرون أنه لم يكن شيء من ذلك، وكان ممن شهد لمالك بالإسلام أبو قتادة الأنصاري؛ فكان يحدث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل، فأخذ القوم السلاح. قال أبو قتادة: فقلنا إنا المسلمون؛ فقالوا: ونحن المسلمون؛ قلنا فما بال السلاح معكم؟ قالوا لنا: فما بال السلاح معكم؟ قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، فوضعوها ثم صلينا وصلوا.

ثم تمضي هذه الرواية — في غير فطنة — إلى نتيجة المقصودة فتقول: فلما اختلفت السرية فيهم أمر بهم خالد فخبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء؛ فامر خالد مناديا ينادي أذفئوا أسراكم فظن القوم أنه أراد القتل، ولفظة أذفئوا في لغتهم معناها اقتلوا، ولم يرد خالد إلا الدفء، وهو معنى السكامة في لغته فقتلواهم؛ وقتل ضرار بن الأزور مالك ابن نويره، وسمع خالد الواقعة فخرج وقد فرغوا منهم. فقال: إذا أراد الله أمراً أحياه وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال امرأة مالك.

وهذه الرواية في أصلها وفرعها لا نظمئن إلى قبولها. بل نتكاد نجزم أنها رواية ملفقة مصنوعة. وأن صانعها عريض الوسادة. لا يؤمن بالفطنة. ولا يزن بالدهاء.

ذلك أننا إذا تجاوزنا عن أن هذه الكلمات الموضوعة على لسان مالك في نصيحته لقومه بمراجعة الإسلام وأن لا يناوئوا المسلمين لأن أمرهم لا يسوسه الناس وإنما يسوسه رب الناس. لم تذكر لنا كيف انتهت إلى قتل هذا الناصح الحكيم؟ تتساءل: إذا كان مالك بن نويرة راجع الإسلام وأسلم مخلصاً ونصح بذلك قومه فلم يذهب إلى لقاء المسلمين طائعاً مختاراً معلناً إسلامه؟ ولماذا أمر قومه بالفرق وتركهم ورجع إلى منزله ثم كيف يتفق مع العقل وأوليات الدين أن قوماً أذنوا ودعوا بدعاية الإسلام. وصلوا مع المسلمين — كما تزعم الرواية — ثم تختلف السرية في إسلامهم. وهي قد سات معهم وصلوا معها؟ أليس في هذا نسبة الكذب الصريح والنفس المتعمد إلى خيرة الصحابة من المهاجرين والأنصار؟ لان الرواية تزعم أن المختلفين من رجال السرية كلهم قد اشتركوا في الصلاة مع القوم فإن كان ابن نويرة وقومه قد صلوا مع المسلمين حقاً وأعلنوا إسلامهم؛ فالذين شهدوا من الصحابة بعدم إسلامهم قد كذبوا وغشوا. وإن كان ابن نويرة وقومه لم يصلوا مع المسلمين. ولم يعلنوا إسلامهم فالذين شهدوا بإسلامهم

قد كذبوا وغشوا ، وهل عرف تاريخ الإسلام هذا النحو من الأخلاق عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ثم كيف جاء رجال السرية بابن نوية إلى خالد إذا كان قد أسلم ؟ وخالد إنما أمر جنده أن يجيئوه بمن لم يجب إلى الإسلام ؟ وكيف صح من قائد المسلمين أن يخاطبهم بلغة يعلم أنها ليست لغتهم فيما يقصد إليه من معنى وغرض ؟ وإن كان لا يعلم ذلك فلماذا لم يعتذر بهذا العذر الوجيه عند الخليفة يوم أن عاتبه ؟ قد يغلب على الظن أن إقحام اسم أبي قتادة هنا من نوع ما قلناه في إقحام الأسماء الضخمة في الروايات الملفقة للتمويه والتضليل ؟ وأبو قتادة رضى الله عنه إذا كان قد شهد عند خالد بإسلام مالك بن نوية ، وأنكر على خالد صديعه فلعل ذلك كان بطريق آخر لو عرفناه المكان للرأى فيه مجال ويمكن تحليل اختلاف السرية تعليلاً معقولاً .

\*\*\*

وهذه رواية أخرى تحمل في طواياها دلائل زيفها وبطلانها ، جاء في خزائن الأدب للبغدادى : أن أبا بكر رضى الله عنه لما بلغه مقالة مالك أمر خالد أن يأتيه ، وعزم عليه ليقتله إن أخذه ، فأقبل خالد حتى هبط أرضهم فلم يسمع أذاناً ، فحمل عليهم ، فثار الناس ولا يدرون ما بينهم ، فلما رأوا الفرسان والجيش قالوا : من أنتم ؟ قالوا : نحن المسلمون ، قال مالك : ونحن المسلمون . فلم ينته المسلمون لذلك . ووضعوا السيف فيهم . وأعجل مالك عن لبس السلاح ، وإن امرأته ليلي بنت سنان قامت دونه عريانة . ودخل القبة . فلبس أداته ثم خرج وقاتل حتى أخذ أسيراً . فلما أتى به إلى خالد قال له : يا ابن نوية هلم إلى الإسلام ، قال مالك : وتعطينى ماذا ؟ قال : ذمة الله وذمة رسوله ، وذمة أبي بكر ، وذمة خالد بن الوليد . فأقبل مالك وأعطاه بيديه ، وعلى خالد تلك العزمة من أبي بكر ، قال خالد : يا مالك إنى قاتلك ، قال : لا تقتلنى . قال : لا أستطيع غير ذلك ، قال : فأنت مالا تستطيع إلا إياه فقدمه إلى الناس ، فتهيئوا قتله ، وقال المهاجرون : أقتل رجلاً مسلماً ؟ غير ضرار بن الأزور الأسدى فإنه قام وقتله ، وفي ذلك يقول أخو مالك متمم بن نوية :

نعم القتل إذا الرياح تناوحت فوق الكنيف قتيالك ابن الأزور  
أدعوته بالله ثم قتلته لو هو دعالك بذمة لم يغير  
ولنعم حشو الدرع يوم لقائه ولنعم مأوى الطارق المتنور  
لا يلبس الفحشاء تحت إزاره صعب مقادته عفيف المتر

وزيف هذه الرواية ظاهر من وجوه :

أولاً - إنها تذكر أن أبا بكر عزم على خالد ليقتلن مالكا إن أخذه ، فهل يسوغ لنا أن نزع - إن صححت هذه العزمة من أبي بكر - أنه أرادها من خالد واو أخذ مالكا مسلماً بريئاً من حدود الله ؟ ما نظن أحداً من المسلمين يذهب إلى ذلك . ثم كيف يسوغ لنا أن نقبل هذه المحاورة الساذجة التي تعقدها الرواية بين خالد ومالك وتنتهي بقتل رجل مسلم لم يعرف له المسلمون الذين شهدوا قتله ذنباً يسوغ هذا القتل حتى تهيبوه وأنكروه ؟

ثانياً : إن هذه العزمة التي تذكرها الرواية معزوة إلى أبي بكر بقتل ابن نورة تخالف ما اشتهر في الروايات الكثيرة من جزع أبي بكر عندما بلغه قتل مالك ، ذكر ابن عساكر في تاريخه « لما قدم أبو قتادة على أبي بكر وأخبره بقتل مالك وأصحابه جزع جزعاً شديداً » .

ثالثاً : هذه الرواية تخالف ما ثبت من أن أبا بكر دفع دية مالك بن نورة إلى أخيه متمم ، وأنه عاتب خالداً ولومه لوماً شديداً حتى أبان خالد عن وجهة رأيه فعازره أبو بكر واعتذر عنه .

رابعاً : إن هذه الرواية لا تقف عند حد أن خالداً ردى الله عنه بل رجلاً مسلماً ، تهيب المسلمون قتله وأنكروه . بل هي تسجل على أعظم قواد الإسلام نذراً بذمة الله وذمة رسوله ، وذمة الخليفة ، وذمة نفسه وهو أمير المسلمين وفائدهم ، وهذا ما يدفعه تاريخ الصدر الأول عن هذه الأمة وتسكروه أشد الإنكار سيرة خالد بن الوليد رضي الله عنه في معاملته للمخالفين .

وهذه رواية شهرة وعقد عليها الرواة الخناصر ، وهى أدخل فى مجاهل الريبة  
 فهى تقول : إن خالد أ رضى الله عنه لما وصل إلى بلاد بنى تميم ثاروا إليه فقال من أتم ؟  
 قالوا : نحن عباد الله المسلمون ، وقد كان خالد بث سراياه فلم يسمعوا أذاناً فقاتلهم  
 وأسر مالك بن نويرة وأصحابه ثم قتلهم ؛ ولما بلغ خبر قتل مالك بن نويرة وأصحابه عمر  
 ابن الخطاب رضى الله عنه قال لأبى بكر : إن سيف خالد فيه رهق ، وأكثر عليه فى  
 ذلك ، فقال : يا عمر تأول فأخطأ ، فأرفع لسانك عن خالد ، فإنى لا أشيم سيفاً سلة الله  
 على الكافرين ، وودى مالكا ، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ، ففعل ، ودخل المسجد  
 وعليه قباء ، وقد غرز فى عمامته أسهما - فقام إليه عمر رضى الله عنه فنزعها وحطمها ،  
 وقال له : قتلت امرأ مساماً ، ثم نزوت على امرأتها ، والله لأرجمنك بأحجارك ، وخالد  
 لا يكلمه ، يظن أن رأى أبى بكر مثله ، ودخل على أبى بكر فأخبره الخبر ، واعتذر إليه  
 بأنه سمع منه كلاماً مستحل به قتله فعذره وتجاوز عنه ، وعنفه فى النزويج الذى كانت العرب  
 عليه من كراهته أيام الحرب ، وأمره أن يفارق امرأة مالك ، فخرج خالد وعمر جالس  
 فى المسجد ، فقال : هلم إلى يا ابن أم شملة ، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه ، فلم  
 يكلمه ودخل بيته .

هذه الرواية من أعظم روايات القصة استغلالاً فى توجيهها توجيهاً يضع من قدر  
 أعظم قواد الإسلام خالد بن الوليد ، فتصوره فى تلك الصورة التى تتجافى عنها المروءة  
 وينكرها الدين ، وتشتمز منها الرجولية ، ولا يرضى عنها عامة الناس ، فهى أحقها  
 بالنظر الناقد والتفنيد ، لأنها تتسكىء على اسم رجل هو ثالث ثلاثة فى الإسلام كله فتجعل  
 منه بطلاً تدور عليه فصولها ؛ ذلك فاروق الإسلام عمر بن الخطاب ، وحسب القارىء  
 أن يجد اسم عمر يحتل المكان الأرفع فى القصة فيؤمن أشد الإيمان بالجانب الذى ينتهى  
 إليه . هكذا أراد الذين استغلوا هذه الرواية وأبدوا فيها وأعادوا ونقصوا وزادوا ، ولم  
 يراعوا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمة ولا للحق كرامة ، وهذه الرواية  
 نحمل بين طياتها عوامل الريبة فيها :

أولاً : إنها تصور خلافاً حاداً بعيد المدى بين رأى الشيخين الصديق والفاروق عوامل الريبة  
 فى قصة خالد بن الوليد ، ومالك بن نويرة . فعمر بن الخطاب - كما تزعم الرواية - كان  
 يرى أن خالد قد نزل رجلاً مسلماً معصوماً الدم متعمداً . لأخبط قصد وأسوأ غرض .  
 وأنه نزا على امرأة قتيله المسلم ، وأقسم ليرجمن خالداً بأحجاره .

وأبو بكر الصديق كان يرى أن أقصى ما يُعاب على خالد في هذه القضية أنه تأول فأخطأ . وهذا اختلاف غريب في حادث خطير ، لم يعرف أنهما انتهيا فيه إلى اتفاق ، وإذا لم يكن الاتفاق لازماً بين المجتهدين فليس هذا من مواضع اختلاف المجتهدين ، لأن هذا اختلاف في تكييف الحادث ، لا في فهم نص وتطبيقه ، وهذا التكييف إنما كان مصدره عند الشيخين شهادة النقل ممن كان شاهداً ؛ فكيف إذا انتهى بهما إلى هذا التصوير المتضاد ؟ والمعروف المشهور في هذه القضية أن الذي قدم المدينة قبل قدوم خالد أو رسوله إليها هو أبو قتادة الأنصاري ، وهو رجل صدق وشجاعة . وهو الذي أخبر الخليفة بتفاصيل ما رأت عيناه وسمعت أذناه ؛ وعن طريقه — في الأغلب — وصل النبأ إلى سمع عمر بن الخطاب ؛ وكان أبو قتادة قد ذهب مغاضباً لقائه خالد مقسماً أن لا يعمل تحت رايته ؛ ولكن الخليفة لم يقبل منه هذه المغاضبة ؛ بل زجره زجراً رده إلى قائده جندياً كما كان .

فهل كانت مغاضبة أبي قتادة لمحض حادث مالك بن نويرة ؟ وهل كانت صورة الحادث في نفس أبي قتادة كصورته التي عزتها الرواية إلى عمر بن الخطاب ؟ وما الذي منع أبا بكر حينئذ من الأخذ بشهادته وعمر يلح عليه مشدداً ؟ أو كان للحادث في نفس أبي قتادة صورة أخرى ؛ فهم منها أبو بكر ما أملى عليه قوله في رده على عمر « تأول ، فأخطأ » .

والذي شهد أبو قتادة ولم ير ضه لخالد ؛ ولم يقره عليه قد شهد عشرات من الصحابة رضوان الله عليهم ؛ ولكنهم لم يصنعوا ما صنع أبو قتادة ولا شيئاً منه ؛ ولم يحجم عبد الله ابن عمر عن الإعلان برأيه في مخالفة خالد ؛ ولكنهم لم يصنع صليح أبي قتادة ؛ وكان أقصى ما فعله أن طلب إلى خالد حين دعاه لشهود عقد نسكاح ليلى امرأة مالك أن يعرض الأمر على الخليفة ليفصل فيه برأيه .

وإذا صححت هذه الرواية وصح ما فيها معزواً إلى عمر بن الخطاب فأين التنفيذ لأعظم حد من حدود الله في أخطر حادث إسلامي ؛ وقد ملكه عمر في خلافته ؛ وكان قد قال لخالد — فيما تزعم بعض الروايات — « لئن وليت الأمر لأقيدنك به » وأين

ذهبت حماسة عمر بعد خروج خالد من لدن أبي بكر وكان يسمع منه تفاصيل ما حدث؟  
ألا كان يملك عمر معارضة الخليفة والاحتجاج عليه في تعطيل حد من حدود الله تعالى؟  
فهل لنا أن نفهم إذا لم نجد جواباً عن هذا النحو من التساؤل - ولن نجد - أن للقضية  
في التاريخ وجهاً غير وجهها الذي رسمته هذه الرواية الزائفة ؟

ثانياً : هذه الرواية تقول : إن أبا بكر دفع إلى متمم بن نويرة أخى مالك دية أخيه  
من بيت مال المسلمين ، وهى نفسها تقول : إن للملك أصحاباً كانوا على مثل ما كان عليه ،  
وصاروا إلى مثل ما صار إليه ، فمن المعقول أن يكون حكمهم حكمه ، فلماذا خص مالك  
بغضبة عمر ، ولم يذكر معه أحد من أصحابه ، وكانت الجناية أشنع في قتل جماعة مسلمة ؟  
معصومة الدم عمداً ، هل كان هذا التخصيص لمسألة زواج خالد من امرأة مالك ؟  
كيف وهى متفرعة على أصل قتل مالك ، فإن كان قتله حلالاً فلا شيء مطلقاً على خالد  
في هذا الزواج ، وإن كان قتله حراماً ، فجرم القتل أعظم من جرم هذا الزواج مهما  
قيل في تصويره ، وجرم قتل الجماعة أخطر من جرم قتل الواحد ، فكيف أهدرت  
تلك الدماء ولم تجد من المسلمين من يطالب بها ؟ ولعل قائل يقول : ذلك أنه ليس في  
أصحاب مالك من هو مثل مالك ، قلنا : تلك مزايا جاهلية أهدرها الإسلام ولم يقم لها  
وزن . وعمر نفسه كان أبلغ مثل عملي تطبيقي لإهدارها في حادث جيلة بن الأيهم المشهور .

ولماذا خص أبو بكر مالكا بالدية ولم يد غيره من أصحابه الذين قتلوا معه إن كانوا  
كما تزعم الرواية - قد قتلوا مسلمين ؟

ثالثاً : تقول هذه الرواية الزائفة : إن أبا بكر استقدم خالد . فلما قدم المدينة دخل  
المسجد في هيئة القائد الظافر ، فقام إليه عمر ونزع أسنانه وحطمها وقال له تلك الكلمة  
المجبهة المتوقعة بقاصمة الظهر : « قتل رجل مسلم ثم تزوت على امرأته ، والله لأرجنك  
بأحجارك » وبطل الإسلام خالد لا يكلمه . يظن أن رأى أبي بكر مثله ، فمن أين لعمر  
ابن الخطاب هذا السلطان الذى جعله يصنع بقائد جيوش المسلمين هذا الصنيع المهين قبل  
أن يصل إلى الخليفة الذى استقدمه ليعرف منه وجه الحق فيما حدث ، والخليفة وحده هو  
صاحب السلطان الشرعى في تأديب قواده وإقامة الحدود عليهم وعلى من دونهم من الأمة ؟  
أفيظن أن خالد بن الوليد يرضى ويستسلم لعمر بن الخطاب يصنع معه ما صنع قبل أن



يصل إلى الخليفة لمجرد أنه يظن أن رأى أبي بكر على مثل رأيه ؟ وهل المقام مقام تعذير يقوم به رجل من رجالات المسلمين ؟

ثم إن عمر بن الخطاب كان يعرف رأى أبي بكر في هذه القضية قبل أن يقدم خالد عليهما ، لأنهما تجاوزا في القضية ، واشتد عمر على خالد ، فنهذه أبو بكر وقال له : ارفع لسانك عن خالد ، وقرظ خالداً وزكاه بما زكاه به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «إن خالد أ سيف سله الله على الكافرين فلا أشيمه» فكيف ساع لعمر بن الخطاب بعد هذا أن يصنع بخالد هذا الصنيع مخالفاً رأى الخليفة ؟ قديقول قائل : إن عمر بن الخطاب ذلك الرجل الشديد في الدين ، الذي يقف مع رأيه غير متخاذل لرأى أحد ، قلنا : وأين ذهبت تلك الشدة بعد أن قابل خالد أبا بكر وأفضى إليه بحقيقة الأمر كما وقع وكما قدره هو ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج على عمر يتوعده بهذه الكلمة الساخرة : هلم إلى يا ابن أم شملة ؟ أكانت في تلك الصورة الهزيلة التي نختم بها الرواية فصولها . « فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه ، فلم يكلمه ودخل بيته » وهذه المعرفة كانت عند عمر قبل أن يلقي خالداً وينزع أسهمه ويحطمها ، ولكن الرواة ينسون أو ينفلون ؟ أم إن عمر غير رأيه وعرف أن خالد أ برى مما قذف به ؟

رابعاً : إن هذه الرواية لم تذكر لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى أبي بكر وعمر رأيا في هذه القضية الخطيرة حتى الذين كانوا من جنس خالد وغاضبوه ، وأبوا عليه أن يحضروا عقد نكاحه ، مثل أبي قتادة وعبد الله بن عمر ، فأين رأيهما في تحقيق القضية وقد أخذت هذا الوضع الحاد بين الخليفة ووزيره ؟ وأين رأى على بن أبي طالب الذي قال فيه عمر : لولا على لهلك عمر ؟ وأين رأى أكابر الصحابة من أمثال عثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، ووجوه الأنصار ؟ أين رأى هؤلاء الأجلة في أخطر قضية مرت على المسلمين ؟ قضية تتعلق بتصرف قائد قواد الإسلام تصرفاً إذا صح فيه ما نسب إلى عمر في اتهامه لخالد كان أقل جزاء هذا القائد في الشريعة الإسلامية القتل على شر وجوهه ؟ أفيكفى أن يقال في بعض الروايات إن عمر غضب حين رأى خالداً وفي عمامته سهمان ، فقام فأتى علياً ، فقال : إن في حق الله أن يقاد هذا بمالك ، قتل رجلاً مسلماً ، ثم نزا على امرأته كما ينزو

الحمار ؛ ثم قاما فأتيا طلحة فقتلوهما على ذلك ، فقال أبو بكر : سيف سله الله لا أكون  
الأول من يعمده ، أكل أمره إلى الله !!

هل هذا يتفق مع ما عرف في سيرة هؤلاء السادة من أشد الغيرة على الشريعة  
وحدودها ، وما عرف عنهم من شدة في البحث عن الحقائق والكشف عن حقيقة  
الوقائع ؟ وهل يتفق مع العقل أن يتطابق علماء الصحابة وخيارهم على أن رجلا من قادة  
المسلمين خرق في الشريعة خرقاً استوجب عندهم القصاص منه ، وهم يطلبون إلى الإمام  
الأعظم إقامة حد الله عليه فيرد عليهم بهذا الرد المعطل لأحكام الدين ثم يسكتون ، ويبقى  
هذا الرجل في مقامه من صدارة الدولة ؟

خامساً : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه تولى الخلافة بعد أبي بكر وأصبح  
سلطان الدولة الإسلامية في يده ، وكان رجلاً قواماً على حدود الله جريئاً في الحق ،  
لا يهاب أحداً ولا شيئاً ، وكان خالد بن الوليد يومئذ يقف أميراً على عامة جيوش  
المسلمين في نحر الروم ، فلم يرجعه عمر بأحجاره كما توعدده - في زعم هذه الرواية -  
ولم يقتله قصاصاً بمالك وأصحابه ، وليس عمر بالذى يظن فيه رجوع عما اقتنع أنه  
الحق ، ولا بالذى يظن فيه هوادة في الدين ومجاملة في حدود الله .

أما عزل عمر خالداً عن الإمارة فلم تكن قضية مالك بن نويرة سبباً من أسبابه  
عند التحقيق ، ولا يستقيم أن تكون من أسبابه ، لأن الله تعالى لم يشرع العزل عن  
الإدارة حداً من حدوده ، وسنحقق أسباب هذا العزل عندما نصل من سيرة بطل  
الإسلام وعبقري قاداته خالد بن الوليد إلى نهايتها .

سادساً : تسند بعض الروايات إلى عمر بن الخطاب أن متمم بن نويرة وفد عليه  
بعد أن تولى الخلافة فاستعداه على خالد ، فقال عمر : لا أرد شيئاً صنعه أبو بكر ،  
فقال متمم : قد كنت تزعم أن لو كنت مكان أبي بكر أقدته به ، فقال عمر : لو كنت  
ذلك اليوم بمكاني اليوم لفعلت ، ولكني لا أرد شيئاً أمضاه أبو بكر . فكيف يطلب  
صاحب الحق حقه ممن يراه له ويملك تنفيذه فلا يقوم له به لأن غيره أمضاه ؟ ومق كان  
هذا ؟ في عهد عمر بن الخطاب !! على أن الكلمة المنقولة عن عمر وهي « لئن وليت  
الأمر لأقيدنك به » لا تحتل هذا التأويل المزعوم .

سابعاً : روى أن متمم بن نويرة دخل على عمر بن الخطاب في خلافته ، فقال له عمر : ما بلغ من وجدك على أخيك مالك ؟ قال : بكيته حولا حتى أسعدت عيني الداهية عيني الصبيحة ، ومارأيت ناراً إلا كدت أقطع لها أسفاً عليه لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه ، قال عمر : فأنشدني بعض ماقلته فيه ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

لعمري ومادهري بتأبين مالك      ولا جزع مما أصاب فأوجعا  
لقد كفن المنهال تحت ردائه      فقي غير مبطان العشيات أروعا

حتى انتهى إلى قوله :

وكنا كندمانى جذيمة حقة      من الدهر حتى قيل لن يتصدعا  
فلما تفرقنا كآنى ومالكا      لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فقال له عمر : هذا والله التأبين ، ولوددت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيدا بمثل ما رثيت به أخاك ؟ فقال متمم : لو أن أخى مات على مامات عليه أخوك مارثيته ؟ فقال عمر : ما عزانى أحد عن أخى بمثل ما عزانى به متمم .

فعلى أى شيء مات مالك بن نويرة إذا لم يكن قد مات على الإسلام الذى مات عليه .  
زيد بن الخطاب شهيدا ؟ !

\*\*\*

رواية مقبولة      وهذه رواية تقول إن مالك بن نويرة لما جاءت به السرية أسيراً إلى خالد حاوره خالد في موقفه من الإسلام فقال مالك : أنا آتى بالصلاة دون الزكاة ، فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معا ، لا تقبل واحدة دون الأخرى فقال مالك قد كان صاحبكم ؟ يقول ذلك ؟ قال خالد أو ما تراه لك صاحباً ؟ ! والله لقد هممت أن أضرب عنقك ، ثم تجاوزا في الكلام ، فقال له خالد : إني قاتلك ، فقال له ؟ أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال خالد : هذه بعد تلك ؟ وكان عبد الله بن عمر وأبو قتادة الأنصارى حاضرين ، فسكبا خالد فى أمره . فكره كلامهما ، فقال مالك : يا خالد ابعثنا إلى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم بيننا ؟ فقال خالد : لا أقالنى الله إن أقتلك ؟ وتقدم إلى ضرار بن الأزور بضرب عنقه ، وقبض خالد امرأته ؛ قيل إنه اشتراها من النخعة فأعتقها

وتزوج بها ، وقيل إنها اعتدت بثلاث حيض وتزوج بها ، وقال لابن عمرو ولأبي قتادة :  
احضرا النكاح فأبيا ، وقال له ابن عمر : نكتب إلى أبي بكر ونعلمه بأمرها وتزوج بها ،  
فأبى خالد وتزوجها ، وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعابره .

هذه الرواية قد تكون قريية القبول ، لأنها تذكر جهة الردة التي باء بها مالك بن  
نويرة ومن اتبعه من قومه ، وهي امتناعه عن الزكاة ، وهذا موافق لأصل السبب الذي  
التوى من جهته عامة العرب في هذه الفتنة ، والذي بدأ به موقف مالك بتفريقه ما جمع  
في يده من صدقات قومه ، والذي ثبتت فيه المفاوضة بين الصديق وسائر الصحابة بزعامة  
عمر بن الخطاب ، واحتجوا لها بالحديث الثابت ، فقد روى البخاري عن النبي صلى الله عليه  
وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم  
وأموالهم إلا بحقها » واحتج الصديق بأن الزكاة من حقها الموجب للقتال ، وقال والله  
لو منعوني عنقا أو عقالا ، كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه .  
ومن هنا استقى خالد بن الوليد حبيته على مالك بن نويرة في مجادلته حيث قال : أما علمت  
أن الصلاة والزكاة معا ، لا تقبل واحدة دون الأخرى ؟ وعندئذ تكشف ابن نويرة عن  
صريح أمره الذي طوى عليه كشهده ؛ فقال في رده على خالد : قد كان صاحبكم - يعني  
رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول ذلك ، وهذه كلمة لا تخرج من صدر سليم الإيمان ،  
ولكنها نفثة من نفثات النفاق ، أو فلتة من فلتات الكفر البواح ، غير أن خالداً  
في دينه ورجوليته لا يسرع إلى قتل رجل بأمر قد يشتبه على بعض سليمي الصدور من  
المؤمنين ، فمد إلى مالك حبل المجادلة حتى استبان له أمره ، ولم يبق في نفسه موضع للشك  
في رده فأبرم العزم على قتله ، ولم يرض أن يستأني به كما استأني بقرّة بن هبيرة وغبينة  
ابن حصن ويرسله إلى أبي بكر كما أرسلهما وكما طلب ذلك ابن نويرة ، لأن قرّة وعبيدة  
لم يثبت لهما مقالة خبيثة الطوية كهذه المقالة التي ثبتت على مالك في مواجهة خالد ومحاورته .

موقف أبي  
قتادة وابن  
عمر

وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو قتادة الأنصاري ممن حضر مجلس المجادلة بين  
خالد ومالك ، فكما خالداً في أمر مالك وأرادا أن لا يقتله ، وكأنهما تأولا ما صدر منه  
وزادت حماسة أبي قتادة لرأيه وخالف قائده وفارق الجيش ذاهباً إلى الخليفة شاكياً له  
أمر خالد في شأن مالك وامراته ، وأقسم أن لا يقاتل تحت راية خالد أبداً ، فلم يكن من

الخليفة الحازم الراشد إلا أن رد أبا قتادة إلى جيشه جنديا تحت راية أميره وقائده خالد كما كان ، ولم يفتح باب شكاية الجند لقوادهم والخروج عليهم حتى يحقق الأمر بنفسه بعد عودة القائد بجيشه، وهذه سياسة من أحكم وأحزم السياسات التي حرسَت الدولة الإسلامية في أول عهدها من الانقسام والفساد .

أما عبد الله بن عمر فاكتفى بأن أظهر رأيه في القضية ولم يصحب إنكاره لما أنكر من حادث ممالك بن نيرة بالخروج على القائد ، وهذا من فقه ابن عمر ، لأنه علم أن خالدًا ومن معه من الصحابة الذين وافقوه على قتل مالك لا يصرون عن هوى ، وأنهم إن أخطأوا فقد تأولوا ، والفيصل إنما هو رأى الخليفة عند رجوع الجيش ومواجهة القائد ولهذا لما دعاه خالد مع صاحبه إلى حضور نكاح ليلي امرأة مالك أبيا ، وقال ابن عمر : نكتب إلى أبي بكر ونعلمه بأمرها وتزوج بها ، ومن هنا يظهر الفرق بين الاتجاهين فعبد الله بن عمر رجل علم وفقه وأبو قتادة رجل فروسية وشجاعة فكان تصرفهما مطابقا لتكوينهما العقلي والخالقي .

اللعب الخيال  
في أقصوصة  
زواج خالد  
امرأة مالك

وقد لعب خيال القصص في أقصوصة زواج خالد بامرأة قتيله مالك بن نيرة . وأمر هذا الزواج عجيب كشأن القصة في أصلها .

فبعض الروايات تقول : إن خالدًا قتل مالكا وتزوج امرأته من ليلته . ولما لم يعقل هذا والناس في ذلك العهد ناس والدين دين ، تمحل بعض حسنى النية من المؤرخين والفقهاء فقال لعلها كانت مطلقة قد انقضت عدتها إلا أنها كانت محبوسة عند مالك . وهذا يخرج لا يتم إلا على أساس أن مالكا قتل مسلما حرام الدم والمال والأهل ، وحينئذ يعود الكلام إلى القضية العظمى وهى سفك دم مسلم عدوانا ونكاح امرأته بغير وجه شرعى ودون إثبات ذلك تناول نجوم السماء باليدين .

ومما يتصل بهذه الرواية بسبب من التفضيل وسوء الفرية على أجلاء أبطال الإسلام وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحكيه بعض أغرار المؤرخين من أن خالد بن الوليد عشق امرأة مالك لفرط جهالها فقتل مالكا ليستولى عليها ، وأن مالكا قال لزوجته لم يقتلنى غيرك ، وأن خالدًا رد عليه حين سمعه يقول ذلك بقوله : بل الله فملك برجوعك عن الإسلام .

وهذا الكلام لا تحصيل في نقاشه لأنه أشبه بروايات أهل الفراغ والبطالة من سخفاء العقول وسفهاء الأحلام الذين لا يبالون أن يخذشوا تاريخ عظماء الإسلام بمثل هذه التفاهات التي ينفر منها رعايا الناس ورذالهم، بله عقلاء هم وذوى المروءات فيهم. فكيف بالصحابة في تربيتهم ودينهم وعلو أنفسهم وكمال مرعوتهم وتاريخهم شاهد صدق على جلال أخلاقهم ونزفهم عن دنيا الأمور ؟

وكيف فيهم بخالد بطل الإسلام وسيف الله ؟

وجه الرأي  
في هذا الزواج

في الرواية التي رأينا أنها قريية القبول والتصديق أن خالداً اشترى امرأة مالك من الفراء وتزوج بها وقيل إنها اعتدت بثلاث حيض وتزوج بها ، وهذا أمر معقول ومقبول صدوره من خالد جبراً لخطرها وتطليها لنفسها ، إذ هي قد فجعت في زوجها وهو فارس قومها ورئيسهم . وحينئذ يجب أن نفرض بقاءها على الإسلام وعدم موافقتها مالكا على رده وذلك تأويل من زعم أنها كانت مطلقة منه ، ومحروسة عنده لأن رده فصلت بينهما واستبقاها تحته ظالماً حتى استنقذها خالد فزوجها . ويكون الذي عيب على خالد إنما هو ما كان عند العرب معيياً من الزويج أيام الحرب ولا سيما إذا كان المزوج بهامناً نساء الأعداء والحركة مانزال ناشبة فإنه حينئذ يخفى من التجسس والفتك بالأبطال . ولعل خالداً تيقن إخلاصها للإسلام فخلصها .

وفي قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بالسيدة صفية بنت حيي ما يحمل أقوى دفاع عن خالد في هذه القضية إذا جردت قصة مالك بن نويرة من خيالات القصاصين .

نتيجة

أمر هذه الروايات في أحداثها مالك بن نويرة ظاهر أنه من زيد القصاصين . وإقحام اسم عمر بن الخطاب بهذه الصورة التي نقصها الروايات ظاهراً لانتحال ، ولباب الأمر في هذه القصة كلها أنها لا نعدو أن تكون مثل قصة خالد نفسه مع بني جذيمة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سلف الحديث عنها ، فهم قد أساءوا لما أظلمتهم سرية خالد بما ليس صريحاً في إسلامهم فظن خالد أن قولهم « صباؤنا » تقيية السيف لا عقيدة القلب فقتل خالد منهم من قتل اعتقاداً لكفرهم ، فعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم وبرى إلى الله مما صنع ولم يعزله ولم ير أن ذلك موجب للقصاص منه .

ولانعدو أن تكون مثل قصة أسامة بن زيد مع الرجل الذي لاذ بالشجرة وقد قال :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فقتله أسامة محتجاً أنه قالها تقية لاعقيدة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هلا شققت عن قلبه ، ولم يقتص منه ، ومن ثمة قال أبو بكر لعمر رضى الله عنه : تأول خالد فأخطأ ، ولعل سبب ذلك أن عمر كان يرى أن يشتد أبو بكر على خالد في العتب كما اشتد النبي صلى الله عليه وسلم عليه وعلى أسامة ولاسيما وخالد كان فيه استقلال بالرأى في الحرب كان يخشاه عمر ويرى أن يحد منه ، وكان من سياسة أبي بكر أن يحتفظ بخالد فلا يكسر شوكرته ؛ والمسامون في أزمة الردة أشد ما يكونون حاجة إلى أمثال خالد .

وعلى هذا الأساس لا نرى حرجاً على خالد في تزوجه امرأة مالك لأنه قتل رجلاً كافراً في اعتقاده منابذاً للإسلام محارباً للمسلمين معتدياً عليهم ، فإذا فرضنا إسلام زوجته وهي تحته فيكون خالد قد أحسن إليها وجبر خاطرها بتزوجها ، وهذا ما نرجعه في شأنها لأن أكثر المؤرخين ذكروا أنها اعتدت بثلاث حيض ؛ وإذا فرضناها غير مسلمة فكما حكم السبي ويكون خالد قد أحسن إليها أيضاً . لأنه كما تقول بعض الروايات ، اشتراها من النىء وأعتقها وتزوج بها .

ويتعلق بهذا النكاح نكتة لطيفة لم يلتفت إليها كثير من الباحثين : ذلك أن أبا بكر لما استقدم خالداً وسمع حجته أمره بطلاق امرأة مالك عقوبة سياسية على تسرعه للنساء في الحرب ، وهو أمر تخشى عواقبه . والطلاق حكم شرعى لا يكون إلا بعد نكاح صحيح وهذا يحمل في طياته صحة رأى خالد واقتناع أبي بكر به ، وأن مالكاً لم يقتل مسلماً معصوماً الدم ، ولا سيما وأن الطلاق لم يكن معجلاً فقد عاد القائد إلى حرب مسيئة وتحته أم متمم امرأة مالك ؛ وإنما دفع أبو بكر مالا لأخى مالك متمم بن نيرة من باب الترضية والنأليف على نهج ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنى جذيمة .



## الفصل التاسع

### واقعة اليمامة

#### بين خالد ومسيمة

هول معركة اليمامة — عبقرية خالد في إدارة المعركة — نبوءة صادقة — إدعاء  
مسيمة النبوة — شعوذة وخبث دهي — عصبية عمياء — أول لواء لحرب اليمامة —  
توجيه خالد إلى حرب مسيامة — سياسة حكيمة — مجاعة بن مرارة الحنفي ومكائنه في  
قومه — بدء المعركة وترجيحها هنا وهناك — نفحات البطولة الإسلامية — حملة  
صادقة — قتل مسيامة — من قتله ؟ — بدء النهاية في المعركة — خدعة مجاعة —  
الصلح بين التأييد والمعارضة — كتاب أبي بكر إلى خالد وإمضاء الصلح — غدره  
لم تتم — رسول خالد إلى أبي بكر — هل وفد خالد على أبي بكر بعد اليمامة ؟ —  
زواج خالد بنت مجاعة — رجولية بطل — عتب أبي بكر ودفاع خالد —  
تحليل وتوضيح .



لم يلق المسلمون الأولون في تاريخهم الحربى أشد مما لقوا في واقعة اليمامة ومقاتلة  
بنى حنيفة قوم مسيلمة بن حبيب الحنفى المشهر بالكذاب ، وقد كانت هذه الشدائد أعظم  
امتحان لقوى الرجولية وأحد مشحذ لعبقرية البطولة ، وفي هذه الواقعة تجلت عبقرية  
بطل الإسلام وقائده المظفر خالد بن الوليد رضى الله عنه عن مظاهر الشجاعة وسياسة  
الحرب ، وحنكة القيادة ، وحزامة الإمارة التى سجلها له التاريخ في صحائف أعظم  
القادة والأبطال .

ومن الخير فى توجيه ذهن القارئ إلى إدراك صورة تمثل هول هذه الواقعة وشدائد  
الابتلاء فيها أن نرسم لها خطوطاً أولية تبدو من أثنائها عواصف الهول ، وقواصم  
العزائم إلى جانب رواسى الهمم لدى جيوش المسلمين وصبرهم فى وجه الموت وشجاعتهم  
عند زلزلة أقدام فوارس الحرب وأبطال اللقاء ؛ مستمدين ذلك من روايات التاريخ  
عممن شهدوا أوارها حق يتم لنا أن نؤمن على ابتهالات التاريخ فى محراب البطولة  
الحالية :

أولاً — قال رافع بن خديج : خرجنا من المدينة ونحن أربعة آلاف ، وأصحابنا من  
الأنصار ما بين خمسمائة إلى أربعمائة ، وعلى الأنصار ثابت بن قيس ، ويحمل رايتنا  
أبو لبابة ، فاتمها إلى « اليمامة » فنتمهى إلى قوم هم الدين قال الله تعالى فيهم « استدعون  
إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، » فلما صففنا صفوفنا ووضعنا الرايات  
موضعها لم يلبثوا أن حملوا علينا فهزمونا مراراً فنعود إلى مصافنا وفيها خلل ، وذلك أن  
صفوفنا كانت مختلطة ، فيها حشو كثير من الأعراب فى خلل صفوفنا فينهزم أولئك  
بالناس ، فيستخفون أهل البصائر والنيات حق كثير ذلك منهم ، ثم إن الله تعالى بمنه  
وكرمه وفضله رزقنا عليهم الظفر ، وذلك أن ثابت بن قيس نادى خالد بن الوليد :  
أخلصنا ، فقال خالد : ذلك إليك ؛ فنادى أصحابك ، فأخذ ثابت الراية ونادى  
يا للأنصار ، فتسللت إليه رجلاً رجلاً ، فنادى خالد : يا للهاجرين ، فأحدقوا به ،  
ونادى عدى بن حاتم ، ومكنف بن زيد الخليل بطيء فثابت إليهما طيء ، وكانوا أهل  
( م ١١ — خالد بن الوليد )

بلاء حسن ، وعزلت الأعراب عنا ناحية ، فقاموا من ورائنا غلوة أو أكثر ، وإنما كنا نؤتى من الإعراب .

وأجهض أهل السوابق والبصائر العدو ، فهم في نحورهم ما يجد أحد مدخلا إلا أن يقتل رجلا منهم أو يخرج فيقع فيخلف مقامه آخر حتى أوجعنا فيهم ، وبان خلل صفوفهم وضجوا من السيف ، ثم اقتحمنا الحديقة فضاربوا فيها وغلقنا الحديقة ، وأقمنا على بابها رجلا لئلا يهرب منهم أحد فلما رأوا ذلك عرفوا أنه الموت ، فجدوا في القتال ودبت السيوف بيننا وبينهم ، ما فيها رمى بسهم ولا حجر ولا طعن برمح حتى قتلنا عدو الله مسيامة :

هذه رواية فيها من إيجاز الخبر وناصح الأسلوب وحسن القصص ما جعلها يجمع بين أطرافها لباب الأمر في واقعة أطال المؤرخون رشاء القول فيها ، وفيها من وصف أعداء المسلمين وبشدة بأسهم ما جعلهم في نظر علماء الصحابة يحمل الآية الكريمة « ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد » .

وبحسبك أن تجد القرآن الحكيم يصف قوما بالأس الشديد فتعلم من هم ؟ وعلى أى لون من القوة في العدد والعدة هم ؟ وفيها بيان سبب انهزام المسلمين أول الأمر ؛ وأن ذلك كان باختلاط صفوفهم بحشو من الأعراب الذين لم يكونوا قد انضموا لجيش الإسلام مسوقين بعقيدة يناضلون عنها ويقاتلون بها ، فنزلت أقدامهم حينما لحمتهم السيوف وأحسوا حر السلاح ، فانهزموا ، واستخفوا بهزيمتهم أهل البصائر والنيات ممن خرجوا في سبيل الله مفعمة أنفسهم بالآيمان وقوة العقيدة التي بها يقاتلون وعنها يناضلون ، وهذا أمر معقول تصدقه السوابق الخالدية ، فقد ذكرنا أن عدى بن حاتم أراد في حرب أسد وغلطفان أن يجعل قومه — وكانوا قد توقفوا فجمعهم الله به إلى الإسلام — مقدمة جيش خالد ، فأبى عليه خالد ذلك ، وقال له : يا أبا طريف إن الأمر قد اقترب ، وأنا أخاف أن أقدم قومك ، فإذا لحمتهم القتال انكشفوا ، فانكشف من معنا ، ولكن دعنى أقدم قوما صبرا لهم سوابق وثبات ، وهم من قومك .

وهؤلاء الأعراب الذين أتى المسلمون من قبلهم الذين أبى عليهم خالد أن يكونوا جندا في جيشه لضعف روحهم وانحذالهم ، واكتفى بأن أخذ منهم سلاحهم يستعين به

على حرب عدوه ، حتى كان أبو بكر رضى الله عنه هو الذى ألحقهم به تمحيصاً لإسلامهم وتكثيراً لسواد المسلمين بهم ولشغلهم بالجهاد عن التفكير فى هزيمتهم فلا يكونون شوكة فى ظهر جيوش الإسلام ، وكان أبو بكر قد عاهد خالد إذا فرغ من أميد وغطفان والضاحية أن يقصد اليمامة وأكد عليه فى ذلك ، فلما أظهر الله خالد أعلى أولئك الأعراب تسلل بعضهم إلى المدينة يسألون أبا بكر أن يبايعهم على الإسلام ويؤمنهم فقال لهم : يبعثى إياكم وأمانى لكم أن تلحقوا بخالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ، فمن كتب إلى خالد بأنه حضر معه اليمامة فهو آمن ، فليبلغ شاهدكم غائبكم ، ولا تقدموا على واجعوا وجوهكم إلى خالد ، فقال أبو الجهم : أولئك الذين لحقوا بخالد من الضاحية هم الذين كانوا انهزموا بالمسلمين يوم اليمامة وكانوا على المسلمين بلاء .

وفى هذه الرواية تأييد سياسة خالد رضى الله عنه مع جنده إذا اشتد وطيس القتال ، ذلك أن بعض القواد فى جيش خالد لما أدرك أن هؤلاء الأعراب هم سبب هزيمة الجيش طلب إلى القائد العام تنحيته عن الميدان إلى حيث يكونون وراء الجيش ردة آله فى نظر العدو وتكثيراً لسواد المسلمين ، فنادى ثابت بن قيس — وهو قائد كتيبة الأنصار — خالداً فقال له : أخلصنا ، فأجابه خالد إلى ما طلب لعلمه بأن ذلك رأى له قدره وأثره الخطير فى توجيه المعركة ، فامتاز الأنصار بلوائهم ، وامتاز المهاجرون بلوائهم ، وصنع صنيعهم أهل الإيمان والعقيدة من سائر الجيش وأبناء القبائل ، وعزلت الأعراب ناحية ، فقاموا من وراء الجيش يتربصون ، وهذا من أحكم التدبير ، لأن امتياز الناس إلى وحدات مستقلة بأوصافها الخاصة ينفي التواكل ويدكى الحمية ويشعل روح التنافس بين هذه الكتائب المتمايزة ، وبهذا ملك المسلمون زمام المعركة حتى انتهوا بها إلى نهايتها الظافرة .

ثانياً — فى حديث ضمرة بن سعيد المازنى أن المسلمين لم يلقوا عدواً أشدهم نكابة من بنى حنيفة ، لقوهم بالموت الناقع ، وبالسيوف قد أصابتوها قيل النبيل ، وقبل الرماح ، وقد صبر المسلمون لهم ، فكان المعول على أهل السوابق .

ثالثاً — حدث خالد بن الوليد رضى الله عنه فقال : شهدت عشرين زحفاً فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ، ولا أثبت أقداماً من بنى حنيفة يوم اليمامة .

إنما لما فرغنا من طليحة، ولم تكن له شوكة، قلت كلمة والبلاء موكل بالقول؛ وما بنو حنيفة إلا كمن لقينا، فلقينا قوماً ليسوا يشبهون أحداً، ولقد صبروا لنا من مطلع الشمس إلى صلاة العصر حتى قتل عدو الله، فما ضرب أحد من بني حنيفة بعده بسيف، ولقد رأيتني في الحديقة وعانقني رجل منهم وأنا فارس وهو فارس فوقعنا عن فرسينا ثم تعانقنا بالأرض، فأجؤه بخنجر في سيفي، وجعل يجرؤني بمعول في سيفه، فجرحتني سبع جراحات، وقد جرحته جرحاً أثبتته به فاسترخى في يدي، وما بي حركة من الجراح، وقد نزفت من الدم إلا أنه سبقني بالأجل فالحمد لله على ذلك.

هذه رواية قائد القواد خالد بن الوليد الذي شهد في الجاهلية والإسلام من الوقائع والزحوف ما لم يشهده سواه؛ يصف أعداءه فينصفهم بأنه لم ير قوماً أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقداماً في وجه الموت منهم، وهي شهادة حاذق بالحرب مجرب لأهوالها. فإذا ظفر خالد بهؤلاء الأبطال فهو ظفر عبقرى، لا يعدله في جلاله إلا سمو النسوة به.

ولم يكن خالد ليقول هذا القول عن بني حنيفة لظفره بهم تعظيماً لا تنصاريه عليهم، ولكنه حق يقوله وواقع يصفه أليس قد ظفر من قبل ظفره ببني حنيفة بأسد وغطفان وهزم طليحة حتى ألجأه إلى الفرار، فلم يفخر بهذا النصر ولا عظم ذلك الظفر، بل هو يقلل من شأن طليحة وقومه إلى جانب الحنفيين، ويرى أن طليحة لم تكن له شوكة مع ما عرفناه من شدة وقائعه.

وهذه الصراحة التي يتحدث بها خالد إلى الناس طبع فيه وخليقة لا يتكافها، فهو يعترف بأنه ظن ظناً خاطئاً فكان منه ابتلاؤه، ذلك أنه حسب أهل الجيامة كأهل الضاحية وأن بني حنيفة كأسد وغطفان بيد أنه لقي من بني حنيفة قوماً لا يشبهون أحداً ولا يشبههم أحد في الصبر والبأس، وشجاعة القلب والسماح بالحياة.

رابعاً — كان مسيلة الكذاب قد أصاب حبيب بن زيد وعبد الله بن وهب الأسلمى من المسلمين، فقال لهما: تشهدان أني رسول الله؟ فقال الأسلمى: نعم؛ فأمر به فحبس مثقلاً بالحديد، وقال له حبيب بن زيد: لا أسمع، فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأمر به فقطع، وكلما قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: لا أسمع، فإذا

قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال نعم ، حتى قطعه عضواً عضواً ، فقطع يديه من المنكبين ، ورجليه من الوركين ، ثم أحرقه بالنار ، وهو في كل ذلك لا يتزعزع عن قوله ، ولا يرجع عما بدأ به حتى مات حرقاً بالنار بعد شديد العذاب ، فلما تهيأ خالد إلى اليمامة جاءت أم حبيب ، وهي نسيبة بنت كعب ، وتسكني أم عمارة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاستأذنته في الخروج ، فقال لها أبو بكر : ما مثلك يحال بينه وبين الخروج ؟ قد عرفناك وعرفنا جرائك في الحرب فأخرجني على اسم الله .

قالت أم عمارة : فلما اتھينا إلى الحديقة بعد إذ تداعت الأنصار ، أخلصونا ، أخلصونا ؛ أزدحمنا على الباب وأهل النجدة من عدونا في الحديقة قد انحازوا يكونون فئة لمسيمة فاقترحمنا فضاربناهم ساعة ، والله ما رأيت أبذل لمهج أنفسهم منهم ، وجعلت أقصد إلى عدو الله مسيمة لأن أراه ، ولقد عاهدت الله لأن رأيت لا أكذب عنه وأقتل دونه ، وجعلت الرجال تحتلط والسيوف بينهم تختلف ، وخرس القوم فلا صوت إلا وقع السيوف حتى بصرت بعدو الله ، فشددت عليه ، وعرض لي رجل منهم فضرب يدي فقطعها ، فو الله ما عرجت عليها حتى انتهيت إلى الخبيث وهو صريع ، وأجد ابني عبد الله قد قتل .

فسألها سائل : أكثرت الجراحات في المسلمين ؟ فقالت : لقد تحاجز الناس وقتل عدو الله وإن المسلمين لجرحي كلهم ، لقد رأيت بني أبي مجروحين ما بهم حركة ، ولقد رأيت بني مالك بن النجار بضعة عشر رجلاً لهم أنين يكمدون ليلتهم بالنار ، ولقد أقام الناس باليمامة خمس عشرة ليلة ، وقد وضعت الحرب أوزارها وما يصلي مع خالد بن الوليد من المهاجرين والأنصار إلا نفر يسير .

هذه الرواية تصور لونا من ألوان البطولة الإسلامية تمثلها شخصية حبيب بن زيد ، ذلك البطل المسلم العظيم ، وقد قطع عضواً عضواً وأحرق بالنار ليقول كلمة بلسانه ، فما رجع عن إيمانه ، ولا عرض ، ولا وري ، ولكنه تماسك واستصلب ليكون نموذجاً من نماذج التربية الإسلامية الصادقة التي أسس عليها الإسلام بناء الأمة الإسلامية .

وتمثلها شخصية أمه أم عمارة نسيبة بنت كعب التي كانت نموذجاً من نماذج المرأة المسلمة في تربيتها الإسلامية حتى ولدت للإسلام مثل حبيب بن زيد ، فكانت خليفة بتزكية الخليفة الأول أبي بكر الصديق بقوله ما مثلك يحال بينه وبين الخروج ،



وما كان أبو بكر ليذكر لي امرأة مسلمة في خروجها للحرب بما زكي به نسيبة لو لم يكن يعلم من صدق عزمها وقوة إيمانها ما كانت تعلم من نفسها ، وهي فوق ذلك ثكلى موتورة ، وقد وصفت هذه المرأة المسلمة الجليلة ، تدافع أهل اليمامة على الموت في حربهم للمسلمين فحققت ، وصورت لنا احتدام القتال فصدقت ، وخرس القوم فلا صوت إلا وقع السيوف .

هذه هي واقعة اليمامة في هولها ؛ فإذا كان حظ القائد البعقري خالد بن الوليد فيها ؟ هذا ما نصوره لك فيما يرد من الحديث ، وتقصى الآثار .

\* \* \*

عبقرية خالد      إن نظرة فاحصة إلى ذلك الإطار الذي يجمع بين حفافيه صورة الهول الذي كانت عليه معركة اليمامة بين جند الإسلام من المهاجرين والأنصار وصادق الإيمان بقيادة البطل البعقري خالد بن الوليد ، وبني حنيفة بقيادة مسيلمة بن حبيب الشهير بالكذاب ، تجعل القارىء يدرك كيف أدار خالد رضى الله عنه هذه المعركة حتى انتهى بها إلى نهايتها التي أقرت عين الإسلام في جزيرة العرب ، وانتقل بها النضال إلى ما وراء السفوح العربية حيث كان نضالا بين العرب وهم جرثومة الإسلام وجنده ، وبين دولق الفرس والرومان .

\* \* \*

قدم مسيلمة في وفد قومه بني حنيفة على النبي صلى الله عليه وسلم عام الوفود ، فلما أظلموا المدينة خلفوا مسيلمة في رحالهم يحفظها لهم ، فخباهم النبي صلى الله عليه وسلم على عادته الشريفة مع وفود العرب التي كانت تقدم عليه مسلمة ، فذكروا له مكان مسيلمة ، فقالوا يا رسول الله . إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظها لنا ، فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به لقومه وقال لهم : « إنه ليس بشركم مكانا » قال علماءنا في تأويل ذلك : يعنى لحفظه ضيعة أصحابه .

نبوءة صادقة      والذي يتقدح في الحاضر أن تأويل هذا الحديث أعمق من ذلك ، وأن هذا ضرب

من نبوءات رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادقة ومعجزاته الإخبارية الواقعة، فقد قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في لوح الغيب ما كتب على نواصي هؤلاء القوم من دلائل الغدر والنكوص على الأعقاب والارتداد عن دين الله، وأن صاحبهم هذا الذي سألو له رسول الله صلى الله عليه وسلم حباء مثل حباءهم فأخبرهم عنه أنه ليس بشرهم مكانا ، سيقودهم الى شر عاقبة يهلكهم بها ، وأنهم سيتابعونه على ضلالته فيهلكونه كما أهلكهم ، فهم وهو في شرها على سواء .

يرشح تأويلنا هذا ما روى عن رافع بن خديج أنه قال : قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم وفود العرب فلم يقدم علينا وفد أقسى قلوباً ولا أحرى أن يكون الإسلام لم يقر في قلوبهم من بني حنيفة ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر له أن مسيلمة الكذاب قال عندما قدم في قومه : لو جعل لي محمد الخلافة من بعده لاتبعته ، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس ، وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتخة<sup>(١)</sup> من نخل ، فوقف عليه ثم قال : لئن أقبلت ليفعلن الله بك ؛ ولئن أدبرت ليقطعن الله دابرك ، وما أراك إلا الذي رأيت فيه ما رأيت ولئن سألتني هذه الشظية - لشظية من الميتخة التي في يده - ما أعطيتكها . وهذا ثابت يجيبك .

قال ابن عباس : سألت أبا هريرة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : ما أراك إلا الذي رأيت فيه ما رأيت ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فنفضنهما فطارا فوق أعينهما باليامة ، والآخر باليمن . قيل : وما أولتهما يا رسول الله ؟ قال أولتهما كذابان يخرجان من بعدى .

انصرف مسيلمة الى موطنه ، ولم يلبث أن أبدى لقومه خبيثة نفسه ، فادعى فيهم النبوة ، وأنه أشرك في الأمر مع محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن عجيب خذله أنه جعل حديث النبي صلى الله عليه وسلم عنه مع وفد قومه وإخباره أنه ليس بشرهم مكاناً دليلاً على دعواه السخيفة ، وسرعان ما تطاير اليه بنو حنيفة تطاير الفراش على النار ، فلما رأى ذلك منهم

(١) عسوب من جريد النخل .

وملاً يديه من جهالتهم كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم : من مسيئة رسول الله إلى محمد رسول الله ؛ أما بعد فإنني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قریشاً قوم يعتدون .  
فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى مسيئة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . وقد أهلكت أهل الحجر أبادك الله ومن صوت معك » .

شعوذة  
وخبث دهي  
كان مسيئة رجلاً صاحب ذكاء ودهى . فيه خبث ومكر واقتدار على الاحتيال . واعتباد السذج وضعفاء العقول ؛ فاستولى بذلك على عامة قومه . وخدعهم فأنخدعوا له . وتعصب له قوم من ذوى رأيهم فوافقوه على سخفه .

قال الجاحظ : كان مسيئة قبل ادعاء النبوة يدور في الأسواق التي بين دور العرب والعجم كسوق الأبله وسوق بقة وسوق الأنبار وسوق الحيرة . يلتبس تعلم الحيل والبرجمات . واحتيالات أصحاب الرقي والنجوم ؛ ومن حيله أنه صب على بيضة من خل حاذق قاطع ؛ فلانت حتى إذا مددتها استطالت واستدقت كالعلق . ثم أدخلها في قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارت وعادت كهيئتها الأولى فأخرجها إلى قومه وهم قوم أعراب وادعى النبوة .

وذكر الرواة أن من أعظم ما فتن بنى حنيفة بمسيئة شهادة رجل من قومه يقال له نهار الرجال بن عنقوة . زعم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول بإشرار مسيئة معه في الأمر فكان أكذب لصاحبه من صاحبه على الله . وإنما وقعت فتنة هذا الرجل في قلوب بنى حنيفة لأنه كان قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ القرآن وتعلم من السنن ثم عاد إلى قومه فوجدهم يطيفون بمسيئة فأنسلخ من الإيمان بهذا الكذب السخيف وانتفخ أنف مسيئة ، وأمال لقومه عطفه وأخذ يسجع (١) لهم سخافات هي في وزن

(١) يستعمل بعض الباحثين صدور هذا الهراء الذي تحكيه بعض الروايات معزواً إلى مسيئة بن حبيب في سخافات سخيفة اللفظ مريضة المعنى مدعياً أنها مما أوحى إليه ، ونحن لا نثبت هذا ولا ننفيه من جهة الرواية لأنه ليس لدينا حجة على أحد الأمرين ولسنا نستبعد صدور هذا ، السخف من هذا =

العقل من أضحيك البله المرورين . وفي وزن البيان العربي من سخرية اللغة على الباقلين .

وكان أعقل بنى حنيفة في هذه الفتنة العاصفة من جرفتهم العصبية القبلية دون نظر إلى عقل أو دين . حدث عمير بن طلحة النخري عن أبيه أنه جاء اليمامة فقال : أين مسيلة ؟ فقالوا : مه !! رسول الله ؟ فقال : لا . حتى أراه ؛ فلما جاءه قال : أنت مسيلة ؟ قال : نعم . قال من يأتيك ؟ قال : رحمن ؛ قال : أفي نور أم في ظلمة ؟ فقال في ظلمة ؛ فقال : أشهد أنك كذاب . وأن محمداً صادق . ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر !!

ويروى أن فتان بنى حنيفة نهار الرجال كان يقول بعد ما أضله الله على علم : كبشان انتطحا . فأحبهما إلينا كبشنا ؛ وقال محكم بن الطفيل - وهو من سادات أهل اليمامة - لما قيل له : هذا خالد بن الوليد في المسلمين : رضى خالد أمراً ورضينا غيره ، وما ينكر خالد أن يكون في بنى حنيفة من أشرك في الأمر ؟

هذا تفكير عقلاء الحنفيين ، وهذا فهمهم للنبوة والدين ، وإن كانوا لم يعدوا أحاداً منهم ثبت الله أقدامهم وعصم عقولهم فاستمسكوا بعروة الإسلام الوثقى ، وكان في هؤلاء الأحرار الذين لم تستعبدهم العصبية القبلية عمير بن صالى اليشكري ، وهو من سراة أهل اليمامة وأشرفهم ، فكتم على قومه إسلامه لما رأهم يرجون في الفتنة يقودهم إليها محكم بن الطفيل ونهار الرجال ممسكين بخطام مسيلة يقودانه كما يقاد الجمل الخشوش ، وفيهما يقول عمير بن صالى :

ياسعاد الفؤاد بنت أثال طال ليلي بفتنة الرجال  
فتن القوم بالشهادة والله عزيز ذو قوة ومحال  
لا يساوى الذى يقول من الأم رقبلا وما احتذى من قبال

== الرجل الماكر المشعوذ الماكر في دعم دعواه عند ذوى الجهالة من البدائيين الذين لم ترق فطرتهم عن ضرائر الخفافيش ودواب الظلام ، بعد أن استطاع بدعائه أن يحرك عوامل العصبية عند عقلاء قومه فتمصبوا له وهم يعلمون كذبه . ولو لم يكن هذا السخف صدر من مسيلة لكان في حكايته عنه تمثيل لروح جهرة المجتحم الذى اتبع نعيته ، مع احتفاظ الرواية بتمثيل روح الحاصدة في وحى شيطان العصبية لها بقوله ( ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ) .

إن ديني دين النبي وفي القو  
أهلك القوم محكم بن طفيل  
بزهم أمرهم مسيامة اليو  
قلت للنفس إذ تعاضمها الصب  
ربما تجزع النفوس من الأم  
إن تكن ميتق على فطرة  
م رجال على الهدى أمثالي  
ورجال ليسوا لنا برجال  
م فلن يرجعوه أخرى الليالي  
ر وسادت مقالة الأقوال  
ر له فرجة كحل العقال  
الله حنيفاً فإنني لا أبالي

استعلن أمر مسيامة واستشرى خطره بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أول لواء أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد استقبل أمر ردة العرب بعزيمة لم يعرفها التاريخ لرجل في لحرب الإمامة أمة من الأمم ، فاستجابت لعزيمة قلوب المساميين ، فوضعوا أرواحهم بين يديه يدفع بها حيث شاء ، فعقد الأولوية وأرسل الجيوش مجاهدة في سبيل الله فكان من حظ الإمامة لواء عكرمة بن أبي جهل مردفاً بشر حبييل بن حسنة ليكون ردءاً له . ولكن عكرمة رضي الله عنه أراد أن يكون له خاصة نحر الظفر بهؤلاء المرتدين ، فتعجل الهجوم ، ولم ينتظر رديفه ، فنكسب ولم يصنع في القوم شيئاً ، فأغضب ذلك أبا بكر رضي الله عنه ، وكتب إلى عكرمة يعنفه بقوله : يا ابن أم عكرمة لا أرينك ولا تراني على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس ، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفقة ، فقاتل معهما أهل عمان ومهرة . وكتب إلى شرحبيل أن يتمهل حتى يأتيه خالد بن الوليد بمن معه من جند الإسلام المظفرين لئلا يقع شرحبيل في مثل ما وقع فيه عكرمة من قبل ، ولكن شرحبيل أراد ما أراد عكرمة ، فلقى صاحبه حتى أدركه البطل العبقري خالد ، وأخذ يمينه زمام القيادة وأدار المعركة بوحى البطولة وساسها بمهارة السياسي الحكيم .

توجيه خالد  
إلى حرب  
مسيامة  
قال شريك الفزاري : كنت ممن حضر براخة مع عيينة بن حسن فرزقني الله الإنابة ، فجئت أبا بكر ، فأمرني بالسير إلى خالد ، وكتب معي إليه بوصايا وفي آخرها : إن أظفرك الله بأهل الله الإمامة فأياك والإبقاء عليهم ، أجهز على جريحهم وأطلب مدبرهم وأحمل أسيرهم على السيف ، وهول فيهم القتل ، وأحرقهم بالنار ، وإياك أن تخالف أمرى ، والسلام عليك ؛ فلما انتهى الكتاب إلى خالد اقتراه وقال : سمعاً وطاعة . أثرى ماعسى أن يصنع خالد رضي الله عنه ، وقد قدمت له الحوادث نسكبة صاحبيه عكرمة وشرحبيل ؟

أترأه يندفع مهاجماً معتمداً على قوة السلاح كما اعتمد أصحابه من قبله ورأى بعينه مصيرها ؟ أم تراه ياجأ إلى العقل يستوحيه التدبير ويستلهمه التفكير ؟

إن خالداً رضى الله عنه كان قائداً من طراز يمالك أعصابه متى شاء ، وهو يعرف للروح المعنوية في الجيوش قيمتها ويقدرها قدرها ، وقد رأى أن أهل اليمامة فازوا على جيش من جيوش المسلمين ؛ والظفر مما يرفع حرارة الروح المعنوية في الجيوش المحاربة ، فلا بد له من أن يقدم أمام المعركة لونا من حرب الأعصاب حتى يروز قوة عدوه ويخضع شوكته ويوهن معنويته ، وكان أهل اليمامة لما اتصل بهم مسير خالد إليهم بعد الذي صنع الله له في أمثالهم جزعوا وتحيروا ، واضطرب للأمر عاقلهم محكم ابن طفيل ، وبات يتلوى على فراشه ، وكان خالد يعلم مكان محكم في قومه ، وكان في جيش خالد زياد بن ليبيد بن بياضة الأنصاري ، وكان زياد صديقاً لمحكم بن طفيل ، فقال له خالد في بعض الطريق : يا زياد لو ألقيت إلى محكم شيئاً تكسره به ، فإنه سيد أهل اليمامة وطاعة القوم ، فبعث إليه زياد بهذه الأبيات من الشعر .

يا محكم بن طفيل قد أتيح لكم	لله در أبيكم حية الوادي
يا محكم بن طفيل إنكم نفر	كالشاء أسامها الراعي لآساد
ما في مسيلمة الكذاب من عوض	من دار قوم وإخوان وأولاد
فاكفف حنيفة يوماً قبل نائمة	تنعى فوارس شاج شجوها باد
لا تأمنوا خالداً بالبرد معتجراً	تحت العجاجة مثل الأغصاف العادي
ويل اليمامة ويلا لا فراق له	إن جالت الحيل فيها بالقنا الصادي
والله لا تنثنى عنكم أعنتها	حتى تكونوا كأهل الحجر أوعاد

ولكن محكم بن الطفيل كان أبعد في عصبيته مما ظن به زياد البياضي ، فلم يكثر لأبياته ، ولم يرفع لما فيها من تهديد ووعيد رأسه ، بل لقد زادت حمية وتذميراً لقومه ، فقد اندفع يجر ضهم على قتال المسلمين ويخطب فيهم بقوله : يا معشر أهل اليمامة إنكم تلقون قوماً يبذلون أنفسهم دون صاحبهم ، فابذلوا أنفسهم دون صاحبكم ، فإن أسداً وغطفان إنما أشار إليهم خالد بذياب السيف فكانوا كالنعام الشاردة .

فهل كان موقف محكم بن الطفيل وتصلبه في عصبية الجاهلية مما صد خالداً عن سياسة العقل وحرب الأعصاب ؟ لا ؛ إن خالداً يعرف لهذه الحرب « الباردة » قيمتها في نتيجة الحرب الدموية إذا نشبت . وها هو ذا يترك زياداً ومحكما . ويعوذ برجل آخر ، هو من سادات أهل اليمامة . أسلم فكتم على قومه إسلامه . وكان راسخ الإيمان . قوى العقيدة . عرفه خالد فلم يحجم عن توجيهه في كسر قومه بني حنيفة قياماً بحق الإسلام عليه . ذلك هو عمير بن صالى اليشكري . فقال له خالد : تقدم إلى قومك فاكسرهم . فأتاهم ولم يكونوا علموا بإسلامه . فقال : يامعشر أهل اليمامة . أظلكم خالد في المهاجرين والأنصار . تركت القوم يتتابعون إلى فتح اليمامة وقد قضوا وطراً من أسد وغطفان : وعليها هوازن . وأنتم في أكفهم . وقولهم لا قوة إلا بالله ؛ إنى رأيت قوماً إن غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر . وإن غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد ، ولستم والقوم سواء ؛ الإسلام مقبل والشرك مدبر . وصاحبهم نبي وصاحبكم كذاب . ومعهم السرور . ومعكم الغرور . فالآن والسيوف في غمده . والنبل في جفيره<sup>(١)</sup> . قبل أن يسيل السيف . ويرى بالسهم سرت إليكم مع القوم عشرا .

وهذا مسلك غير مسلك زياد البياض مع محكم ، لأن عميراً خاطب العامة بأسلوب يقارب ويباعد ، ويلين ويشدد ، وخطاب عامة الناس أفعال في تخذيل المهمة من خطاب رجل واحد له مكانه في قومه ؛ مما يجعله يملك زمام أعصابه فلا تخور .

وقد جرى على هذه الطريقة في حرب الأعصاب بعد عمير رجل آخر من أشرف بني حنيفة ، ذلك ثمامة بن أثال الحنفي الذي مشى في قومه خطيباً يقول : يا أهل اليمامة : اسمعوا مني وأطيعوا أمرى ترشدوا . إنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا نبي بعده ، ولا نبي مرسل معه ، ثم قرأ عليهم « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير » هذا كلام الله عز وجل ، أين هذا من : يا صنفدع نقي ، كم تنقين ، لا الشرب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ؟ والله إنكم لترون أن هذا الكلام ما يخرج من إل<sup>(٢)</sup> . وتوفي رسول

(١) الجفير : الجمعية من الجلد أو الخشب (٢) الإل : من معانيه المناسبة هنا الربوبية . والأصل الجيد وقيل هو اسم لله تعالى .



الله صلى الله عليه وسلم وقام بهذا الأمر من بعده رجل هو أفتقهم في أنفسهم لاتأخذه في الله لومة لأثم ، ثم بعث إليكم رجلاً لا يسمى باسمه ولا باسم أبيه ، يقال له « سيف الله » . معه سيوف الله كثيرة ؛ فانظروا في أمركم .

\*\*\*

هذه خطوة في سياسة خالد بن الوليد الحربية التي استنها في حرب أهل اليمامة، وهي خطة من أحكم الخطط الحربية في القديم والحديث ، وقد شهد الناس في الحرب المعاصرة ما لهذا الأسلوب من أثر عظيم في تحطيم قوة العدو المعنوية ، وكانت تلجأ إليه الدول المتحاربة في وقائع كثيرة كلما أعوزتها القوة المادية أو قصر دون إدراك الغاية السلاح، وكسب الزمن إحدى نتائجه وله أثره الفعال في تغيير الخطط الموضوعية .

ترك خالد لخطته هذه تفعل في نفوس القوم فعلها ، ورأى أنه فرغ من مرحلة السياسة وحرب الأعصاب ؛ ونهض إلى السيف يحكمه ، وزحف إلى بني حنيفة وقدم أمام جيوشه الطلائع ، فأخذت طلائعه جماعة من بني حنيفة فيهم جماعة بن مرارة الحنفي من ساداتهم ، فلما جاءوا بهم إلى خالد سألمهم عن مسيلمة ، ما يقولون فيه ؟ فشهدوا أنه رسول الله، فقال لجماعة ما تقول أنت ؟ قال : والله ما خرجت إلا في طلب رجل من بني نضير ، أصاب فينا دماً ، وما كنت أقرب مسيلمة ، ولقد قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما غيرت ولا بدلت ، فأمر بهم خالد فضربت أعناقهم لإصرارهم على أقبح الكفر بقولهم في كذابهم ، حتى إذا بقي منهم رجل يقال له سارية بن مسيلمة بن عامر، تقدم إلى خالد فقال له : أيها الرجل إن كنت تريد بأهل اليمامة خيراً أو شراً فاستبق هذا، يعني جماعة بن مرارة، فإنه عون لك على حربك أو سلمك فاستبقاه خالد فلم يقتله، واستبقى سارية لنصحه . ولكنه أمر بهما فأوثقا في جوامع حديد ، تحوطا لنفسه ولجيشه، وكان خالد يقرب جماعة ويتحدث إليهم ، ويستخبره خبر مسيلمة ويضحك عندما يسمع أسجاعه وأرجازه التي زعم أنه يعارض بها القرآن، ويقول : يا معشر المسلمين اسمعوا إلى عدو الله كيف يعارض القرآن ! ويقول لجماعة : هات زدننا من كذب الحديث ، فقال لجماعة :

جماعة بن  
مرارة  
ومكانته في  
قومه

أخرج لكم خنطة وزوانا<sup>(١)</sup> ، ورطباً وتمرانا ، فقال خالد وهذا كان عندكم حقاً وكنتم تصدقونه ؟ قال مجاعة : لو لم يكن عندنا حقاً لما لقيتكم غداً أكثر من عشرة آلاف سيف ، يضاربونك فيه حتى يموت الأعرج ، قال خالد : إذا يكفيناهم الله ويقر دينه ، فإياه يقاتلون ، ودينه يريدون .

بدء المعركة

تقدم خالد بالمسلمين حتى نزل على كتيب مشرف على أرض الجمامة ، فنضرب به عسكره ، وأقبل مسيماً في قومه وألفافه حتى نزلوا مكاناً يقال له «عقر باء» ، وقد سلوا سيوفهم ، فظن خالد أنهم صنعوا ذلك ترهيباً للمسلمين ، فقال : يا معشر المسلمين أبشروا ، فقد كفاكم الله عدوكم ، وما سلوا السيوف من بعيد إلا ليرهبونا ، وإن هذا منهم لجبن وفشل . فقال مجاعة ونظر إليهم : كلا والله يا أباسليمان ، ولكنها الهندوانية خشوا من تحطمها ، وهي غداة باردة ، فأبرزوها للشمس لأن تسخن متونها ، فلما دنوا من المسلمين نادوا : إننا لنعتذر من سلنا سيوفنا حين سللناها ، والله ما سللناها ترهيباً لكم ولا جبناً عنكم ، ولكنها كانت الهندوانية ، وكانت غداة باردة ، فخشنا تحطمها فأردنا أن تسخن متونها إلى أن نلقاكم فسترون .

نهض خالد إلى المسلمين فصفهم ، وأعطى رايات الكتائب نفر آمن فوارس الأبطال ، فأعطى راية المهاجرين زيد بن الخطاب أخا عمر بن الخطاب ، وأعطى راية الأنصار ثابت بن قيس بن شماس ، وجعل على الميمنة أباحذيفة عتبة بن ربيعة ، وعلى الميسرة شجاع ابن وهب ، وعلى الخيل البراء بن مالك ، ثم أسامة بن زيد . والتقى الجمعان واقتتلوا أشد القتال ، وصبر الفريقان أحر الصبر وأمره ، فقال عكرمة بن أبي جهل — وكان من أهل البلاء في هذه الواقعة — : حملت بنو حنيفة أول مرة كانت لها الحملة ، وخالد على سريره حتى خلص إليه فجرده سيفه وجعل يسوق بني حنيفة سوقاً حتى ردهم وقتل منهم قتلى كثيرة ، ثم كرت بنو حنيفة حتى انتهوا إلى فسطاط خالد فجعلوا يضربون الفسطاط بالسيوف ، وأرادوا قتل زوجه أم متمم فأجارها منهم مجاعة بن مرارة الحنفي ، وأثنى عليها بقوله : نعمت الحرة كانت ، وعير قومه فقال لهم : تركتم الرجال وجئتم إلى امرأة

(١) الزاون . حب يغاط القمح قال في اللسان : وهي حبة تسكر .

تقتلونها ؟ وكانت أم متمم أجارته من سيوف المسلمين ، لأن خالداً قال لها استوصي به خيراً .

وكان شرحبيل بن مسيامة الكذاب يذمر قومه بني حنيفة ويحمسهم ويستثير حميتهم بقوله : يا بني حنيفة ؛ اليوم إن هزمتم تستردف النساء سبيات ، وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم .

نقحات  
البطولة  
الإسلامية

اضطرب الناس ، واعتسكر الجو ، وتعاورت الهزيمة الفريقين فخشي أبطال المسلمين عاقبة الأمر ، فصاح ثابت بن قيس : بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ؛ اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعني أهل اليمامة - وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المسلمين - وتقدم براية الأنصار في نحر العدو يقاتل حتى قتل ، ثم تقدم زيد بن الخطاب وفي يده راية المهاجرين فقال : لا تحوز (١) بعد الرجال ، والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل فأكله بحجتي ، غصوا أبصاركم ، وعضوا على أضراسكم أيها الناس ، وأضربوا في عدوكم وأمضوا قدما ، وقاتل على حاله هذا حتى قتل ، فأخذ الراية سالم مولى أبي حذيفة ، فقال المسلمون : يا سالم إنا نخشى أن نؤتى من قبلك ا فقال : بئس حامل القرآن أنا إذا أتيت من قبلي ، ثم تقدم وحفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه ، وحشي وطيس القتال وكثر القتلى حتى فني كثير من حملة القرآن وحفاظه ، وقتل من بني حنيفة عدد عظيم ، واختلط حابل الناس بنا بلهم ، ولم يعرف كرارهم من فرارهم ، وقال المهاجرون والأنصار : إنما نؤتى من قبل الأعراب وأهل البوادي ، وطلبوا إلى أميرهم سيف الله أن يخلصهم فميز الناس بأوصافهم حتى قال بعضهم لبعض : اليوم يستحى من الفرار ، فاشتدت حمية الناس وعظم الأمر ، وثبت بنو حنيفة لوقع السيوف ، ولم يحفلوا بكثرة من قتل منهم ، فعرف خالد أن الحرب لا تخف وطأتها ما بقي مسيامة بينهم فدعاه للبارزة ، فخرج إليه ، فعرض عليه خالد أمورا مما يشتهي ، فأعرض مسيامة ، متظاهرا بأنه يستشير شيطانه فركب خالد كستفيه حتى أرهقه ، وصاح في المسلمين : دونكم فلا تقيلوهم ، فحملوا عليهم حملة صادقة حتى أدخلوهم حديقة مسيامة فرموهم بالنبل ، واقتحموا عليهم الحديقة ، وقتلوا

حملة صادقة

(١) التحوز والتعيز : التنعى ومنه قول الله تعالى ( أو متحيزا إلى فئة ) :

منهم مقتلة عظيمة ، وكان أول من فدى المسلمين بنفسه ، واقتحم باب الحديقة ففتحها للمسلمين فارس المسلمين البراء بن مالك ، وقيل أبو دجانة ، وقيل عباد بن بشر ، وثلاثتهم من الأنصار . وفي حديقة الموت هذه قتل مسيلمة بعد أن كشف لأصحابه قناع ضلالتهم وعرى لهم خبثة ففت في أعضادهم ، وكسر شوكة حميتهم ، فقد سألوه وهو منهزم عنهم : أين ما كنت تعدنا ؟ فقال لهم : أما الدين فلا دين ، قاتلوا عن أحسابكم !!

قتل مسيلمة من قتله ؟ فاستيقن القوم أنهم في غير شيء ؛ وأنهم قبضوا بأيديهم على الماء . والرواية الصحيحة تقول : إن الذي تولى قتل مسيلمة وحشى مولى المطعم بن عدي قاتل حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء يوم غزوة أحد ، وكان وحشى إذا تحدث عن ذلك يقول : قتلت خير الناس وأنا على جاهليتي وشر الناس وأنا على الإسلام ، وقد تقدم في حديث نسبية بنت كعب أن ابنها عبد الله بن زيد هو الذي قتل مسيلمة الكذاب ، ولا يبعد أن يكون عبد الله ووحشى اشتركا في قتله ، روى البخارى في الصحيح عن وحشى قال : خرجت مع الناس فإذا رجل قائم في ثلعة جدار وكأنه جمل أورق ، ثأر الرأس ، فرميته بحربتي فوضعتها بين ثديه حتى خرجت من بين كتفيه ، ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته ، فقالت جارية على ظهر بيت : وا أمير المؤمنين قتله العبد الأسود !!

وروى غير البخارى أن وحشياً قال : لما اختلط الناس في الحديقة ، وأخذت السيوف بعضها بعضاً نظرت إلى مسيلمة وما أعرفه ، ورجل من الأنصار يريده ، وأنا من ناحية أخرى أريده فهزرت من حربتي حتى رضيت منها ، ثم دفعتها عليه ، وضربه الأنصارى فربكم أعلم أينما قتله ، إلا أنى سمعت امرأة من فوق الدير تقول : قتله العبد الحبشى .

بدء النهاية في المعركة كان قتل مسيلمة بدءاً لنهاية هذه المعركة القاسية ، فلم يكد يسرى نبأ قتله في قومه ، حتى انفرط عقدهم ، وانحلت عزائمهم ، ووهنوا أمام المسلمين مع ما نالهم من القتل والجراح ، فتنفرق من بقى منهم إلى الحصون ، وتحاجز الناس على النصر والظفر للمسلمين ، والهزيمة والاندحار على أهل اليمامة من الحنفيين .

رأى ذلك مجاعة بن مرارة الحنفى وهو أخيد<sup>(١)</sup> في يد خالد بن الوليد فأقض

(١) الأخيد : الأسير .

مضجعه ، وأقامه وأقعدده ، ففكر وقدر ، وأعمل الحيلة ودبر ، وانتهى به تديره إلى أن أرسل إلى بقية السيف في قومه ليلا : أن ألبسوا السلاح النساء والذرية والعبيد ، ثم إذا أصبحتم فقوموا مستقبلي الشمس على حصونكم حتى يأتكم أمرى .

وبات خالد والمسلمون يذفنون قتلاهم ، ويتكمدون بالنار من شدة ما بهم من الجراح ، حتى إذا أصبح أمر بمجاعة فسيق معه في الحديد ، وجعل يسهر القتل ، وهو يريد مسيلة ، فمر برجل وسيم ، فقال يا مجاعة : أهو هذا ؟ قال : لا هذا والله أكرم منه ؛ هذا محكم بن الطفيل ، ثم قال مجاعة : إن الذي تبتغون رجل ضخم أشعر البطن والظهر ، أبجر بجرته كالقدح ، مطرف إحدى العينين ، وأمر خالد بالبحث عنه بين القتلى وحتى وجدوه فوقف عليه خالد وحمد الله كثيراً ، وأمر به فألقى مع قتلى قومه في خفير .

ظن خالد رضى الله عنه أن الهزيمة التي لحقت ببني حنيفة لم تبق على أحد ممن فيه خدعة مجاعة قوة لقتال منهم ، ولكن خديعة مجاعة الحنفى فوتت على خالد ما كان أمره به أبو بكر من استئصال بني حنيفة إذا ظفروا بهم لسوء صنيعهم بالمسلمين ، وإذا أراد الله أمراً أنفضه وهياً له أسبابه .

قال خالد رضى الله عنه لمجاعة وهما واقفان على مسيلة قتيل : يا مجاعة هذا صاحبكم الذي فعل بكم ما فعل ! فقال مجاعة : قد كان ذلك يا خالد ؛ ولا تظن أن الحرب انقطعت بينك وبين بني حنيفة وإن قتلت صاحبهم ، إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس ، وإن جماعة الناس وأهل البيوتات لفي الحصون ، فانظر ! فرفع خالد رأسه وهو يقول : قاتلك الله ما تقول ؟ قال : أقول الحق ، فنظر خالد فإذا السلاح ، وإذا الحلق على الحصون ، فرأى أمراً غمهم وساءه ، ولا سيما وحال المسلمين أمامه يصورهم وقد ملوا القتال بعد أن قتل منهم من قتل ، وعامة من بقي منهم جريح ، وقد لاحت دلائل الرغبة على وجوه كثير منهم في الوقوف بالمعركة عند هذه النهاية التي توجت ربوس المسلمين بالنصر ودمغت أهل اليمامة بالهزيمة .

غير أن خالد بن الوليد لم يكن بالرجل الذي تهزه الأزمات مهما اشتدت ، ولم يكن بالقائد الذي يغريه النصر بالانسحاب ففساح في المسلمين : يا خيل الله اركبي ، فاندفع جنوده ( م ١٢ — خالد بن الوليد )

الإسلام إلى حومة الوغى يطلبون نصراً يقضى على عدوهم قضاء لا تقوم لهم بعده قائمة ، ولكن مجاعة خبيثة انكشف حيلته قبل أن تشعر ما قدر لها من ثمرة تنقذ من قومه من بقيت فيهم من الحياة بقية ، فأسرع إلى خالد يستنزله عن عزمته بقوله : أيها الرجل إني لك ناصح ؛ إن السيف أفناك وأفنى غيرك ، فتعال أصالحك عن قومي ، فقال خالد إلى الصلح رقة بالمسلمين ، وقد أصيب منهم أهل السوابق ، وكثرت جراحات سائرهم مع عجب الكراع وطول اللقاء ، فرق لهم وأحب المواجهة ، وقبل الصلح على الصفراء (١) والبيضاء والحلقة (٢) والسلاح والكراع (٣) ونصف السبي ، فلما فتحت الحصون ، وانجلي الموقف عن خديعة مجاعة ، ولم ير خالد في الحصون إلا النساء والصبيان والضعف والعاجزين عن القتال ، قال للمجاعة : ويحك خدعتني فقال له مجاعة : هم قومي ، ولم أستطع إلا ما صنعت .

الصلح بين  
التأييد  
والمعارضة

لقي هذا الصلح في أول أمره معارضة شديدة من الجانبين ، فعارضه من بني حنيفة سلمة بن عمير ، وقام يذمر قومه بقوله : قاتلوا عن أحسابكم ، ولا تصالحوا على شيء فإن الحصن حصين والطعام كثير ، وقد حضر الشتاء .

وهذا كلام رجل مخادع أو مخدوع ينطقه الوتر والضعف ، ولا يبالي ما وراء ذلك وقد عرف من حال قومه ما عرف مجاعة الذي قال لقومه يرد عليه قوله : يا بني حنيفة أطيعوني واعصوا سلمة فإنه رجل مشثوم قبل أن يصيبكم ما قال شرحبيل بن مسلمة : قبل أن تستردف النساء غير رضيات ، وينكحن غير حظيات فقبل بنو حنيفة قوله مجاعة وأجازوا صلحه .

وعارض هذا الصلح من المسلمين فريق من الأنصار بزعامة أسيد بن حضير ، وأبي نائلة ، فانهما قالا لخالد : اتق الله ولا تقبل الصلح ، فقال خالد والله قد أفناكم السيف ، فقالا : وإنه قد أفنى غيرنا أيضاً ، فقال خالد : فمن بقي منكم جريح ، فقالا : وكذلك من بقي من القوم جرحى ، لاندخل في الصلح أبداً ، أغد بنا عليهم حتى يظفرنا الله عليهم أو نبيد عن آخرنا ، أحملنا على كتاب أبي بكر : « إن أظفرك الله ببني حنيفة فلا تبقي

(١) الصفراء : الذهب ، والبيضاء : الفضة (٢) الحلقة : الدروع (٣) الكراع : الخيل .

عليهم « فقد أظفرنا الله وقتلنا رأسهم ، فمن بقي منهم أكل الشوكة <sup>(١)</sup> ، وهذا كلام ينطف من سحاب الإيمان ، لا يبالي صاحبه أن يقتل أو يقتل في سبيل الله ، فهو فائز على أى أمر به اتسكأ ، والإيمان وحده لا يكفي لتوجيه المعارك الحربية ، ولا سيما بعد أن يتنسم الناس شيئاً من روح المهادنة ويسمعوا همساً فى المصالحة ؛ مما يدخل على النفوس لونا من الفتور يستحبون معه المهادنة ، فلو نشبت بهؤلاء المعركة لم تكن مضمونة النهاية فى قوتها المعنوية ، ومن هنا تشبث خالد وهو أعلم بحال جنده بما كان قد أمضى من الصلح ، ولم تؤثر فيه حماسة الأنصار لرأيهم ، ورأى أنه لا يجوز له أن ينقض ما أبرمه من غير عذر يأتيه من قبل العدو ، ووافق على رأيه سائر المسلمين .

\* \* \*

كتاب أبى

لم يكبد المسلمون يتنفسون بعد إتمام هذا الصلح حتى قدم عليهم مسلمة بن سلامة بن بكر إلى خالد . وقش بكتاب من أبى بكر لخالد يقتردهما ، وفيه يقول : « إذا جاءك كتابي فانظر ، فإن أظفرك الله بيني حنيفة فلا تستبق منهم رجلاً جرت عليه المواسى » فعادت الأنصار إلى مقاتلتها فى معارضة الصلح ، وقالوا لخالد : أمر أبى بكر فوق أمرك . فلم يتزحزح خالد عن رأيه الأول ، وفاء بعهده وذمة المسلمين ، ولكنه لا ينال الأنصار ، فقال لهم : إني والله ما صالحت القوم إلا لما رأيته من رقتكم ، ولما نهكت الحرب منكم ، وقوم صالحتهم ومضى الصلح فيما بيني وبينهم ، والله لو لم يعطونا شيئاً ما قاتلتهم وقد أسلموا . وفى هذه الكلمة الخالدية نفحات إسلامية مشرقة ، فهي تأبى أولاً إلا أن تخاطب من هؤلاء المتحمسين من جنود الإسلام وجدانهم وعواطفهم ، ثم تأبى ثانياً إلا أن تظهر عزيمة القيادة المسيطرة فى تنفيذ ما أبرمت ، ثم تأبى ثالثاً إلا أن تضع هذا العنوان فى وجه تلك الحماسة الإيمانية لتكفكف من غلوائها ، فكيف يقاتل قوما قد أسلموا فأصبح لهم من حق الإخاء الإيمانى ما يردهم إلى موضع الأمن على أنفسهم وأموالهم ؟ وقد رضى الأنصار ما رضى به خالد ورضيه سائر الناس ، فكتب إلى أبى بكر بالصلح الذى تم ، وقال له : « إني لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به ، وحق عجب الكراع ، ونهلك الحف ، ونهلك المسلمون بالقتل والجراح » .



تم الصلح كما عقده خالد بن الوليد ومجاعة بن مرارة الحنفي ، وأقبل بنو حنيفة على خالد في عسكره يبايعونه على الإسلام ، ويبرأون إليه مما كانوا عليه ، غير أن سلمة ابن عمير وهو حامل لواء المعارضة في الصلح من بني حنيفة كان قد أضمر غدره بقائد المسلمين ، وأمير الجيوش الإسلامية خالد بن الوليد ، فقال لمجاعة : استأذن لي على خالد أكله في حاجه له عندي ونصيحة ، وقد أجمع في نفسه أن يفتك به إن ظهر بالدخول عليه ، فانخدع له مجاعة ، وكلم خالد ، فأذن له خالد ، والناس في سلم وتسليم وبيعة بالبيعة إلى الله تعالى وإلى دينه القويم ، فأقبل سلمة بن عمير بوجه المريب القلق مشتملاً على السيف يريد به ما يريد من فاقرة ، ولكن نور الإيمان كشف لقائد الإسلام عن طوية هذا الغادر ، وكأنا قرأ خالد بفراصة المؤمنين على وجه سلمة بن عمير غدرته وسوء قصده ، فلم يكدر يراه مقبلاً عليه حتى قال : من هذا المقبل ؟ فقال مجاعة : هذا الذي كلمتك فيه وقد أذنت له ، قال خالد : أخرجوه عنى ، فأخرجوه ، وكأنا اختلجت نفوسهم بالشك في أمره ، ففتشوه فوجدوا السيف ، فلعنوه قومه وسبوه ، وأوثقوه ، وقالوا له : أردت أن تهلك قومك ، وأيم الله ما أردت إلا أن تستأصل بنو حنيفة ، وأيم الله لو أن خالد أعلم أنك حملت السلاح لقتلك ، وما نأمنه إن بلغه أن يقتل الرجال ، ويسبي النساء بما فعلت ، ويحسب أن ذلك عن ملائنا .

غدره لم تتم

ولم يجد ذلك مع سلمة شيئاً ، فقد أفلت من قومه وخرج من الحصن الذي أوثقوه فيه ، فعمد إلى عسكر المسلمين قاصداً تنفيذ ما طوى عليه كشهجه من غدر وخيانة ، فصاح به عسكر الإسلام ، فقتل نفسه .

ولما كملت بيعة بني حنيفة على الإسلام ، واستسلم سائرهم أمر خالد بالحصون فألزمها الرجال ، وحلف بمجاعة بالله لا يغيب عنه شيئاً مما صالحه عليه ، ولا يعلم أحد أغيب شيئاً إلا رفعه إليه ، ثم فتحت الحصون ، وأخرج ما فيها من السلاح والحلقة والكراع والذهب والفضة وقسمه على الجند ، وعزل الخنس فأرسل به إلى الخليفة ، وكان أبو بكر رضي الله عنه في هم شديد من جراء هذه الموقعة لما كان يعلمه من كاب أهل اليمامة على ضلالهم وشدة شكيمتهم في الحرب ، وجلدتهم في القتال ، وأنهم يحاربون وهم في ديارهم وأموالهم وحصونهم ، وذلك أقوى لهم ، فكان يستروح إلى أخبارها بقدر ما يحى رسول قائده خالد ،

رسول خالد إلى أبي بكر

نُفِرج يوماً إلى ظهر الحرة ، ومنعه عمر بن الخطاب ، وسعيد بن زيد ، وطلحة ابن عبيد الله ، ونفر من المهاجرين والأنصار ، فلقى أبا خيثمة النجاري رسول خالد إليه ، فقال له ، ولم ينظره حتى يكون هو الذي يحدثه : ما وراءك يا أبا خيثمة ؟ قال : خير يا خليفة رسول الله ، قد فتح الله علينا اليمامة ، وهذا كتاب خالد إليك ، فسجد أبو بكر شكراً لله تعالى على هذه النعمة السابغة العظمى ، ثم أخذ يستوصف أبا خيثمة الواقعة ، فجعل يصفها له ويذكر صنيع خالد ، ويسمى من قتل من أهل السوابق وحمل القرآن حتى قال : يا خليفة رسول الله أتينا من قبل الأعراب ، انهزموا بنا وعودونا ما لم نكن نحسن حتى أظفرتنا الله بعد .

ولما ذكر أبو خيثمة الصلح الذي أجراه خالد وانتهت به الواقعة قال أبو بكر : ليت خالد لم يصلحهم وأنه حملهم على السيف ، فما بعد هؤلاء المقتولين يستبقى أهل اليمامة ، ولن يزالوا من كذابهم في بلية إلى يوم القيامة إلا أن يعصمهم الله .

كان إرسال خالد لأبي خيثمة تعجيلاً ببشرى الفتح والنصر لعلمه بما كان يساور الخليفة هل وفد خالد وسائر المؤمنين المقيمين بعاصمة الإسلام من الإشفاق على جند الإسلام الذين يواجهون على أبي بكر هذه المعركة القاسية ، ولما استقر به الأمر ، واطمأن إلى النهاية القصوى ، بعث بوفد بعد اليمامة بنى حنيفة إلى أبي بكر ، وهنا تختلف روايات التاريخ ، فبعضها يذكر أن خالد أرسل الوفد لبث في اليمامة ينتظر أمر الخليفة إليه ، فكتب له أبو بكر : « أن سر إلى العراق حتى تدخلها » وبعض الروايات يذكر أن خالد لما فرغ من بنى حنيفة قفل إلى المدينة ومعه سبعة عشر رجلاً من سراواتهم ، فيهم صاحبه بجاعة بن مرارة الحنفي وإخوته ، فدخل بهم المسجد ، وعليه قباء ، عليه صداً الحديد ، متقلداً بالسيف ، معتماً وفي عمامته أسهم ، فمر بعمر بن الخطاب فلم يكلمه ، ودخل على أبي بكر فرأى منه ما يحب ، وسأله أبو بكر عن أهل البلاء في هذه الواقعة ، فقال خالد : كان البلاء كله للبراء بن مالك والناس له تبع ، ثم قال الصديق للحنفيين : ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله قد كان الذي بلغك مما أصابنا ، كان أمراً لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ؛ ثم سأله عن أسباع مسيلة فذكروا له شيئاً منها فقال لهم :

« سبحان الله ! ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر . فأين يذهب بكم ؟ »  
ونحن نشك في رواية قدوم خالد إلى المدينة مع وفد بني حنيفة ، ونرجح عليها  
رواية كتب أبي بكر إليه بالسير إلى العراق على رأس جيوشه الظافرة من مقامه باليمامة .  
لأن رواية قدوم خالد المدينة لم تذكر كيف ترك خالد جيوشه الواترة بين قوم موتورين .  
مهما قيل عن استسلامهم ، فإنه لم يبلغ أن يكون استسلاماً يحولهم بين عشية وضحاها  
إلى طبيعة غير طبيعة البشر .

وهذه الرواية لم تذكر من هو القائد الذي أقامه خالد مقامه في إمارة الجيش مدة  
غيبته حتى يعود ، مع بعد المسافة وبطء المواصلات واضطراب الأحوال .

وهذه الرواية فيها مشابهة من رواية قدوم خالد المدينة بطلب من أبي بكر على إثر قتل  
مالك بن نويرة ، تلك الرواية التي تصف خالداً في هيئته وزيه وهو داخل المسجد بما تصفه  
به هذه الرواية من لبس القباء وعليه صدا الحديد ، ومن تقلد السيف والتعمم وخرز أسهم  
في عمامته ، غير أن تلك الرواية تزيد على هذه بما زعمته من موقف غير كريم وقفه عمر  
بن الخطاب من خالد بن الوليد ، وقد ناقشنا تلك الرواية في مكانها ، وأبدينا فيها شكاً  
ملحاً لا يقيمها بين سائر الروايات على ساق .

فلعل صاحب هذه الرواية من المتكثرين في روايات التاريخ لا يبالي ما أخذ وما  
أعطى ، فلفق أولفق عليه هذه الرواية منترعة من صاحبها تلك ، وهما من وادي الزيف  
السحيق .

\*\*\*

انتهى القائد المظفر خالد بن الوليد رضي الله عنه من حرب أهل اليمامة ظافراً منتصراً  
بعد أشد المحنة ، وأقصى الابتلاء ، ولكن خالد لم يكن من أولئك الرجال الذين تهزم  
قواصم المحن ، أو تزعزعهم عواصف البلايا ، وإنما هو طرز من الرجولية فريد لا نجود  
به الحياة إلا بعد مرور الحقب ، وتعاقب الأجيال .

زواج خالد  
بنت حجة

لم يكد خالد ينتهي من عمل السيف ، ويطمئن على جرحى المسلمين ، ويقسم بين  
المجاهدين غنائمهم حتى التفت إلى صاحبه حجة بن مرارة الحنفي ، وقد عرف مكانه من

قومه ، ومكان قومه منه ، خاطباً إليه ابنته ١١ وهذا من أعجب ما ينتظر في هذا الموقف من قائد حربى خاض معركة ، يصف هولها وأثرها عليه وعلى جيشه بقوله : « شهدت عشرين زحفاً فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف ، ولا أضرب بها ، ولا أثبت أقداماً من بنى حنيفة يوم اليمامة » ولقد كثرت فيها جراحه حتى قال عن نفسه : « وما بي حركة من الجراح ، ولقد اقتحمت حتى أيست من الحياة وتيقنت الموت » فكيف اتسعت إذاً مشاعر خالد في هذا الموقف العصيب إلى هذه العاطفة المشبوبة بالحيوية الدافقة التي تتوجه إليها النفس البشرية وهي - في غالب الأمر - فارغة من الهم ، بريئة من الآلام في متعارف طبائع البشر ؟

أجل إن تاريخ خالد بن الوليد صفحة من خصائص الرجولية الكاملة في أسمى معانيها ؛ رجولية بطل وهو هنا في هذا الموقف يتجلى ثابت الجنان رابط الجأش ، قوى النفس ، فوار الحساسية والعواطف ، خصب الحيوية ، والرجل إذا فقد خصوبة الحيوية فقد فقد كثيراً من خصائص الرجولية ، وهذا مقرر عند علماء الاجتماع والأخلاق وذوى المباحث النفسية ، وهو ملحوظ في تاريخ الأبطال وعظماء التاريخ ، وقلماء عقد التاريخ فصلاً لعبقريته من العبقريات ، ولا سيما عبقرية الحروب والبطولة ، إلا وفي ضمن صفحاتها صفحة عن اكتمال الحيوية عند صاحب تلك العبقرية .

وقد فرغ الناس قديماً من الحديث عن صلة الجسم بالعقل ، وجاء العلم الحديث وأقر ما اتفق عليه العلماء الأقدمون من قوة هذه الصلة حتى أصبح قولهم : « العقل السليم في الجسم السليم » قاعدة من قواعد الحياة الصحيحة القوية ؛ وليس أصدق حجة على سلامة الجسم الذى يستقر في خلاياه العقل السليم من خصوبة الحيوية وفور القوة الجنسية التي ناط الله تعالى بها تجمد الحياة في نماذج النوع المتتابعة بالتوالد .

وقد كان خالد بن الوليد من وفور الحيوية بالموضع الذى يجعله صورة للرجولية بالحية الفوارة بإمداد الحياة . وهو رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين ألان الدين قناتهم لشريعته وأحكامه ، فكان من القوامين عليها بالقسط ، والشرعية الإسلامية هي الشريعة الفذة التي قدرت وفور الحيوية في الإنسان حق قدرها ، ولم

تغفل شأنها في الحياة ، فكانت بذلك متمشية مع الفطرة بعيدة عن النزمت والكبت ، وكانت واقعية أمام الحياة ، وأمام الناس .

ومن أحق من قائد جيوش الإسلام خالد بن الوليد وهو على ما وصفنا من وفور الحيوية أن يكون نموذجاً لطلاقة الشريعة الإسلامية ، وأن يكون عروة من عرى الترابط بين الأسر الإسلامية وبيوتات العرب ، وقد بلغ منهم ما آرب للإسلام ، وهو في أشد الحاجة إليهم ، ليلغ بهم من الأمم الآخري ما أراد الإسلام ؟

استجاب خالد رضى الله عنه إلى قوة نفسه ووفور حيويته من طريق هذه الشريعة المطهرة ، ولم يعبأ بما عسى أن يقال برغم صاحبه بجاعة الذى لفت نظره إلى ما يتوقعه من القالة عليه بقوله : « مهلاً انك قاطع ظهري وظهرك عند صاحبك ، إن القالة عليك كثيرة ، وما أقول هذا رغبة عنك » فأبى خالد أن يستمع إلى قول بجاعة ، ورد عليه نصيحته بقوله : « زوجنى أيها الرجل ، فإن كان أمرى عند صاحبي على ما أحب فلن يفسده ما تخاف على ، وإن كان على ما أكره فليس هذا بأعظم الأمور » .

وهذا كلام تمليه الحكمة الحازمة ، والإرادة القوية التي لا تلين أمام وشاية ، ولا ترهب سعاية ، فلو لم تسكن الدولة في حاجة إلى بطولة خالد لكان خالد في أشد الحاجة إلى الاعتزاز بنفسه ، وكأن صاحبه بجاعة لم تقنعه هذه الحجة الثائرة ، أو هو أراد أن لا يقتنع ليستفز عزيمة خالد ، ويستثير حميته حرصاً على مصاهرته ؛ فقال له : « قد نصحتك ، ولعل هذا الأمر لا يكون عيبه إلا عليك » .

عتب أبي بكر ودفاع خالد  
وقع ما ظنه بجاعة بعد ما أجاب خالد إلى رغبته وزوجه ابنته ؛ فقد بلغ الخبر أبا بكر فغضب له ، وكتب إلى خالد يعاتبه عتاباً أقرب إلى التعنيف والتقريع منه إلى الملامة والعتاب ، فقال له : « يا خالد ابن أم خالد ! إنك لفارغ تنسكح النساء وتعرس بهن ويابك دماء ألف ومائتين من المسلمين لم تبغف بعد ، ثم خدعك بجاعة عن رأيك فصالحك عن قومه ، وقد أمكنك الله منهم » فلم تضعف عزيمة خالد أمام هذا التهديد بل كتب إلى الخليفة يدافع عن نفسه ، وأرسل بكتابه إليه مع أبي برزة الأسلمي فقال : « أما بعد فلعمرى ما تزوجت النساء حتى تم لى السرور ، وقرت لى الدار ، ما تزوجت إلا إلى امرئ لو عملت إليه من المدينة خاطباً لم أبل ؛ دع إني استثرت خطبى إليه من

تحت قدمي ، فإن كنت قد كرهت لي ذلك لدين أو دنيا أعتبتك ؛ وأما حسن عزائي عن قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقى حياً أو يرد ميتاً لأبقى حزني الحى ورد الميت ، ولقد اقتضت حتى أليست من الحياة وأيقنت الموت ، وأما خدعة مجاعة إياي عن رأي فاني لم أخطيء رأيي يومى ، ولم يكن لي علم بالغيب ، وقد صنع الله للمسلمين خيراً ، أورثهم الأرض وجعل العاقبة للمتقين ) .

تحليل  
وتوضيح

إذا تأمل الباحث في كتاب أبي بكر إلى قائد البطل ، وفي رد خالد عليه تجلت أمامه العبقرية الخالدية في أقوى صورها وأسطع مظاهرها ؛ فالخليفة الحليم الرشيد يعيب على قائده أنه فارغ النفس من المموم ، لا يشغله ما كان حرياً أن يشغل غيره ممن يقف في موقفه ، ويعيب عليه أنه لم يحزن على قتلى المسلمين ، ودماؤهم لا تزال بياضه لم تجف بعد ، حزناً يصرفه عن التفكير في الزواج والتعريس بالنساء استجابة لعواطفه المشبوبة ، ويعيب عليه أنه خدع عن رأيه فصالح النوم بعد أن أمكنه الله منهم ، وكان يستطيع لو أراد أن يستأصل شأقتهم ، ولا سيما أنه يخطب إلى الرجل الذى خدعه فيرتبط معه برباط المصاهرة بعد الذى كان منه .

جاء رد خالد على هذه المآخذ رداً حازماً في لين ، صريحاً في صدق ، قويافى هدوء فهو يرى في رده أن النصر ولو مع النضحية لا يبقى في النفوس العظيمة آثار الآلام ولواعج الأحران ، وقد تم للقائد السرور بالنصر المؤزر ، وقرت به الدار ببسط سلطانه على أعدائه ؛ ويؤكد خالد حقيقته بما يبرر خطبته إلى هذا الرجل الذى خدعه حتى لا تندفع الأوهام السقيمة في التظنن بالقائد العبقرى كما وقع هذا التظنن في زواجه بامرأة مالك ابن نويرة ، فهو يعلن أنه قد خطب إلى رجل هو سيد قومه فما يمنعه أن يجعل الخطبة إليه وسيلة من وسائل الاستقرار وتطبيب النفوس ، على أن هذه الخطبة سعت إليه ، ولم يحرك لها المطايا ، ولسكنه استئثارها من تحت قدميه ، ولو عمل إليها من المدينة قصد أهلكها ما كان عليه في ذلك ملام ولا عتاب ؛ فإذا كان الخليفة الأعظم كره له ذلك لضرر لحقه في دينه أو دنياه قبل عثبه ، ولقد أبان خالد أبرع إبانة عن حسن عزائه على قتلى المسلمين ، وأنه حزن عليهم حزناً كان كفيلاً أن يرد الحياة إليهم لو كان حزن يرد الحياة إلى ميت ، لو كان كفيلاً أن يخلد من كان من المسلمين باقياً لو كان الله كتب البقاء والخلود لأحد من الأحياء .

ولم يكن خالد بالقائد الذى يعرض جنده للموت ويقف هو من ورأهم يأمر وينهى، ولكنه كان القائد الذى يقتحم أمام جنده فى طلب الموت واساهم بنفسه ، وليكون لهم المثل الأعلى فى الفداء والتضحية ، والاستهانة بالحياة فى سبيل الحق ، وإذا كان صاحبه جماعة خدعه فهو لم يخدع والحرب دائرة الرحى ؛ ولم يخطئ رأى يومه حتى يزن (١) بغفلة لا تليق بعباقة القادة وأبطال العسكريين ، ولم يكن له علم بالغيب فيقرأ ما طواه جماعة بين جوائحه ، وما قيمة هذه الخديعة بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وباء العدو بالخذلان وذل التسليم ، وتوج الله هجمات المسلمين بالنصر ، وأورثهم أرض أعدائهم وجعل لهم عاقبة المتقين ؛ فماذا بقى على القائد العبقري بعد ذلك ؟

إن من خصائص العبقرية أن تعلو على آفاق العامة والخاصة من الناس فلا تقعدها الأحزان الممضة من الوصول إلى أهدافها ، ولا تبطرها المسرات المبهجة فيبدد الغرور مذخورها من القوى المعنوية الدافقة ، وعبقرية خالد بن الوليد كما تصورها سيرته . طرز من العبقريات الفريدة فى جميع مواقفها .

ولقد كان لرد خالد على أبى بكر هذا الرد الرصين تأثيره القوى فى نفس أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فإنه لما بلغه رقى لخالد وعذره ، ووكد له العذر عنده شهادة أبى برزة الأسلمى ، وكان رسول خالد إلى أبى بكر ، فإنه قال : « يا خليفة رسول الله ما يؤنب (٢) خالد بجبن ولا خيانة ، ولقد اقتحم حتى أعذر ، وصبر حتى ظهر ، وما صالح القوم إلا على رضا ، وما أخطأ رأييه بصلح القوم ، إذ لا يرى النساء فى الحصون إلا رجالا » فقال أبو بكر : « صدقت ؛ لسكلامك هذا أولى بعذر خالد من كتابه إلى »

وإنما كان كلام أبى برزة أولى بعذر خالد عند الصديق لأن أبى برزة أبان عن الجهة التى كانت منها الخديعة فاطمأن الصديق إلى الواقع الذى كان لا يستطيع غيره .

رضى الخليفة الموفق عن قائده المظفر فسيره إلى فتح العراق وحرب فارس ، والفرس . إحدى دولتين كانتا تتبادلان زمام السيطرة على الدنيا يومئذ . وهنا يفرغ التاريخ من سفر البطولة الخالدية فى جزيرة العرب ، وهى بحال أصيق من أن تنسج آفاقه لآيات

(١) يزن : يثبم .

(٢) يؤنب : يثبم .



العبقرية في مثلها العامة الكاملة ونماذجها الفاضلة ، وأبو بكر الصديق أعرف الناس بالرجال ، وه وأعرف بخالد قائده المختار ، فقصدي أن يرحى به الفرس بعد أن أقرعين الإسلام في العرب ؛ والفرس كانوا أهيب عند العرب من أن تطمح أنفسهم لحربهم ، ولكن خالد بن الوليد القائد الذي لم تنكس له راية ، ولم يهزم له جيش ، والذي كان العرب باسمه أسرع إلى قلوب أعداء الإسلام من سيفه إلى أعناقهم ، هو الذي جرد العرب على الفرس حتى خاضوهم من أوزار الظلم ، واستنقذوهم من آصار الاستبداد حتى تقيثوا وإياهم ظلال السلام والعدل والرحمة في ساحة الإسلام .



## لفصل العاشر

### دولة الفرس بعد العرب فتح العراق

أسس الفتح الإسلامي — مقومات الدولة في الإسلام — العراق باب فارس —  
الإسلام يثير في العرب روح المغالبة — المثنى بن حارثة وفتح العراق — أبوبكر يأمر  
خالد بنغزو فارس — سياسة خالد في حرب الفرس — من خالد بن الوليد إلى طارق بن  
زياد — تلاحق الهزائم بالفرس — واقعة «المدار» — واقعة «الولجة» — نهج خالد  
في إثارة الحماسة — واقعة «أليس» — غرور فارسي أجوف — واقعة «أمنيشيا» —  
عبقرية خالد في نظر الصديق — فتح الحيرة — حيلة ومكيدة — عزيمة خالدية —  
محاصرة قصور الحيرة — براعة في المفاوضة — نظرة منبهة إلى عوامل الفتح الإسلامي  
تحليل — عدل فوق الرحمة — عهد خالد لأهل الحيرة — الحيرة قاعدة الجيوش  
الإسلامية — أثر فتح الحيرة — أقصوصة طريفة — أقصوصة أخرى — غزو الفرس  
في عقر دارهم — تيمن خالد بالقال — واقعة «الأنبار» — خطة سياسية — فتح  
دومة الجندل — شهادة خصم — وقائع «الحنافس» و «الحصيد» و «المصيخ» —  
إنتصار خالد بالعرب — مناوشات وتطهير — واقعة «الفراض» .



كانت واقعة اليمامة أعظم وقائع الإسلام بالمرتين من العرب، وكانت نهاية تلك الحروب الداخلية في جزيرة العرب، وبالفراغ منها تم للإسلام إنشاء قاعدة في بناء دولته الكبرى، وقد اعتمدت هذه القاعدة على وحدة الغاية ووحدة اللغة، ووحدة الدين، ووحدة العنصر القومي، ووحدة الوطن والمقر.

والإسلام في طبيعته النظرية، والعملية : شريعة ودولة؛ وقد استقرت أسسه، وكمل بنيانه باعتباره شريعة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهذا الجانب هو المعنى بقول الله تعالى في القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » وبقي شطره باعتباره دولة تقوم على حماية الشريعة وتنفيذ نظمها وقوانينها وبسط سلطانها ضماناً لإقرار الحق والعدل بين أبناء المجموعة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها؛ ديناً في عنق هذه الأمة العربية الموحدة على أنها هي القاعدة العظمى لدولة الإسلام الكبرى.

ومن هنا نرك الإسلام للأمة أمر نظام الحكم في الدولة تختاره على مقتضى أطوار الحياة الصالحة في مدارج الزمن، بعد أن ضمن لها مقومات البناء وحاطها بسياج من الضمانات القوية الثابتة.

وقد أغضى الإسلام في بناء دولته الكبرى على بعض ما اعتمد عليه في بناء قاعدة هذه الدولة. توسعاً في ربط الإنسانية، وفي إهدار المظاهر الضيقة في روابط الحياة، فأهدر العنصرية الطائفية والوطنية القومية، وأحل محلها العنصرية الإنسانية، والوطنية العالمية، وأهدر الإخاء القبلي، وأقام مقامه الإخاء البشري. وسكت عن عروة اللغة بعد ما أحاط العربية بسياج من الضمانات يجعلها على مر الزمن وثيقة الوجود ضمن الروابط العامة، وإن لم تكن من أصولها، وحافظ في بناء الدولة الإسلامية الكبرى على وحدة الدين والغاية، ثم مزج بينهما في عروة واحدة هي عروة « الإخاء » العام التي يدور عليها فلك الشريعة في الإسلام.

مقومات  
الدولة في  
الإسلام

العراق باب فارس  
على هذا الأساس الخالد بدأت الفتوحات الإسلامية ، وكان أول ما توجهت إليه أنظار الخلافة الصديقية فتح العراق لأنه باب فارس إحدى دولتين ملكتنا زمام الحياة يومئذ ، واعتصمت كلتاها بالحواجز العنصرية الطائفية والوطنية القومية المتعطوسة . وأهدرتنا عروة الإخاء الإنساني فكان لا بد للإسلام من أن يعالج أمرهاتين الدولتين ، ويحطم فيهما هذه الحواجز الخائفة التي اعتمدتا عليها في بسط ما كان لهما من سلطان على جانبي الأرض .

الإسلام يثير في العرب روح المغالبة  
والعراق يومئذ عربي اللغة والعنصر ! ولكنه فارسي الحكم ، ومنذ أحس عرب العراق صوت الإسلام يدوي في أرجاء الجزيرة العربية قويا قاهرا تحركت فيهم غريزة المغالبة لهذه الدولة العظيمة المصاغبة لهم ، وقد كانت عندهم يوم أن كانوا لا يعتمدون على وحدة سوى وحدة اللغة ، فلا يعرفون ديناً قيمياً يجمعهم ، ولا يعرفون هدفاً واحداً يقصدون إليه ، — أهيب من موت الفجاءة فلما هز الإسلام فيهم أريحية الكرامة الذاتية ، وبصرهم بأنفسهم ، وأشعرهم بشخصيتهم الأئمية وعرفهم أن لهم رسالة في الحياة أسمى وأجل من كل ما عرفوه أو سمعوه ، وأمدتهم برابطة الإخاء العام في وحدة الدين والغاية ، لما صنع الإسلام بالعرب هذا الصنيع ضروا بفارس وجروا عليها ، فناوشوها ونالوا منها ، فإذا أرادتهم كان لهم في فيا فيهم الفيح منطلق أمين ، ومهرب مكين ، حق إذا عجموا عودها ، ورازوا (١) قناتها ، وعرفوا خبيء أمرها ، وراوا أسوس الفتن ينخر في عظامها ، وقد مزقت المذاهب والنحل أديمها ، فمن زرادشتية ، إلى مانوية ، إلى مزدكية ، فوق ما كان يعانيه الشعب من إذلال حكماءه . واستبدادهم به . لم يعد لذلك الجسم الضخم المتراخي في أكناف الأرض طولاً وعرضاً تلك الهيبة التي كانت لفارس لدى العرب قبل الإسلام .

المثنى بن حارثة وفتح العراق  
كتب المثنى بن حارثة الشيباني — وكان أحد أولئك الأبطال الذين رازوا قبضة فارس وعجموا عودها ، فعلوا علمها — إلى أبي بكر الصديق يستعده بجيش لنزو فارس وفتح بلادها . وكانت أخبار مناوشات المثنى وقائمه مع الفرس تبلغ أبا بكر فيعجب ويقول : من هذا الذي تأتينا وقائمه قبل معرفة نسبه ؟ فقال له قيس بن عاصم المنقري : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب . ولا ذليل العمد ، هذا المثنى بن حارثة الشيباني ،

فكتب له أبو بكر عهدا بالإمارة على من قبله ، وكانت الفرصة مواتية أمام الخليفة لأن بطل الإسلام المظفر ، وقائده الذي لم تهزم له راية ، فاقى عين الردة ، ورئيس هيئة أركان حرب الخلافة الصديقية خالد بن الوليد سيف الله وسيف رسوله كان قد فرغ من مهمته العظمى في الوطن العربي ورجع العرب إلى حظيرة الإخاء الإسلامي .

\* \* \*

أرسل أبو بكر إلى خالد يأمره بغزو فارس بادئا بشعر أهل الهند والسند ، وهو أمر أبي بكر يومئذ الأبله ليأمن أن يؤتى المسامون من خلفهم ، ثم وجه عياض بن غنم رديفا لخالد ، وأمره أن يغزوها من الشمال بادئا بالمصيخ ، وأمرها أن يستنهضا من قاتل أهل الردة ، وأن لا يستعينا بمرتد ، وأن يسيرا بمن يحب الجهاد معهما في هذا الوجه ، ولا يستكرها أحداً من الناس ، فلما أعلننا ذلك في الناس انصرف كثير ممن كان معهما ، فاستمدا أبا بكر ، فأمد عياضاً بعبد يغوث الحميري ، وأمد خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي ، فقال له بعض من كان حاضره : أتمد رجلا انقض عنه جنوده برجل واحد ؟ فقال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا ؛ وقد صدق أبو بكر وكان بصيرا بالرجال ، فلقد كان القعقاع مع خالد جيشاً في إهاب رجل ؛ ورجلا في عزيمة جيش .

ثم كتب أبو بكر إلى المثني بن حارثة ومن معه كتابا يأمره فيه بطاعة خالد ، فأنحدر المثني إلى خالد جوادا كريماً مطواعا ؛ وكان جند خالد الذين ساروا معه في هذا الوجه عشرة آلاف ، ولحقه المثني في ثمانية آلاف ، غير أن هذا العدد الذي اجتمع في جيش المسلمين لم يكن شيئاً إلى جانب العدد السكثيف الذي اجتمع لهرمز قائد الفرس ، فعمد خالد إلى بعض التدبير السياسي ؛ فقسم جيشه إلى ثلاث فرق ، ووجه كل فرقة في طريق غير التي سلكتها الأخرى ، وجعل المثني بفرقة طليعة تقدمته إلى العدو ، ثم سرح عدي بن حاتم ، وعاصم بن عمرو على فرقة تبعت فرقة المثني ، وخرج خالد بعد ذلك ومعه سائر الجيش ، وكان قد وعد أصحابه الذين سيرهم مكانا يقال له « الحفير » عرف باسم ماء أباهلة ، وهو عند أول منزل من البصرة بعد ما عرفت لمن يريد مكة ، وكتب خالد كتابا إلى هرمز يدعو به إلى الإسلام ، أو عقد الدمة ، أو المناجزة فقال : « أما ( م ١٣ — خالد بن الوليد )

سياسة خالد  
في حرب  
الفرس



بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرار الجزية ، وإفلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » وفي هذه الجملة الأخيرة من كتاب القائد العبرى ما يشرح معجزة الفتح الإسلامى ، وأن هذه المعجزة إنما تمت لأن الإسلام أيقظ فى الأمة العربية خصائص الطبيعة الفياضة بالقوى الروحية التى لا تقم ورنا للعدد والعدة إذا لم يكونا على جسر من الإيمان واليقين .

بلغ كتاب خالد رضى الله عنه هرمز ، وسمع بمسيره إليه فكتب هرمز إلى أزدشير ملك الفرس يعلمه ويستمدده ، وتعجل بمن معه وسبق إلى المكان الذى كان جند الإسلام تواعدوه للاجتماع عليه ، فلما علم خالد بمنزل هرمز عدل عن « الحفير » إلى كاظمة ، فابتدر هرمز أيضا . وثرل على الماء واضطر خالد أن ينزل بجيوش المسلمين على غير ماء ، فحدثه بعض أصحابه فى ذلك فقال للناس : « حطوا أثقالكم ، ثم جالدوهم على الماء ، فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » نعم وقد صار الماء بل صار النصر المؤزر والظفر الباهر لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ، جند الإسلام .

من خالد بن الوليد بن إن القائد العبرى خالد بن الوليد لم يقمهم جنده فى منزل لاء فيه دون أن يحاول الوليد إلى ارتياد أطيب المنازل لهم ، ولكن الفرصة لم تسعفه ، فهل يترك جنوده فريسة لليأس طارق بن زياد يدلهم إلى قلوبهم فيستولى عليها ؟ إن العبرية لا تعرف اليأس ، ولا يعرف اليأس طريقها ؛ وهى أخصب ما تكون أملا ، وأقوى عملا إذا ادلهمت الأزمات ، فإذا لم يكن الماء فى أيدي المسلمين ، وهم فى جانب ذلك قليل عددهم ، فليستمدوا من إيمانهم قوة ، ومن يقينهم عدة ، ومن أرواحهم أسلحة ، وليجالدوا على الماء عدوهم حتى ينتزعوه منه ، وهذا الذى قدره القائد هو الذى أملتة الحياة فى صحائف الواقع التاريخى المجيد .

وإذا كانت هذه الكلمة العظيمة على لسان بطل الإسلام خالد بن الوليد مفتاح العراق وباب فارس ، فقد كانت هى فى إطار آخر على لسان طارق بن زياد مفتاح الأندلس ؛ فهل كانت نوابغ خالد ومبادئه موضع دراسة القواد والأبطال بمن جاء بعده ؟ نعم ؛ فهذا ما نطمئن إليه ، أو هكذا تتلاقى أرواح العبريين فى ساحات الخلود .

كان هرمز القائد الفارسي أخبث رجل جاور العرب وأغدره ، حتى كان خبثه مثلاً تلاحق الهزائم  
شرودا فيما بين محافل العرب وقبائلهم ، فلما رأى جموع المسلمين أخذوا مصافهم للقتال ، بالفرس  
وقرأ في وجوههم صدق ما قال قائدهم : إنهم أحرص على الموت من عدوهم على الحياة ،  
وقرأ في وجوه أصحابه من العلوج دلائل الجبن والخور قرنهم بالسلاسل لئلا يفروا ؛  
ومن ثم سميت هذه الواقعة في كتب التاريخ واقعة « ذات السلاسل » . ثم دعا هرمز خالدا  
للمبارزة ، وأضمر له غدرة واطأ عليها أصحابه وعلوجه ، فمشى إليه خالد راجلا فاحتضنه ،  
وحمل العلوج على خالد تنفيذا لما اتفقوا عليه مع هرمزهم ، فلم يشغل ذلك خالداً عن  
شدة وطئه على هرمز ، وهنا تحققت فراسة أبي بكر الصديق في القعقاع بن عمرو حين  
أمدّ به وحده خالداً ، فقد حمل على أهل فارس حين رأهم يحملون على قائده خالد وهو  
مشغول بمبارزة قائد الفرس هرمز ، حتى كشفهم ومكن خالداً من قتل القائد الفارسي  
وبدأت هزيمة الفرس وركب المسلمون أكتافهم ، وأخذوهم قتلاً وأسرا وبعث خالد  
يبرسر أبا بكر بالفتح ، وبعث إليه بالخمس بعد أن قسم الغنائم على أهلها ، وأرسل فيما  
أرسل سلب الهرمزان ، وفيه قلنسوته المفصصة بالجواهر ، وكانت قيمتها مائة ألف ، لأن  
الهرمزان كان ممن تم شرفه في فارس . وكانت تلك سنتهم مع أمثاله ، فنفلها أبو بكر قائده  
خالداً رضي الله عنه .

كان الهرمزان قد كتب إلى ملكه أزد شير بخبر الجيوش الإسلامية قبل أن يتعجل  
لقاءهم بمن معه ، وكتب إليه يستمده ، فأمدّه بجيش يعدل في كثافة عدده جيشه تحت  
قيادة « قارن بن قرياقس » أحد شجعان الفرس وقرن الهرمزان في تمام الشرف عندهم .

ولما قتل الهرمزان وانهزم جيشه لا يلوى من نجا منه من القتل أو الأسر على شيء  
التقى فلهم بجيش قارن في مكان بين واسط والبصرة يقال له : « المذار » فتذامروا  
وقال بعضهم لبعض . إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبداً ، فاجتمعوا على تعبئة واحدة ،  
وبلغ خبر اجتماعهم قائد الإسلام خالد بن الوليد فنهض إلى لقاءهم على تعبئته التي لقي عليها  
جيش الهرمزان ، فافتتل الفريقان على حنق وحميظة ، وبرز « قارن » قائد الفرس يدعو  
للمبارزة ، فانهض إليه خالد ليورده ما أورد الهرمزان قبله ، ولكن بطالا آخر من أبطال  
المسلمين شرى نفسه وفدى قائده فكان أسرع إلى العليج يبارزه ، وذلك هو أبيض الركببان

واقعة  
« المذار »

معقل بن الأعشى ، ولم يكذبوا له حتى قضى عليه ، فولت جيوش فارس الأدبار ، وكان للمسيين فيهم مقتلة عظيمة ، يقدر بعض المؤرخين عدد القتلى منهم بثلاثين ألفاً سوى من غرق أو أغل في الحرب فلم يعثر له على أثر .

واقعة

« الوجلة »

كبر على الفرس تلاحق الهزائم التي حلت بجيوشهم ، وقتل أشجع أبطالهم على أيدي هؤلاء العرب الذين كانوا لا يجرؤون قبل اليوم على مواجهتهم ؛ فأرسلوا جيشاً كثيفاً العدو قوى العدد بقيادة بطل من أبطالهم يدعى : « الأندرزغر » ثم أمدوه بجيش عليه « بهمن جاذويه » واجتمع الجيشان بمكان يقال له « الوجلة » وأعجب قائد الفرس ما رأى من كثرة جنده وتمام أسلحتهم ، وبلغ خالد تجمعهم فنهض إليهم ، وخاف سويد بن مقرن ليحمي ظهره ، وقسم جيشه إلى ثلاث فرق ، سار على رأس فرقة منها الملاقاة العدو ، وجعل من فرقتين كمينا بقيادة بسر بن أبي رهم ، وسعيد بن مرة ، وهذه خطة حربية ماهرة ، تبين حذق خالد ودهاءه في إدارة دفة الوقائع وملاقاة الأعداء مهمات كثائف عددهم .

التقى الجمعان واستعرت نار الحرب بينهما ، وطال الأمر على الناس ، وعظم الخطب على الفريقين حتى نفذ الصبر منهما ، وإذا بالسكين الخالدي يهاجم العدو فيكتنهم من جوانبهم ، وخالد بفرقتهم يأخذهم من بين أيديهم ، حتى دارت عليهم الدائرة فولوا الأدبار منهزمين ، ومضى قائدهم « الأندرزغر » على وجهه من الرعب لا يلوى على شيء ، فمات عطشاً .

نهج خالد

في إثارة

الحماسة

ثم قام خالد رضي الله عنه في المسلمين خطيباً يرغبهم في فتح بلاد العجم فقال : « ألا ترون إلى الطعام كرفع (١) التراب ، وباللّٰه لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولم يكن إلا المعاش لسكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن أثاقل عما أتم عليه » .

هذه كلمة من كلمات القائد العبقرى جليلاً الخطر عظيمة الأثر تصور ما أوتي هذا البطل من حكمة سياسية وعرفان بحاجات النفوس ووسائل الدعوة إلى الجهاد والتزغيب

(١) رفع التراب : جاء في اللسان قوله : وجاء فلان بمال كرفع التراب في كثرته ، وتراب رفع وطعام رفع : ابن ، قال بعضهم : أصل الرفع الالين والسهولة .

في الفتح ، فهو يصور لجنده الحياة الناعمة ، والرفه الذي يتلقب فيه هؤلاء الأعداء ، ويلفت نظر المسلمين إلى ما هم فيه من يؤس الحياة والحرمان ؛ وهو تقديم بديع يقصد به إلى إعداد النفوس جميعها لاقتحام هذه الرغائب ، سواء في ذلك المؤمن الصادق والمؤمن الطموح في نعيم هذه الدنيا ، ثم يقف على ذلك بالإشارة إلى أن الجهاد لله واجب في سبيله لنشر دينه والدعوة إليه ، ثم هو لا ينسى جانب المغالبة في النفوس البشرية والتنافس في سعة العيش ، فيلفت نظر جنوده إلى من تخلف عنهم متثاقلا عن الجهاد وفوزهم دونه بهذا الخير العظيم .

كان جيش « الأندرزغر » قد جمع إلى جند فارس عرب الضاحية ، ومتنصرة بكر ووائل ، وقد أصيب هؤلاء ، بمثل ما أصيب أولئك من القتل والمزينة ، وكان فيمن قتل من نصارى العرب ابن لجابر بن بجير ، وابن لعبد الأسود العجلى ، وهما رأسان من رؤوس العرب المنتصرين الذين ارتضوا ظالمين أن يكونوا مع أهل فارس على بنى أبيهم فغضب لغضبهما من كان على شا كلهما من قومهما ، وكاتبوا الفرس أن يكونوا معهم يدا واحدة على المسلمين . وقاد هؤلاء العرب عبد الأسود العجلى ، وقاد الفرس « بهمن جاذويه » الذي أناب عنه قائدا آخر يقال له « جابان » ورجع « بهمن » إلى أزدشير يحدد به عهدا ويشاوره ، وقدم « جابان » بجند فارس على حلفائهم نصارى العرب فاجتمع عليه منهم نصارى عجل ، وتيم اللات ، وضبيعة ، وعرب الضاحية من أهل الحيرة .

بلغ خالداً أمر تجمع هؤلاء العرب فنهض إليهم على غير علم منه بقدم « جابان » غرور فارسي وجنده من أهل فارس . وقد كانوا عسكروا بمكان يقال له « أليس » فلما طلع عليهم أجوف خالداً بجيوشه التي كان أعدها للملاقاة متنصرة العرب من حلفاء فارس ومحبيها ، استقلها أهل فارس وطعموا فيها بغير قتال ، فقالوا للقائدهم والغرور يملأ جوانبهم الجوفاء . أنعاجلهم أم تغدى الناس ؛ ولا نريهم أنا نحفل بهم ، ثم تقاتلهم بعد الفراغ ؟ وهذا كلام لا يخرج من قلب يؤمن بالقوى المعنوية في نماذج الإنسانية الحية ، وإنما هو كلام السكرة المغتررة التي لا تعلم أن كل رجل في جند الإسلام جيش ، فقال قائد الفرس وهو يكظم غيظه ، وقد جاءته البوادر لطلائع الفشل « إن تركوكم والتهاون بهم قتهاونوا ، ولكن ظنى أن سيعجلونكم ويعاجلونكم عن الطعام » فمضوا وبسطوا البسط ووضعوا الأمطمة وتداءعوا إليها فوافوها ؛ وإذا عصى الجند قائدهم فذلك بدء الهزيمة الساحقة .

أمر خالد بالنزول في وجه الجيش الفارسي ، ثم توجه إليهم وطلب مبارزة قائد العرب المنضمين إلى فارس في حرب الإسلام ، فنادى باسم عبد الأسود العجلى ، ومالك ابن قيس ، وابن أبجر ، فبرز إليه مالك فقال له خالد : يا ابن الحبيشة ماجرأك على من بينهم ، وليس فيك وفاء ؟ وأهوى إليه بضربة كانت فيها نفسه ، ثم كر على أهل فارس فأعجلهم عن طعامهم ، فلم ينالوا منه شيئا ، فقال قائدهم «جايان» يعتب عليهم مخالفتهم له ويذكرهم بمقاتله الناصحة ، ويريه عصيانهم واغترارهم ، ألم أقل لكم يا قوم ؟ أما والله ما دخلني من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم ، فقالوا له متجلدين : ندع الطعام حتى نفرغ منهم ونعود إليه ؟ وهذا إمعان في الغرور بالكثرة العددية التي كانت للفرس بما لا يصح أن يعقد معه نسبة في التكافؤ العددي بين الجيشين المتحاربين .

ولما رأى قائد الفرس ما هم سادرون فيه من غرور وفشل دعاهم إلى مكيدة يلقون المسلمين إليها فأبوها عليه ، قال لهم : سمو الطعام ، فإن كانت لكم فأهون هالك وإن كانت لهم هلكوا بأكله فعصوه مرة أخرى ، ولم يفعلوا ما أمرهم به والتحم الجيشان واقتتلوا قتالا شديدا ، وزاد في كلب أهل فارس على القتال ما كانوا يرتقبونه من قدوم قائدهم «بهمن» على مدد لهم ، وارتفعت روح المسلمين في القتال وشروا أنفسهم لله تعالى ، واشتد حنقهم على الفرس وحلفائهم من متنصرة العرب حتى نذر خالد رضى الله عنه أن يجرى نهرهم ندمائهم ، فقال : اللهم إن لك على إن منعحتنا أكتافهم أن لا أستبقى منهم أحدا قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم .

وحاقت بهم الهزيمة فولوا الأدبار وتبعهم المسلمون يأخذونهم ، فأرسل خالد من ينادى بالناس : الأسر ، الأسر فجاءت بهم الخيل إليه تسوقهم سوقا ، وأمر بضرب أعناقهم حتى غلبت دماؤهم ماء النهر ، فسمى يومئذ نهر الدم .

وكانت هذه الموقعة أشد مالتى خالد بن الوليد في قتال الفرس ، وفي ذلك يقول :  
« وما لقيت من أهل فارس قوما كأهل أليس » .

وقسم خالد العنائم بين الجنود وعزل الخمس فأرسل به للإمام ، ونقل الجند الطعام الذي كان أهل فارس أعدوه قبل المعركة لأنفسهم فأعجلهم خالد عنه فلم يهنشوا به ، فلما جلس إليه المسلمون - وكان فيهم أعراب حديثو عهد بالترف ورقيق العيش - ورأوا

ما فيه من الرقاق ، قال بعضهم من التعجب : ما هذه الرقاق البيض ؟ فقل له : هل سمعت برقيق العيش ؟ هو هذا . فسموه الرقاق .

اتهى خالد إلى هذا النصر المبين في هذه المواقع ، فلم يشأ أن يقف بنشوة الظفر التي تمثل بها جنده عند هذا الحد ، بل اندفع بجيوشه إلى الأمام حتى بلغ « أمغيشيا » وهي مصر كالخيرة ، وكانت « أليس » من مسالحها نفشى خالد أن يكون للفرس وحلفائهم من متنصرة العرب جموع بها ، فأراد بتقديمه هذا القضاء على مظان المقاومة ، ولم يكذباً بجيوشه أمغيشيا حتى جلا أهلها عنها وتفرقوا في السواد وتركوا كل شيء من الأموال والأثاث وعتاد الحرب ، فعظمت غنيمة المسلمين حتى بلغ سهم الفارس خمسمائة وألف درهم سوى الأنفال .

وأرسل خالد بالبشرى والخمس إلى أبي بكر الصديق ، ففرح الصديق بنصر الله للمؤمنين فرحاً شديداً ، وخطب الناس مشيداً بفضل خالد وعبقريته الحربية فقال « يامعشر قريش ! عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله (١) ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد » ؟ وهذا القول من أبي بكر — وكان أعظم بالرجال — أعظم شهادة ، وأجل تقدير يناله رجل في تاريخ الإسلام ، فالصديق وهو خليفة المسلمين الأعظم لا يرى لخالد رضى الله عنه في الناس عدلاً في عبقريته وشجاعته ، ولا نظيراً في بطولته ومهارته ، وحسبك بها لخالد من الصديق .

\* \* \*

لم يكن سيف الله خالد بن الوليد يفرغ من نصريته بجهامات المسلمين إلا ليستقبله فتح الحيرة نصر أعظم وأروع ، ولم يكن الفرس يفتقون من غمرة هزيمة منكرة إلا ليسرعوا أمام البطل المظفر إلى هزيمة أنكار وأوجع .

ها هي ذه أخبار الانتصارات الإسلامية المتوالية تتراعى إلى مرزبان « الحيرة » عاصمة الفرس في العراق ، وقد أصبحت الجيوش الإسلامية منه على قيد وثبة خالدية ، فتيهاً ويستعد ما وسعه التهيؤ والاستعداد ، ولكن ماقيمة جسم مهما وطال واستعرض

وهو خلى من الروح ؟ كذلك كان شأن هؤلاء الفرس في عديدهم وعددهم .

حيلة ومكيدة حمل خالد الرجالة والأثقال في السفن ، وسيرها في نهر الفرات ، وخرج يقود الحيل ، وكان المرزبان قد خرج بجيوشه حتى عسكر خارج الحيرة ، وأمر ابنه أن يتقدم فيسد الفرات ليفجر الماء إلى الأنهار المتفرعة من الفرات حتى تقف السفن التي تحمل جيوش المسلمين ، وقد تمت هذه الخديعة وجنحت السفن بمن فوقها من الجند وما عليها من الثقل والعتاد ، وبقيت على الأرض فارتاع المسلمون ، وأدرك الملاحون بعد فوات الفرصة ، وقالوا إن أهل فارس فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ، فلا يأتيها إلا بسد الأنهار ، فما عسى المسلمون أن يصنعوا في هذه المفاجأة التي لم يكن لهم بمثلها عهد ؟

عزلة خالدية لفتة من لفتات العبقرية الخالدية ، ووثبة من وثبات سيف الله كفييلة بتفريغ هذه الأزمة السانحة ، فخالد رضي الله عنه سواء العبقرية في البديهة ، فلم يترك الفرصة تفلت من يده ، ولم يطل على المسلمين التفكير ، ولكنه سرع ما انفلت في كتيبة من الحيل نحو ابن المرزبان الذي سد النهر ففجر الماء فيلقى خيلا من خيل الفرس تنط في نوم الغرور والأمان ، لأنه لم يكن ليدور في خلدكم أن قائد المسلمين يشب عليهم في هذه الساعة ، ولم تكن إلا جولة حتى قضى عليهم قبل الأخبار والبرد فلقى ابن المرزبان مع جيشه على قم « فرات باد قلى » فالتحم الفريقان في قتال مرير انجلى عن انفراط عقد الفرس في هزيمة أتت على آخر رجل فيهم ، وفجر المسلمون الماء وسدوا الأنهار الشارعة في الفرات ، فارتفعت السفن بأحمالها وسارت باسم الله بحريها ومرساها ميممة الحيرة وسار إليها خالد بمن معه من فرسان المسلمين حتى نزل منزلا بين الخورنق والنجف .

وكان المرزبان قد بلغه ما نزل بابنه وجيشه من القتل والهزيمة المفنية ، فخارت قواه ، وضعفت عزيمته ، ولم يقو على لقاء جيوش الإسلام الظافرة ، فأطلق لنفسه عنان الهرب من غير مقاومة أو قتال ، وذهب لا يلوى على شيء مفزعا مرعوبا ، وزاد في فزع ورعبه ما أتت به إليه الأنباء من موت أزدشير ملك فارس ، واختلاف أهل مملكته فيمن يولونه عليهم مكانه .

محاصرة تحصن أهل الحيرة في قصورهم ، وأقيم خالد خيله في طرقاتها ، وأجالها في عرصاتهما ، قصور الحيرة ثم أمر بضرب الحصار عليهم ، وأمر بكل قصر قائدا من قواده على رأس كتيبة من جند



الإسلام ، فكان ضرار بن الأزور محاصرا القصر الأبيض ، وفيه إياس بن قبيصة الطائي ، وكان ضرار بن الخطاب على قصر العدسين ، وفيه عدى بن عدى قتيل المنذر بن ماء السماء ، وكان ضرار بن مقرن المزني يحاصر قصر بني مازن ، وفيه جيري بن أكال ، وكان المثني بن حارثة الشيباني محاصرا قصر ابن ببيعة ، وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وعهد خالد إلى قواده أن يبدؤا أهل القصور بالدعوة إلى الإسلام ، فإن أجابوا قبلوا منهم ، وإن أبوا أجلوهم يوما واحدا ، وقال لهم : لا تمكنوا عدوكم من آذنكم فيتربصوا بكم الدوائر ، ولكن ، ناجزوهم ، ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم .

وكان أول قائد أنشب القتال بعد الأجل المضروب ضرار بن الأزور ، ودعا أهل القصر الأبيض إلى إحدى ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو المنابذة ، فاختاروا المنابذة ، ورشقوا المسلمين بالنبل ، فماتلهم المسلمون واقتحموا عليهم الدور والأدياروا كثروا فيهم القتل ، فصاح أهل الأديار من القسيسين والرهبان : يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم ! فنادى أهل القصور يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فكفوا عنا حتى تبلغونا خالدا .

فأرسلوا إليه ، فكان يخلو بأهل كل قصر منهم ، وبدأ بأصحاب عدى بن عدى براءة في  
المفاوضة فقال لهم : ويحكم ؟ ما أتم ؟ أعرب ؟ فما تنعمون من العرب ؟ أو عجم ؟ فما تنعمون من الإنصاف والعدل ؟ فقال عدى : بل نحن عرب عاربة ، وأخرى متعربة ، فقال خالد : لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتسكروها أمرنا ، فقال عدى : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية .

قال خالد : اختاروا واحدة من ثلاث ، أن تدخلوا في ديننا فلكم مالنا ، وعليكم ما عاينا إن نهضتم وهاجرتم أو قتم في دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة .

فقال عدى : بل نعطيك الجزية ؛ فقال خالد تبالسكم ، ويحكم إن الكفر فلاة مغللة ، فأحرق العرب من سلسكها ، فلقية دليان أحدهما عربي فتركه واستدل الأعجمي . فصالحوه على تسعين ومائتي ألف ، وأهدوا له الهدايا فأرسلها مع البشري بالفتح إلى أبي بكر الصديق ، فقبلها أبو بكر على أن تكون من الجزية ، وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزى ، وخذ بقية ما عليهم فقوم به أصحابك .

هنا يحتمل بنا أن نقف قليلا إلى جانب هذه المفاوضة بين بطل الإسلام خالد بن الوليد، ومتكلم أهل الخيرة عدى بن عدى ؛ فسنجد فيها من دلائل العبقرية الخالدية وآيات العدل الإسلامى ما يرشدنا إلى كثير من عوامل تيسير فتح هذه الممالك الضخمة على المسلمين فى زمن وجيز ، مع قلة العدد والأهبة الحربية بالقياس إلى عدد أعدائهم وأهبتهم .

يدور كثير من الباحثين فى تاريخ الإسلام حول أمور توهموها عوامل للفتح الإسلامى ؛ وكثير منها لا يستقيم مع طبائع الأشياء والواقع ، وإنما يندفع هؤلاء الباحثون إلى ذلك لأنهم يابون أن يفهموا ، أو يعتاص عليهم أن يفهموا حقيقة الإسلام وشأنه بالقوى الكامنة فى ضمير الإنسانية ، هذا الضمير الذى يعتمد عليه الإسلام فى تحريك المشاعر ولأحاسيس لترتفع عن حضيض مطالب الجسم الدنيا من الخبز والماء إلى آفاق غير محدودة فى أرجاء هذا الكون العظيم الذى يقول عنه الإسلام فى كتابه الكريم فى معرض الامتنان « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » . فالكون فى نظر الإسلام مخلوق للإنسان ، وإنه شركة بين جميع الناس ، فلا سلطان لفرد أو جماعة أو جيل عليه إلا بمقدار ما فى أيديهم من مفاتيح خزائن السموات والأرض . هذا الفهم لحقيقة الإسلام هو الذى حرر العقول والأجسام ودفعها إلى تحطيم الأغلال الفكرية والجسمية ، وأقبلت عليه إقبال الظمآن على الماء .

وفى الحق إن شأن الفتح الإسلامى معجزة من معجزات الإسلام ، لأن عواملها كلها نبعت من صميم الإسلام كدين وشريعة ودولة ، وانفجرت عنها طبيعته فى نماذج الدين دعوا إليه ، ونقلوه إلى الناس ونقلوا الناس إليه ، وهونق المعدن صا فى الأديم قبل أن تشوه آدابه وتعالجه تلك الفلسفات الكافرة الغربية عن طبيعته ، وقبل أن تفسد نظم الحكم الفاسقة عن جادته نظام دولته وطرائق الحكم فى شريعته .

تحليل براءة  
خالدية

ولقد كان خالد بن الوليد فى خلافة الصديق مثالا من مثل النماذج العليا فى الدعوة إلى الإسلام ؛ والقارىء المتأمل فى حديث هذه المفاوضة بين خالد وأهل الخيرة ، وما انتهت إليه ، يحس أول كل شئ تلك السياسة الحاذقة التى ساس بها قائد الإسلام الموقف فى بدء لقاء وفود القوم بعد إحكام الحصار عليهم ، فهو لا يلتصقهم جميعا لقاء المنتصر المعتز

بالنصر ، ولكنه يلقي أهل كل قصر وحدهم ، ويرمى أول وفودهم إليه بهذا السهم النافذ إلى حميتهم العنصرية ليوقظ فيهم روح الكرامة والاعتداد من أقرب طريق ، ويشير نفوسهم ضد هذا الاستعباد الفارسي المضروب عليهم ، فقال لمتحدثهم كالحجبه لهم : ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون منا ، ونحن إخوانكم في العروبة ، يجمعنا وإياكم روابط الدم واللسان ، والوطن ووشائج الحياة ، فنحن أحق بكم وبالوحدة معكم من هؤلاء الفرس الذين يدفعون في ظهوركم لثقلوا المنايا على أيدي إخوانكم ؛ وإن كنتم غير عرب ، فما تقومون منا وقد جئناكم ناشرين رايات العدل والإخاء الإنساني ، لا نريد استعباد أحد ولا استعمار بلد ؛ وإنا نبغى إنقاذكم من هذا الاستبداد بكم ، والظلم الذي أهدر إنسانيتكم ونريد إشعاركم بالعدالة الاجتماعية التي هي حق من حقوقكم الطبيعية . فإن دخلتم معنا في ديننا فأنتم إخواننا ، ونحن وأنتم على سواء ؛ لكم من الحقوق في حرية العيش والتمتع بشهرات الحياة مثل مالنا ، وعليكم من الواجبات نحو خالقكم ونحو إخوانكم في الأسرة الإنسانية عامة مثل ما علينا ، فلا سيد ولا مسود ، ولكنه إخاء لا يفضل فيه الأخ أخاه إلا بفضل عقله وعلمه وعمله . لا نهيجكم عن مقامكم فنطلب إليكم الهجرة من بلادكم ، ولا نتحكم فيكم فنحكم عليكم الإقامة في دياركم ، وإن أبيتكم إلا العكوف على دينكم ونحالكم مع السلم والأمان . فلكم علينا حق حمايتكم ، والدود عنكم ، كما نحمل دمارنا ونذود عن أنفسنا ، ذلك الحق هو جزية تؤخذ منكم على قدر سعتكم وطاقتكم ، ما استطعنا إلى حمايتكم آمنين سبيلا ، فإن عجزنا عن أداء حقوقكم فيما عقدناه لكم فلا جزية لنا عليكم وأمركم مردود عليكم .

هذا منتهى ما يطلب من أمة تريد السلام قائما على رعاية قواعد الحق والعدل والرحمة ، وليس بعد ذلك إلا السيف في غير هواة ، وهنا يبرز خالد القائد الحربي ليقذف بهذه الرمية المصمية حتى لا يترك لمعارضيه مجالا في خديعة ، أو أملا في نجاة إذا اختاروا أنفسهم « فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » فهل وراء هذا لون من ألوان الحكمة السياسية يمكن أن يقال إنه فات خالد الداعي إلى الإسلام ، والقائد البطل الذي يدير دفعة حرب لا هواة فيها ؟

رضى القوم لأنفسهم بالجزية فلم يتهلل لها وجه القائد العظيم ، وهذه أيضاً فريدة من خصائص النماذج الإنسانية الفاضلة التي صنعها الإسلام في مهاده الأولى ، لأن المسلمين الأولين لم يكونوا في انسياحهم في الأرض يبعثون الدنيا وزينتها ، فهم أبناء الشظف والزهادة ، ولكنهم كانوا يبعثون تخلص البشرية من أغلال الشرك البليد ، وتطهيرها من أوضار الوثنية الوضعية ، وتحريرها من رق العبودية للأباطرة والملوك والحكام ، ونشر المساواة والعدل بين أبناء البشر ، وتمكين كل فرد أو جماعة من صرف طاقته في الحياة ليكون جزاؤه وامتيازه على قدر هذه الطاقة التي هيأه لها استعداداه ، فكان دخول الأمم في دين الإسلام أحب إليهم وأرضى لأنفسهم .

ذلك ما أوحى لخالد رضى الله عنه كلمته الأخيرة التي ألماها إلى قلب عدى بن عدى متحدث أهل الحيرة في أسف بالغ وإشفاق شديد على ما فوتوه على أنفسهم من خير وهداية قدما إليهم على أيدي إخوانهم وبنى أبيهم من العرب المسلمين .

وليتأمل القارئ في صنيع خليفة المسلمين أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد بعث له قائد جيوشه ببشرى الفتح وأخماس الغنائم ومعها هدايا المغلوبين ، فلم يرض الخليفة الراشد قبول هذه الهدايا تحت هذا العنوان من قوم مقهورين مغلوبين ، ولكنه رضىها حقاً واجباً فيما عاهدوا عليه قائده العظيم ، فكتب إليه : أن احسب لهم هديتهم من جزيتهم .

عدل فوق  
الرحمة

فهل يتصور المتشددون - بما لعقوه من عصير فتات منتن من مخلفات الموائد الأجنبية في الشرق والغرب ، فنقلوها إلى هذا الشرق الإسلامي الأسيف في قوالب براقية ، وألفاظ خلافة من « ديمقراطية » و « اشتراكية » في هذا العصر المضطرب ، وهم ينشدون العدل والأمن والسلام - عدلاً فوق عدل المسلمين الأولين الذين كانوا نماذج حية لروح هذا الدين القويم ؟ !

ليت قادة العالم وزعماء الدول الكبرى يقرؤون دستور الإسلام في القرآن الكريم ، وسيرة رسوله الأمين ، وتاريخ رجالاته الأولين ليعلموا - إن كانوا صادقين - على أى أساس يجب أن يقوم العدل الاجتماعى في الأرض . وعلى أى أساس يتحقق الإخاء والتعاون بين الأمم ؟ !

صالح خالك رضى الله عنه أهل الحيرة وكتب لهم عهداً سجل مبادئ الإسلام  
 في تحديد العلاقة بين الغالب والمغلوب ، والقوى والضعيف ، فقال : « هذا ما عاهد  
 عليه خالك بن الوليد عديا ، وعمر بن عدي ، وعمر بن عبد المسيح ، وأياس بن قبيصة ،  
 وجيرى بن أكال ، وهم تقباء أهل الحيرة ، ورضى بذلك أهل الحيرة ، وأمروهم به ،  
 عاهدهم على تسعين ومائتي ألف درهم ، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم  
 وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حببسا عن الدنيا ، تاركاً لها ، وعلى المنعة ، فإن  
 لم تمنعهم فلا شئ عليهم حتى تمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالدممة منهم بريئة » .

نود للقارىء أن يشرح طرفه في كتاب خالك مرة ومرة ومرات فإنه سيزداد اقتناعاً  
 بما تحدثنا عنه من سمو المبادئ الإسلامية وارتفاع القائمين على تنفيذها في عهود العزة  
 الإسلامية عن سطحية العنصرية أو القومية الضيقة إلى آفاق العدالة الإنسانية العامة .

وليتأمل في قوله : إلا من كان منهم على غير ذى يد ، حببسا عن الدنيا « وفي  
 قوله : « وعلى المنعة فإن لم تمنعهم فلا شئ عليهم حتى تمنعهم » ليدرك عدالة الإسلام  
 والمسلمين في أخذ الجزية ممن رضى بها .

كان فتح الحيرة عملاً حريياً عظيم القيمة ، وسع أمل المسلمين في فتح بلاد باب فارس ،  
 لمكان هذا البلد الجغرافى والأدبى من العراق والمملكة الفارسية ، فقد اتخذها أمير  
 المسلمين خالك بن الوليد مقراً لقيادته العليا ومركزاً رئيسياً تتلقى منه جيوش الإسلام  
 أوامر الهجوم والدفاع والإمداد والنظم ، وكذلك جعلها قاعدة عامة للتدبير والسياسة  
 التى يقوم عليها تنظيم ما وقع في يد المسلمين .

بث خالك عماله على الولايات لجباية الخراج والجزاء ، ووجه أمراءه إلى الثغور  
 لحمايتها ، وأقام هو ريثاً يتم ما أراد من الاستقرار والنظام ، وكرامت أخباره إلى الدهاقين .  
 والرؤساء فأقبلوا إليه يصالحونه حتى لم يبق ما بين قرى سواد العراق إلى أطرافه من  
 ليس مولى للمسلمين أو على عهد منهم .

وقد كان لهذا الفتح إلى جانب ذلك أثره البالغ في أنفـس العرب المغلوبين مع حمايتهم من أهل فارس ، فأوهن عزائمهم ، وفلـ شـكـيـمـتـهم ، وخضد شوكتهم ، وبخـعـهم أسفا ونحسرا ، فسجلوا ذلك في أشعار كثيرة رواها الثقة من المؤرخين ؛ ولهذا الأشعار قيمة أدبية وتاريخية عظيمة في تاريخ الأدب في هذا الجانب من وطن الأمة العربية ، كان عند كثير من الباحثين في الأدب العربي وتاريخه مظنة تشكيك في صلاته القومية واللغوية بالأمة العربية ، فمن ذلك قول ابن بـقـيـلة :

أبعد المنذرين أرى سواما	تروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرمي	قلوصا بين مرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبي قبيس	كجرب <sup>(١)</sup> المعز في اليوم المطير
تقسمنا القبائل من معد	علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا حريم	فنحن كضرة الضرع الفخور
نؤدى الخرج بعد خراج كسرى	وخرج من قريظة والنضير
كذلك الدهر دولته سجال	فيوم من مساءة أو سرور

وكذلك كان لهذا الفتح شأنه العظيم في نفوس المسلمين ، فقوى عزائمهم وشده أزرهم ، وأطمعهم في عامة دولة الفرس ، وتغنوا بفخـره في أشعارهم ، فمن ذلك قول فارس الأبطال القعقاع بن عمرو :

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة	وأخرى بأثباج <sup>(٢)</sup> النجاف الكوانف
فنهجن وطئنا بالكواظم هرمزا	وبالثنى قرنى قارن <sup>(٣)</sup> بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت	على الحيرة الروحاء إحدى المصارف
حططناهم منها وقد كاد عرشهم	يميل به فعل الجبان المخالف
رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا	غبوق المنايا حول تلك المعارف
صبيحة قالوا : نحن قوم تنزلوا	إلى الريف من أرض العريب المقائف <sup>(٤)</sup>

(١) الجماعة . (٢) اسم مكان . (٣) اسم موضع . (٤) هو من قولهم أرض قنفة : متشعبة

ويذكر المؤرخون أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر المسلمين بهذا الفتح ، فسأله رجل أن تكون له كرامة بنت عبد المسيح أحد سادات الحيرة ، فقال له : هي لك إذا فتحت عنوة ، فلما تم لخالد فتح الحيرة ، ونزل أهلها على حكمه جاءه صاحب الوعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم - وسماه الطبرى « شويلا » وسماه ابن الأثير « خريم بن أوس » وسمى المرأة الشفاء بنت نفيل - يستنجز خالد أ الوفاء بذلك الوعد وشهد له جماعة بأن ذلك قد كان ، فجعل خالد في شروطه على أهل الحيرة تسليم هذه المرأة ، فشق ذلك على قومها ، وخاطروا الرجل ، فأعظموا له الخطر ، فقالت لقومها : لا تخطروه ، ولكن اصبروا ؛ ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ؟ ! فإنما هذا رجل أحق ؛ رآنى فى شبى فظن أن الشباب يدوم ، فدفعوها إلى خالد ، فدفعها خالد إلى الرجل ، فلما كانت فى يده قالت له . ما أربك إلى عجوز كما ترى ؟ ! فاذنى ؛ قال : لا ؛ إلا على حكمى ؛ قالت ، وكأنها أنست منه السذاجة والغفلة : فلك حكمك مرسلا ؛ فقال : لست لأمر شويل ، إن نقصتك من ألف درهم ، فاستكثرت ذلك لتخذه ، ثم أتته بها ، فأرسلها ورجعت إلى أهلها ، وتسامع الناس بذلك فلاموه ؛ فقال : ما كنت أدرى أن عدداً يزيد على ألف ، فقال خالد : أردت أمرا وأراد الله غيره ؛ نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك . وفى هذه القصة تتمثل عدالة الإسلام فى قضاء خالد رضى الله عنه .

وهذه المرأة - على رواية الطبرى - هى أخت عمرو عبد بن المسيح أحد نفر الدين عاقدهم خالد عن أهل الحيرة ، ويذكر المؤرخون أن عمرا هذا من الدهاة المعمرين ، ويروون له أعاجيب ، ويحكى الطبرى أحداثا عجيبة جرت بينه وبين خالد بن الوليد ، فقد سأله خالد لما رأى شيخوخته الفانية ، ورجوع قومه إليه فى الورد والصدر ، قال له خالد : كم أتت عليك ؟ قال مؤسنين ؛ قال : فما أعجب ما رأيت ؟ ! قال : رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة ، تخرج المرأة من الحيرة ، فلا تزود إلا رغيفا ؛ فتبسم خالد ، وقال هل لك من شيخك لإعقله ؛ خرفت والله يا عمرو ، ثم أقبل خالد على أهل الحيرة . فقال ألم يبلغنى أنكم خبثت ، خدعة مكررة ، فلما لكم تتناولون حوائجكم بخرف لا يدرى من أين جاء ؛ فتجاهل له عمرو وأحب أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله ، ويستدل به على صحة ما حدثه به ، فقال : وحقك أيها الأمير إنى لأعرف من أين جئت ،

أقصوصة  
أخرى



قال : فمن أين جئت ؟ قال : من بطن أمي ؛ قال : فأين تريد ؟ قال : أمامي ، قال : وما هو ؟ قال : الآخرة ؛ قال : فمن أين أقصى أترك ؟ قال : من صلب أبي ؛ قال : ففهم أنت ؟ قال في ثيابي ؛ قال أتعقل ؟ قال : أي والله وأقيد ؛ فوجده حين فره (١) عضاء ، وكان أهل قريته أعلم به ، فقال خالد : قتلت أرض جاهلها ، وقتل أرضا عالمها ، والقوم أعلم بما فيهم ، فقال عمرو : أيها الأمير ؛ النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة .

ومهما يكن أمر هذه القصة فهي لون من الحديث الذي يصور لنا خالداً في نظر راسمي شخصيته من القدامى ، شخصية مستقصية مفيدة من تجارب غيرها ، ولكنها لا تؤمن إلا بما تعقل .

غزو فارس  
في عقردارهم  
أجمع خالد أمره على منازلة الفرس في ساحات ملكهم بعد أن صفاه له الجو في العراق ، وأمن ظهره بانحسار أمر فارس عن العرب فيما بين الحيرة ودجلة ، وكان أهل فارس في هذه الفترة على خلاف شديد فيمن يولونه عليهم بعد موت كسراهم أزدشير ، فانهز خالد هذه الفرصة وكتب إلى خاصتهم يقول : « من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس : أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك كان شرا لكم ، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ، ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب ، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وكتب إلى عامتهم فقال : « من خالد بن الوليد إلى مرازمة أهل فارس : الحمد لله الذي ففس خدمتكم ، وفرق جمعكم ، وأوهن بأسكم ، وسلب أموالكم ، وأزال عزكم ، فإذا أتاكم كتابي فأسلموا تساموا ، أو اعتقدوا منا الدمة . وأجيبوا إلى الجزية ، وإلا والله الذي لا إله إلا هو لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ؛ ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا » .

تيمنى خالد  
بالفأل  
ثم دعا خالد برجلين أحدهما عربي حيرى ، والآخر نبطى ، فقال للعربي ما اسمك ؟ قال : مرة ، قال : خذ الكتاب وأت به أهل فارس اعل الله أن يمر عليهم عيشهم ، أو يسلموا وينيبوا ؛ ثم قال للنبطى ما اسمك ؟ قال : هز قيل ، فقال : اللهم أزهد نفوسهم .

(١) فره : اختبره ، عضاء : داهية .

وقد كانت محبة الفأل الحسن من أخلاق النبوة ، ومن نورها يقتبس خالد ، وإخوانه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون ذلك في خالد على سنن سلامة الفطرة والتطلع إلى معرفة الغيب ، وهذا خلق يشبه أن يكون نحيمة في نوابع العبقرين ، وهم غير مختارين فيه ، فأخذه عليهم على أنه جانب من جوانب الضعف في شخصية العبقرى غفلة عن حقيقة الطبيعة البشرية ، وإغراق في تقديرها تقديراً يجاوز بها حدودها المرسومة لها في الحياة .

أرسل خالد رسوله بالكتابين ، ونهض على تعبثته لغيث عباس بن غنم ، وجعل مقدمته الأقرع بن حابس ، وخلف على الحيرة فارس الأبطال الفعقاع بن عمرو ، وسار بالجيش حتى بلغ الأنبار ، فوجد أهلها قد تحصنوا وخندقوا على أنفسهم ، ثم نظر خالد إلى أعدائه بعد أن طاف بالخندق ، وعرف مآتية ، وثغرات الضعف فيه ، فرأى قوما من ألفاف العرب ولغائف النبط . يتغشاهم الفشل . ويتمسكهم الخور والانحلال ، وكان خالد إذا رأى الحرب لم يصبر عنها ، فأنشبت القتال وتقدم إلى الرماة من جند الإسلام فقال لهم : « إني أرى أقواما لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ، ولا توخوا غيرها » فاستجابوا لأمره ، ورموا رشقا واحداً ثم تابعوا فنفق لأهل الأنبار ألف عين يومئذ ، فتصايحوا : ذهبت عيون أهل الأنبار .

هذا لون من ألوان الحرب الخاطفة التي يقصد إليها تقصيراً لأمد القتال ، وتجاوياً عن سفك الدماء ما أمكن ذلك ؛ وإرهاقاً للعدو حتى يكون في ذلك تشريد لمن خلفهم بالرعب والفرع ، وإلى هذا النحو قصد خالد من هذه الخطة التي وضعها للهجوم في أول مرحلته . فنجح وتحققت فراسته ، فلم يكذب زعيم الفرس وقائدهم «شير زاذ» يسمع تصايح أصحابه حتى أوفد إلى خالد يطلب منه الصلح ، ولكنه عرض ما لم يرضه خالد من الشروط ، فرد عليه وفده خائباً ، وألقى إلى السيف زمام الأمر يقوده إلى نهايته بحده ؛ وكان خالد قد استبطن سر خنادقهم ، ونوافذ حصونهم ، فأتى إلى أضيق مكان ورمى فيه بكل ضعيف من الإبل بعد نحره ، ثم عبر عليها ليلقي عدوه في مضاربه وراء الخنادق والحصون ، وعندئذ رأى قائد الفرس «شير زاذ» من قائد الإسلام وجنده الجدد الذي لا يقوم له هذا الخليط من شذاذ الحميين من العرب وشراد ساداتهم من أهل فارس المجمعين ( م ١٤ — خالد ابن الوليد )

سياسة  
ماهرة

لغير غاية ، فأرسل « شير زاذ » إلى خالد ، وبذل له ما أراد من شروط الصلح على أن يبلغه مأمنه ، فلما أتى « شير زاذ » صاحبه وقرنه « بهمن جاذويه » وأخبره الخبر لأمه على فراره وتسليمه ، فقال معتذراً : « إني كنت في قوم ليست لهم عقول ، وأصلهم من العرب فسمعتهم مقدّمهم علينا يقضون على أنفسهم<sup>(١)</sup> . وقاما قضى قوم على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم ، ثم قاتلهم الجند ففقتلوا فيهم وفي أهل الأرض ألف عين ، فعرفت أن المسألة أسلم » .

أمن أهل الأنبار في ظل الصلح مع المسلمين ، ورأى خالد فيما رأى منهم أنهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فراقه منهم ذلك ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا ، فقال : ممن تعلمتم الكتابة ؟ فقالوا : من إياد ، وأنشدوه لشاعرهم :

قوى إياد لو أنهم أمم<sup>(٢)</sup>      أو لو أقاموا فتزل النعم  
قوم لهم باحة المراق إذا      ساروا جميعا والخط والقلم

\*\*\*

واقعة      تجمع بقايا العرب المواليين للفرس من قبائل تغلب ، والنمر ، وإياد ، ومن انضم إليهم « عين النمر » قريبا من « الأنبار » بعد أن خلصت للمسلمين ، وجعلوا منها قاعدة فرعية لمعسكر المسلمين ، بمكان يقال له : « عين النمر » وكان به « مهران بن بهرام » في جموع من العجم . وعلى العرب يومئذ « عقة بن أبي عقة » فلما بلغ أمرهم خالد استخلف على الأنبار « الزبرقان بن بدر » وسار إليهم في جموع المسلمين حتى كان قريبا منهم ، فانبرى « عقة » مأخوذاً بعزة الجاهلية وحميتها ، وقال لقائد الفرس ابن بهرام : إن العرب أعلم بقتال العرب . فدعنا وخالد ؛ فاهتبلها الفارسي ، وأجاب عقة في خبث ودهاء إلى ما أراد ، وقال له : صدقت لعمرى ، لأنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم لثلثنا في قتال العجم ، فدوونكموهم ، وإن احتججتم إلينا أعناكم . فجازت خديعة الفارسي على عقة وقومه ، فجعلوهم في وجه خالد واتقوا بهم عزائم المسلمين ؛ وكان الفرس لا يرون للعرب قدراً يبلغ بهم أن يكونوا

(١) معنى هذه الجملة : إنهم يتحدثون فيما بينهم بقوة عدوهم وضدّهم عند لقائه .

(٢) أمم : جميع :

«وإياهم على سواء ، لذلك عز على عامة الفرس في جيش ابن بهرام صنيع قائدهم مع الزعيم العربي « عقة بن أبي عقة » فقالوا له : ما حملك على أن تقول لهذا « السكب » هذا القول ؟ فقال : دعوني ، فإنني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم ؛ إنه قد جاءكم من قتل ملوككم ، وفل حدكم فاتقيته بهم ، فإن كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت الأخرى لم يبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوىاء وهم مضعفون .

بيد أن الأمر انتهى على غير ما قدر قائد الفرس في غدره البيت بحلفائه من العرب نخالد بن الوليد لا ينال من شجاعته تهور «عقة» وحمقه في تشاجعه ، ولا من وقدة ذهنه وومضات عقله مكر ابن بهرام وختله ، فقد ضرب خالد « عقة » ضربة طار لها قلب صاحبه الفارسي من ورائه ، فلم تحمله ساقاه ولا اعتدل به ظهر جواده .

تقدم «عقة» في جموع من العرب فوقف لخالد على طريق الكرخ بينه وبين الفرس الذين اعتصموا بحصن «عين التمر» ومشى خالد بجيوشه حتى كان في وجه «عقة» وأصحابه، فوجده يعدل صفوف جيشه ، فلم يمهله ، بل انقض عليه كالشهاب الصاعق ، بعد أن ألقى إلى مجنبيه من جند الإسلام : إني حامل على « عقة » فاكموني ما عنده ، فلم يرتد إليهم طرفهم حتى عاد إليهم به أسيراً بين يديه ، وانقرط عقد جند « عقة » وانحل نظامهم ، وانهمزوا هزيمة منكرة ، وتبعهم المسامون يقتلون ويأسرون كيف شاءوا ، ولم ينج منهم إلا من أدرك الحصن فاعتصم به .

ولم يكد ما حل بجيش « عقة » يبلغ القائد الفارسي الذي دبر وقدر حتى تساقطت دعائمه فلم يقو على الثبات ، ففر بجيشه يسابق الريح طلباً للنجاة من هول العزائم المسامة.

اعتصم العرب الذين نجوا بالحصن بعد أن خلاهم حلفاؤهم من أهل فارس ، وظنوا أن تحصنهم يجعلهم في مأمن ومنجاة من صوارم المسلمين ، وأن خالداً وجيوشه إن هم إلا قوم من العرب عضهم الجوع في قفارهم ، فجاءوا يغيرون على ريف العراق لينالوا من خيراته ، ويقنعوا بالغنائم والأسلاب ينهبونها والأموال يسلبونها ، ثم يعودون إلى قفرهم راضين بما أصابوا .

قصور في التفكير ، وجهالة بتصاريف الحياة ، وقبوع عند مطالب البطن في أحط مظاهرها ، وكذلك كان شأن العرب قبل أن يجعل الإسلام منهم أبطال هداية ، وأئمة دين ،

ونماذج للفضيلة ، أخرجهم من ديارهم يدعون إلى توحيد الله ، ونشر راية العدل والرحمة بين عباد الله لا يريدون مغنا ، ولا يبتغون مالا ، من أجابهم إلى الحق والهدى فهو أخوهم ، له مالهم ، وعليه ما عليهم ، ومن أبى عناداً ووقف في طريق الدعوة يصدّها عن وجهها أوردوه موارد الختوف وهم عند الله يؤمّنذ أبر خلق الله .

جاصر خالد الحصن ، وجاء بطاغيتهم وقائداهم « عقة » فضرب عنقه وطرحه اليهم على أنظارهم لينل من حدهم ويطامن من غرورهم ، ويؤيسهم من موقفهم ، فنزلوا على حكمه مكرهين ، وتسلم خالد الحصن ، وغنم جميع ما فيه من أموال وذراى ، ولقى فى كنيستهم أربعين غلاما محبوسين على تعلم الإنجيل ، فقال لهم : ما أتم ؟ قالوا : رهن ، قسمهم فى أهل البلاء من جنود الإسلام ؛ فكان من هؤلاء الغلبة المنقذين كثير من العلماء والقواد الأبطال ، والساسة المسكرين من رجالات الإسلام ، فمنهم سيرين والد محمد بن سيرين ثانى اثنين من سادة التابعين ، ومنهم نصير والد موسى بن نصير القائد الأموى فاتح الأندلس بمولاه طارق بن زياد ، ومنهم حمران ، مولى عثمان بن عفان ، وغيرهم من ذوى الأثر الحميد فى دولة الإسلام ، وتاريخ الإسلام .

\*\*\*

فتح دومة الجندل بعث خالد رضى الله عنه بالفتح والأخماس إلى أبى بكر الصديق مع الوليد بن عقبة ، فلما قدم الوليد دار الخلافة وبلغ رسالة قائده رأى الخليفة أن يرسل الوليد « لعياض بن غنم » فلاحق الوليد بعياض فلقية وهو محاصر دومة الجندل ، وأهلها قد أخذوا عليه الطرق فأشجعوا عياضاً وشجوابه ، فقال الوليد لعياض : رأى فى بعض الحالات خير من الجند الكثيف ؛ ابعث إلى خالد فاستمده . وكان الوليد من أعرف الناس بيمين نقيبة خالد وفضل شجاعته ، وبراعة تفلته من المضايق ، وبصره بمنافذ الخروج من الأزمات ، وجراءته على اقتحام الوغى وتفريج كربات المؤمنين ، فأجابه عياض إلى ما رأى ، وأرسل إلى خالد يستغيث به ، فكتب إليه خالد كتابه المشهر فى التاريخ والأدب قال :

« من خالد إلى عياض ؛ إياك أريد . »

لبث قليلا تأتلك الحلائب يحملن آسادا عليها القاشب<sup>(١)</sup>

كتائب يتبعها كتائب .

وهو فيما عرف الأدب العربي أوجز كتاب وأفيد فيما قصد إليه ، وهي ناحية من فواحي العبقرية الخالدية في ميدان البلاغة العربية ، كانت جديرة أن تجعل أبا سليمان خالد بن الوليد في أول صف الرعيل الأول من مداره العربية وبلغائها المقاويل ، وهي تكشف عن جانب في العقل العربي حري بالدرس الواعي ، تلك هي ناحية تركيز المعاني التي تحتاج إلى رسائل مطولة في صورة من الإيجاز القوي البارع المنتهى إلى غايته من أقرب طريق ؛ وكان هذا واجب الذين يعنون بدراسة الأدب « المقارن » ولا سيما في العصر العباسي ، عصر الرموز والتوقيعات المنقولة مع التفكير الفارسي ، حتى لا تغمط العقل العربي الخالص حقه في فراهة البدهاة واكتناز التفكير .

لم يكد كتاب خالد يلم بساحة عياض حتى كانت صيحات جيوشه صواعق في آذان أهل شهادة خصم دومة الذين استنفروا مظاهريهم من غسان وتيغ وعراء وكلب ، وكان عليهم « أ كيدر ابن عبد الملك » و « الجودي بن ربيعة » فلما دنا منهم بطل الإسلام خالد تفرغت قلوبهم ، وتفرقت كلمتهم . واختلفوا على أنفسهم ؛ فقال « أ كيدر » وكان من قبل أخنذا لخالد ، فمن عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأطلقه ، وكتب له كتابا ، نفاس<sup>(٢)</sup> بعهدته وخان ذمته وغدر مرتدأ عن الإسلام : « أنا أعلم الناس بخالد ؛ لا أحد أيعن طائراً منه ، ولا أحد في حرب ؛ ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوأ أو كثروأ إلا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم » فأبوا عليه رأيه ، فأنخذل عنهم ، وقال : لن أمالككم على حرب خالد ، فشأنكم ؛ ثم فر هارباً حذراً أن يراه خالد رضى الله عنه .

وإذا أدار الباحث نظره فيما قاله أ كيدر في وصف خالد رأى رجلاً يتحدث عن رجل خبره وعرف أمره عن تجربة واحتسكاك ، فهو قد راز خالد قبل يومه هذا ،

(١) الحلائب : جمع ، مفردة حلوبة وهي الناقة المحلوبة اللبن ، والقاشب من قولهم : سيف قشيب أى حديث عهد بالجلاء .

(٢) نفاس بالعهد : نقضه .

فعر ك خالد أديعه في حرب له على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فعرف عن خالد هذا الذي تحدث به إلى قومه في صراحة لا ترحم ، فهو يصف خالد أ يمين النقيية ، ومخالفة التوفيق ، وأنه أقوى الناس في الحرب ، وأحدهم في ميادينها ، وأنه موهوب بما أ كسبه في نفوس أعدائه هبة وجلالا ، فلا يراه قوم إلا رعبوا منه وانهمزوا أمامه ؛ ولو كانوا في كثرة الحصى ، وهذه نعوت تجلت في تاريخ خالد ووقائعه . ثم إن « أ كيدر » لا يداهن عن نفسه ، ولا يستطيع أن يمكن خالد أ من النظر إليه لمكان غدره بالمسلمين ؛ وحياته لعهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وارتداده عن الإسلام فيفر هاربا ويلاحقه رسول خالد ، فيجىء به إليه ويضرب عنقه .

اتخذ خالد خطة الالتفاف حول أهل دومة ومشايعهم من بهراء وكلب وتنوخ ، فجعلهم جميعاً بين فكي « كاشة » ذراعها الأولى عسكره ، والثانية عسكر عياض بن غنم ، واشتبك القتال في الجانبين ، فأخذ خالد صاحبه أ كيدر وانهمز الجودي بن ربيعة لا يلوى على شيء ، ومكن الله عياضاً ممن كانوا في وجهه فرعبلهم ، فطار منهم من استطاع إلى الحصن يعتصمون به حتى امتلأ ولم يتسع لسائرهم ، فغلقوا الأبواب دون إخوانهم ، وبقي من بقي منهم خارج الحصن تحت ظلال السيوف المسلمة ، ولم يبرح خالد عن محاصرة الحصن حتى اقتلع أبوابه ، واقتحم على من فيه فألحقهم بإخوانهم .

\*\*\*

**وقائع** كان قتل « عقة بن أبي عقة » غصة تأخذ على عرب الجزيرة أنفاسهم ، فهم متربصون ، « خنافس » حتى إذا رأوا خالد أ قد تباعد به المنزل عن الحيرة والأنبار وهما أعظم مسالح المسلمين في و « الحصيد » هذا الجانب من دولة الإسلام ؛ هموا بالغدر به ، وكاتبوا الأعاجم ، واتعدوا معهم مكانا يقال له « خنافس » بالقرب من الأنبار ، فلما شعر الزبرقان بن بدر خليفة خالد على الأنبار استمد القعقاع بن عمرو ، وكان على الحيرة ، فأمد القعقاع بجيش تحت قيادة أعبد بن فدكي السعدي ؛ وعروة بن الجعد البارق ؛ تقدما حتى وقفا في وجه قائدي الفرس « روزبة » و « زرمهر » ومنعاهما من التقدم حتى بلغ الخبر خالد أ ؛ وكان رجع من دومة إلى الحيرة ، فأرسل القعقاع وأباليلى بن فدكي إلى قائدي الفرس ، ثم



بلغه أن قوما من العرب عليهم الهذيل بن عمران ، وربيعة بن بجير خرجوا يريدون  
الفرس لينضموا إليهم في محاربة المسلمين أخذاً بثأر «عقة» فهض إليهم خالد ، واستخلف  
عياضا على الحيرة ، وعبي جيشه فجعل على مقدمته الأقرع بن حابس ، وسار حتى لقي  
القعقاع وأبا ليلي ، ووجه القعقاع إلى «الحصيد» في أطراف العراق . وجعله أميراً على  
الناس في هذا الوجه . ووجه أبا ليلي إلى «الحنافس» ليدفعوا في ظهور الأعداء من  
كل جانب حتى يتجمعوا فيتسنى لخالد ضربهم ضربة حاسمة ، ولكن الفرس وألفاف  
العرب معهم فطنوا إلى ما يراد بهم فآثروا الفرار عن اللقاء ، وجبنوا فلم يجتمعوا ،  
وفزعوا فلم يثبتوا .

واقعة  
«المصيخ»

أصاب القعقاع بن عمرو أهل «الحصيد» وهرب أهل «الحنافس» من وجه أبي  
ليلى بن فدي ، فأبلغا خالداً انتصارهما فيما وجههما إليه ، فكتب إليهما خالد ، وإلى أعبد  
ابن فدي ، وعروة بن الجعد ، يواعدهم ساعة من ليلة بعينها يجتمع فيها معهم بمكان يقال له  
«المصيخ» بين حوران والقلت ، وكان خالد مقبياً بعين التمر ، ومنها نهض للقاء أصحابه  
فلما كانت الليلة الموعودة وافى خالد أصحابه في الساعة التي عينها لهم ، وفيها وافوه بعددهم  
وعتادهم ، فاجتمعوا هناك بالمصيخ ، وكان قد نزل به قوم من تغلب عليهم هذيل بن  
عمران ، فيبيتهم خالد وأصحابه من ثلاثة أنحاء ، فلم يفلت منهم سوى قائدهم الهذيل مع  
نفر قليل من خاصته .

وفي هذه الواقعة أصيب عبد العزى بن أبي رهم ، وليد بن جرير وكانا قد أسلما  
وكتب لهما أبو بكر كتاباً بسلامتهما ، فلما بلغ أبا بكر قتلتهما ، وبلغه قول عبد العزى عند  
قتله :

أقول إذا طرق الصباح بغارة سببحانك اللهم رب محمد  
سبحان ربى لا إله غيره رب البلاد ورب من يتورد

جعل يردد قوله : سببحانك اللهم رب محمد ؛ ثم وداها وأوصى بأولادها ، وقال :  
أما إن ذلك ليس على ؛ كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب في ديارهم .

وقد كان قتل هذين الرجلين مما يأخذه عمر بن الخطاب على خالد مضافاً إلى قتل  
مالك بن نويرة فيما يقول بعض الرواة .

وقارىء هذه البحوث قد عرف شأن قصة مالك بن نويرة وموقف الفاروق فيها ، وأغاليط الرواة ، وزيف الروايات ، وبراءة خالد من إثم إن كان فيه إثم ؛ وهنا يستشف القارىء من قوله أبي بكر رضى الله عنه في شأن هذين الرجلين عذراً وجيهاً لخالد وجيشه ، وأنه ليس على أحد في قتلتهما حوب أو ملام ، بل إن أبا بكر نفسه يذهب إلى أبعده من ذلك ، فينفي عن نفسه مسئولية قتلتهما باعتبارهما الإمام الأعظم ، فلو كان على أحد تبعة لكان عليه منها نصيب ، ولكن كذلك يلقي من ساكن أهل الحرب .

انتصار خالد وكان خالد رضى الله عنه ممن ينتصر باسمه كما ينتصر بسيفه . يسبقه اسمه إلى أعدائه قبل موافعتهم ، فيعمل الرعب في قلوبهم ما تعمله الصواعق ، ويشيع الفزع بينهم فتتحل قواهم ، وتنهار عزائمهم . روى الطبرى عن عدى بن حاتم أنه قال : أغرنا على أهل المصيخ وإذارجل اسمه حرقوص بن النعمان من النمر ، وإذا حوله بنوه وامراته ، وبينهم جفنة من خمر ، وهم عليها عكوف ، يقولون له : ومن يشرب هذه الساعة . وفي أعجاز الليل ؟ فقال : اشربوا شرب وداع ، فما أرى أن تشربوا خمرأ بعدها : هذا خالد بعين النمر ، وقد بلغه جمعنا ، وليس بتاركنا ، ثم قال :

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر بعيد انتفاخ القوم بالعسكر الدثر (١)  
وقبل منايانا المصيبة بالقدر لحين لعمرى لا يزيد ولا يجرى (٢)

ويروى ياقوت في معجم البلدان : أن ربيعة لما تجمعت إلى المنديل بن عمران غنمها لعقة بن أبي عقة لتأخذ بثأره من خالد وجيشه ، نهاشم حرقوص بن النعمان عن مكاشفة خالد ، فعصوه ، فرجع إلى أهله وهو يقول :

ألا فاسقياني قبل جيش أبي بكر لعل منايانا قريب ولا ندرى  
ألا فاسقياني بالزجاج وكررا علينا كيت اللون صافية تبرى  
أظن خيول المسلمين وخالدا ستطرقكم عند الصياح على البشر  
فهل لكم بالسير قبل قتالهم وقبل خروج المعصرات من الخدر

(١) العكر : الإبل الكثيرة ، والدثر : الكثير من المال .

(٢) يجرى : ينقص ، قال في اللسان : جرى الشيء يجرى جرأ : نقص .

أريني سلاحى يا أميمة إننى أخاف بيات القوم أو مطلع الفجر  
عرف خالد رضى الله عنه بعد إيقاعه بأهل المصيخ أن ربيعة بن بجير التغلبى فى حشود  
من العرب والفرس مقيم بالثنى ، وهو جبل يأخذ فى عرض الفرات من أرض الشام ،  
فتقدم إلى قائديه القعقاع وأبى ليلى أن يسبقاه إلى الثنى ؛ وواعدهم ليلة معينة فيها  
يلتقون ، ورسم لهم خطة الهجوم على غرار ما صنع بأهل المصيخ من الإحاطة بالعدو ،  
وأخذه من ثلاثة أوجه ، وتم لهم ما أرادوا فلم يفلت من أصحاب ربيعة بن بجير أحد ،  
وكثر غنائم المسلمين فى هذه الوقائع فقسمها خالد على جنده ، وبعث بالخمسة إلى أبى  
بكر مع النعمان بن عوف الشيبانى ، وكانت فى السبى ابنة لربيعة بن بجير ، فاشترها على بن  
أبى طالب رضى الله عنه ، فجاءت منه بولديه عمرو ورقية .

كان الهذيل بن سمران قد لجأ بعد فراره إلى مكان يقال له « البشر » وهو جبل  
يتمدد مع الثنى ، وكان بالبشر رجل يقال « عتاب » تجتمع إليه عسكر ضخمة ؛ يريد  
حرب المسلمين ومنازلهم ، فبلغ خبره خالد أ رضى الله عنه ففرض على من تجتمع إليه ،  
ولم ينبج منهم أحد ، ثم عطف خالد إلى هلال بن عقة ، وكان متربصا بالرضاب ، وهو  
موضع الرصافة قبل أن يبنها هشام بن عبد الملك ، فلم يكذب يسمع أصحاب هلال  
بدنو خالد حتى ارفضوا عنه ، واخلوه وحده فزایل الرضاب ، فاستولى عليه خالد  
دون قتال .

نظر خالد إلى ما صار فى يده من سواد العراق ، فرآه أصلح معسكر يثب منه إلى  
قلب فارس ، بيد أنه رأى من ورائه الفراض<sup>(١)</sup> ، والتخوم ، وأطراف العراق والجزيرة « الفراض »  
مما إلى الشام ؛ وفى الشام الروم لا تزال شوكة لو خلفها وراء ظهره وانجبه إلى قلب فارس ؛  
لم يأمن شوكتها ، وكان فيما أوصاه أبو بكر حينما وجهه لفتح العراق :  
حماية ظهره أبدا ، فتوجه على تعبئته إلى الفراض ، وتسامعت بمسيره الروم فى شامها ،  
واستعدت للقائه حشود من الفرس ، ولقائف من تغلب ، وإباد والنمر ، وراسلوا الروم ،  
وكاهم حردان<sup>(٢)</sup> حاقد على المسلمين ، قد شوى الغيظ أكبادهم ، وأنضج لهب الحفيظة

(١) الفراض جمع فرضة ، وهى موارد الاستقاء من الأنهار ويراد هنا ما حولها من الأماكن  
الاهلة بالناس .

(٢) حردان : غاضب .

قلوبهم ، فقد وطىء المسلمون رقابهم ، ونزعوا نواصي أشرافهم ، فتمثلوا مصارع ساداتهم بأيدى هؤلاء المسلمين من العرب الذين كانت فارس تراهم في مكان الخول والأتباع ، فأصبحوا بهذا الدين الجديد وإذا هم سادة فاتحون غلابون ، لا يصددهم صاد ، ولا يرددهم عن البلاد والعباد راد .

تجمع من هؤلاء وأولئك جيوش جرارة ، وواجهوا جيوش المسلمين ، يفصل بينهم الفرات ، فقال الأحلاف للمسلمين ، إما أن تعبروا إلينا أو نعبأ إليكم ، فقال خالد بن الوليد : لا ، ولكن اعبروا أسفل منا ، فأدرك الروم من هذه الكلمة الحكيمة سر تضعض الفرس أمام هذا البطل المسلم ، فقالوا : احتسبوا ملككم ، هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم ، والله لينصرن ، ولنخذلن ١١ .

نعم ، ولقد صدقوا ، فخالد بن الوليد أشجع الناس في حرب ، وقلما يصبر على الحرب إذا رآها ، ولكنه العقل الذي لا يطيش ، والرجل الذي لا تستغزه الخدع ، والبطل الذي لا يلفت من يده زمام الرأي ، فلم يثره العجب بسابقات الظفر ليدفع بجنده إلى مضايق لا تؤمن مغايبها ، ومداخل لا تعرف مخارجها ، وتقدمت قد لا تسلم عواقبها ، فتصبر ، وأبى أن يعبر إلى عدوه ، وطلب إليهم أن يعبروا هم أسفل منه ليقاتل المسلمون أعداءهم في مكانهم الذي اختاروه لجولاتهم ، وأثقاهم على بصيرة وتقدير .

عبر الأحلاف أسفل من المسلمين حتى تم جمعهم ، ثم قالت الروم لفارس : امتازوا حتى نعرف اليوم من أين يكون الثبات أو التولى ، وهذه أولى خطوات الهزيمة ، لأن انعدام الثقة بين الجنود سهم نافذ يوجهه الله إلى قلب من يريد خذلانه من جنود الباطل ، وإلا فماذا بقي من الروح المعنوية لجيش تجمع من لفائف الأجناس والعناصر ، تحالفوا على الشك بعضهم في بعض ؟ وهل يبقى الشك لدى الجندي عزيمة إقدام ؟ وأين هذا من موقف خالد يوم اليمامة ، وقد عرف من الأعراب الذين تجمعوا معه بمن كانوا قد ارتدوا أنهم لا يقاتلون عن عقيدة ، ولكنهم جاءوا لطلب الغنيمة ، نفخى المسلمون أن يؤتوا من قبلهم ، فقالوا للقائدهم : أخلصنا ، فنحى أولئك الأعراب المزعزين عن تلقى حر السلاح ، وجعل العسكرة لأهل الصبر واليقين من المهاجرين والأنصار ، ورضى من الأعراب تكثير سواد المسلمين وقيامهم بما تقوم به فرق العمال في الحروب الحديثة .

امتار الأُحلاف ، فكان الفرس بلوائهم ، وكان أخلاط العرب بلوائهم ، وكان الروم بلوائهم ، واقتتل الجمعان قتالا مريراً ، وتبدت لخالد رضى الله عنه بشائر النصر يعقد بلواء المسلمين ، فقال لجنوده : أَلحوا عليهم ، ولا ترفهوا عنهم . فجعل خيالة المسلمين وفرسانهم يأخذونهم زمراً ، يرقل الفارس<sup>(١)</sup> المسلم إلى الزمرة من الأُحلاف فيحشرونهم برماح أصحابه حتى إذا سقطوا في جبالهم أتوا على أنفسهم ، فأنجحت المعركة بهزيمة ساحقة لفرس ومن لف لفها من الأعراب ، ونصر حاسم يعقد بنواصي المسلمين ، ونذير يأتي به الله تعالى طليعة للروم .

وكانت هذه الواقعة آخر واقعات خالد بن الوليد رضى الله عنه مع الفرس بالعراق وقد كثرت فيها قتلى الروم وفرس ، وأتباعهم من العرب ، حتى قدرها بعض المؤرخين بمائة ألف قتيل .

ومهما يكن أمر هذا التقدير في ميزان التصحيح فإن الثابت الذي لا يمتري فيه أن فارس لم تقم لها مشوكة حربية يخشأها الإسلام بعد هذه الموقعة .

---

(١) يرقل : هو من أرقل إذا أسرع .

## عزيمه خالد بن

كان خالد رضى الله عنه قد اتخذ الحيرة قاعدته الكبرى بالعراق ، ينشر منها رايته إذا غزا ، ويرجع إليها إذا ثوى ، ولما انتهى من وقعة الفراض ، ودانت له تخوم الشام . أذن في الناس بالرحيل إلى مستقره ، وقاعدته مصر العراق ( الحيرة ) ، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجيش ، وجعل شجرة بن الأعز ساقه له ، وأظهر في الناس أنه سيكون في الساقه .

تحرك الجيش بثقله وعتاده ، وانطوى خالد رضى الله عنه على مغامرة من أخطر المغامرات ، فقد عزم أن يأتي مكة ويحج مع الناس ، ثم يدخل الحيرة مع الجيش في الساقه ، وخالك إذا عزم ألقى بين عينيه الوصول إلى هدفه مهما تسكن العواقب في طريقه ، فخرج في جماعة من خاصة أصحابه مسامتا مكة ، يعتسف البلاد اعتسافا ، ويقتحم السبل اقتحاماً ، فتأني له ما لم يتأت للخريت الحاذق ، وجاز من دروب الصحراء أصعبها ، وقطع من طرقها أعجبها ، حتى أسامه ذلك إلى عرفات ، فحج ثم عاد إلى جيشه ، فدخل معه الحيرة ، فما توافى آخرهم حتى وافاهم خالد مع رفاقه في كتيبة ساقه الجيش ، ولم يشعر بمغامرة خالد وحججه أحد لولا أن رأوه في سمات الحج محلقا ومقصرا .

ترامى نبأ هذه المغامرة الخطيرة إلى مسامع الخليفة فأعظم ذلك ، وكتب إلى خالد بعائنه ، ويشغله ويشغل به ، فاستنفره إلى غوث إخوانه بالشام .

# الفصل الحادى عشر

دولة الروم بعد الفرس والعرب

مقدمات غزو الشام — مشاورة أبى بكر لأهل الرأى — تأمير خالد بن سعيد ثم عزله — عقد الألوية وطموح ابن العاص — رأى أبى بكر وعمر فى طموح عمرو — لواء يزيد بن أبى سفيان ووصية أبى بكر له — لواء شر حبيب بن حسنة — لواء أبى عبيدة — ابتهاج أبى بكر بكتائب المجاهدين — فزع الروم ورأى هرقل — مشاورة أمراء المسلمين واجتماع جيوشهم — بعث خالد بن الوليد أميراً على الأمراء — كتاب أبى بكر إلى خالد — بين خالد والمثنى — مغامرة خالدية — نظرة وعبرة — بين خالد وأبى عبيدة — أدب رفيع — جولات فى الطريق — سياسة حكيمة — زمام الإمارة فى يد خالد — إيمان — قصة جرجة القائد الرومى — هزيمة الروم — نبل عبقرى — نظرة عابرة فى قصة جرجة — ترتيب الوقائع الشامية — طريقة أخرى فى ترتيب الوقائع — نظر وترجيح — نتيجة .





كان غزو المسلمين للروم في الشام قد بدأ في حياة النبي صلى الله عليه وسلم . ففي السنة الثامنة للهجرة جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش مؤتة بقيادة زيد بن حارثة . ثم انتهت قيادة الجيش باتفاق المسلمين إلى خالد بن الوليد الذي تجلبت عبقريته الحربية في إنقاذ جيش المسلمين من نكبة كادت تقضى عليه بعد أن قتل قواده الثلاثة الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن من بينهم خالد بن الوليد . وفي السنة التاسعة تجهز النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثين ألفاً لغزو الروم ، وسار إليهم يقود المسلمين حتى بلغ تبوك ، فلم يلق قتالاً ، وعاد بالمسلمين سالمين غانمين . وقبيل وفاته صلى الله عليه وسلم جهز جيش أسامة بن زيد ، وأوعب فيه الناس . ولكنه لم يخرج إلى هذا الوجه الذي جهزه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا في خلافة أبي بكر . فالمسلمون كانوا قد مرّوا على غزو الروم ، وكان فتح الشام أملاً يملأ صدورهم ، فلما قام بالخلافة أبو بكر الصديق ، وفرغ من أهل الردة واستقام له العرب ، فكر في إتمام ما بدأه النبي صلى الله عليه وسلم ، وعناه غزو الروم وفتح الشام .

روى عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي : أن أبا بكر لما أراد أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم . وشاورهم وكلهم استصوبوا رأى أبي بكر ، وقالوا : ما رأيت من الرأى فامضه ، فإننا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ، وعلى في القوم لا يتكلم ، فقال له أبو بكر : ماذا ترى يا أبا الحسن ؟ فقال : أرى أنك مبارك ، ميمون النقية ، فإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله تعالى ، قال أبو بكر : بشرك الله بخير ، ومن أين علمت هذا ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناواه حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون » قال أبو بكر : سبحان الله ! ما أحسن هذا الحديث ! لقد سررتني ، شرك الله في الدنيا والآخرة .

ثم قام أبو بكر فخطب الناس ورجبهم في الجهاد ، ثم أمر بلالا فأذن في الناس : انفروا أيها الناس إلى جهاد عدوكم الروم بالشام ، وأمير الناس خالد بن سعيد . وكان

خالد بن سعيد من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن . فلما ولاه أبو بكر الجند الذي استنفر إلى الشام أتى عمر أبا بكر ومنعه من تأمير خالد بن سعيد على الناس ، فعزله عن الإمارة العامة وجعله رداء يتيماء .

قال أبو جعفر الطبري : وكان سبب عزل أبي بكر خالد بن سعيد أن خالدًا حين قدم من اليمن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تربص ببيعة أبي بكر شهرين يقول : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يعزلني حتى قبضه الله ، وقد لقي خالد بن سعيد على بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، فقال : يا بني عبد مناف لقد طبتن نفسي عن أمركم يليه غيركم ؟ فأما أبو بكر فلم يحفها عليه ، وأما عمر فاضطجعتها عليه . ثم بعث أبو بكر الجنود إلى الشام وكان أول من استعمل على ربع منها خالد بن سعيد ، فأخذ عمر يقول : أتؤمره وقد صنع ما صنع ، وقال ما قال ؟ فلم يزل بأبي بكر حتى عزله . وفي رواية أن عمر لما سمع منه السكامة المفرقة لشمل الجماعة الإسلامية قال له : فض الله فاك ، والله لا يزال كاذب يخوض فيما قلت ثم لا يضر إلا نفسه ، ثم نهى عمر أبا بكر عن توليته وقال : إنه يتخذول ، وإنه لضعيف التروثة (١) ، ولقد كذب كذبة لا يفارق الأرض مدل بها وخائض فيها ، فلا تستنصر به فلم يحتمل أبو بكر عليه وجعله رداء يتيماء ، أطاع عمر في بعض أمره وعصاه في بعضه .

تتابع الناس مستعجيين ، فنفروا من كل فج يطلبون الجهاد في هذا الوجه . وعقد أبو بكر الأولوية للأثراء وأوعب معهم الناس ، فعقدوا لعمر وبن العاص بعد أن استقدمه من عمان وكان والياً عليها من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم من قبل أبي بكر وفاء لعدة كان وعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه ، فكتب إليه أبو بكر يقول : « إني كنت قد رددتك إلى العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كرامة ، وسماه لك أخرى : مبعثك إلى عمان لإنجاز ما وعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ، ثم وليته ، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك » . فكتب إليه عمر : « إني سهم من سهام الإسلام ،

عقد الأولوية  
وطموح عمرو  
ابن العاص

وأنت بعد الله الراجي بها والجامع لها . فأنظر أشدها وأخشنها وأفضلها فارم به . وكان عمرو بن العاص يرغب في الإمارة العامة على جيوش الإسلام في الشام كلها . فأبى عليه ذلك أبو بكر . ذكر الديار بكرى : أن أبا بكر جمع أشراف قريش من المهاجرين وغيرهم من أهل مكة ، ثم دعا بأشراف الأنصار وذوى السابقة منهم ، ثم دعا بعمرو بن العاص فقال له : يا عمرو هؤلاء أشراف قومك يخرجون مجاهدين فأخرج فعسكر حتى أئدب الناس معك .

فقال عمرو : يا خليفة رسول الله . أنا والى على الناس ؟ فقال نعم ، أنت الوالى على من أبعث معك من ههنا ، قال : لا ، بل والى على من أقدم عليه من المسلمين ! قال : لا ، ولكذك أحد الأمراء ، فإن جمعتمكم حرب فأبو عبيدة أميركم ؛ فسكت عنه ، ثم خرج فعسكر ، فاجتمع إليه ناس كثير . وكان معه أشراف قريش ، فلما حضر خروجه جاء إلى عمر بن الخطاب ، فقال : يا أبا حفص : إنك قد عرفت بصرى بالحرب ، وعين نقيبى في الغزو ، وقد رأيت منزلقى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد علمت أن أبا بكر ليس يعصيك ، فأشر عليه أن يولى هذه الجنود التى بالشام ، فإنى أرجو أن يفتح الله على يدي هذه البلاد ، وأن يريكم والمسلمين من ذلك ماتسرون به . فقال له عمر : لا أكذبك ما كنت أكلمه في ذلك لأنه لا يوافقنى أن يبعثك على أبى عبيدة ، وأبو عبيدة أفضل منك منزلة ، قال عمرو : فإنه لا ينقص أبا عبيدة شيئاً من فضله أن ألى عليه ، فقال له عمر بن الخطاب : ويحك يا عمر وإنك والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا ، فاتق الله ، ولا تطلب بشئ من سعيك إلا وجه الله ، وأخرج في هذا الجيش ، فإنك إن يكن عليك أمير في هذه المرة ، فما أسرع ما تكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد . فرضى عمرو وخرج على رأس جيوشه التى حشدتها له أبو بكر ، وخرج معه يشيعة ويوصيه فقال له : يا عمرو إنك ذو رأى وتجربة للأموور ، وبصر بالحرب ، وقد خرجت في أشراف قومك ورجال من صلحاء المسلمين ، وأنت قادم على إخوانك فلا تألهم نصيحة ولا تدخر عنهم صالح مشورة ، فرب رأى لك محمود في الحرب مبارك في عواقب الأمور : ثم أمره أن يعمل وجهه فلسطين من أرض الشام .

موقف  
الصديق  
والفاروق من  
طموح عمرو

لواء يزيد بن  
أبي سفيان  
ووصية أبي  
بكر له

وعقد لواء يزيد بن أبي سفيان وأوصاه فقال : « إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك ، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليا له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا إليه بعمله ، وقد وليتك عمل خالد بن سعيد » فإياك وعيبة الجاهلية فإن الله يبغيضها ويبغض أهلها ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم ، وأبدأهم بالخير ، وعدهم أياه ، وإذا وعظهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وصل الصلوات لأوقاتها بتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها ، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم ، وأقلل لبهم حتى يخرجوا من عسكري وهم جاهلون . ولا تزينهم فيروا خلك ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ثروة عسكري ، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم . ولا تجعل شرك لعلانيتك فيخاطب أمرك ، وإذا استشرت فاصدق في الحديث تصدق المشورة ، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك ، واسمر بالليل في أصحابك تأتاك الأخبار وتتكشف عندك الأستار ، وأكثر حرسك وبدد هم في عسكري ؛ وأكثر مفاجأتهم في محاربتهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه ، وعاقبه في غير أفراده ، وأعقب بينهم بالليل وأجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار ، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلهن فيها . ولا تسرع إليها . ولا تتخذ لها مدمعا ، ولا تغفل عن أهل عسكري فتفسده ، ولا تجسس عليهم فتفضحهم . ولا تكتشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلايتهم ، ولا تجالس العباثين ، وجالس أهل الصدق والوفاء ، واصدق اللقاء ولا تبجن فيجبن الناس ، واجتنب اللؤلؤ ، فإنه يقرب الفقر ، ويدفع النصر ، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في العوامع ، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له » ،

قال ابن الأثير : وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاية الأمر . ثم دعا أبو بكر ربيعة بن عامر بن لؤي ، فعقد له ، ثم قال له : أنت مع يزيد بن أبي سفيان لا تعصه ولا تخالفه ، ثم قال ليزيد : إن رأيت أن توليه مقدمتك فافعل ، فإنه من فرسان العرب وصلحاء قومك ، وأرجو أن يكون من عباد الله الصالحين ، ثم خرج أبو بكر يودع يزيد وهو يمشي ويزيد راكب ، فقال له : يا خليفة رسول الله ، إما أن تركب ، وإما أن

تأذن لي فأمشي معك . فاني أكره أن أركب وأنت تمشي ، فقال أبو بكر : ما أنا براكب وما أنت بنازل ، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله .

وعقد أبو بكر لواء لشرحبيل بن حسنة، وسيره إلى الأردن، وكان شرحبيل جاء إلى لواء شرحبيل أبي بكر ، وأبو بكر يحدث نفسه بغزو الروم ولم يطلع عليه أحد . فقال له : يا خليفة ابن حسنة رسول الله : أحدثت نفسك أن تبعث إلى الشام جندا ؟ قال : نعم ، حدثت نفسي بذلك . وما يطلع عليه أحد ، وما سألتني إلا لشيء ، فأخبره شرحبيل أنه رأى ذلك في نومه ، فقال له أبو بكر : نامت عينك ؟ هذه بشرى وهو الفتح - إن شاء الله - لاشك فيه ، وأنت أحد أمرائي ، فاذا سار يزيد بن أبي سفيان فأقم ثلاثا ، ثم تيسر للمسير ، ففعل ذلك شرحبيل ، فلما مضى اليوم الثالث أتاه من الغد يودعه ، فأوصاه أبو بكر بمثله ما أوصى به يزيد بن أبي سفيان .

لواء أبي  
عبيدة بن  
الجراح  
وعقد أبو بكر لواء لأمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح ، وجعل وجهه « حمص » وجعله أمير الناس إن اجتمعوا ، وأبي أن يؤمر عليه عمرو بن العاص ، مع إلحاح عمرو في ذلك ، وعسكر أبو عبيدة خارج المدينة يصلي بمجندة وينتظر أن يسرحه أبو بكر حتى قدمت عليه جموع العرب بقادتها وفرسانها ، فلما تمام حشدهم خرج أبو بكر في رجال من المسلمين على رواحلهم حتى أتى معسكر أبي عبيدة ، فمأشاه إلى ثنية الوداع وأوصاه وناصحه . وأوصاه بقيس بن مكشوح المرادي ؛ وكان من فرسان العرب المؤلفة قلوبهم ، فقال له : إياه قد صحبك رجل عظيم الشرف ، فارس من فرسان العرب لا أظن له عظيم حسبة ، ولا كثير نية في الجهاد ، وليس بالمسلمين غنى عن مشورته ورأيه وبأسه في الحرب ، فأدنه وألطفه وأره أنك غير مستغن عنه ولا مستهين بأمره ، فانك تستخرج منه بذلك نصيحته لك وجهده ووجده على عدوك ، ثم دعا أبو بكر قيسا ، فقال له : إني بعثتك مع أبي عبيدة الأمين الذي إذا ظلم كظم ، وإذا أسىء إليه غفر ، وإذا قطع وصل ، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين ، فلا تعصين له أمرا ، ولا تخالفن له رأيا ، فانه لن يأمرك إلا بخير ، وقد أمرته أن يسمع منك ، ولا تأمره إلا بتقوى الله ، لقد كنا نسمع أنك شريف بئس مجرب ، وذلك في زمان الشرك والجاهلية الجهلاء ، فاجعل بأسك وشدتك ونجدتك اليوم في الإسلام على من كفر بالله وعبد غيره ، فقد جعل الله فيه الأجر العظيم ؛ والعز للمسلمين .

سرور أبي بكر بكتائب المجاهدين . وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يسره شيء ما يسره قدوم جمع من المسلمين يريدون الجهاد في هذا الوجه . قال عمرو بن محسن : لم يكن أبو بكر رضى الله عنه يسأم توجيه الجنود إلى الشام وإمداد الأمراء الذين بعثهم بالرجال بعد الرجال إرادة إعزاز الإسلام وإذلال أهل الشرك . وقال أبو سعيد المقبرى : لما بلغ أبا بكر جمع الأعاجم لم يكن شيء أعجب إليه من قدوم المجاهد عليه من أرض العرب . فكانوا كلما قدموا عليه سرح الأول فالأول . ولما قدم عليه حمزة بن مالك الهمداني في جمع عظيم من قومه : ورأى أبو بكر عددهم وعدتهم سره ذلك وقال : الحمد لله على صنيعه للمسلمين . ما يزال الله تعالى يرتاح لهم بعدد من أنفسهم يشد به ظهورهم ويقصم به ظهور عدوهم .

فزع الروم ورأى هرقل سارت جيوش المسلمين حتى نزل كل جيش منها مكانا يشرف منه على الروم ، وتسامعت الروم بحلول المسلمين بساحتهم وتمثل عقلاؤهم الخطر الذي أحرق بهم . وكان هرقل مقبيا بيت المقدس بعد انتصاره على الفرس وتحريره من يدهم . فأتاه الخبر بقرب جنود الإسلام منه . فجمع إليه خاصته وأصحاب مجلسه . وفهم أخوه « تزارق » فقال لهم : أرى من رأى ألا تقاتلوا هؤلاء القوم . وأن تصالحوهم فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقر لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم . فأبوا عليه رأيه . وردوا عليه قوله وتغلبت العامة على الخاصة وذوى الرأى . وأخذتهم العزة بالإثم . فاضطر هرقل أن ينزل على رأيهم ويسير بهم لقتال المسلمين . فنزل حمص واجتمع له فيها جيش كثيف فرقه كتائب . وجعل في وجه كل أمير من أمراء المسلمين جيشا يفوق عدده عدد جيش الإسلام وتزيد عدتهم على عدتهم . وكان قد تراسى إلى هرقل أن خالد بن الوليد قد طلع على « سوى » وانتسف أهله وأموالهم . وعمد إلى بصرى فافتتحها . وهو في طريقه لغوث إخوانه أمراء الشام . فقال هرقل لجلسائه : ألم أقل لكم لا تقاتلوهم فإنه لا قوام لكم مع هؤلاء القوم . إن دينهم دين جديد يحدد لهم ثبارهم (١) فلا يقوم لهم أحد حتى يبلى . فقال له قومه : قاتل عن دينك ولا تبجن الناس . واقض الذى عليك ؟ فلما رأى هرقل ذلك منهم جمع إليه أهل البلاد وأشرف الروم ومن كان على دينهم من

(١) ثبارهم : حرصهم على التوالى في الحرب .



العرب فقال لهم : يا أهل هذا الدين إن الله قد كان إليكم محسنا ، وكان لديكم معزا وله ناصرا على الأمم الخالية ، وعلى كسرى والمخوس والترك وعلى من سواهم من الأمم ، وذلك أنكم كنتم تعملون بكتاب ربكم الذي كان أمره رشدا ، فلما بدلتهم وغيرتم ذلك أطمع فيكم قوماً والله ما كنا نعبأ بهم ، ولا نخاف أن نبغى بهم ، وقد ساروا إليكم خفاة عراة جياعا قد اضطروهم إلى بلادكم قحط المطر وجدوبة الأرض وسوء الحال ، فسيروا إليهم وقتلوه عن دينكم وبلادكم وأبنائكم ونسائكم وأنا شاخص عنكم وممدكم بالخيول والرجال .

وعن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص قال : لما مضت جنود أبي بكر إلى الشام بلغ ذلك هرقل ملك الروم وهو بفلسطين ، وقيل له . قد أتتكم العرب وجمعت لك جموعا عظيمة ، وهم يزعمون أن نبيهم الذي بعث إليهم أخبرهم أنهم يظهرون على أهل هذه البلاد ، وقد جاءوك وهم لا يشكون أن هذا يكون ، وجاءوك بأبنائهم ونسائهم تصديقا لمقالة نبيهم يقولون : لو دخلناها وافتتحناها نزلناها بأولادنا ونسائنا ، فقال هرقل : ذلك أشد لشوكتهم ، إذا قاتل القوم على تصديق فما أشد على من كاذبهم أن يزيلهم أو يصددهم .

مشاورة  
أمراء  
المسلمين  
واجتماع  
جيوشهم

فلما رأى أمراء المسلمين اجتماع الروم لهم رأوا أن يتشاوروا فيما يصنعون ، فكان فيما أشار عليهم به عمرو بن العاص : « إن الرأي لثلثنا الاجتماع ، وذلك أن اجتماع مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة » وكتبوا إلى أبي بكر ، ثم انعدوا جميعا « اليرموك » ووافاهم كتاب أبي بكر بالاجتماع على مثل ما أشار به عمرو بن العاص ، فقال لهم : « أن اجتمعوا فتكونوا عسكريا واحدا ، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متساندين ، وليصل كل رجل منكم بأصحابه » .

بعث خالد بن  
الوليد أميرا  
على الأمراء

اجتمع الروم ونزلوا واديا عسكريا على ضفته وجعلوه خندقا بينهم وبين المسلمين ، فحصرهم المسلمون شهر صفر والربيعين لا يقدر أحد الفريقين على أن ينال نيل من الآخر ، فلما طال الأمر على المسلمين كتبوا إلى الخليفة يخبرونه بجموع الروم وكثرتهم ويستمدونه ، ولم يكد كتاب الأمراء يقع إلى أبي بكر حتى طاف بخاطره فاقى عين الردة ، وفتح العراق ، ومدوخ فارس سيف الله وسيف رسولة القائد المظفر خالد بن الوليد ، فاستنار وجه

أبي بكر لهذا الخاطر وقال يخاطب نفسه : « خالدها؟ والله لأنسين الروم وساوس الشيطان.  
بخالد بن الوليد » .

لله أبو بكر ! ما أعرفه بالرجال ! وأخبره بالعقريات يوجهها إلى حيث تملك مجالها  
من الحياة ، وتملك منها الحياة ما تشاء من خصائص البطولة في ميادينها .

أولئك الأمراء الذين عقد لهم أبو بكر ألوية الإمارة في غزوة الشام من أقدر رجال  
الإسلام وأشجعهم وأدهام وأعلمهم بمدخل الغمرات في الحروب ؛ وقفوا بإزاء الروم  
ثلاثة أشهر ، وهم مجتمعون متساندون لم ينالوا منهم نبلا ، ولا أنشبوا معهم قتالا حتى  
أعيام الانتظار ، وأملهم الاضطراب ، وهالهم حشد الروم ، وتكاثر أعدادهم ؛ فكتبوا  
إلى الخليفة يخبرونه ويستمدونه ؛ وفي عاصمة الإسلام من جنود الإسلام مدد وأمداد  
وفيها أبطال وقواد ، ولكن أبا بكر الصديق يعلم أن النصر لم يكن معقوداً بكثافة الجنود ،  
وإنما ينزل الله نصره على من يشاء من عباده الذين حباهم بخصائص من مقومات العقريات  
في الأفراد ، موزعة على وفق الاستعداد .

أليست هذه المجموع التي جمعها الروم ووقف أمراء المسلمين بإزائها يستمدون الخليفة  
قد جمع الفرس من قبل أمثالها لخالد بن الوليد فرعبها (١) ، ونكل بها ، وهزمها شر  
هزيمة وأنكرها ؛ أو ليس هؤلاء الروم كانوا قد تجمعوا من قبل مع الفرس وتجهيزهم  
من فلال العرب في حشود أضخم من هذه الحشود التي ينفرد بها الروم وحدهم ، ووقفوا  
في وقعة الفراض أمام خالد بن الوليد قائداً وحده فانتصر عليهم نصرًا مؤزرا ، وظفروا بهم  
ظفراً مشى حديثه في فارس فبغضها ، وفي الروم فأرعبها ؟ بلى ! فماذا إذا ؟ أفتقف الفتوح  
الإسلامية أمام تكاثف جيوش الروم وفي المسلمين سيف الله ؟ لا ، لن تقف ، بل خالدها  
لها ، إذا كان للشيطان نفخة غرور في أنوف الروم خدعتهم عن جند الله ، وأبطال  
الإسلام ، فليسينهم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وساوس الشيطان بسيف الله خالد  
ابن الوليد .

كتاب أبي بكر بالإمارة  
ويهنئه ، ويذكره ويعظه ثم يستنزه إلى غوث إخوته أمراء الشام ليعم نعمة الله عليه  
إلى خالد

(١) رعبها : مزلقها وفرقها .

بفتح الشام كما فتح العراق ويكسر شوكة الروم كما كسر قناة الفرس، فقال له: «أن سرحتي تأتي جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا، وأياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشج الجموع بعون الله أحد من الناس شجيك، ولم ينزع الشجى أحد من الناس نزعك، فليهنك أبا سليمان النية والخطوة فأتهم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتنسخر وتذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن، وهو ولي الجزاء» ثم قال له: «دع العراق واخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه، ثم امض مخففاً في أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك ورحمة الله».

بين خالد  
والثني

وفي رواية أن أبا بكر أمر خالد بالخروج في شطر الناس وأن يخلف على الشطر الثاني الثني بن حارثة، وقال أبو بكر لخالد: لا تأخذ مجداً إلا خلفت لهم مجداً، فإذا فتح الله عليك فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عملك، وأحضر خالد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأثر بهم على الثني، وترك للثني أعدادهم من أهل الغناء ممن لم يكن له صحبة، ثم نظر فيمن بقي، فاخترج من كان قدم على النبي صلى الله عليه وسلم، وافداً أو غير وافد، وترك للثني أعدادهم من أهل الغناء، ثم قسم الجند نصفين فقال للثني والله لا أقیم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة وإبقاء النصف أو بعض النصف، فوالله ما أرجوا النصر إلا بهم فأني تعريني منهم.

وإذا كان الثني قد تشدد في التمسك بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه يرجو النصر بهم، فخالفه أحق بالتشدد في التمسك بهم أن يكونوا معه فيما ندب إليه من غوث المسلمين بالشام وقد كلب عليهم الروم وجمعوا لهم؛ لأن خالداً أعرف بالصحابة وصبرهم في الحرب وحبهم للموت في سبيل الله، وقد صحبوه في حروب الردة فقمعها بهم، وكانوا معه في حرب الفرس بالعراق ففتح بهم البلاد ودوخ فارس وطامن من غرورها على العرب فأني له أن يترك واحداً منهم يستطيع أن يجعله من بين أبطاله وشجعان جيشه لذلك حاول أرضاء الثني باعاضته منهم كل فارس من أبناء البيوتات ورجالات القبائل حتى رضى الثني وأخذ حاجته من الرجال، وشيع خالداً وودعه ودعا له ولأصحابه.

والتأمل في كتاب أبي بكر إلى خالد يقرأ في أثناء سطروره وحنايا عباراته اصدق آيات تقدير العبقريّة الخالديّة ، ويرى المسكان الذي تبوأه خالد بن الوليد في الخلافة الصديقية ، وقد حقق الله للصديق جميع ما أمّله في سيف الله خالد بن الوليد .

\*\*\*

قرأ خالد رضى الله عنه كتاب الخليفة بالمسير إلى الشام ، فعز عليه ترك العراق إلى الشام ، ولكنه وهو الرجل العسكري لا يعرف لغير الطاعة في نفسه سبيلا ، فنهض للسمع والطاعة ، وخلف على العراق بأمر الخليفة المثنى بن حارثة الشيباني ، وفصل بمن معه من أبطال الإسلام وجنده من الحيرة إلى دومة ، ثم طعن في البرية ، وطلب حذاق الأدلاء وقال لهم : « كيف لي بطريق أخرج فيه عن وراء جموع الروم ؟ فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين » فكاهم قالوا : لا نعرف إلا طريقا لا يحمل الجيوش ، يأخذه الفذ الراكب ، فإياك أن تنرر بالمسلمين ، فأبى خالد إلا أن ينفذ رأيه ؛ وطلب الخريت ، قتل على رافع بن عمير الطائي ، فقال له : في ذلك ، فقال رافع إنك لن تطيق ذلك بالخيّل والأثقال ؛ والله إن الراكب المفرد لبخافها على نفسه ، وما يسلكها إلا منرر ، إنها لخمس ليال جياد ، لا يُصاب فيها ماء مع مضلتها ، فقال له خالد : ويحك ! إنه والله لا بد لي من ذلك ، إنه قد أتتني عزيمة فمر بأمرك .

مغامرة  
جريئة

ثم قام خالد في الناس ليشجذ عزائمهم ، ويقوى إيمانهم ، فقال « لا يختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم ، وأعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله » .

هذا مظهر من مظاهر الخلائق الإيمانية التي عرضنا لها في حديثنا عن شخصية خالد رضى الله عنه ، ورأينا أنها عنصر من عناصر عبقريته . وهل ثمت إيمان أقوى وأعظم من هذا الإيمان الذي يرى أنه لا ينبغي للمسلم أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله ؟

وقد أحدثت هذه الكلمات في نفوس المسلمين ما قصد إليه خالد منها فقالوا له : أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك ، والنفت خالد إلى رافع بن عمير يستنطقه ، فقال رافع : استكثروا من الماء من استطاع منكم أن يصرأذن ناوته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك إلا مادفع الله ، ثم قال لخالد : أبني عشرين جزورا عظاما سمانا مسان ، فأثاه

بهن ، فعمد إليهن فظمأهن ، حتى إذا أجهدهن العطش أوردهن فشر بن حتى إذا تملأن  
عمد إليهن فقطع مشافرهن ، ثم كعمهن لئلا يجتروا ، ثم قال لخالد سر ، فسار خالد  
معه مغذا بالخيول والأثقال ، فكلما نزل منزلاً ، اقتطع أربعاً من تلك الشرف ، فأخذ  
ما في أكراسها فمزجه بما كان من اللبان فسقاه الخيل ، ثم شرب الناس مما حملوا معهم  
من الماء ، فلما كان آخر يوم من المفازة خشي خالد على أصحابه أن يفضحهم حر الشمس  
فأراد أن يطمئنهم فقال لرافع : ويحك يارافع ما عندك ؟ قال خير ؛ أدركت الرى إن  
شاء الله ، وشجعهم وهو متحير أرمد ، فلما دنا من مكان يعرفه قال للناس انظروا هل ترون  
شجرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ قالوا ما نراها : قال رافع : إن الله وإنا إليه راجعون !!  
هلكتم والله إذاً وهلكتم - لأبالكم - انظروا . فطلبوها فوجدوها قد قطعت وبقيت  
منها بقية ، فلما رآها المسلمون كبروا وكبر رافع ، ثم قال : احفروا في أصلها فحفروا فنبع  
الماء ، وشربوا حتى روى الناس واتصلت بعد ذلك المنازل .

وهذه المفازة التي غامر خالد بنفسه وجيوشه في قطعها من العراق إلى الشام ليخرج  
على الروم فلا يجبسه دونهم شيء هي المعروفة الآن ببادية الشام ، وهي اليوم طريق السيارات  
بين دمشق وبغداد .

قال المرحوم الأستاذ عبد الوهاب عزام في بحثه بعنوان «مهد العرب» : وفي هذا الجانب  
طريق السيارات بين دمشق وبغداد اليوم وهو زهاء ثمانمائة وستين كيلاً تقطعها السيارات  
في عشرين ساعة مع الاستراحة ، وهي البادية التي اخترقها سيدنا خالد بن الوليد بجيشه  
في السنة الثانية عشرة من الهجرة : إذ سار من العراق مدداً لجيوش العرب في الشام  
فرمى بنفسه وجيشه في بادية لاماء فيها ، وأتى الروم من مأمنهم ، وفجأهم بما لم يحتسبوا ،  
وقد قطعها في خمسة أيام .

\* \* \*

العقريات لا تعرف الحدود . ولا تعترف بقيمة الحواجز المادية التي تصادفها في طريقها نظرة وعبرة  
إلى غاياتها النبيلة . فصارمات العزائم عند العباقرة أمضى من صوارم المرهفات . وبطل  
الإسلام خالد بن الوليد واحد من أفذاذ العباقرة الذين استنارت صفحات التاريخ

بأسمائهم ؛ وقد كانت مواقفه في حياته كلها ولا سيما المرحلة الإسلامية منها شواهد على ما تستطيع أن تصنعه البعقرية مما يراه سواد الناس أدخل في مراتب المستحيل ، وموقف خالد رضي الله عنه في سفره من العراق إلى الشام بحمائله وأثقالها بعد تلك المغامرة الجريئة التي خرج فيها إلى الحج ثم عاد إلى الحيرة فدخلها مع ساقاة الجيش ، من أعجب ما رواه التاريخ من مغامرات القواد والأبطال .

جاء كتاب أبي بكر إلى خالد ، يعاتبه على ما كان منه من مخاطرة قاسية ، ثم هنأه على ما أصاب من توفيق الله ، وانتهاز الصديق هذه الفرصة المواتية ، ورمى الروم بسيف الله لينسبهم وساوس الشيطان ؛ وهذا لون من الأدب الرفيع أخذ به الصديق قائده البطل بعد أن سجل له جلائل أعماله ومظاهر عبقريته بقوله : « سرحتي تأتي جموع المسلمين باليرموك . فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يشج الجموع بعون الله من الناس شجيك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك ، فلتنشك أبا سليمان النية والخطوة » وهذه سياسة في الحزم والحكمة معروفة عن أبي بكر الصديق في خلافته وما جرى فيها من الأحداث العظام ، وكان بهذه السياسة أعرف رجل بالرجال وأخبر إمام بأمة أعطته مقادها ، وأعين خليفة في عزمه وسلطان مبسوط بالعدل القاهر والرحمة الحانية .

صدع القائد البطل بأمر الخليفة الراشد ، بيد أنه خشى إن هو أخذ إلى وجهه سمت الناس أن يلقي العدو مواجهة فيحبسه من غياث المسلمين ؛ فماذا إذن ؟

فكر القائد البطل ، ورأى أنه لا بد له من أن يأتي الشام من طريق لا يحول بينه وبين المسلمين في أثناءه شيء . ولو كان في ذلك أعظم المخاطر وأشد العقبات ، فليلق أمره إلى حذاق الأدلاء ، ومهرة الخريتين ، ولسكنهم جميعا حذروه وخوفوه على نفسه وعلى جيشه لأنهم لا يعرفون طريقا يدفع به إلى وجهه من وراء عدوه إلا طريقا واحدا ، الراكب الفذ لو سلكه لكان مغررا بنفسه ، فكيف بهذه الجمافل وأثقالها ؟

ومضى خضع خالد بن الوليد للعقبات والمصاعب تحول بينه وبين أهدافه ومقاصده ؟ إن البعقرية لا تعرف المحال ، فليسكن ما تريد ، ثم ليسكن ما شاء الله ؛ « ويحك يا رافع ابن عمير ؟ إنه والله لا بد لي من ذلك » وليس العجيب أن يعزم خالد على تخطي الصعاب

فيصدق في عزمه ، ولكن العجيب حقاً أن تسرى روحه الجياشه بغوارب القوى القاهرة إلى جيشه فيستجيب له في ثقة لا تعرف التردد ، وإيمان ييمن نقيته ورعاية الله تعالى له ، فهو إذ يقول لجنده مشجعاً : « إن المسلم لا ينبغي له أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله له » يجيونه يقلوب مخلصه وألسنة صادقة : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك »

نشط خالد وازداد يقينه قوة إيمان بما رأى من ارتفاع روح جيشه الباسل ، بين خالد وأبي عبيدة واستجاب إلى الخريت رافع بن عمير الطائي ، وصدق الله في عزمته ، ثم فكر في شأن المسلمين بالشام وقد ضايقهم الروم بكثافة عددهم وكثرة عتادهم ، وفكر في أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح وهو يقود جنود الإسلام ، فرأى أن تكون بئراهم بإمداده وغياثه لهم رسول السكينة إلى قلوبهم ، ورأى إذ ولاه الخليفة الأعظم القيادة العامة ، ووجه أميراً على الأمراء بالشام أن يشعر الأمين بأعباءه أنه أعرف بمكانه وقدره بين المسلمين ، وأن رأيه إلى رأيه ينتهي ، فبعث بكتابين أحدهما إلى عامة المسلمين بالشام يقول لهم فيه : « أما بعد فإن كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني بالسير إليكم ، وقد شمرت وانكمشت (١) ، وكأن قد أظلت عليكم خيلي ورجلي ، فأبشروا بانجاز موعود الله وحسن ثواب الله ، عصمنا الله وإياكم باليقين ، وأثابنا أحسن ثواب المجاهدين » .

ورأسل ثانيهما إلى أبي عبيدة خاصة ، وفيه يقول : « أما بعد فإنني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا من كل سوء ، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني بالسير إلى الشام ، وبالقياض على جندها والتولي لأمرها ، والله ما طلبت ذلك قط ، ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك التي كنت عليها ، لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع أمراً دونك ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك ، تتم الله ما بنا وبك من إحسان ، ورحمنا وإياك من صلى النار ، والسلام عليك ورحمة الله » .

ولما قرأ أبو عبيدة كتاب خالد قال : « بارك الله لخليفة رسول الله فيما رأى . وحيا الله خالداً » .

(١) الانكماش : الجدل في الأمر والسرعة في طلبه .



الأدب رفيع

ولا بد لنا من الالتفات قليلا إلى هذه الآداب الرفيعة في حديث القائدين العظمين ،  
نخالد بن الوليد رأى أنه ولي القيادة العامة ، وأصبح أمير أمراء الشام ، وفيهم أبو عبيدة ،  
وهو من سادة السابقين الأولين ، وله بين الناس مقام ملحوظ فلا يسوغ في سرعة  
المكارم وأدب البطولة الإسلامية أن يغافسه (١) خالد بالأمر ، فليكتب إليه يطلعه على  
الحقيقة ويعرفه أنه لا يزال في مكانه من التبجيل والاحترام ، وأنه سيد المسلمين في هذا  
الوجه ، وأنه لا يقطع أمرا دونه .

وهذا الأدب الرفيع هو الذي عامل به أبو عبيدة خالدا حينما أتم الفلك دورته  
الخالدية ، وعاد القائد البطل جنديا يعمل في ظل إمارة أبي عبيدة بأمر الخليفة الثاني  
عمر بن الخطاب في مطلع خلافته ؛ فقد روى ابن كثير في تاريخه أن خالدا قال لأبي  
عبيدة حين أبلغه أمر عمر بعزله ، وكان أبو عبيدة قد أخبر خالد بأمر عزله حتى  
يفرغ خالد من الاشتباك في إحدى المواقع ؛ ولم يخبره به فور مجيئه . « يرحمك الله !  
ما منعك أن تعلمني حين جاءك ١٢ » فأجابه الأمين أبو عبيدة : « إني كرهت أن أكسر  
عليك حربك ؛ وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمل ؛ وما ترى سيصير إلى زوال  
وانقطاع ؛ وإنما نحن أخوان ، وما يضير الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه » .

جولات في  
الطريق

وكان أبو بكر رضى الله عنه كتب إلى أبي عبيدة يعلمه بتولية خالد الإمارة العامة  
لظنه أنه أفطن في الحرب ، ولم يكن ذلك ليقلل من مكانة أبي عبيدة عند خليفة رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له في كتابه « أما بعد : فإني وليت خالد أقتال العدو بالشام ،  
فلا تخالفه ، وأسمع له وأطع أمره ، فإني لم أبعثه عليك أن لا تكون عندي خيرا منه ،  
ولكني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك ؛ أراد الله بنا وبك خيرا » .

وكان هذا اللون من الأخلاق الكريمة والأدب الرحيم الذي صورت في إطاره  
أعمال رجال الإسلام الأولين من أقوى دعائم نهضة المسلمين ورفعة شأنهم يوم أن  
كانوا حرصاء على التسامى عن المنافسة في سلطان الدنيا .

لم يكن خالد رضى الله عنه وهو في طريقه إلى مآذبه إليه يكتفي بأنه يعتسف المهالك  
اعتسافا ، ويعطوى المضلات للوصول إلى هدفه طيا ، بل كان لا يبر على بلد من بلدان

الشرك إلا وقف عنده وقفة لا يطيها ، ولكنها وقفة كانت تنتهى دائماً بغنى فى صلح أو نصر فى جولة ، فقد روى أنه مرفى طريقه على « تدمر » فتحصن منه أهلها فأحاط بهم وحاصروهم من كل جانب فلم يقدر عليهم ، وخشى أن يطول مقامة عليهم فيشغله عن مقصده الأعظم ، فترحل عنهم ، وقال لهم : « والله لو كنتم فى السحاب لأنزلناكم وظهرنا عليكم ، ما جئناكم إلا ونحن نعلم أنكم ستفتحون علينا ، وإن أنتم لم تاتوا لصلحنا هذه المرة لأرجعن إليكم لو قد انصرفت من وجهى هذا ، ثم لا أرحل عنكم حتى أقتل مقاتلكم وأسبي ذراريكم » فلما فصل عنهم قال عقلاؤهم : إنا لا نرى هؤلاء القوم إلا الذين كنا نتحدث أنهم يظهرون علينا فافتحوا لهم ، فبعثوا إلى خالد فصالحوه .

وعن سراقه بن عبد الأعلى أن خالداً فى طريقه ذلك مر على « حوران » فهابوه فتحرز أكثرهم منه فأغار عليهم وأستاق الأموال وقتل الرجال ، وأقام عليهم أياماً فبعثوا إلى من حولهم ليدوهم من مكانين : من بعلبك — وهى أرض دمشق — ومن بصرى وهى مدينة « حوران » ، فلما رأى خالد المدين قد أقبل خرج وصف بالمسلمين ، ثم تجرد فى مائتى فارس فحمل على مدد بعلبك ، وهم أكثر من ألفين ، فما وقفوا له حتى أنهزموا ودخلوا المدينة ، ثم انصرف يوجف فى أصحابه وجيهاً حتى إذا كان بمجداء مدد بصرى ، إنهم لأكثر من ألفين ، حمل عليهم فما ثبتوا له فواقاً حتى هزمهم فدخلوا المدينة ، وخرج أهل المدينة فرموا المسلمين بالنشاب فانصرف عنهم خالد وأصحابه حتى إذا كان الغد خرجوا إليه ليقاتلوه فعبجزوا وأظهره الله عليهم فصالحوه .

وكان فى أهل « حوران » عالج يتشجع ، وكان فيمن شهد هذه الواقعة مشركاً فحدث بحديثها عمرو بن محسن قال : والله لخرجنا إليهم بعد ما جاءنا مدد أهل بعلبك وأهل بصرى بيوم ، وإنا لأكثر من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم ، فما هو إلا أن دنونا منهم فثاروا فى وجوهنا بالسيوف كأنهم الأسد ، فأنهزنا أقبح الهزيمة وقتلونا شر مقتلة ، فما عدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم ، ولقد رأيت رجلاً منا كنا نعهده بألف رجل قال : لئن رأيت أميرهم لأقتله ، فلما رأى خالد أقال له : هذا خالد أمير القوم فحمل عليه ، وإنا لنرجو لبأسه أن يقتله ، فما هو إلا أن دنامنه فضرب خالد فرسه فأقدمه عليه ثم استعرض وجهه بالسيف ناطاراً فحفر رأسه ودخلنا مدبنتنا ، فما كان لنا هم إلا الصلح حتى صالحناهم .

قدم خالد اليرموك في عشرة آلاف - كما تقول بعض الروايات - فتم بهم عدد المسلمين أربعين ألفا ، وكان المسلمون قبل قدوم خالد عليهم يقاتلون أعداءهم متساندين ، كل أمير منهم يقصد إلى ناحية ليغزوها ، ويبث غاراته فيها ، وكانوا إذا اجتمع لهم العدو اجتمعوا له وصلى كل أمير بأصحابه وجنده ، وإذا احتاج أحد الأمراء إلى معاضدة من أحد إخوانه سارع إلى إنجاده ، ولكن خالد أَرْضَى الله عنه لما وصل إليهم بجيوش العراق ، ورأى كثرة الروم ، واجتماعهم وخروجهم على تعبئة لم ير الناس مثلها ، لم يشأ أن يفتح على الأمراء بابا ربما لم يقع من أنفسهم - بادى الرأي - موقع الرضا والتسليم ، ذلك أن يفرض عليهم إمارته العامة التي ولاه الخليفة إياها ، واكتفى بإعلام أبي عبيدة لأنه بمنزلة أمير الأمراء قبل ورود خالد عليهم ، فقد قال لهم أبو بكر عند بعثهم : « فإذا قدمتم البلد ، ولقيتم العدو فاجتمعتم على قتالهم فأمركم أبو عبيدة بن الجراح » بل لجأ خالد إلى أسلوب يمكنه من الإشراف النام على إدارة الحرب ، ويرضى عنه أصحابه فيمشون معه قدما في عزائم صارمة ، فقال لهم : « هل لكم يا معشر الرؤساء في أمر يعز الله به الدين ، ولا يدخل عليكم معه ولا منه نقيصة ولا مكروه » ؟ قالوا : نعم ، فخطب الناس بعد أن استأنس من رضاء الأمراء بصفة عامة فقال : « إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة (١) على تساند (٢) وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليسكم ومحبتة » .

قال الأمراء : فهات ، فما الرأي ؟ قال خالد : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سننأسر ، ولو علم بالذي كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيتهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله ، الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ، ولا عند خليفة

(١) تعبئة الجيش : تجهيزه ونهيئته للقتال .

(٢) التساند : أن يعمل الجيش تحت رايات شتى لا تجمعهم راية أمير واحد .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهموا فلتتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا ، والآخر بعد ، حتى يتأمر كلكم ، ودعوني إليكم اليوم .

رضى الأمراء هذا الرأي فأمر واخالداً عليهم ، وهم يرون أنها كخرجاتهم إذ كانوا على تساندهم ، وأن الأمر أطول مما صاروا إليه ، وأن من لم يكن منهم أميراً اليوم فسيكون أميراً غدا .

زمام الإمارة  
في يد خالد

تسلم خالد بن الوليد زممام القيادة ورأى الروم قد خرجت على تعبئة لم ير الرومون مثلها قط ، فخرج لهم في تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك ، فجعل جيشه كراديس<sup>(١)</sup> ، وقال لجنوده : إن عدوكم قد كثر وطغى ، وليس من التعبئة تعبئة أكثر في رأي العين من الكراديس ، فجعل القلب كراديس ، وأقام عليه أبا عبيدة بن الجراح ، وجعل الميمنة كراديس ، وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل ، وجعل الميسرة كراديس ، وعليها يزيد بن أبي سفيان ، وأقام على كل كردوس بطلا من شجعان المسلمين وفرسانهم من أضراب القعقاع وعكرمه ، وعياض بن غنم ، وعبدالرحمن بن خالد ، وكان عبدالرحمن يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة ، وأقام على القضاء أبا الدرداء ، وعلى القصص<sup>(٢)</sup> أباسفيان ابن حرب ، وأمر المقداد بقراءة سورة الجهاد ، وهى الأنفال ، وكان فى هذا الجيش نحو ألف رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فيهم زهاء مائة من أهل بدر ، وكان أبوسفيان يسير فى الكراديس ويقف عليها وهو يقول : الله ، الله ، إنكم قادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك .

وهكذا أعد البطل خالد جيشه لمواجهة حشود الروم إعداداً روحياً ونظامياً لم يسبق للمسلمين أن خرجوا فى مثله ، وكان عدوهم فى كثرة تزيد على خمسة أضعافهم فى أقل تقدير المقدرين ، وسمع سيف الله خالد رجلا من صفوف الناس يقول : ما أكثر الروم وأقل

(١) الكراديس : الكتائب ، قال فى القاموس : وكردس الخيل : جعلها كثيبة .

(٢) القصص هنا لون من الوعظ التاريخي يقصد إلى تحميس الجند وبث الحمية فى قلوبهم .

المسلمين فزجره خالد ورد عليه رداً يجعل من كل جندي من جنود الإسلام جيشاً في إهاب رجل فقال : بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تسكثرون الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر - يعني فرسه - وكان قد حفي في قدمته من العراق - براء من توجيهه (١)، وأنهم أضعفوا في العدد! قال قيس بن حازم - وكان مع خالد في جيشه - : كنا نظن أن الكثير من المشركين والقليل عند خالد سواء، لأنه كان لا يملأ صدره منهم شيئاً، ولا يبالي بمن لقي منهم لجرائته عليهم .

أمر خالد القعقاع بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وكانا على مجنبتي القلب فأنشبا القتال، فبرز القعقاع وهو يرتجز .

يا ليتني ألقاك في الطراد قبل اعتزام الجحفل الورد  
وأنت في حلبتك الورد

وخرج عكرمة وهو يقول :

قد علمت الجوارى أنى على مكرمة أحامى

والتحتم الناس وتطارد الفرسان واقتتلوا قتالاً مريعاً لم ير الناس مثله، قال الطبرى وتابعه ابن الأثير : فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فأخذته الخيول، وسألوه الخبر فلم يخبرهم إلا بسلامة، وأخبرهم عن أمداد، وإنما جاء بموت أبي بكر رحمه الله وتأخير أبي عبيده، فأبلغوه خالداً فأخبره خبر أبي بكر سره إليه، وأخبره بالذى أخبر به الجند، فقال له خالد : أحسنت فقف، وأخذ الكتاب وجعله في كنياته وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند، فوقف شحمة بن زئيم - وكان هو الرسول - مع خالد .

إيمان

وخرج جرجة وهو قائد رومي - حتى كان بين الصفين، ونادى : ليخرج إلى خالد فخرج إليه خالد، وأقام أبا عبيدة مكانه، فوقف القائد الرومى بين الصفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما، وقد آمن أحدهما صاحبه، فقال جرجة : يا خالد : أصدقنى ولا تكذبنى، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسلمه على قوم إلا هزمتهم؟ قال : لا، قال : فيم

قصة جرجة

(١) توجيه : حفاؤه من شدة المشى ووعورة الطريق .

سميت سيف الله ؟ قال إن الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه فقال : « أنت سيف من سيوف الله ، سله الله على المشركين » قال جرجة : صدقتني ، ثم قال له : يا خالد ، أخبرني ألى ماتدعوني ؟ قال : إلى شهادة : أن لا إله إلا الله . وأن محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله ؛ قال : فمن لم يجبكم ؟ قال : فالجزية ونمعتهم ، قال : فإن لم يعطها ؟ قال تؤذنه بحرب ، ثم ثقاتله ، قال : فما منزلة الذي يدخل فيكم ويحييكم إلى هذا الأمر اليوم ؟ قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا ؛ فقال : هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من الأجر والدخر ؟ قال : نعم ، وأفضل . قال : وكيف يساويكم وقد سبقتهموه ؟ قال : إنا دخلنا في هذا الأمر وبايعنا نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع ، وإنكم أتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا .

قال القائد الرومي : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ، ولم تألفني ؟ قال خالد : بالله لقد صدقتك وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن الله لولى ما سألت عنه فقال : صدقتني ، وقلب الترس ومال مع خالد ، وقال . علمني الإسلام ، فقال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء ، ثم صلى ركعتين ، وحملت الروم مع انقلاب جرجة إلى خالد ، وهم يرون أنها حملة من قائدهم . فأزالوا المسلمين عن مواقعهم إلا الحامية ، وكان غلبهم عكرمة والحارث بن هشام ، وركب خالد ومعه جرجة والروم خلال المسلمين ، فتنادى الناس وثابوا وتراجعت الروم إلى مواقعهم ، فزحف خالد بالمسلمين على الروم حتى تصاحفوا بالسيوف ، فضرب فيهم خالد وجرحه من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب ثم أصيب جرجه ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما وصلى الناس الأولى والعصر إيماء ، وتضعض الروم .

وهند خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم ، وكان مقاتلهم واسع المطرد ، ضيق الهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركوا رجلهم في مصافهم ، وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء ، وأخر الناس الصلاة حتى صلوا بعد الفتح .

هزيمة الروم

ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفرجوا لها ولم يخرجوها ، فذهبت ففرقت في البلاد ، وأقبل خالد والمسلمون على الرجل ففضوهم ، فكأنما هدم بهم حائط فاقترحموا في خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوسة (١) حتى هوى فيها المقترون وغيرهم ، فمن صبر من المقتنين للقتال هوى به من جشعت نفسه في هوى الواحد بال عشرة لا يطيقونه ، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف ، فتهاوت في الواقوسة عشرون ومائة ألف ، ثمانون ألف مقتن ، وأربعون ألف مطلق ، سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل ، فكان سهم الفارس يومئذ ألف وخمسمائة ، وتجلل قائد الروم « الفيقار » وتجلل معه أشرف الروم برانسهم ثم جلسوا وقالوا : لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطيع أن نرى يوم السرور ، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية ، فأصيبوا في نزلهم .

والذي نلاحظه على هذا الحديث كما ساقه أبو جعفر الطبري من طريق سيف وتابعه عليه ابن الأثير أن الخبر بموت أبي بكر الصديق ، واستخلاف عمر بن الخطاب ، وعزل خالد بن الوليد عن الإمارة العامة على حند الشام ، وتولية عمله وإمارته أبا عبيدة بن الجراح ؟ وصل إلى علم خالد أول الناس ، والقتال بين المسلمين والروم على أشدهما يكون قتال بين جيشين أجمع كل جيش منهما على إقناء عدوه . فما الذي كان من خالد وهو القائد المعزول ؟ وفي يده زمام المعركة ؟ لقد تصرف خالد أحكم وأحسن تصرف ، فقد استحسن عمل الرسول الذي حمل إليه كتاب عزله في كتابه هذه الأنباء عن خاصة الناس وعامةهم ، حتى أبلغ الكتاب إليه ، فجعله خالد في كتابته ؟ وخشى إن هو أظهر ما اشتمل عليه أن ينتشر له أمر الجند ، ويقتض نظامهم ، وتشيع فيهم الفوضى ، وهذا أمر معروف النتائج .

نبيل عبقرى

وسواء أكان الكتاب الذي ورد به هذا البريد باسم القائد الجديد أبي عبيدة بن الجراح

(١) الواقوسة : مكان هرب باسم عين فيه ، وذكره البلاذري بالياء فقال : الواقوسة : واد فيه القوارة .



وهو ما ترجحه ، وتتأول تسليمه لـ خالد نزولاً على حكم الموقف ، لأنه الأمير في نظر الذين أخذوا البريد ، فكان طبيعياً أن يدفعوه إليه ، أم كان باسم القائد المعزول خالد بن الوليد ، فإن تصرف خالد ذلك التصرف الذي انتهى بالمعركة إلى نصر المسلمين نصراً مؤزراً يدل على أن هذا القائد البطل قد منح من الخصائص النفسية والقوى المعنوية قدراً لا يقدر في الحياة إلا لأفذاذ العباقرة الموهوبين ، فأى قوة نفسية هذه التي مكنت خالداً من ضبط أعصابه بعد إذ عرف إنه معزول عن الإمارة ومؤمن عليه بعد أن كان أمير ليس فوقه أمير ، والنصر بين يديه لو شاء لأدار به وجه التاريخ ؟ إنها قوة الإيمان وقوة العقيدة المسلمة التي لاتدع في قلب صاحبها حظاً لغير الإخلاص .

يجب لكى نقدر هذا الموقف قدره الحق أن نكون واقعيين ، ويجب أن ننظر إلى خالد على أنه رجل له طبيعة البشر ، فإذا استطاع أن يرتفع بنفسه عن مقتضيات البشرية وقد توافرت عنده أعظم دوافعها ، كان ذلك ضرباً من العبقرية المتسامية بخصائصها عن مزلق التنافس البشرى الرخيص .

أما حديث « جرجة » القائد الرومى على سياقته بتفاصيله في الرواية ، فقد يكون في هذه التفاصيل شيء من الصنعة والإضافات التي لاتذهب بالقصه كلها ، بل لعله يبقى منها القدر الذى يدل على سريان الإيمان إلى القلوب في لحظات استنارتها بنور الهداية ومسها بنفحة من نفحات الرحمة الإلهية ، ويدل على فهم القائد العبقرى خالد بن الوليد لنوازع النفوس التي يقفها الشك لحظات بين الجحود والإيمان مذهولة مأخوذة تنتظر يداً رحيمة تدفعها إلى منهل اليقين .

\* \* \*

تختلف الروايات اختلافاً واسع المدى في ترتيب وقائع الفتح الشامى ، وهى تبعاً لذلك تختلف في تعيين الوقائع التي أدارها خالد بن الوليد ، وهو أمير الأمراء ، وفي تعيين وقت عزله عن الإمارة العامة وعمله جندياً في الجيش بعد ذلك .

وسياقنا لواقعة اليرموك بالصورة التي أثبتناها طريقة فريق من المؤرخين في طليعتهم أبو جعفر الطبرى من رواية سيف وتابعه ابن الأثير ، وهى طريقة واضحة فى أن

خالد بن الوليد لم يشهد من الوقائع العظيمة في الشام وهو أمير الأمراء سوى هذه الواقعة، وأن الخبر بعزله ووفاته أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب، وتولية أبي عبيدة بن الجراح الإمارة العامة، كل ذلك جاء به البريد ومعركة اليرموك على أشدها، وانتهت هذه الأنباء إلى خالد فكتبها حرصا على سلامة نظام الجيش وقوته حتى انتهى بالمعركة إلى نهايتها العظيمة، فأسلم زمام القيادة العامة إلى القائد الجديد أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح، وعاد خالد يعمل تحت لوائه قائد فرقة في الموضع الذي كان عليه أبو عبيدة - كما تقول بعض الروايات - وكان أبو عبيدة من أعرف الناس بقدر خالد وبصره بالحرب ويعين نقيبته وتجربته، فلم ينزل به عن مكانه من الرأي وتقديمه لتفريج المضايق عن المسلمين، وبقي خالد جنديا عبقرى البطولة علوى الإخلاص كما كان عبقرى القيادة سامى الإمارة، لم تفتر له عزيمة، ولم يخب له رأى، فكان في حاله خالد بن الوليد سيف الله وبطل الإسلام.

طريقة أخرى  
في ترتيب  
الوقائع

وهناك طريقة أخرى في سياقة الوقائع لفريق آخر من المؤرخين تقدم وقعة «أجنادين» و «مرج الصفر» وحصار دمشق على اليرموك وتبعها خالد في جميع هذه الوقائع أمير الأمراء، وترى أن البريد بموت أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد وتولية أبي عبيدة إنما جاء والمسلمون على حصار دمشق؛ وهذه الطريقة اختارها الديار بكرى في «تاريخ الخميس».

وتلخيص ما ذكره أن خالد بن الوليد وأبا عبيدة بن الجراح الثقفي «العوطة» فأتاها الخير أن «وردان» صاحب حمص قد جمع الجموع يريد أن يقتطع شرحبيل بن حسنة، وهو بصرى، وأن جموعا من الروم قد نزلت «أجنادين» فأذلهما ذلك فتشاروا في الأمر؛ فقال أبو عبيدة أرى: «أن نسير حتى تقدم على شرحبيل قبل أن ينتهي إليه العدو الذي صمد صمده، فإذا اجتمعنا سرنا إليه حتى نلقاه».

فقال له خالد: «إن جمع الروم هذا بأجنادين، وإن نحن سرنا إلى شرحبيل تبعنا هؤلاء من قريب، ولكن أرى أن صمد (١) صمد عظيمهم وأن نبعث إلى شرحبيل فتحذرهم

مسير العدو إليه ونأمره فيوافينا بأجنادين ، ونبعث إلى يزيد بن أبي سيفان وعمرو بن العاص فيوافيانا بأجنادين ثم نناهض عدونا » فقال له أبو عبيدة : « هذا رأى حسن فأمضه على بركة الله » وكان خالد مبارك الولاية ميمون النقية مجربا بصيرا بالحروب مظفرا .

فلما أراد الشخوص من أرض دمشق إلى الروم الذين اجتمعوا بأجنادين ، كتب نسخة واحدة إلى الأمراء قال فيها : « أما بعد فإنه قد نزل بأجنادين جمع من جموع الروم غير ذى قوة ولا عدة والله قاصمهم ، وقاطع دابرهم وجاعل دائرة السوء عليهم ، وشخصت إليكم يوم سرحت رسولى إليكم فاذا قدم عليكم فانهمضوا إلى عدوكم بأحسن عدتكم وأصح نيتكم . ضاعف الله لكم أجوركم وحوط أوزاركم والسلام » ثم أرسل الكتب إلى الأمراء الثلاثة مع نفر من النبط كانوا عيوننا للمسلمين ، وكان المسلمون يرضخون لهم ، ودعا خالد رسوله إلى شرحبيل فقال له : كيف علمك بالطرق ؟ قال : كما تريد ، قال : فادفع إليه هذا الكتاب وحذره الجيش الذى ذكر لنا أنه يريد ، وخذ به وبأصحابه طريقا تعدل به عن طريق العدو الذى شخص إليه ، وتأتى به حتى تقدمه علينا بأجنادين . قال : نعم ، فخرج الرسول إلى الأمراء ، وخرج خالد وأبو عبيدة بالناس إلى أهل أجنادين . فلم يرعهم إلا أهل دمشق فى آثارهم ، والحقوا بأبا عبيدة وهو فى أخريات الناس فنزل إليهم فى مائتى فارس من أصحابه فقاتلهم قتالا شديدا ؛ وأنى الخبر خالد اوهو فى مقدمة الناس فى الفرسان والخيال ، فعطف بهم راجعا وعجل بالخيال حتى انتهى إلى أبي عبيدة وأصحابه فحمل بالخيال على الروم فانهمزوا أمامه ، وتعقبهم ثلاثة أميال حتى دخلوا دمشق فانصرف عنهم ، ومضى بالناس نحو الجابية .

وكان رسول خالد إلى شرحبيل قد أدركه وليس بينه وبين الجيش الذى سار إليه من حمص إلا مسيرة يوم وشرحبيل لا يشعر به فدفع إليه الكتاب فقام شرحبيل فى الناس فقال لهم : « أيها الناس اشخصوا إلى أميركم فإنه قد توجه إلى العدو المسلمين بأجنادين . وقد كتب إلى يأمرنى بموفاته هناك » ثم خرج بالناس حتى وافى المسلمين بأجنادين مع يزيد بن أبي سيفان وعمرو بن العاص فى جندهما ، وعاد جيش وردان الرومى بعد فشله فى اللاحاق بشرحبيل والتقى المسلمون بالروم بأجنادين وتزاحف الجمعان وأقبل خالد بن الوليد

يسير في الناس لا يقر في مكان واحد وهو يقول : اتقوا الله عباد الله ، وقاتلوا في الله من كفر بالله ولا تنكصوا على أعقابكم ولا تهابوا عدوكم ولكن أقدموا كما قدم الأسد ، وينجلي الرعب وأنتم أحرار كرام قد أوتيتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة ؟ ولا يهولنكم ماترون من كثرتهم فان الله منزل رجزه وعقابه بهم .

وكان خالد رضى الله عنه قد أمر نساء المسلمين أن يكن من وراء الناس يحرضن الرجال على القتال ، وكان من رأيه مدافعة العدو وأن يؤخر القتال إلى صلاة الظهر عند مهب الأرياح ، وتلك الساعة هي التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب القتال فيها فأعجله الأرياح الروم فحملوا على المسلمين ورموهم بالنشاب فنادى سعيد بن زيد وكان على الخيل : يا خالد علام نستهدف لهؤلاء الأعلاج وقد رشقونا بالنشاب حتى شمت الخيل ؟ فقال خالد للمسلمين : احموا رحمكم الله على اسم الله فحمل وحمل معه الناس على عدوهم فما واقفوا فها هم فها هم الله وأباح أكتافهم للمسلمين يقتلونهم كيف شاءوا ، واستشهد من المسلمين نفر من ذوى النجدة والبأس ، وكتب خالد إلى أبي بكر بالفتح فقال : « لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد سيف الله الصبوب على المشركين ، سلام عليك فاني أخبرك أيها الصديق : أنا التقينا نحن والمشركون وقد جمعوا لنا جموعا حجة بأجنادين وقد رفعوا صليبهم ونشروا كتبهم وتقاسموا بالله لا يفرحون حتى ينفوننا أو يخرجونا من بلادهم فخرجنا واثقين بالله متوكلين على الله فطاعناهم بالرمح شيئا ثم صرنا إلى السيوف فقارعناهم بها مقدار نحر جزور ، ثم إن الله أنزل نصره وأنجز وعده ، وهزم الكافرين فقتلناهم في كل فج وشعب وغائط فالحمد لله على إعزاز دينه وإذلال عدوه ، وحسن الصنيع لأوليائه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . »

وقدوا في هذا الكتاب أبا بكر في مرضه الذي توفي فيه ، فلما قرأه أعجبه ذلك وقال « الحمد لله الذي نصر المسلمين وأقر عينى بذلك . »

قال سهل بن سعد : وكانت وقعة أجنادين هذه أول وقعة عظيمة كانت بالشام ، وكانت سنة ثلاث عشرة في جمادى الأولى لليتين بقيتا منه يوم السبت نصف النهار قبل وفاة أبي بكر رضى الله عنه بأربع وعشرين ليلة .

وعن ابن اسحاق أن قائد الروم المسمى « الفلقار » أو كما في ابن الأثير تبع الطبرى .

«القبقلار» بعث رجلا من عرب الروم وقال له : ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتني بخبرهم ، فدخل في الناس رجل عربي لا ينسكى عليه ، فأقام فيهم يوماً وليلة ثم أتاه ، فقال له : ما وراءك ؟ فقال له : بالليل رهبان وبالنهار فرسان ولوسرق ابن ملكهم لقطعوا يده ولو زنى لرجم لإقامة الحق فيهم . فقال له القائد الرومي : لئن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ، ولوددت أن الله يخلى بيني وبينهم فلا يصرنى عليهم ولا ينصروهم على . ثم تزاحف الناس فاقتتلوا قتلاً شديداً فاستبسل فيه المسلمون فلما رأى «القلنقار» ذلك قال لقومه : لفوا رأسي بثوب . فقالوا له : لم ؟ قال : هذا يوم بثيس ما أحب أن أراه . مارأيت لي من الدنيا يوماً أشد من هذا . فقتل وهو متلفف .

وقد ذكرنا نحو هذا في وقعة اليرموك برواية الطبري . فهل اشتبه الأمر على الرواة أو تعدد الحادث ؟ قد يساعد اختلاف الأسماء هنا وهناك على ترجيح تعدد الحادث ؛ ولسنا على شيء من اليقين في هذا .

ثم إن خالد أمر الناس أن يسيروا إلى دمشق فنزلها مما يلي الباب الشرقي في دير هناك على نحو ميل منها يعرف بدير خالد لنزوله به . ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ، ونزل يزيد بن أبي سفيان على باب آخر فأحاطوا بها وحاصروها حصاراً شديداً حتى رماهم أهلها بالنشاب . ورشقوهم بالحجارة . وإذا بالخبريأتي إلى خالد أن هذا جيش رومي قد أتاكم فنهض خالد على تعبئته فقدم الأثقال والنساء وخرج معهن يزيد بن أبي سفيان ووقف خالد وأبو عبيدة من وراء الناس . ثم أقبلوا نحو ذلك الجيش فإذا هو قائد رومي يدعى «دربخان» بعثه ملك الروم في عدد من أهل الباس والنجدة من جنود الروم ليغيث أهل دمشق ، فصمد المسلمون صمدهم والتفوا بهم في « مرج الصفر » سنة أربع عشرة وخرج إليهم أهل القوة من أهل دمشق وحمص فكانوا عدداً عظيماً . فلما نظر إليهم خالد عجب لهم أصحابه كتعبئته يوم « أجنادين » وأمر سعيد بن زيد — وكان على الخيل — فحمل على معظم جمع الروم فانتفض حبل نظامهم وحمل المسلمون معه فهزموهم وظفروا بهم فقتلوا كل قتلة .

قال أبو أمامة : وكان بين أجنادين ومرج الصفر عشرون يوماً فحسبت ذلك فوجدته

يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام .

ثم إن المسلمين أقبلوا عودهم على بدءهم حتى نزلوا دمشق على منازلهم التي كانوا عليها في حصار دمشق . وكانوا يغزون ما حولهم من البلدان فكما أصاب رجل منهم نقلا جاء به حتى يلقيه في القبض لا يستحل أن يأخذ منه شيئا . حتى إن الرجل ليحجىء بالكعبة الغزل والكعبة الصوف من الشعر . أو المسلة أو الإبرة فيلقها في القبض لا يستحل أن يأخذها . فسأل صاحب دمشق بعض عيونه من أعمال المسلمين وسيرتهم فوصفهم له بهذه الصفة بالأمانة ووصفهم بالصلاة بالليل وطول القيام فقال : هؤلاء رهبان بالليل أسد بالنهار . والله ما هؤلاء طاقة . ومالي في قتالهم خير . ثم راود المسلمين على الصلح . فأخذوا يعطيهم ما يرضيهم ولا يتابعونه على ما يسأل وهو في ذلك لا يمنعه من الصلح والفراغ منه إلا أنه قد بلغه أن قيصر يجمع الجوع لحرب المسلمين وبينها هم كذلك إذ بلغ المسلمين الخبر بوفاة أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وصرف خالد بن الوليد عن الإمارة وقيادة الجيوش بأبي عبيدة بن الجراح .

وهذه الطريقة التي اختارها الديار بكرى غير مستقيمة النسيج لأنها تذكر أن واقعة « مرج الصفر » كانت سنة أربع عشرة وتجعل ذلك قبل وفاة أبي بكر وهذا غلط لا ريب فيه لأن وفاة أبي بكر رضى الله تعالى عنه كانت سنة ثلاث عشرة فاما أن تكون واقعة المرج المحدث عنها بامارة خالد بن الوليد وقعت سنة ثلاث عشرة ، ويصح حينئذ أنها كانت قبل وفاة أبي بكر . وهذا هو الراجح عندنا لأن تفاصيل المعركة كما تروىها الرواية تشعرنا بامارة خالد فيها وهذا قطعا كان في حياة أبي بكر ؛ وإما أن تكون هذه الواقعة جرت في سنة أربع عشرة كما تقول الرواية . وحينئذ لا يمكن أن تكون قد حدثت قبل وفاة أبي بكر رضى الله عنه .

والذي يرجح لدى البحث أن دمشق حوصرت أكثر من مرة واحدة قبل فتحها صلحا أو عنوة، وأن واقعة في « مرج الصفر » جرت بين المسلمين والروم أكثر من مرة واحدة كانت واحدة منها بعد الحصار الأول على يد خالد بن سميد فقتل فيها هو وأبوه، وكانت واحدة أخرى منها على يد خالد بن الوليد وهي التي تذكر الرواية أنها كانت قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام ؛ ومن مرج الصفر توجه خالد بن الوليد إلى اليرموك فواجه

حشود الروم ، وثمة جاء الخبر بوفاة أبي بكر واستخلاف عمر وعزل خالد وتولية أبي عبيدة ، ثم كان حصار دمشق الذي فتحت عليه بإمرة أبي عبيدة وتدير خالد بن الوليد .

ويرشح ذلك قول الطبرى : ثم كانت « مرج الصفر » استشهد فيها خالد بن سعيد ، وعدة من المسلمين ، وقيل إن المقتول في هذه الغزوة كان إبننا لخالد بن سعيد ، وأن خالدًا انحاز حين قتل ابنه ، فوجه أبو بكر خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشام .

فهذا صريح في أن واقعة وقعت في مرج الصفر قبل أن يوجه خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشام .

ثم قال أبو جعفر الطبرى : ولما بلغ غسان خروج خالد على سوى وانتسافها ، وغارت على مصيخ بهراء وانتسافها ، فاجتمعوا بمرج راهط وبلغ ذلك خالدًا وقد خلف ثغور الروم وجنودها مما إلى العراق فصار بينهم وبين اليرموك ، صمد لهم فخرج من سوى بعد ما رجع إليها يسبي بهراء فنزل الرماثين - علمين على الطريق - ثم نزل الكشب حتى صار إلى دمشق ثم مرج الصفر فلقى غسان وعليهم الحارث بن الأيهم فانتسف عسكرهم وعيالاتهم ونزل بالمرج أياماً وبعث بالأخماس مع بلال بن الحارث المزني ثم خرج من المرج حتى نزل قناة بصرى فكانت أول مدينة افتتحت بالشام على يد خالد فيمن معه من جنود العراق وخرج منها فوافى المسلمين بالواقصة .

فهذا أيضاً صريح في أن خالد بن الوليد صار إلى دمشق فحاصرها ثم إلى مرج الصفر ، ونزل المرج أياماً ومن المرج كتب لأبي بكر ، وأرسل إليه بالأخماس ، وأنه خرج من المرج إلى بصرى فافتتحها وخرج منها إلى اليرموك التي يقول بعض المؤرخين : إن غزوتها كانت في رجب أى من سنة ثلاث عشرة - وإذا كانت وفاة أبي بكر وقعت في جمادى الآخرة على أرجح الروايتين فمعقول أن يكون البريد الذي حمل خبر وفاة أبي بكر واستخلاف عمر وصرف خالد بن الوليد بأبي عبيدة قد استغرق هذا الأمد فيما بين واقعة مرج الصفر على يد خالد بن الوليد وواقعة اليرموك التي وصل البريد وهي لا تزال محتدمة .

وقريب من مختار الديار بكرى رواية الطبرى من طريق محمد بن اسحاق قال : لما فرغ المسلمون من أجنادين ساروا إلى « نخل » من أرض الأردن وقد اجتمعت فيها



رافضة الروم والمسلمون على أمراءهم وخالد على مقدمة الناس ، ثم نهضوا إلى الروم وهم بفحل فاقتتلوا فهزمت الروم ودخل المسلمون فحل ، ولحقت رافضة الروم بدمشق ، فكانت فحل في ذى القعدة سنة ثلاث عشرة على ستة أشهر من خلافة عمر ، وأقام تلك الحجة للناس عبد الرحمن بن عوف ، ثم ساروا إلى دمشق وكان عمر عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس فالتقى المسلمون والروم فيما حول دمشق فاقتتلوا قتالا شديدا ثم هزم الله الروم وأصاب منهم المسلمون ودخلت الروم دمشق فغلقوا أبوابها وخيم المسلمون عليها فربطوها حتى فتحت دمشق ، وأعطوا الجزية ، وقد قدم الكتاب على أبي عبيدة بإمارته وعزل خالد ، فاستحى أبو عبيدة أن يقرىء الكتاب خالدا حتى فتحت دمشق وجرى الصلح على يدي خالد وكتب الكتاب باسمه .

وأبعد هذه الروايات زعم الواقدي أن واقعة اليرموك كانت سنة خمس عشرة وأنها آخر الوقائع .

ومهما يكن من أمر ترتيب هذه الوقائع تقديما وتأخيرا فإنه لا يمس الحقيقة الكبرى في نصيب البطل العبقري خالد بن الوليد من فخر هذه الوقائع أميرا وقائدا وجنديا ، فالرواة الذين يروون عزل خالد في واقعة اليرموك ، ويقولون : إنها كانت أولى الوقائع الكبرى في فتوح الشام . ويقولون إن خالدا رضى الله عنه شهد ما بعدهما من الوقائع قائد كتيبة أو جنديا من جنود الإسلام ، يعتقدون بناصيته ففخر ما تم من نصر للمسلمين في هذه الوقائع ، ويردونه إلى تدبيره وشجاعته .

يقول ابن الأثير في فتح دمشق وهو يلخص ما عند الطبري : لما هزم الله أهل اليرموك استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشر بن كعب الحميري ، وسار حتى نزل بالصفير فأتاه الخبر أن المنهزمين اجتمعوا بفحل ، وأتاه الخبر أيضا بأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فكتب ، إلى عمر في ذلك فأجابه عمر بأن يبدأ بدمشق فإنها حصن الشام ، وبيت ملكهم ، وأن يشغل أهل فحل بخيل تكون بازائهم ، وإذا فتح دمشق سار إلى فحل ، فإذا فتحت عليهم سار هو وخالده إلى حمص ، وترك سرحبيل بن حسنة وعمرًا بالأردن وفلسطين ، فأرسل أبو عبيدة إلى فحل طائفة من المسلمين فنزلوا قريبا منها ، ويثق الروم الماء حول فحل فوحت الأرض فنزل عليهم المسلمون فسكان أول محصور

بالشام أهل فحل ، ثم أهل دمشق ، وبعث أبو عبيدة جندا فنزلوا بين حمص ودمشق ، وأرسل جندا آخر فسكانوا بين دمشق وفلسطين ، وسار أبو عبيدة وخاله فقدموا على دمشق وعليها « نسطاس » فنزل أبو عبيدة على ناحية وخاله على ناحية وعمرو على ناحية ، وكان هرقل قريبا من حمص فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصارا شديدا ، وقتلوه بالزحف والمجانيق ، وجاءت خيول هرقل مغيثة دمشق فمنعها خيول المسلمين التي عند حمص فخذل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمون ، وولد للبطريق الذي على أهل دمشق مولود فصنع طعاما فأكل القوم وشربوا وتركوا مواقفهم ، ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خاله فإنه كان لا ينام ولا ينام ولا يخفى عليه من أمورهم شيء ، عيونه ذاكية وهو معنى بما يليه قد اتخذ جبلا كهيئة السلايم وأوهاقا<sup>(١)</sup> ، فلما أمسى ذلك اليوم تهض هو ومن معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه ، وقالوا إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقوا إلينا وأقصدا الباب ، فلما وصل هو وأصحابه إلى السور وألقوا الحبال فعلق بالشرف منها حبلان فصعد فيهما القعقاع ومذعور وأثبتا الحبال بالشرف وكان ذلك المكان أحصن مكان بدمشق وأكثره ماء فصعد المسلمون ثم انحدر خالد وأصحابه وترك بذلك المكان من يحميه ، وأمرهم بالتكبير فكبروا فأتاهم المسلمون إلى الباب وإلى الحبال وانتهى خالد إلى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لا يدرون ما الحال ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وفتح خالد الباب وقتل كل من عنده من الروم فلما رأى الروم ذلك قصدوا أبا عبيدة وبذلوا له الصلح فقبل منهم وفتحوا له الباب وقالوا له : ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ، ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة ، فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا قتلا ونهباً وهذا صفحاً وتسكيناً فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح .

وليس فتح دمشق وشجاعة خالد وتدييره فيه بأحق بالتسجيل من موقفه في فتح « قسرين » ذلك الموقف الذي انتزع من عمر بن الخطاب كামته البارعة في تقرير خالد بما يرد الحقائق إلى منابعها الأصلية من التاريخ ويهرج الزائف من الروايات الدخيلة في تاريخ الإسلام .

(١) الأوهاق . جمع مفردة وهق ، وهو الخبل يكون في آخره عقدة سهلة الحل .

قال أبو جعفر الطبرى: وبعث أبو عبيدة بعد فتح حمص خالد بن الوليد إلى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف إليهم الروم وعليهم « ميناس » وهو رأس الروم وأعظمهم فيهم بعد هرقل فالتقوا بالحاضر فقتل ميناس ومن معه مقتلة لم يقتلوا مثلها ، فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق أحد ، وأما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد : أنهم عرب وأنهم حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه فقال لهم خالد : إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا ، فنظروا فى أمرهم وذكروا مالتى أهل حمص فصالحوه على صلح حمص فأبى إلا على تخريب المدينة فأخربها وأبطأت حمص وقنسرين وخنس هرقل إلى القسطنطينية ، وكتب أبو عبيدة بهذا الفتح إلى عمر وذكر له فعل خالد وكلمته لأهل قنسرين فقال عمر كلمته الخالدة : « أمر خالد نفسه . يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى »

وشهد خالد رضى الله عنه فتح بيت القدس ، وكان مع أبى عبيدة فى لقاء عمر بن الخطاب بالجالية وشهد على كتاب صلح أهل إيلياء الذى عقده عمر لهم فى قدمته على بلدهم .

## الفصل الثاني عشر

عزل خالد  
لماذا عزل عمر بن الخطاب؟ خالد بن الوليد

سؤال — خواله خالد — بين الباحث والمؤرخ — مفاجأة — إعظام التاريخ عزل خالد — خالد عدل عمر — اختلاف الروايات في أسباب العزل — الرواية الأولى — نقد وتحليل — الرواية الثانية — موازنة وتمحيص — الرواية الثالثة — وهرجتها — الرواية الرابعة — تزيفها — الرواية الخامسة ونقدها — رواية راجحة .

---



هذا هو السؤال الذى يترأى لكل من يقرأ سيرة القائد المظفر بطل الإسلام خالد بن الوليد حتى تنتهى به إلى تلك النهاية الوداعة التى ختمت بها حياة أعظم قائد حربى فى تاريخ الإسلام ، بل فى تاريخ الحياة .

وفى الحق إنه سؤال يبدو طبيعياً ، ليس فى طاقة قارئ هذه السيرة دفعه ولا مدافعتة إلا إذا استبان له الحقائق التاريخية فى صورتها الفصيحة بعيدة عن شوائب الروايات الواهنة وأغاليط القصص السقيمة ، مع النظر إلى مقومات شخصيتى الفاروق وخالد بن الوليد فى خطوطهما الأولى نظراً بريئاً من « الرتوش » التى تحاطبها الصور فتتأى بها عن هيكلها الخالد الذى لا يحول .

\* \* \*

خو  
الد  
خال

أسلم خالد بن الوليد رضى الله عنه سنة ثمان - على أرجح الروايات - فكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعدل به أحداً فيما حازه ، خرج فى غزوة « مؤتة » وهى أولى خرجاته الإسلامية - جندياً فعاد منها قائداً قد أمره المسلمون عليهم ، وأثنى على تأميره النبي صلى الله عليه وسلم ، وسماه « سيف الله » وسمى عمله فى إنقاذ جيش المسلمين فتحاً على مارواه البخارى فى صحيحه .

وأمره النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة « الفتح » على جميع جند القبائل ممن عدا المهاجرين والأنصار ، وأرسله أمير سرية لتخميم « العزى » وأمير أخرى لتخميم « اللات » وبعثه للتثبت من بنى المصطلق بعد فعلة الوليد بن عقبة ، وأمره على عامة بنى سليم فى غزوة « حنين » وسيره فى ألف رجل طليعة فى جوار ثقيف : وأرسله إلى « دومة الجندل » ففتحها وأخذ صاحبها الأكيد أسيراً ، ولما كانت غزوة « تبوك » جعله النبي صلى الله عليه وسلم على الفرسان والحيل ، وبعثه إلى « بجران » هادياً ومعلماً ، وأرسله إلى بنى جذيمة فأوقع بهم من أولافبرىء النبي صلى الله عليه وسلم من عمله ، ولم يعزله ولم يغضب عليه ، ولكنه أَرْضَى بنى جذيمة .

وهكذا ظل خالد بن الوليد رضى الله عنه حياة النبي صلى الله عليه وسلم منذ أسلم وهو فى مكان الصدارة من جنود الإسلام لم يتزحزح عن الإمارة وقيادة الجيوش حتى

انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وهو عنه راض وبه حفي .

ثم قام بأمر المسلمين الصديق الأعظم أبو بكر فتولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففاجأته ردة العرب وهو في قلعة من المسلمين فيما بين المسجدين فشمس الحرب العرب حتى يعيدهم إلى رسن الإسلام ، فعقد الألوية وعبأ الجيوش ، فكان قائده الأول في هذه الحرب الضروس خالد بن الوليد الذي هزم طليحة الأسدي ومسيلمة الكذاب ، وأرهب سجاح ، وفرق جموع « أم زمل » وأوقع بني يربوع ، وقتل زعيمهم مالك بن نويرة ، فقال عنه بعض من شهد مقتله إنه أخطأ في قتله ، ولكن أبا بكر الصديق لم يعزله ، وقبل منه حبته ، وأرضى بني يربوع ، ثم وجه أبو بكر قائده المظفر لفتح العراق ورعبلة فارس ، فتم على يديه ذلك ؛ ولما تضايق المسلمون بالشام وتكاثر عليهم أمداد الروم ، وهاب الأمراء أن يقدموا استمدوا الصديق ، فلم ير لهذا الموقف أحمد من خالد بن الوليد ينسى به الروم وساوس الشيطان ، فوجهه أميرا على الأمراء فخاضها مع الرومان كما حاضها مع الفرس ، وفتح الله عليه أبواب الشام من اليرموك إلى أجنادين إلى دمشق إلى خيبر إلى حمص إلى المريج وإلى ما شاء الله من بلاد وأمم دخلت في الإسلام أو كانت تحت ظله وحمايته بفضل عبقرية خالد بن الوليد .

فلماذا بدأ عمر بن الخطاب عمله في دولة الإسلام بعزل هذا القائد المظفر الذي لم تنكس له راية ولم يسقط له لواء ؟ أليس عجيبا ألا يرد هذا السؤال ؟ بلى ! !

\*\*\*

يختلف الباحثون والمؤرخون في أسباب هذا العزل ، وسبيل المؤرخ في هذا أيسر من سبيل الباحث ، ولا سيما طريقة القدامى من المؤرخين التي تعتمد على سرد الروايات معزوة إلى الرواة ؛ أو إلى كتب التاريخ ، ولا تبالى أن يضرب بعض تلك الروايات وجه بعض .

بين الباحث  
والمؤرخ

وليت الأمر وقف عند عزل خالد عن الإمارة العامة أو إمارة الأمراء كما سماها أبو بكر الصديق في كتابه إلى خالد ، بل ليته وقف عند عزل خالد عن قيادة كتيبة فتبقى له بعض خواص الإمارة ، بل ليته وقف عند حد إبقاء خالد جنديا مجاهدا يعمل



تحت إمرة إخوانه من الأمراء والقواد ، بل إن عزل خالد انتهى إلى إبعاده عن ساحة الجهاد العملي إبعاداً كلياً حتى مات تلك الميتة التي قدرت له وهو أبعد الناس عن الرغبة في هدوءها ووداعتها .

وأما سبيل الباحث الذي يريد أن يحقق الحوادث ليتعرف الواقع منها من المتخيل ، والصادق من المنحول ، والثابت من المصنوع ، ففيها من العسر والتكاؤد ما يحوج الباحث إلى التجمل بالصبر والمصابرة ، والتوقف قبل المهاجمة ، مع التأمل والتفكير .

كان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قد ولي خالد بن الوليد إمارة أمراء الشام فجعله القائد العام على جند الشام كله ، فتوجه خالد إلى عمله الجديد ، وأدرك المسلمين باليرموك وهم متضايقون بالروم ، وتسلم زمام القيادة ورتب جيوشه وأنشأ المعركة والتحم زحف المسلمين بزحف المشركين ، وتراءت للناس بشائر النصر تلمع في ثواصي المسلمين وإذا بالبريد يفجئهم بموت أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة وتوليها أبا عبيدة بن الجراح ، وجعل خالد مكانه قائد فرقة ، ومع البريد كتاب من الخليفة الجديد عمر بن الخطاب إلى القائد الجديد أبي عبيدة ابن الجراح يقول فيه : « أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تتركهم منزلاً قبل أن تستريد لهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا في كشف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة وقد أهلك الله بني ، وأبلا بني بك ، فتمض بصرك عن الدنيا ، وأله قلبك عنها ، وإياك أن تهلك كما أهلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم » .

ثم يأمره أن يسير أهل العراق إلى عراقهم لتنفيذ سياسة أبي بكر وأمره ، فقد قال لعمر بعد أن عهد إليه بالخلافة : « وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهلهم وولاه أمره وحده ، وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم » وهنا يذكر أبو جعفر الطبري أن عمر بن الخطاب قال : « كان أبو بكر قد علم أنه يسوءني أن أوامر خالد على حرب العراق حين أمرني بصرف أصحابه وترك ذكره »

وهذه كلمة حق من رجل كان الحق آثر عنده من الدنيا بحذافيرها، فقد كان يشير على أبي بكر بعزله فيأبى عليه أشد الإباء ويقول : لا أشيم سيفاسله الله على الكافر بن، فكان عمر يقول : أما والله لئن صير الله هذا الأمر إلى لأعزلن المثنى بن حارثة عن العراق ، وخالد بن الوليد عن الشام ، حتى يعلم أن الله هو الذي نصر ليسا هما ؛ فلما تولى عمر الخلافة أسرع إلى عزل خالد وقال : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر لم أنفذه .

إعظام التاريخ والمؤرخون قد وضعوا قضية عزل خالد بن الوليد موضعها من التاريخ ، فكم من عزّل خالد قائد عزل عن مرتبته فلم يحس له الناس بأثر ، ولم يذكر التاريخ عنه كلمة ؟ وهؤلاء جماعة من الأمراء والولاة والقادة والفرسان من أضراب سعد بن أبي وقاص ، وعمر بن العاص ، وأبي موسى الأشعري ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، والمثنى ابن حارثة ، والبراء بن مالك عزلهم عمر بن الخطاب نفسه فلم يعقد التاريخ اعزلهم قضية وإنما اكتفى بأن يشير إلى الشيء من هذا عند مناسبته .

خالد عدل عمر أما عزل خالد بن الوليد فقد أعظمه التاريخ وراح يبحث له عن أسباب يردّه إليها ، لأن خالد بن الوليد له في نظر التاريخ الإسلامي مقام ليس لأحد من أبطال الإسلام نظيره ، وقد عرفنا احتفاء النبي صلى الله عليه وسلم به وتقديمه على الأجلاء من السابقين ، وأنه ما كان يعدل به أحدا من أصحابه فيما حزه .

ولقد كان أبو بكر الصديق يرى في خالد بن الوليد عدلا لعمر بن الخطاب ، وعمر هو من هو في الإسلام كله وعند أبي بكر خاصة ؛ ذكر أبو جعفر الطبري : أن أبا بكر قال في حديث جرى له في مرضه الذي توفي فيه مع عبد الرحمن بن عوف : « وددت أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق . فكنت قد بسطت يدي كليهما في سبيل الله » بل إن عمر بن الخطاب نفسه كان يرى هذا الرأي في خالد ، وأنه عدله ونظيره في دولة الإسلام ، وأن أحدا من الناس لا يهزى جزاء خالد سوى عمر . روى ابن حجر في الإصابة عن الإمام مالك بن أنس قال : قال عمر لأبي بكر : اكتب إلى خالد لا يعطى شيئا إلا بأمرك ؛ فكتب إليه بذلك . فأجابه خالد : إما أن تدعني وعلمي ، والافشأ نك بعملك . فأشار عليه عمر بعزله .

فقال أبو بكر : فمن يجزى عنى جزاء خالد ؟ قال عمر : أنا ؛ قال : فأنت ؛ فتجهز عمر حتى أنيخ الظهر فى الدار ؛ فمشى أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبى بكر ؛ فقالوا : ماشأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه ؟ ومالك عزلت خالدا وقد كفالك ؟ قال : فما أصنع ؟ قالوا : تعزم على عمر فيقيم ، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله ففعل .

يبد أن طريقة قدامى المؤرخين - كما قلنا - لا يعينها البحث فى ربط الأحداث بأسبابها اختلاف العقولة ، وإنما عنايتها مصروفة إلى الرواية تسردها سردا . والقصة تزجها إزجاء . الروايات فى ولا عليها أن تكون الرواية أو القصة صحيحة أو مولدة . ومن هنا تعددت الروايات أسباب العزل واختلفت طرائق المؤرخين فى سبب عزل خالد بن الوليد .

١ - يقول الطبرى فى حوادث السنة الثالثة عشرة . « وأما ابن اسحاق فإنه قال فى الرواية الأولى أمر عزل خالد وعزل عمر إياه . إنما نزع عمر خالدا فى كلام كان خالد تكلم به - فيما يزعمون - ولم يزل عمر عليه ساخطا ولأمره كارها فى زمان أبى بكر كاه لوقعته بابن نوية . وما كان يعمل به فى حربه . فلما استخلف عمر كان أول ما تكلم به عزله . فقال : لا يلى لى عملا أبدا ؛ فكتب عمر إلى أبى عبيدة : إن خالد أكذب نفسه فهو أمير على ماهو عليه . وإن هو لم يكذب نفسه فأنت الأمير على ماهو عليه . ثم انزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله نصفين . فلما ذكر أبو عبيدة ذلك لخالد قال : أنظرنى أستشير أخى فى أمرى . ففعل أبو عبيدة . فدخل خالد على أخته فاطمة بنت الوليد . وكانت عند الحارث بن هشام . فذكر لها ذلك . فقالت : والله لا يحبك عمر أبدا . وما يريد إلا أن تكذب نفسك ثم ينزعك . فقبل رأسها . وقال : صدقت والله فتم على أمره . وأبى أن يكذب نفسه . فقام بلال مولى أبى بكر إلى أبى عبيدة فقال : ما أمرت به فى خالد ؟ قال أمرت أن أنزع عمامته وأقاسمه ماله ، فقاسمه ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : إن هذا لا يصلح إلا بهذا ، فقال خالد . أجل ، ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك ، فأخذ نعلا وأعطاه نعلا ، ثم قدم خالد على عمر المدينة حين عزله » .

ثم تابع ابن اسحاق حديثه عن خالد ولا حقه فى المدينة بعد عزله ، فقال : « كان عمر كلما مر بخالد قال . يا خالد أخرج مال الله من تحت استاك : فيقول والله ما عندى من مال ، فلما أكثر عليه عمر قال له خالد : يا أمير المؤمنين ؛ ما قيمة ما أصبت

في سلطانكم ؟ أربعين ألف درهم ؟ فقال عمر : قد أخذت ذلك منك بأربعين ألف درهم ، قال : هو لك ؛ قال : قد أخذته ، ولم يكن لخالد إلا عدة ورقيق ، فحسب ذلك فبلغت قيمته ثمانين ألف درهم فناصفه عمر ذلك ، فأعطاه أربعين ألف درهم ، وأخذ المال ، فقيل له : يا أمير المؤمنين : لو رددت على خالد ماله ؟ فقال : إنما أنا تاجر المسلمين ، والله لا أردده عليه أبدا . فكان عمر يرى أنه اشتفى من خالد حين صنع به ذلك .

تقدو تحليل

هذه رواية كثيرة التعاريج والتواءات وكأنها تنادى على نفسها بالزيف والتلفيق . ومن حق البحث أن نقف معها لنعرف مداخلها ، ونكشف عن مواضع الريبة ومضان التلفيق والزيف فيها حتى يكون في هذا النحو من النظر في روايات التاريخ منبهة للناشئة المثقفة فلا تخدع عن عقولها بتصديق كل مادون القدامى من روايات وأقاصيص . ومحمد بن اسحاق راوى هذه الأقصوصة تكلم فيه حذاق الناقدين من صيارفة الجرح والتعديل بما يكفي لإسقاط رواياته من حساب الاعتبار والتعويل ، مع ذلك فإننا نقطع النظر عنه لأن رواية التاريخ لم يقصد إليها قصد نقد الرواة فهو كغيره من رواة السير والتاريخ وقد يكون في بابه من أمثلهم ، وإنما ننظر في الرواية وما اشتملت عليه لنعرف قيمتها من الواقع التاريخي .

أولا : تزعّم هذه الرواية أن عمر بن الخطاب إنما نزع خالد بن الوليد بسبب كلام تكلم به خالد ، ونحن نسأل ، ماذا ذلك الكلام الذي تكلم به خالد فاستحق به العزل من القيادة العليا لجيوش الإسلام في وقت كان النصر معقودا بناصيته ؟ أفسكان ذلك الكلام كلاما يمس الدين أو نظام الحكم ؟ أم كان كلاما يمس عمر بن الخطاب في شخصه ؟ ليس في شيء من الروايات ما يبين لنا ذلك الكلام حتى يمكن النظر فيه وفيما يقتضيه ، فهو أمر مجهول لا يصلح للتعويل عليه في قضية تاريخية من عظائم الأحداث في الإسلام ، ولم يعرف في تاريخ خالد بن الوليد منذ دلف إلى الإسلام أنه وقف موقفا ينكره الإسلام ، ولا حفظت عنه كلمة تخدش عقيدته ، ولم يعرف عنه أنه انحاز إلى جهة من الجهات التي تنازعت الخلافة وسلطان الحكم في الإسلام .

ثانياً : تقول هذه الرواية . ولم يزل عمر عليه ساخطا ولأمره كارها في زمان أبي بكر كاه لوقعته بأبن نؤيرة ، وما كان يعمل به في حربه .

وهذان سببان جديدان تذكرهما الرواية لعزل خالد ، فأما وقعة خالد بمالك بن نويرة وموقف عمر بن الخطاب منه فقد عرفت حديثه بما له وما عليه في فصل مضى . وأما ما كان يعمل به خالد في حربه فإنما يعنى به ميله إلى الاستقلال المطلق في تصرفاته في دائرة عمله وإمارته ، وهو أمر جرى أن يكون سبباً للعزل ، وستحدث عن ذلك بالتفصيل في موضعه ، والذي ننبه إليه هنا أن هذه الرواة واضحة التلخيص ، جمعت الغث إلى السمين ، والجدير بالصحة إلى العليل السقيم .

ثالثاً : تزعم هذه الرواية : أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة يقول له : إن خالد أ كذب نفسه فهو في مكانه أمير الأمراء كما جعله أبو بكر الصديق ، وإن لم يكذب نفسه ، فهو معزول عن الإمارة ، محال إلى المحاكمة ، وأية محاكمة ؟ محاكمة من لون لم يعرفه آحاد الناس وعامتهم في الإسلام ، بله قاداتهم وخاصتهم ، لا بل قائد القواد ، وبطل الإسلام ، وأمير الأمراء خالد بن الوليد ، محاكمة ليس فيها تحقيق ، وإنما هي ضرب من التنكيل والامتهان ، وأى تنكيل أشد وأفسى من أن ينتزع لواء النصر وهو يرفرف على هامة القائد المظفر ، ثم يطوح به إلى حضيض التهمة والخيانة ؟ وأى امتهان أمض لنفس البطل من أن يقاد على سمع جنوده وبصرهم كما يقاد الجمل الخشوش . ثم تنزع عمامته عن رأسه ، ونزع العمامة عن الرأس في نظر المآثر العربية ضرب من المثلة شنيع ؟ وأى كرامة تبقى لقائد يراه جنوده في موقف كهذا يقاسم ماله بأمر أمير المؤمنين ؟ أليس هذا تسجيلاً للخيانة ؟

رابعاً : تزعم هذه الرواية : أن خالد بن الوليد استمهل أبا عبيدة حتى يستشير أخته فاطمة بنت الوليد ، فأشارت عليه بأن هذه مكيدة من عمر بن الخطاب نصب حبالها ليوقع بها خالدًا في إكذاب نفسه ثم ينزعه من عمله لأن عمر في زعم هذه الرواية يبغض خالدًا ولا يحبه أبداً ، فهو لا يريد تحقيق قضية ولا يريد معرفة حق ، ولكنه يريد نسكاً بخالد ، فهو يحتال عليه ويمكر به حتى يكذب نفسه ثم ينزعه ، وقد صدق خالد أخته فاطمة وأمعن في تصديقها قبل رأسها وأبى أن يمكن لحيلة عمر ومكره به أن ينالا منه ، فلم يكذب نفسه .

أليس هذا طرزا من القصص الخبيث الذي يقصد به الحط من شأن الفاروق عمر ابن الخطاب في عدله الذي سار في الآفاق مسير ضوء النهار مع أشعة الشمس ؟ ويقصد

به النيل من بطل الإسلام وقائده المظفر خالد بن الوليد ؟ ثم هل لنا أن نسأل في أي شيء يكذب خالد نفسه أو لا يكذبها ؟ ألا قالت لنا هذه الرواية الزائفة عن حقيقة ذلك الشيء لنعرف ما هو ؟ وبأي الأشياء يلتحق ؟ أبا لدين أم بالدنيا ؟ وما قيمته وخطره ؟ ليس في الرواية ما يكشف عن هذه العميات المقصود تعميتها لتوقع في الأنفس أشياء وأشياء حول أشخاص هم من آخر مفاخر الإسلام .

ومتى عرف عن خالد أنه استشار أخا أو أما ؟ ولكن الرواية الزائفة تريد أن توقع في الأذهان أن عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ليسا كما عرفهما تاريخ الإسلام الصحيح في مكانهما من الدين ورسوخ الإيمان ، والترفع عن الشبهات ؛ بله المنكرات ، هي تريد أن تقول للناس : إن عمر بن الخطاب يبغيض خالدًا بغضا ينزع إلى عرق جاهلي تعرفه أسرة خالد حتى نساؤها ؛ فهو لا يريد بما صنع مع خالد — إن كان قد صنع معه شيئاً — الإسلام وتنفيذ أوامره ؛ وإنما هو يريد إلى شفاء نفسه من حزازات قديمة موروثة ؛ أليس هذا من أعجب العجائب ؟ عمر بن الخطاب النموذج الأعلى لروح الإسلام ممزوجة بفضائل العليا ومقوماته الإنسانية ؛ وعناصره الاجتماعية ؛ وآدابه السامية ؛ تصويره هذه الرواية مع أعظم قائد وأشجع بطل عرفه الإسلام خالد بن الوليد بهذه الصورة التي لا تتماهى إلا على أساس أن عظيمي الإسلام فاروقه وسيفه لم يكونا من هذا الإسلام كما يعرفهما المسلمون من طريق وثيق الأخبار ( عن الصادق المصدوق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ) ومن طريق حياة عمر وخالد في الإسلام .

خامسا : تقول هذه الرواية : إن بلالا مولى أبي بكر رضى الله عنهما قام إلى خالد ونزع عمامته وقاسمه ماله ، فاستكان خالد حتى أخذ مالا يصلح الا بما أعطى ؛ ثم تقول : إن خالدًا بعد هذا الذي صنع به قدم على عمر المدينة ؛ فهل ترك عمر خالدًا بعد قدومه عليه ؟ تأبى هذه الرواية أن يتركه يستروح أنفاس الراحة ؛ ولكنها تلتقي على لسان عمر كلمة متشفية عابثة تجعلها ديدنه كلما لقي خالدًا فتقول : كان عمر كلما مر بخالد يقول : يا خالد أخرج مال الله من تحت استك ؟ ؟ فهل عرف الناس في الفاظ عمر بن الخطاب وكلماته وزواجره مثل هذا المهجر من القول ؟

والعجيب في هذه الرواية أنها ما حاولت أن تجعل من خالد بن الوليد إلا رجلا مستكينًا مستسلمًا ، فهو قد استكان واستسلم لبلال ينزع عنه عمامته وبقاسمه ماله ، وهو

هنا يستكين ويرد على هذه الكلمة التي تزعمها هذه الرواية على لسان عمر رداً ياباً كثير من آحاد الناس ليس فيهم شيء من شجاعة خالد بن الوليد ، فلما أكثر عمر على خالد استقصى خالد استبراء نفسه بين يدي عمر ، فقوم على نفسه جميع ما يملك من عدة ورقيق وهما كل مال عند خالد - كما صرحت به الرواية متواضعة - بأربعين ألف درهم ، فاشتراها منه عمر بما قوم ، فلما حسبت بلغت قيمتها ثمانين ألف درهم ، فأعطى خالد أربعين ألفاً ودفع إلى بيت مال المسلمين عدة خالد ورقيقه ، فكان بعض الناس يقول لعمر : يا أمير المؤمنين ، لو وددت إلى خالد ماله ؟ فيأبى عمر ويحتج بأنه تاجر المسلمين وقد ربح لهم في صفقة ربحاً فلا يرده .

وليت شعري هل وقفت هذه الرواية الزائفة الملفقة عند هذا الحد ، فلم تكشف الغطاء عن خبث الفكرة التي صنعتها ؟ إن هذا لم يقدر لها ، بل قدر لها شيء آخر ، قدر لها أن تضع العنوان في آخر المقال ، وأن تحتم بما يفصل ما أجملت في أطوارها من أغراض ومقاصد لا تتطلب في إدراكها كثيراً من التفكير ، وهكذا تجيء نهايتها واضحة صريحة في غير لبس أو غموض فتقول : فكان عمر يرى أنه اشتق من خالد حين صنع به ذلك . أفهمتم أيها العقلاء من عمر بن الخطاب ؟ ومن خالد بن الوليد في هذه الروايات الملفقة ؟ مسكين أيها التاريخ ١١ متى تقلب صفحاتك بقلم نافذ عليم ؟ ومتى تنق من هذا الغلس والبله والتضليل ؟

والذي يظهر من نسج هذه الرواية الملفقة أنها تعنى أن عزل خالد عن الإمارة العامة وعن مطلق العمل في الجيوش الإسلامية ، ومطالبته بالكذب نفسه ومقاسمته ماله ، كل ذلك كان دفعة واحدة أول خلافه عمر بن الخطاب ، وهذا مصادم بما هو ثابت من أن خالد أَرْضَى الله عنه عزل أول مرة في السنة الثالثة عشرة من إمارة الأمراء ، وقيادة عامة جيوش الإسلام بالشام ، وتولى عمله أمين الأمة أبو عبيدة في قيادة فرقته ، وبقي خالد يجاهد تحت راية أبي عبيدة بأمر عمر بن الخطاب ، حتى فتح قنسرين وأبدى في فتحها من فنون الشجاعة وضروب السياسة ما جعل عمر بن الخطاب يقول فيه كلمته المشهورة « أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم مني بالرجال » ولما تم لخالد فتح قنسرين تولى عليها ، وفي السنة السابعة عشرة أدرب هو وعياض ابن غنم فأصابا شيئاً كثيراً من الغنائم ، فأنجعهما رواد المسكارم ، فأعطى خالد وأغدق العطاء ، فبلغ ذلك من فعله عمر بن الخطاب ، فأمر بعزله عن مطلق العمل في جيوش الإسلام . وكان خالد وعياض قد توجها



من الجابية مرجع عمر إلى المدينة وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت رايته على قنسرين .

الرواية  
الثانية

٢ — قال أبو جعفر الطبرى من رواية سيف : « وأدرب سنة سبع عشرة خالد وعياض ، فسارا فأصابا أموالا عظيمة ، ولما قفل خالد ، وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة انتجعهم رجال فانتجع خالد رجال من أهل الآفاق ، فكان الأشعث بن قيس ممن انتجع خالد بقنسرين فأجازه بعشرة آلاف ، وكان عمر لا يخفى عليه شئ فى عمله ، كتب إليه من العراق بخروج من خرج ومن الشام بجائزة من أجيز فيها ، فدعا البريد وكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالد ويعقاه بعلمته ، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث ؟ أمن ماله ؟ أم من إصابة أصابها ؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، وأعزله على كل حال ، وأضمم إليك عمله .

فكتب أبو عبيدة إلى خالد : فقدم عليه ، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر ، فقام البريد فقال : يا خالد ! أمن مالك أجزت بعشرة آلاف ؟ أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه ، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئا ؛ فقام بلال إليه ، فقال إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تناول قلنسوته فعلقه بعلمته ، وقال : ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ قال : لا ، بل من مالى ، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم ستممه بيده ؛ ثم قال : نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم ونخدم موالينا .

وأقام خالد متحيرا لا يدري أم عزول أم غير معزول ، وجعل أبو عبيدة لا يخبره حتى إذا طال على عمر أن يقدم ظن الذى قد كان ، فكتب إليه بالإقبال ، فأتى خالد بأبي عبيدة فقال : رحمك الله ! ما أردت إلى ما صنعت ؟ كتبتنى أمرا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم ، فقال أبو عبيدة : إني والله ما كنت لأرورك ما وجدت لذلك بدا ، وقد علمت أن ذلك يروحك ، فرجع خالد إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتجهل ، ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم ، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه ، وقال : لقد شكوتك إلى المساكين ، وبالله إنك فى أمرى غير تجهل يا عمر ، فقال عمر من أين هذا الثراء ؟ قال من الأنفال والسهمان ، مازاد على الستين ألفا فلك ، فقوم عمر عروضة فخرجت إليه عشرون ألفا ، فأدخلها بيت المال ، ثم قال يا خالد : يا خالد والله إنك على لسكرىم ، وإنك إلى الحبيب ؛ وإن تعاتبني بعد اليوم على شئ . »

هذه رواية أخرى يسوقها أبو جعفر الطبرى فى صدد الحديث عن أسباب عزل عمر خالد بن الوليد عزلا نهائيا عن العمل فى الجيوش الإسلامية قاطبة ، ونحن إذا أمعنا النظر فى هذه الرواية ازددنا يقينا بما بنينا عليه منهجنا فى تصوير رجالات الإسلام وإخراج سيرتهم للناس لتكون لهم فيها القدوة الصالحة والعبرة النافعة ؛ فالميزان الذى استقام لنا هو تعرف الشخصية فى خطوطها الأولى ومقوماتها الأصلية ، ورد كل ما يرد من رواية أو قصة إلى هذه الخطوط ، وتلك المقومات ، فما كان متفقا منها مع تلك الخطوط والمقومات قبلناه ، وما لم يتفق مع شيء منها شككنا فيه حتى يظهر لنا ما يزيفه .

هما روايتان يذكرهما شيخ المؤرخين أبو جعفر الطبرى من طريقين مختلفين الإسناد والرواة ، ومختلفى الحوادث وأسلوب الأداء ؛ وقد أريناك ما فى الرواية الأولى من تليف وزيف ببعدان بها عن أن تكون حديثا فى سيرة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ، لأنها اشتملت على الوان لا توأئم الخطوط الأولى والمقومات الأصلية لهاتين الشخصيتين العظيمتين فى تاريخ الإسلام .

أما هذه الرواية الثانية فإنها تتحدث عن عزل خالد عن عمله الذى وليه وهو تحت إمرة أبي عبيدة ، وهذا هو العزل الثانى الذى أبعد به خالد بن الوليد عن الجهاد مع الجيوش الإسلامية إبعادا كاملا ، أما العزل الأول فهو العزل عن الإمارة العامة كما عرفت ، وهذا لم تتعرض له هذه الرواية .

بيد أنها ذكرت فى صدد الحديث عن أسباب العزل الثانى ما لفقته الرواية الأولى مع غيره بأسلوبها وجعلته سببا لعزل لاندري متى كان ؟ ولا عن أى عمل كان ؟ والرواية الثانية تعين وقت العزل الذى تتحدث عنه وتذكر له سببه بأسلوب لا يرد لها عن حياة عمر ابن الخطاب وخالد بن الوليد رضى الله عنهما ، فأولا : تذكر هذه الرواية أن خالد كان واليا على قنسرين تحت إمرة أبي عبيدة وأنه توغل هو وصاحبه عياض بن غنم فى أرض العدو فغنما أموالا عظيمة وبلغ الناس كثرة ما أصابا من الأموال فانتجعهما أهل الآفاق ، وكان فيمن انتجع خالد ارجل من رءوس العرب هو الأشعث بن قيس زعيم كندة . فأجازه خالد بعشرة آلاف درهم .

إلى هنا ليس فى الأمر شيء يختلف مع طبيعة الوقائع والأشخاص ، فخالد وهو بطل الإسلام ورييب الجهاد ، وقائد جيوش الإسلام المظفرة ، لا تستقر نفسه إلا فى وجه عدو يماله أو بلد يفتحه ، وقد أصبحت الشام فى يد المسلمين ، وعلى أرباعها وأمهاة مدنها

أمرء وقادة من أنفسهم ، فعلى حمص أبو عبيدة ، وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان ، وعلى الأردن معاوية أخوه ، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز ، وعلى الأهرام عمرو بن عبسة وعلى السواحل عبد الله بن قيس وعلى قنسرين خالد بن الوليد ، فهل مما يوافق طبيعة حاله أن تطيب نفسه بالموادعه ويركن إلى الراحة ، وحسبه أنه وال على قنسرين ، ما أظن أن أحدا ممن قرأ شيئا من سيرة خالد بن الوليد ، أو عرف شيئا من حلائق هذا البطل العبقري يفهم أنه يرضى بغير الجهاد مراحا ، وهو الذى يقول : « ماليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغيام أحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد » فإدرا ب خالد وتوغله فى أرض العدو خليفة من حلائق ابن الوليد منطور عليها ، وظفهره وغنمه عادة عودة الله إياها ، وقصد الناس له طالبين لرفده ، وقد سمعوا بما أصاب من الغنائم والأموال ، وإغداقه العطايا عليهم ، وإجازته سيدا من سادات العرب بما أنزله منزلته ، ليس فى شيء منها ما تنسكركه طبيعة الحياة والأشخاص .

ثانيا : تذكر هذه الرواية أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - وكان لا يخفى عليه شيء من عمله - بلغه إدرا ب خالد ، وإجازته الأشعث بهذا القدر العظيم من المال ، فكتب إلى القائد العام أبي عبيدة يأمره أن يحقق مع خالد فى مصدر هذا المال الذى أعطى منه الأشعث هذا العطاء الغامر ، وخالد وال من ولاية المسلمين ، يجرى عليه من سلطان الخلافة الإسلامية ما يجرى على غيره من العمال والولاة ، والخلافة الإسلامية على عهد الراشدين ، سلطان مبسوط بالعدل بين الأفراد والجماعات ، ومدرسة لتخريج نماذج من الفضائل فى صور حية متحركة ، تمشى بين الناس مثلا لتطبيق شرائع الإسلام مكيفة بروحه ومعناه .

فمن حق الخليفة الراشد أن يعرف وجه كل تصرف من تصرفات ولاته وعمله ، لأن شريعة الإسلام التى بسطت سلطانه عليهم تجعله مسئولاً عن أعماله ، وهذا وال من ولاته أعطى رجلا واحدا لا تشفع له سابقة جهاد عطاء كان يكفى أن يقيم أود عشرات من الأسر الإسلامية فى ذلك الزمان ، وكان يكفى أن يجهز سرية تغزو مجاهدة فى سبيل الله ، فلا بد أن يسأل هذا الوالى عن مصدر هذا المال الذى تصرف فيه هذا التصرف ، يعلم إن كان من مال المسلمين أفاءه الله عليهم فى جهادهم ، فلا حق للوالى أن يماور فيه ماخوله الله من سلطان يبلغ الحقوق لأربابها ؛ فإن فعل فإنه لم يؤد أمانة الولاية التى وليها ؛ وحينئذ يكون قد خلع عن نفسه ما سربله الله من سلطان .

وإن كان ذلك المال الذى أعطى منه ذلك العطاء ملكا للوالى فمن حق الخلافة الراشدة بما خولها من حق الإشراف على تخريج النماذج العليا للفضائل الإنسانية أن تمتد نظرها إلى تصرفات الأفراد ، ولا سيما أفراد أراهم الإسلام للأسوة لتطبيقها على سائر الشريعة ، لا من وجهة الحظر والإبادة ، ولكن من وجهة السكامل والأكمل ، والفاضل والأفضل ، ولا يتم نموذج الفضيلة إنسانا فى الإسلام إلا إذا ترك بعض المباح خشية الوقوع فى المكروه .

فتصرف خالد بن الوليد فى إجازته للأشعث بعشرة آلاف لا يخرج فى نظر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن أن يكون واحدا من أمرين كلاهما يفوت مقصد القدوة فى خالد ، باعتباره نموذجا أعلى للفضيلة فى الإسلام ، وذلك هو الشرط فى الولاية عند الخلافة العمرية الراشدة فلم يبق إلا أن يعزل خالد عن عمله على كل حال ، وهو عزل ليس عده مفضحة فى تاريخ ابن الخطاب بأحق من عده مفضحة فى سيرة ابن الوليد .

ثالثا : ذكرت هذه الرواية قصة إقامة خالد ، ونزع قلنسوته ، وعقله بعمامته ، ولم تذكر مقاسمته ماله ، ولكنها أفرغت ذلك فى قالب يختلف معدنه عن معدن قالب الرواية الأولى ، فهذه الرواية ترى أن أبا عبيدة استقدم خالدا وجلس للناس على المنبر وهو ساكت لا يتكلم ، وقد تولى البريد استجواب خالد فلم يجبه خالد فقام بلال وبين لخالد أن أمير المؤمنين هو الذى أمر باستجوابه على الصورة التى يجب لحق السمع والطاعة أن تتحقق . فنفذ بلال الأمر وسأل خالدا فأجاب ، فأسرع إلى تعميمه بيديه تعظيما لحق الولاء بعد أداء حق السمع والطاعة .

وقد تكون هذه القصة كلها دخيلة على الرواية فلم يقم خالد ، ولم تنزع عنه قلنسوته ولا عقل بعمامته ، وقد تكون من الواقع التاريخي . وحينئذ فهى على شدتها - لون من ألوان الزجر الذى تملكه على الناس الخلافة الراشدة ، منتزعا من البيئة التى تعطيه صورته التى يخرج بها إلى حيز التنفيذ ، وقد يخفف من شدة هذا الزجر ما أحيط به فى هذه الرواية من مظاهر التكريم للبطل العظيم ، فهو وقف أبا عبيدة وسكوته وتركه الأمر إلى رسول أمير المؤمنين يتولاه ، مظهر من الإكبار لم يفت خالدا إدراكه ، وكأنه فى سكوته وعدم رده شأى أسئلة البريد يستطيع موقف قائده وأميره ، أبا عبيدة ؛ فلما

· رأى أنه يضيق بهذا التحقيق ، ويقف منه موقفا سلبيا هو منتهى ما يمكن أن يبلغه من المجاملة ، سارع إلى إجابة بلال الذي كان في تصرفه من اللطرية الإسلامية الفاضلة ، فهو قد رأى أن الخليفة قد أمر في أحد ولاته بأمر واجب التنفيذ ، ولكنه يرى أن الأمير العام يقف من أمر الخلافة موقف الانتظار ، والأمر جد خطير ، لأنه يتعلق بسلطان الخلافة ، فلم يطق أن بسكت ، فقام إلى خالد ونفذ فيه أمر أمير المؤمنين ، فرأى منه السمع والطاعة ، ثم عاد إليه يعظمه ويكرمه ، وكأنه يعتذر إليه بقوله : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » .

رابعاً : تذكر هذه الرواية أن أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه كان مثالا كريما في تكريم قائده وأميره بالأمس وجنديه اليوم ، فقد أثبت عليه مكارمه أن يسرع إلى خالد فيخبره بعزله ، وبقي خالد لا يدري من أمره شيئا ، أمعزول أم غير معزول حتى طال الأمر على أمير المؤمنين ففطن إلى ما وقع ، فكتب إلى خالد مباشرة بالإقبال عليه ، وهنا فهم خالد حقيقة ما كان ينطوى عليه قائده وأميره أمين الأمة أبو عبيدة من التعظيم له والتجافي عن إبلاغة ما يسوء إليه ويؤله ، وقد قدر خالد ذلك أحسن تقدير ، فأنى أبا عبيدة فقال له : « رحمك الله ! ما أردت إلى ما صنعت ؟ كتمتني أمرا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم » وهي كلمة عاتبة عتب الصديق الذي آانس من صديقه العطف والرحمة عند محنة ليس في استطاعته دفعها عن صديقه وكأنما كبر على خالد أن يرى نفسه في موقف مما يظن به الحاجة إلى الرثاء والعطف والاسترحام ، فرد عليه الأمين أبو عبيدة منفضحا عن مدى ما تبلغه استطاعته في موقفه منه بقوله : « إني والله ما كنت لأرورك ما وجدت لذلك بدا » .

خامساً : تذكر هذه الرواية أن خالد أرجع إلى قنسرين مقر عمله فخطب فيها مودعا وتحمل منها إلى حمص ، فخطب أهلها وودعهم ، ثم خرج إلى المدينة حتى قدم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فعائبه أجمل عتاب بقوله : « وباللّٰه إنك في أمرى غير شجل يا عمر » وشكاه إلى جماعة المسلمين ، وهم مسيطرة العليا التي يحاكم إليها من ولهم الأمة سلطانها ، ولقد قبل أمير المؤمنين عتاب القائد البطل أحسن قبول ، ولكنه بعد أن أتم تحقيق القضية استيفاء لحق القوامه على سلطان المسلمين ، وهو أقدس من كل حق بعده ، وليس في نظر الخلافة الراشدة حق فوقه .

قال عمر لخالد : من أين هذا الثراء ؟ قال خالد : من الأنفال والسهمان ؟ وهذا السؤال وجوابه يتصلان أشد الاتصال بأصل القضية التي جرى فيها التحقيق وانتهت بعزل القائد العبقري ، فقد كان رده على سؤال بلال عن اجازة الأشعث أنها من ماله الخاص ، وبلغ ذلك عمر ، وكأنه استعظم أن يكون هذا العطاء الغامر من مال يملكه ملكا خالصا أمير الجيوش الإسلامية في دولة الخلافة الراشدة ، لأنه عطاء لا يجود به إلا ذو ثراء مذكور ؛ وخالد بن الوليد إذا كان من بيت شهر في قريش بكثرة المال وسعة الثراء ، فإن ما آل إليه من ذلك المال - إن كان - لم يكن ليعد به من أصحاب الثراء ، فلا بد إذا من معرفة مصدر هذه الثروة الخاصة ، وصاحبها كان قائد الجيوش الإسلامية وأميرها ، وتحت يده جنود المسلمين وغنائمهم ، وما أفاء الله عليهم ؛ والخلافة الراشدة مسئولة عن بث روح الطمأنينة في نفوس الأفراد والجماعات ، على أن سلطان العدالة مبسوط على الناس أجمعين ، لافرق في ذلك بين أمير ومأمور ، ولا بين قائد عظيم وفرد من عامة المسلمين ، وقد أجاب خالد أمير المؤمنين عن سؤاله جواب المطمئن إلى سلطان الإسلام في عدالة عمر ، وقد جعله نموذجه الأول في ضرب المثل للحياة ، ولم يقل كما يقول متشرعو الاحتياط : لا يسأل المالك من أين ملك ؟ بل قال - وهو القائد المظفر - إن هذا المال من الأنفصال والسهمان ؛ ولعل خالدا ظن أن القالة في ماله أكثر عليه ، فأراد أن يدفع هذا دفعا عمليا يقوم على نفسه جميع ما يملك بستين ألفا ، فإن زاد شيء عن ذلك فهو لبيت مال المسلمين ، فلما قوم عمر عروض خالد خرجت إليه عشرون<sup>(١)</sup> ألفاً فأدخاها بيت المال ، فلم يرفع خالد إليها رأسه ، ولا تطلعت لها نفسه ، ولكن عمر رضى الله عنه لم يقف بخالد عند هذا الحد الذي أراح به الحق إلى مكانه ، بل التفت إليه أكرم التفاتة ، وأعتبه بأجمل أسلوب ، فقال له : « يا خالد والله إنك على لكرم ، وإنك إلى حبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء » وليس في استطاعة أحد أن يزعم أن عمر تملك خالدا بهذه السكامة الفاصلة ، لأن عمر هو عمر بن الخطاب ، وليس عمرا آخر ، وابن الخطاب إذا قال كلمة كان كل معنى تحت كل حرف منها مقصودا له ،

---

(١) لعل هذه الزيادة جاءت نتيجة لتمظيم الناس آثار خالد فتنافسوها في الشراء فزادت أثمانها ، على قيمتها في التعامل . كما يحدث دائما في آثار العظماء .



يريد أن يفهمه الناس عنه ، وهذه الكلمة مدحضة لكثير من الروايات الزائفة في قصة عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد .

الرواية الثالثة ٣ — قال ابن عساكر في سبب عزل عمر خالدا : إنهما تسارعا وها غلامان وبهرجتا فكسر خالد ساق عمر ، فما زال بينهما البغض حتى تولى عمر فعزله .

هذه رواية نذكرها دليلا على مبلغ تفاهة القصص الذين يتعلقون بالسخف ، ثم يحملونه على التاريخ فيجري على ألسنة المؤرخين وفي كتبهم ، وإلا فما قيمة هذه الأقصوصة حتى يذكرها مؤرخ عظيم كابن عساكر ، فهل من المعقول أن يظل أثر لعبة بين طفلين في الجاهلية بعد أن أكرمهما الله بالإسلام ، فكان أحدهما ثاني اثنين في الإسلام كله بعد رسول الله ﷺ ، وكان الآخر منهما أعظم ما أخرج الإسلام كله من قواد الحروب والجهاد في سبيل الله ، فينتهي بهما وها في ذروة الحياة ليس فوقهما في مكانهما أحد إلى هذا الصغار الذي يأنف منه آحاد الناس ؟ هذا كلام فارغ ما كان ينبغي أن يسطر ، ولكننا أردنا بذكره أن ننبه على ما حمله التاريخ من أوزار هو في حاجة إلى أن تماط عنه حتى لا تضيع فيما بينها الحقائق .

الرواية الرابعة وتزييفها ٤ — قال ابن الأثير تحت عنوان «عزل خالد بن الوليد» بعد أن ذكر قصة إدراجه هو وعياض بن غنم : « ودخل خالد الحمام فتدلك بغسل فيه خمر فكتب إليه عمر : بلغني أنك تدلك بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه ومسه فلا تمسوها أجسادكم ؟ فكتب إليه خالد : إنا فتنها فعدت غسولا غير خمر ، فكتب إليه عمر : إن آل المغيرة ابتلوا بالجفاء فلا أما تكتم الله عليه . »

وسياق ابن الأثير لهذه القصة تحت العنوان المتقدم يفيد أنه يراها سببا من أسباب عزل خالد ، وهو في ذلك قد خالف أصله الطبري في سياقته وبعض ألفاظه ، فالطبري ذكر هذه القصة بعيدة عن عنوان العزل وأسبابه ، فهي عنده ليست من أسباب العزل مطلقا ، بل ربما كان في عبارته ما يفيد أنها لم تتصل بالعزل من قرب أو بعد ، قال أبو جعفر : وبلغ عمر أن خالدا دخل الحمام فتدلك بعد النورة بشخين عصفر معجون بخمر ، فكتب إليه : « بلغني أنك تدلك بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه كما



حرم ظاهر الإثم وباطنه ، وقد حرم مس الخمر إلا أن تغسل كما حرم شربها فلا تمسوها  
أجسادكم فإنها نجس ، وإن فعلتم فلا تعودوا » ، فكتب إليه خالد « إنا قتلناها فعادت  
غسولا غير حمر » فكتب إليه عمر : « إني أظن آل المغيرة قد ابتلوا بالجفاء فلا أمتكم  
الله عليه » فهذا واضح في أن عمر ألقى إلى خالد ما بلغه ، وذكره بحكم الشريعة في الخمر ،  
ونهى خالدا عن العود إن كان قد وقع منه ما بلغه عنه ، وذاد خالد عن نفسه بأنه قتل  
الخمر فأفسد خمريتها حتى عادت غسولا غير خمر ، فلم يبق حرج في استعمالها تدليكا ،  
وكأنما رأى عمر أن في هذا الرد شيئا من صلابة الرأي فرد على خالد بأن هذه نجاسة  
معروفة في آل المغيرة يسأل الله أن يجنبها خالدا فلا يموت عليها ، فأين في ذلك حديث  
العزل ؟ وهى بعد قصة تعوزها الحجة على صدقها .

الرواية الخامسة ونقدها هـ — قال أبو جعفر الطبرى : كتب عمر إلى الأمصار : إني لم أعزل خالدا عن  
مسخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به خفت أن يوكاوا إليه ويبتلوا به ، فأجبت  
أن يعملوا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بغير ضفتة » وقد ذكر أبو جعفر نحو  
هذا في حديث قنسرين ، فقال : « ولما بلغ عمر ذلك — أى عمل خالد فى فتح قنسرين  
قال : « أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى » وقد كان عزله  
والثنى ، وقال : إني لم أعزلهما عن ربيعة ، ولكن الناس عظموها خفشت أن  
يوكاوا إليهما » فلما كان من أمره وأمر قنسرين ما كان رجع عن رأيه .

وهاتان الروايتان تتفقان فى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عزل خالدا عن  
عمله وبين للناس سبب ذلك بأنه رأى الناس فتنوا بخالد تعظيما له ، فخاف عليهم الفتنة  
فيه وأن يوكاوا إليه ويبتلوا به فيغير الله ما بهم من النصر والظفر على أعدائهم ، فأحب  
عمر أن يثبت عقيدة المؤمنين فى الله تعالى ، فيعلموا أن خالدا رضى الله عنه إنما هو رجل  
صنعه الإسلام الذى صنع غيره ، فإذا لم يكن خالد وكان الإيمان الراسخ فى جند الإسلام  
تحت إمرة من كانوا من القواد والأبطال كان النصر والظفر على الأعداء بحالهما ، فالله  
تعالى هو الذى يؤيد جنده وينزل النصر عليهم سواء أكانوا تحت راية خالد وقيادته أم  
كانوا تحت راية غيره من أبطال الإسلام .

وتختلف الروايتان فى أمور :

أولاً : في طريقهما إسناداً ، فالرواية الأولى من طريق شعيب عن سيف عن عبد الله بن المستور عن أبيه عن عدى بن سهل ؛ والرواية الثانية من طريق أبي عثمان وجارية .

ثانياً : الرواية الأولى تخص خالداً ولا تذكر معه غيره ، والرواية الثانية تذكر مع خالد قائداً آخر ، هو المثنى بن حارثة الشيباني صاحب الجولة الأولى في فتح العراق ، وترى أن فتنة الناس التي خشىها عمر كانت بهما ، لأن الناس عظموها فعزلها لا عن ريبة ، ولكن تثبتنا لقوة الإيمان في أنفس المؤمنين .

ثالثاً : تقول الرواية الأولى . إن عمر كتب بذلك إلى الأمصار ، والرواية الثانية لا تذكر الكتابة إلى الأمصار ، وإنما تقول : قال . إنى لم أعزلها عن ريبة .

رابعاً : تنفى الرواية الأولى أن يكون سبب العزل سخطاً من الخلافة العمرية على القائد البطل ، وتنفى أن يكون سبب العزل خيانة نسبت إليه ، بل ترى أن سبب العزل فتنة الناس بخالد ، يخاف عمر أن يوكالوا إليه ويبلوا به فاحب أن يعلم الناس أن الله هو الصانع حق لا يكونوا معرضين للفتنة بشخصية القائد مما قد يؤدي إلى ضعف النفوس وفتورها في الجهاد وملاقاة الأعداء اتسكالا على أن النصر معقود بناصية خالد وهو قائدهم ؛ وقد يؤدي افتتان الناس إلى منفذ للشيطان يصل به إلى بعض النفوس المائرة أو التي تثور إذا تحركت عندها عوامل خفية عند أدنى المناسبات فيكون الخطر على الدولة ونظامها . وتنفى الرواية الثانية أن يكون سبب العزل ريبة في القائد بين العظميين وترى أن سبب العزل تعظيم الناس للقائدين ، وخشية عمر أن يوكالوا إليهما .

فهل لنا أن نقول : إن هذا الاختلاف يفيد تكرار هذه القصة ؟ وهذا يتمشى مع تكرار العزل كما دلت عليه الروايات الثابتة ، وعلى ذلك تكون الرواية الأولى من هاتين الروايتين أنسب بالعزل الأخير الذي أبعده خالد عن الجيوش الإسلامية إطلاقاً . والرواية الثانية تكون أنسب بالعزل الأول الذي كان عن الإمارة العامة .

وقد يؤيد هذا متابعة الطبري للرواية الأولى من طريق سيف عن مبشر عن سالم قال : لما قدم خالد على عمر قال عمر متمثلاً :

صنعت ولم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله صانع

فأغرمه شيئاً ثم عوضه ؛ وكتب فيه إلى الناس بهذا الكتاب ليغذره وليبصرهم . فإن حديث الأغرام كان بعد إدراج خالد ، وإجازته الأشعث بعشرة آلاف ؛ وذلك في السنة السابعة عشرة .

وقد ذكرت الرواية الأولى ابن الأثير في ضمن ما ذكره تحت عنوان « عزل خالد ابن الوليد » فقال : وكتب عمر إلى الأمصار : « وإني لم أعزل خالداً عن سخطه ولا خيانة ولكن الناس نخموه وفتنوا به خفت أن يوكأوا إليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وإلا يكونوا بعرض فتنة » وعوضه عما أخذ منه .

٦ - قال ابن حجر في الإصابة : وكان سبب عمر عزل خالداً ما ذكره الزبير بن بكار رواية راجحة قال : كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم ، ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً ، وكان فيه تقدم على أبي بكر ، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر ؛ أقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته فكره ذلك أبو بكر ، وعرض الدية على متمم بن نويرة ، وأمر خالداً بطلاق امرأة مالك ، ولم ير أن يعزله .

وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد ، وكان أثيراً عند أبي بكر بعثه إلى طليحة فهزم طليحة ومن معه ، ثم مضى إلى مسيلة فقتل الله مسيلة .

ثم ذكر الزبير بن بكار أن عمر قال لأبي بكر : اكتب إلى خالد لا يعطى شيئاً إلا بأمرى ، فكتب أبو بكر بذلك إلى خالد ، فأجابه : أما أن تدعني وعمل وإلا فشأنك بعملك ، فأشار عليه عمر بعزله . . . فلما ولي عمر كتب إلى خالد : أن لا تعطى شاة ولا بعيراً إلا بأمرى ، فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبي بكر ، فقال عمر : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أتفده فعزله ، ثم كان يدعو إلى أن يعمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما شاء ، فيأبى عمر .

قال الزبير : ولما حضرت خالداً الوفاة أوصى إلى عمر فتولى عمر وصيته ، وسمع راجزاً يذكر خالداً ، فقال : رحم الله خالداً ، فقال له طلحة بن عبيد الله :

لا أعرفك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي  
( م ١٨ - خالد ابن الوليد )

فقال عمر : إني ما عتبت على خالد إلا في تقدمه وما كان يصنع في المال .

وروى البخارى في تاريخه من طريق ناشرة بن سمى قال : خطب عمر واعتذر من عزل جالد ، فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة : عزلت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت لما دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنك قريب القرابة حديث السن مغضب لابن عمك .

ورواية الإصابة هذه تفيد أن سبب العزل يرجع إلى ما كان في خلق خالد وسياسته من التقدم والاستقلال ، بفعله أموراً لا يراها أبو بكر نحو قتله مالك بن نويرة ونسكاحه امرأته وتصرفه في المال بقسمه في أهل الغنائم دون أن يرفع حساباً إلى الخليفة ، وأن عمر كان ينكر على خالد هذا الاستقلال المطلق في تصرفاته ويشير على أبي بكر بعزله ، فلم ير أبو بكر عزل خالد لأنه لم يجد في الناس من يجزى جزاءه سوى عمر وهو في حاجة إليه يبقى إلى جانبه ، يعينه ويؤازره .

فلما تولى عمر الخلافة رأى من الحق عليه أن يعزل خالد لما كان يرى أن يعزله لأجله أبو بكر أو يعدل خالد عن سياسته الاستقلالية ، فلا يعطى شاة ولا يبرأ إلا بأمر الخليفة ، فأبى خالد إلا أن يدعه وعمله على ما كان عليه في عهد أبي بكر ، فرأى عمر أنه لم يصدق الله إن كان قد أشار على أبي بكر بعزل خالد إن لم يثقيد بالرجوع في أمر المال إلى رأى الخليفة ، ثم لا يعزله هو وقد أصبح صاحب السلطان ، فعزله لهذا ؛ ثم كان يدعو إلى أن يوليه فيأبى خالد إلا على ما كان عليه من الاستقلال المطلق ، فيأبى عمر إلا أن يرجع في أمر المال إلى الخليفة ، ويؤكد هذا قول عمر في رده على طلحة بن عبيد الله : ما عتبت على خالد إلا في تقدمه وما كان يصنع في المال .

وقد اشتملت هذه الرواية على أمثل ما يقال في هذا الباب ، وهو حديث البخارى في التاريخ . وإذا كان مد أجمل فيه اعتذار عمر فإن الرواية التي تذكر أن عمر كتب إلى الأمصار أنه لم يعزل جالد عن سخطه ولا خيانة هي التي يحمل عليها هذا الإجمال .

وليس معنى اعتذار عمر أنه رأى خطأ في عمله فاعتذر عنه ، وإنما معناه أن عمر رضى الله عنه كان يقدر أكمل تقدير ما لهذا الحادث الجليل الذي ابتدأ به عمله في الدولة

الإسلامية من أثر في نفوس المسلمين ، ولا سيما أولئك الذين جاهدوا تحت لواء خالد  
رضي الله عنه ، فقادهم من نصر إلى نصر ومن فتح إلى فتح ، فأراد أمير المؤمنين عمر  
أن يذكر للناس وجه سياسته وتصرفه في هذا الحادث حتى تطمئن قلوبهم ويفيئوا من  
غمرة إعظام الأشخاص والاتسكال عليهم مهما بلغوا من العظمة إلى اليقين بالله تعالى ،  
وأنه هو الصانع وما الأشخاص والأشياء إلا مظاهر لصنعه وتديره وآثار قدرته وحكمته.

تلك هي أهم الروايات التي تداولها المؤرخون خلفاً عن سلف ، وإليها تنتهي أسباب  
عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد رضي الله عنهما .



# الفصل الثالث عشر

## رأى الدكتور هيكل في عزل خالد وبوايته

عرض وتحليل ونقد

---

هيكل وأثر البحث الحديث في الناشئة - أثر الأفكار الغربية في فهم الإسلام وتاريخه - إسكاه هيكل على أقصوصة مالك بن نويرة - تزيد في التاريخ - نقد وتزييف - غصبة أبي بكر على خالد وسبها - تعقيب غير موفق - مجانة نواسية لا تحسب في تحقيق التاريخ - أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب في تصوير هيكل - إلحاح في أقصوصة ابن نويرة - منطق مدخول - « الغاية تبرر الوسيلة » سياسة عمرية في نظر هيكل - أحقاد جاهلية حركت عمر نحو خالد في رأى هيكل - اضطراب البحث - هيكل يقرر أن عمر بن الخطاب تأثر بشعوره الخاص نحو خالد - عود إلى مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » عمر بن الخطاب يتعلق الرأى العام في تصوير هيكل - هيكل يشك في صدق حزن عمر على خالد .

---





رأينا قبل أن مجرر رأينا في قضية عزل عمر بن الخطاب خالد بن اليد أن نعرض هيكلاً وأثر  
إلى ما كتبه في هذه القضية التاريخية باحث معاصر له مكانة خاصة عند مثقفي هذا الجيل البحث الحديث  
في الشرق العربي وبلدان الإسلام، وآرائه في البحث تأثير على أفكار المتعلمين، ولها  
سيرورة مع الأثير إلى كل عقل يشدو حقائق التاريخ الإسلامي مصوغة في أسلوب يلائم  
ذوق الناشئة من الجيل الجديد .

وفي الحق إنني لأحس إحساساً قوياً يأتري هذا الاتجاه الإسلامي في البحث من كبار  
باحثينا عند ناشئتنا التي كانت ولا تزال في حاجة ماسة إلى منية قوى جذاب ينمها إلى  
تاريخ الإسلام، أشخاصه وحوادثه، ويوجهها إلى النظر فيه لتجد بين صفحاته من  
أعلام الدنيا وعباقره الحياة وكبريات الحوادث والأحداث الإسلامية ما هو جدير بالدرس  
والبحث لتستبين من أطوائه أبيض العبر وأهدى السبل، ولتعلم أن للإسلام أعلامه  
وعباقرته وأن لتاريخه آياته وعبره، فلا تعيش في أحضانه بوجدان لا يحسه وضمير  
لا يشعر به وعقل لا يعرفه وأرواح تنكره .

بيد أن هذا الإحساس ينهد معه إحساس آخر فيه شيء من الأسف : والألم، ذلك أثر الأفكار  
أن بعض هذه البحوث تستوحى باحثي الغرب في فهم مسائل الإسلام، وتأخذ الإسلام الغربية في فهم  
عن غير مصادره وتصوغه في غير أسلوبه، أو هي بعبارة أخرى تسلك مسلك الاستعمار  
الإقصادي الذي يأخذ الخامات من أرضنا وبلادنا إلى أرضه وبلاده، ثم نستردّها منه  
وقد حاكها على منواله وصبغها بأصباغه ثم طبع عليها بخاتمه، فكانت شيئاً حراً أخذنا  
علينا، لا تعرفه طبيعتنا ولا تستسيغه عقولنا، إلى أن نجرده من كل ما طرأ عليه بعيداً  
عن بيئتنا .

ومن هنا يتضح خطر الاستشراق والمستشرقين، رسوء أثر الاستغراب والمستغربين  
على عقول الناشئة من شباب الإسلام وأبناء المسلمين . وهذا الخطر كامن في كثير من  
هذه البحوث التي أحسنت — قاصدة أو غير قاصدة — فأخذت بأعضاء الشباب إلى النظر  
في تاريخ الإسلام، وأساءت لأنها أرت هذا الشباب الإسلام بأسلوب وطرائق غريبة عن

الإسلام فكان من اللازم أن تجرد أقلام إسلامية المظهر والمخبر تمشى إلى هذه البحوث بالنقد الممحض الذى يرد الحقائق إلى أصولها ، ويترك الأصابع الأجنبية وما يتصل بها مجردة فى أيدي أصحابها حتى يستطيع الشباب الإسلامى فهم الإسلام بروح الإسلام ، وبأسلوبه المنتزع من طبيعته وبيئته .

ومن عجب أمر هذه البحوث المطعمة « بميكروب » الفكر الغربى فى دراسة تاريخ الإسلام أنها تأخذ طريقها فى يسر وسرعة إلى أيدي الناس فى كتب ومقالات وإذاعات وأحاديث تجر على جامعها منافع فادحة ، وتعود على العلم والإسلام وأبنائه بمفاسد فاضحة ، ثم لا تجد من بين علماء الإسلام وحمله أقلامه من ينهض ليكشف عن سوءة هذا الاتجاه الخطير على أفكار الناشئة الا قليلا ممن عصمة الله ووفقه .

ولست أدري ما سبب هذا التعامى ؟ أهو الكسل البليد عن القراءة والتعمق فيها ؟ ولكن هذه الكتب تأخذ طريقها الى مكتبات البيوت والمدارس والمعاهد ؟ أفيكون افتتاح هذه الكتب فى تلك المكتبات لجرد الزيتة والتجميل ؟ أم هو لون من النفاق العلمى يجامل به هؤلاء الذين وسمت تلك الكتب بأسمائهم ، وهم من أولى الحلول والطول — كانوا — فى دنيانا اللعوب .

قد يكون هذا أو ذاك وليس أحدهما بأرجح فى ميزان الشر والنكر من صاحبه !

\*\*\*

عرض الدكتور « محمد حسين هيكل » لهذه القضية ، قضية عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد وأسبابها فى كتابيه « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » عرضا مجملا فى كتابه الأول ومفصلا بعض التفصيل فى كتابه الثانى ، وقد ذهب فيها مذهباً نرى — ونحن بصدد دراسة خالد — أنه لا يحسن السكوت عليه ، بل ان حق العلم والتاريخ وحق الإسلام يوجبان التنبيه على ما فيه من أمور ، بعضها يتصل بجوهر الموضوع ، وبعضها من قبيل « الرتوش » والأصباغ والزخرف الذى يستهوى نفوسا لم تعمق فى دراسة الإسلام وتاريخه ، وحياة رجالاته الأولين .

يشكى الدكتور هيكل في تحقيق أسباب عزل خالد على أقصوصة مالك بن نويرة إتسكاه هيكل وزواج خالد امرأته بعد قتله ، وفي هذا الصدد يحاول الدكتور أن يبرز قصة مالك في على أقصوصة أسلوب شعري ، إذا حاز إعجاب الشعراء والقصاص من المتأديين وذوى العواطف مالك بن نويرة الجامحة ، فليس بمستطيع أن ينال رضا الواقع التاريخي الذي يجب أن يكون له المكان الأول في كتابة سيرة رجالات الإسلام ، وكأنما شعر الدكتور بهذا ونحوه ، فحاول أن يرى قارئه أنه لا يقف عند هذا الأسلوب ، فهو في كتابه «الصدى أبو بكر» بعد أن ذكر عبارة ابن خلدون في الحديث الذي دار بين خالد بن الوليد ، ومالك بن نويرة ، وفيه يراد مالك خالد ، ويقول له : فقد كان صاحبك يقول ذلك - يعنى النبي صلى الله عليه وسلم - فيقول له خالد : أو ما تراه لك صاحباً ؟ والله لقد هممت بقتلك ؛ فقال مالك : أو بذلك أمرك صاحبك ؟ فقال خالد : والله لأقتلنك .

يقول الدكتور هيكل : يرجح بعضهم هذه الرواية على غيرها ، على أن هؤلاء الذين يرجحونها يرونها ناقصة ، ويرون أنها إن لم تسكمل ناقصة تصرف ابن الوليد في أمر «قرة بن هبيرة» و «الفجاءة السلمي» و «أبو شجرة» وأمثالهم ، فهو قد بعث هؤلاء إلى أبي بكر ليرى فيهم رأيهم ؛ ولم يكن مالك بن نويرة أعظم من أيهم إنما ، ولا أكبر جريرة . . . وتتمة القصة في رأيهم أن خالدًا تزوج «أم تميم» زوجة مالك في يوم مقتله ، وقبل أن يحنف التراب دمه ، مخالفًا بذلك كل تقاليد العرب<sup>(١)</sup> وهم يرون أن يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته ، وأن يجعلوا هذا الزواج سبب ذلك القتل ؛ ولعلمهم في ذلك على حق ، ولعلمهم مخطئون .

ومن حق البحث أن يتساءل في هدوء هامس ؛ من يكون هؤلاء الذين رأوا أن هذه الرواية ناقصة بعد ترجيحها ؟ وكيف كان في رأيهم - إن كان لهم وجود - أن تتمم القصة هو زواج خالد من امرأة مالك ؟ وكيف أثبتوا أن هذا الزواج - بهذا العنوان ، عنوان زواج خالد - كان في يوم مقتل مالك ، وقبل أن يحنف دمه التراب ؟ وأنى لهم أن يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته لو لم يفرضوا أن بطل الإسلام خالد بن

(١) لو كان الكاتب يكتب بروح تفهم الإسلام وتعتقده لقال : مخالفًا بذلك كل نصوص الشريعة الإسلامية في تحميم عدة المتوفى عنها زوجها بنس القرآن الكريم ؟ !

الوليد من طراز هذا الشباب المتمايز المترف الذي يختال على الأرض لتلقط الشهوات الرخيصة التافهة ، لا يشغله جد في أمر ، ولا يردعه دين عن موبقة ؟ وكيف مع ترجيحهم الرواية التي تنادى بفكر مالك بن نويرة بنفيع النبوة عن رسول الله ﷺ جعلوا هذا الزواج من امرأة هذا المرتد سبب ذلك القتل ؟ أفلا كان يكفي عند هؤلاء كفر مالك مرتدا في الرواية المرجحة عندهم سببا لمقتله ؟

قد يبدو أنه ليس هناك أحد من الباحثين سوى الدكتور هيكل وأضرابه من تلاميذ المستشرقين يرى أن هذه الرواية التي حكها ابن خلسكان ناقصة ؟ وقد يبدو أنه ليس هناك أحد من القدامى سوى نواصي الأدباء رأى أن تنمة هذه الرواية هو زواج امرأة مالك وأن هذا الزواج هو سبب ذلك القتل ، ولو كان للمنطق حكم على أقلام هؤلاء الباحثين لكانت النتيجة أن يقول من رجح هذه الرواية : إن خالد قتل مالكا لأنه فهم منه عند محاولته الحديث البراءة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه ليس له بصاحب ، فراءه خالد فأكد مالك عقيدته فلم يبق لدى خالد شك في رده وكفره ، فقتله ، ثم تزوج امرأته بعد تمام عدتها زواجا شرعيا ؛ فقامت عند بعض الناس شبهة في هذا الزواج الذي أقدم عليه خالد وكان معيبا عند العرب ، وحيث يكون كل ذنب خالد عند هؤلاء أنه لم يحفل بعبادات الجاهلية ؛ ورأى أن له أسوة في رسول الله ﷺ ، فيما ثبت ثبوتا قاطعا من أنه قتل زوج صفية بات حي وتزوج بها ، فأصبحت من أمهات المؤمنين .

غبضة أبي بكر على خالد وسببها

وليس صحيحا أن أبا بكر الصديق غضب على خالد في هذا الزواج للتعابر العرب به وكرهتها له ، فما كان أبو بكر - وهو سيد المسلمين علما وفضلا وديانة - بالذي يحفل بأمر الجاهلية وعادات العرب . وهو يعلم أن رسول الله ﷺ خالف تلك العادة وهدمها ، وإنما غضب أبو بكر على قائده في زواجه من امرأة مالك بن نويرة لأنه كان يرى أن في هذا الزواج مشغلة للقائد عن عظام الأمور التي يتطلبها موقف المسلمين في ذلك الحين ولما تنكشف حال المسلمين من أعدائهم المتربصين ، وهو لون من السياسة كشف عنه أبو بكر عند زواج خالد ببنت حجارة بن مرارة الحنفي بعد انتصار خالد في حرب اليمامة فغضب عليه أبو بكر ولامه على هذا الزواج ، ودفع خالد عن نفسه هذا اللوم ولم يعتب الخليفة .

ثم ماقيمة هذا التعقيب الذى عقب به الدكتور هيكل ، وماذا يقصد منه ؟ أيقصد  
أن يدخل على نفوس قرائه أن خالد بن الوليد لا يبعد عليه أن يقتل مالك بن نويرة  
ليتزوج من امرأته دون أن يكون مالك مستحقا للقتل بكفره في نظر خالد ، وأن عمر  
ابن الخطاب عزل خالد بسبب هذا القتل ؟ وإذا جاز هذا فماذا أبقى الدكتور هيكل  
لخالد بن الوليد من حرمان الإسلام ، وهو أحد أعلام الصحابة ، وسيف الله وبطل  
الإسلام ؟

وهل كان عزل خالد عن إمارة الجيش كفاء هذه الجريمة الزكراء ؟ أو أن عمر  
ابن الخطاب جبن فتراجع عن تنفيذ ما توجه به الشريعة ، وهو بمقتضى منصب الخلافة القوام  
عليها ؟

وماذا يقصد الدكتور هيكل من إيراد كلام اليعقوبى وكلام صاحب الأغاني ، وهو  
كلام سبخيف لا ينبغي لباحث يؤرخ لعباقرة الإسلام ورجالاته أن يعول عليه ، فهو فوق  
أنه لا يعتمد على أساس صحيح يصور خالد بن الوليد - وهو من أعظم رجالات الإسلام -  
في صورة من لا يبالي بسفك السماء الحرام في سبيل شهواته ولذائذه ؛ ألا نرى إلى  
حديث الهوى والساقين في عبارة الأغاني ؟ ولا يستطيع الدكتور هيكل أن يتفلسف من  
هذه الورطة بقوله بعد سؤقه لعبارة اليعقوبى وأبى الفرج الأصفهاني : « وقد نسجت  
الروايات لهذا الحادث من بعد صوراً أذنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ »  
وقوله : « لسنا نقف عند ما نسجته فنون الأدب من هذه التفاصيل » « لأن ذلك ينهار  
انهياراً تاماً بقوله : « ولكن الثابت الذى لا ريب فيه أن ليلي أعجبت خالداً ، وأنه لذلك  
أمسكها من بعد ، ولم يسرحها مع ما جره عليه زواجها من متاعب » .

أفليس هذا إمعاناً في النواسية المماثلة بتصوير بطل الإسلام خالد بن الوليد في  
الصورة التى اختارها له النواسيون من أضراب أبى الفرج ورواته ؟ ومن أين استقى  
الدكتور هيكل هذا الثابت الذى لا ريب فيه ؟ أليس عمدته في ذلك كتاب الأغاني ومن  
نقل عنه من ضعفاء المؤرخين ؟ ومما يؤكد تورط الدكتور هيكل في أسر هذا الاتجاه  
النواسى الخليع أنه آخر ما رآه صورة أذنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ -  
عن حديث الإعجاب والهوى وجمال السيقان في روايتى اليعقوبى وصاحب الأغاني ،

وهذا السياق يقيّد طبعاً أن الإعجاب والهوى وحسن الساقين من الوقائع التاريخية في هذا الحادث ، وليست من الصور التي نسجتها الروايات التي هي أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ ؛ فليقل لنا الدكتور هيكل ما هو السبب في تأخير هذه العبارة ، وفصلها بعنوان خاص ؟

نأبو بكر وعمر      لا ، بل إن الدكتور هيكل أصر إصراراً عارماً على أن يرسخ في أذهان قرائه إن ابن الخطاب سبب عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد هو قتله مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ، وهو في سبيل هذا الإصرار العارم يرد نصاقاً طعناً كتب به عمر بن الخطاب إلى الأمصار ، وخطب به الناس معتذراً إليهم ومبيناً وجه صنيعه مع بطل الإسلام ، وفي ذلك يقول الدكتور : « وقد عاتبه خالد على ذلك حين رجع إلى المدينة فكان جواب عمر : ما عزلتك لريبة فيك ، ولم يكن افتتن الناس بك ، نفشيت أن تفتتن بالناس ؛ وهذه حجة لها قيمتها ؛ لكن إجماع المؤرخين منعقد على أن عمر بقي متأثراً برأيه في موقف خالد من مقتل مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ، وأن هذا الرأي كان له أثره من بعد في عزل خالد » .

هذا كلام الدكتور هيكل بنصه وفصه ؛ والقارىء لا يحتاج إلى كثير من الذكاء ليفهم منه أن الأمر لا يخرج عن أن يكون عمر في كلمته التي يرد بها على عتاب خالد غير جاد فيها ، بل قصد إلى نفاق خالد ومخادعته ، أو هو لا يقصد منها إلى معنى يفهمه العفلاء ، ولعل الدكتور رمى إلى أكثر من ذلك ، لأنه يذكر أن إجماع المؤرخين منعقد على أنه كانت في نفس عمر ريبة جاحجة في خالد ، تطعنه في دينه ورجوليته وبطولته ومروءته ، فعمر في رأى الدكتور هيكل غير صادق في كلمته ، وأنه قالها وهو يضم في نفسه غير معناها ، ولا ينقذ الدكتور هيكل من هذا التورط قوله عقب كلمة عمر : « وهذه حجة لها قيمتها » لأن الاستدراك عليها لا يترك مجالاً للإيقاظ ، وينادي بأن هذه الكلمة وقعت هكذا بين عبارات الدكتور لغرض لم تستطع أن تؤدي إليه ، وهذا الاتجاه في تصوير المسألة هو رأى الدكتور هيكل صراحة في عمر وموقعه من هذه القضية ، فهو يقول : « الرأى عندى في هذا الخلاف - يقصد إلى خلاف أبي بكر وعمر في شأن خالد - أنه كان اختلافاً في السياسة التي يجب أن تتبع في هذا الموقف ، وهو اختلاف يتفق وطبائع



الرجلين أبي بكر وعمر ، أما عمر وكان مثال العدل الصارم فكان يرى أن خالد أعدا على امرئ مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها ؛ فلا يصح بقاؤه في الجيش حتى لا يعود لثلمها ، فيفسد أمر المسلمين ويسئ إلى مكاتبتهم بين العرب ، ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثم مع ليلى ، ولو صح أنه تأول فأخطأ في أمر مالك ، وهذا مالا يجيزه عمر — فحسبه ماصنع مع زوجته ليقام عليه الحد » .

وليت الأمر في تصوير الدكتور هيكل وقف به عندهذا الحد ، ولكنه تخطى عمر ابن الخطاب وخالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق ، فجعله رجلا لا يبالي بإقامة حدود الله تعالى ، بل جعله رجلا يهدر كرامه الشريعة الإسلامية ، ويعبث بحدودها ، فهو — في نظر هيكل — يرى أن تطبيق الشريعة لا يتناول النوابع والعطاء ، وإنما يطبق على العامة والدعاء ، ويقول في ذلك : « أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور — أى قتل المسلمين عدوانا وظلما وغضب زوجاتهم — وزن ، وما قتل رجل أوطائة من الرجال خطأ في التأويل أو لغير خطأ والخطر يحيط بالدولة كلها .؟ وما الزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها — على خلاف نص القرآن — إذا وقع من فاتح غزا فتح له بحكم الغزو أن تكون له سبائا ، يصبحن ملك يمينه ١١ إن التزمت في تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابع والعطاء من أمثال خالد ، أفمن أجل مقتل مالك بن نويرة ، أم من أجل ليلى الجميلة التي فتنت خالدا يعزل خالد ؟ »

أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رجلان لم تعرف الحياة في تاريخها مثلهما سموا وجلالا في اتباع الأنبياء والمرسلين ، فهما المعجزة الكبرى بعد القرآن الكريم للإسلام ، وترثية نبي الإسلام للرجال وتخرجهم نماذج لمظاهر الوجود العليا ، يصورها الدكتور هيكل به — هذه الصورة التي نقلناها للقارىء ، فماذا بقي لهما في صفحات الفضائل الإنسانية ؟ أتلک « الرتوش » الشعرية التي تنساب لغير معنى في العبارات الرقراقة ، والأساليب المحبرة ؟ ؟

وإن كل فضيلة وراء هذا التصور تنتهى إلى رذيلة ؛ أفكان هذا مقصودا للدكتور

أم كان من جموح القلم حين يفقد الكاتب السيطرة على أعصابه وتفكيره ؟ لعل الذين يفهمون هذا من صنيع الدكتور على حق ، ولعلهم يخطئون !

ولترك كتاب « الصديق أبو بكر » ولنخض إلى كتاب « الفاروق عمر » فإلهه ألقى بالموضوع ، ولعل الدكتور هيكل كان فيه أصرح وأنطق بما يعتقد في هذه القضية ، وأحب أن أنبه إلى أن الأسلوب الشعري أشيع وأظهر في كتاب عمر منه في كتاب أبي بكر ، ولعل ذلك كان عن قصد من الدكتور ، ولعله كان من غير قصد ، وحسن الظن يقتضينا القول بأن كتاب « عمر » عالج بعض القضايا الإسلامية الخطيرة التي لا تواتيها الصراحة إلا ملفوفة في عبارات شعرية يتخفف بها الأسلوب من أثقال الرية والتوجس .

لقد أريناك أن الدكتور هيكل كان يقبض بكلماته يديه على حديث الهوى في رواية النوايسين ، ويرى فيه مفتاح قضية عزل خالد بن الوليد ، ولم نسكن متعجنين في ذلك ، ولكننا كنا أمام عبارات وانحط في عرضها ومرماها فأثبتناها بصورتها التي وضعها عليها كاتبها ، وهذا كتاب « الفاروق عمر » يسعنا بما يزيد في براءتنا من يهيمه النجوى على رجل يعد في طليعة كتاب الشرق المعاصرين ، ومن حق البحث الذي يكتبه في الموضوعات الإسلامية وكتبه في تصوير حياة عظماء التاريخ الإسلامي على أهل العلم أن يجيلوا فيها النظر الناقد ، وأن يذيعوا هذا النقد بين شباب الإسلام ما أمكنهم الفرصة لنكون وقاية ، عسى أن يتسرب إلى عقولهم الغضة وأفئدتهم النسافية .

إلحاح في  
قصة مالك  
ابن نورة

في كتاب « الصديق أبو بكر » اعتمد الدكتور هيكل في بيان سبب عزل خالد على قصة مالك بن نورة وزواج خالد من امرأته ، وروى هناك قصة النوايسين التي تجعل من خالد رضى الله عنه مدنفًا تيمم العشق وأضناه الغرام بليلي امرأة مالك بن نورة التي كان يهواها - في زعم النوايسين - في الجاهلية ، وشرح الدكتور ذلك بأحدوثة جمال ساقها التي جاءت على لسان أحد الخلاء من رواية أبي الفرج في أغانيه ، وفي كتاب « الفاروق عمر » يذكر الدكتور هيكل حديث الهوى والغرام غير مسند إلى كتاب الأغاني أو غيره - ولهذا الصنيع اسم خاص عند علمائنا فيقول الدكتور : « غضب أبو قتادة الأنصاري لقتل مالك بن نورة بعد ما أظهر إسلامه ، وظن أنها حيلة من خالد

ليتزوج ليلي الجميلة ، وكان يقال إنه يهواها في الجاهلية » ثم يصور موقف عمر من خالد بعد أن زجر أبو بكر أبا قتادة وردّه إلى قائده جنديا يسمع ويطيع ، وبعد أن حسم أبو بكر إلحاح عمر بكلمته القاطعة لا يا عمر !! ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين ، بقوله « فقد كان عمر ثائراً بخالد ثورة جعلته يبالغ في النيل منه فيجمع من حوله متمماً وأبا قتادة ومن لف لفهما ، ويستنشد متمماً شعره في رثاء مالك ، ويظهر الرضا عنه وعمّا يقول . وكيف لعمر أن تطيب نفسه فيسكت عن رجل قتل أمراً مساماً ونزاً على امرأته فوجب رجه » وقوله : لم يترشح عمر عن رأيه فيما صنع خالد ، وفي وجوب عزله ، وكان لهذا الإصرار أثره من بعد ، حين تولى عمر إمارة المسلمين فقد عزل خالدًا عن إدارة الجيش أول ما تولى ، ثم عزله من بعد ذلك عن عمله في الجيش كله .

منطق مدخول  
أهذا منطق العقل ؟ أم منطق العاطفة التي تهوى الاستشراق والمستشرقين ؟ أم هو منطق الحرية الفكرية والتحليل العلمي كما يفهمه فريق من الباحثين والكتاب المعاصرين في هذا الشرق المسكين ؟ .

عمر بن الخطاب يرى - كما تزعم بعض الروايات التي رخصها الدكتور هيكل - أن خالد بن الوليد قتل رجلاً مسلماً محرم الدم لأخبط غرض ، ونزاً على امرأته التي كان يهواها في الجاهلية ، أو التي أعجب خالد بحسن ساقها كما يزعمه خلعاء النوايسين ، ويطلب عمر من الخليفة أبي بكر الصديق في إلحاح صارم أن يقتل خالد أقصاصاً بمالك ، أو يرحمه حداً للزنا بامرأته ، فيهدر الخليفة حدود الله ويعطل أحكام الشريعة ؛ ثم يتولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر ويصبح سلطان الإسلام والمسلمين بين يديه ، فيكتفى من خالد صاحب تلك الآثام والجرائم التي أقامت عمر وأقعدته - في زعم روايات مريضة رخصها الدكتور هيكل - على عهد أبي بكر ثم لا يصنع عمر بعد ذلك كاه شيئاً إلا أن يعزل خالدًا عن الإمارة ؛ ثم عن الجندي العامة في الجيش كله ؟ .

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

فأين ما كان يطالب به عمر أبو بكر من إقامة الحد على خالد قصاصاً أو رجماً؟ وما الذي جعل عمر - وهو من هو - يسكت على نفسه في أمر لم يرض أن يسكت عنه

لأبي بكر ؟ ولكن لا عجب أن يكون عمر بن الخطاب هكذا في رأى الدكتور هيكل لأن عمر يقول للناس ويكتب إلى الأمصار الإسلامية مبينا في صراحة لالبس فيها : إن السبب في عزله خالدا لا يرجع إلى ريبة في خالد ، ولكنه عزله لأنه رأى الناس افتتنوا به فحشى أن يوكالوا إليه ؛ فيقول الدكتور هيكل برد على عمر بن الخطاب : لا ، يا أمير المؤمنين ، فإن إجماع المؤرخين منعقد على أنك عزلت خالدا لأنه قتل اورأمسلما ، ونزاعلى امرأته التى يقال : إنه كان يهواها فى الجاهلية .

هذا لون من ألوان المنطق العلمى الذى تجرى عليه كتب الدكتور هيكل فى البحوث الإسلامية . أفكنا مخطئين أو متجننين حينما قلنا إنه يجب التنبيه على هذا النحو من أساليب البحث ليكون قارئوه على بصيرة من أمرهم وأمره ، وعمدة هذا اللون من منطق الدكتور هيكل إهدار كل رواية تاريخية تبرز أدب الإسلام فى نماذجه الإنسانية الحمية من رجالاته الذين رباهم فى مدرسة النبوة تربية ترتفع بهم عن وصمات الأخلاق تحشا بالكارم وتكرما عن الشبهات .

وهناك لون آخر من المنطق يسرى فى كتاب « الفاروق عمر » نرى من حق البحث أن نعرض له ؛ وعمدة هذا اللون تسقط الروايات التى تجعل من عظماء الإسلام وعباقرته جماعة من الناس تعيش فى ظل مبدأ لا يقيم وزنا للقيم الخلقية ورقابة الضمير ذلك هو مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » فعمر بن الخطاب عظيم العظماء فى الإسلام بعد أبى ، يثور فى ظل الإسلام نعبقري الإسلام وبطل أبطاله خالد بن الوليد ، فيتسقط له هنات يحصىها عليه ، ويطالب بإزال أشد العقوبات به ، ويحرص الخليفة على قتله أو رجمه ؛ ثم يعزله عن إمارة الجيوش الإسلامية لإحزن وأحقاد جاهلية ؛ فأى قيمة لهذا الإسلام أمام هذا المنطق الميكلى أعظم من أنه كان وسيلة مكنت عمر بن الخطاب من السكيد لخصمه فى الجاهلية خالد بن الوليد ؟ وأى قيمة للأخلاق والفضائل أمام هذا المنطق « العصرى » اذاحات دون اشباع أحقاد الجاهلية واحنها فى ظل هذا الإسلام ؟

« الغاية تبرر الوسيلة »  
سياسة عمرية  
فى نظر هيكل

يقول الدكتور في هذا اللون من المنطق : « برى بعضهم عجباً أن يشور عمر بخالد كل هذه الثورة ، وخالد خال عمر ، وخالد سيف الله ، وناصر دينه ، وقد ينزل من هذا العجب ما يرويه بعض المؤرخين من أن عمر كان سىء الرأى فى خالد من قبل إسلامه ، وكان سىء الرأى فيه حياته » وهنا ساق الدكتور فى الهامش كلمة لليعقوبى ذكرها فى تاريخه يقول فيها : « كان عمر سىء الرأى فى خالد لقول كان قاله فى عمر » وكأنما أدركت الدكتور بقية من الحياء العلمى حجزته أن يدون هذه الكلمة الفارغة فى صلب الكتاب ، ولكنها لا بد أن تذكر لأنها تغض من العظمة العمرية السامقة ، وليكن ذكرها فى الهامش ، ولعل هذه الكلمة التى لا تدل ألفاظها على معنى فى موضوعها ، والتى تلقفها اليعقوبى من رواية لخميد بن إسحاق صاحب المغازى هى التى يعنىها الدكتور هيكل بقوله : « ما يرويه بعض المؤرخين » ، وفى الإبهام إبهام . وعلى هذه الكلمة بنى الدكتور ذلك الحكم القاطع بأن عمر بن الخطاب كان سىء الرأى فى خالد قبل إسلامه ، وظل سىء الرأى فيه حياته ، والدكتور يؤكد ذلك فى غير تحفظ بقوله : ومهما يكن من شىء فالثابت أن ابن الخطاب لم يحب خالداً » وإن كان عمر نفسه وعينه يقول لخالد - فيما رواه الدكتور ورضيه - حين عاتبه : « والله يا خالد إنك على لكريم ، وإنك إلى الحبيب » وماذا على الدكتور هيكل إذا قال يرد على عمر بن الخطاب : لا ، يا أمير المؤمنين . ليس صحيحاً أن خالداً عليك كريم ، وليس صدقاً أن خالداً إليك حبيب ، فإن الثابت - على رغم قولك أنك لم تحب خالداً ، وأن بعض المؤرخين - اليعقوبى أو غيره - قال إنك سىء الرأى فى خالد ؟ . .

ومن عجيب التحليل العلمى « العصرى » أن تكون عبارة اليعقوبى - كما نقلها الدكتور هيكل - مطلقة مجملة فيفصلها هيكل كما يشاء ويهوى ، ليجعل سوء رأى عمر فى خالد راجعاً إلى ما قيل الإسلام ، أى إلى إحن واحقاد جاهلية موروثة . وهنا يصعق « الاستشراق » بكلمات يديه إعجاباً بما أثمر وأينع ، فقد نبجح أحد تلاميذه فى هدم قاعدة « أثر الإسلام فى تهذيب النفس » لأن عمر بن الخطاب وهو التلميذ الأول فى حساب التاريخ الإسلامى فكيفاً بآداب الإسلام ، قد ثبت أنه عاش فى ظل هذا الإسلام على إحن الجاهلية وأحقادها . .

ويتابع الدكتور هيكل هذا الاتجاه فيقول : « لقد عرف الناس جميعاً سوء رأى عمر فى خالد بن الوليد ، وحرصه فى حادث بن نويرة على أن يقيد أبو بكر منه ، ( م ١٩ - خالد ابن الوليد )

أحقاد جاهلية  
هى التى  
حركت عمر  
نحو خالد فى  
نظر الدكتور  
هيكل

ولم يتغير رأى عمر في خالد من بعد هذا الحادث « ويقول : « يتساءل الناس إلى يومنا هذا عن السر في عزل عمر خالدا ... أحقا أن مقتل مالك بن نويرة وتزوج خالد من امرأته بقي له من الأثر في نفس عمر ماحمله على هذا التصرف ، أم خشى عمر أن يفتن خالد بالناس كما افتتنوا به لانتصاره المتصل في الحرب ، وقد يجرافتانه على الدولة شرا . يرى بعضهم هذا الرأى الأخير ، ويذكرون أن خالدا رجع إلى المدينة يسأل عمر عن ماحمله على عزله فأجابه : « ماعزلك لريبة فيك ، ولكن افتن بك الناس ، نخشيت أن تفتن بالناس » قال الدكتور : « وهذه رواية لاسند لها ، فالثابت أن خالدا لم يذهب إلى المدينة بعد عزله وأنة بقي بالشام يتابع غزواته بإمرة أبي عبيدة حتى عزله عمر عن كل عمله بالجيش في السنة السابعة عشرة من الهجرة ، ولأحسب كذلك أن مقتل مالك ابن نويرة كان سبب العزل ، وعندى - الدكتور هيكل - أن عمر إنما عزل خالدا لأن الثقة بين الرجلين لم تكن قائمة قبل خلافة عمر ولا أثناءها . »

اضطراب في البحث  
أحب لقارىء هذا البحث أن يكون أقوى ذاكرة ممن جمع معلومات كتابى « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » لأن قوة الذاكرة قد تعيننا على أن نصع يدنا على مقدار العناية بالبحث في هذين الكتابين ونعرف قيمتها من الصديق العلمى ، ونذكر ما بين الكتابين من اتفاق أو اختلاف في الموضوع الواحد ، فالدكتور هيكل ينفى في كتاب « الفاروق عمر » أن يكون مقتل مالك بن نويرة سببا في عزل خالد ، ويرى أن رواية اعتذار عمر عن عزل خالد بقوله لخالد ، « ماعزلك لريبة فيك » لاسند لها ، لأن الثابت في نظر هيكل أن خالد لم يذهب إلى المدينة بعد عزله .

والدكتور هيكل عينه ونفسه يثبت في كتاب « الصديق أبو بكر » أن مقتل مالك ابن نويرة وزواج خالد من امرأته كان سببا في عزله بإجماع المؤرخين - في نظره طبعاً - والدكتور هيكل عينه ونفسه أيضا في كتاب « الصديق أبو بكر » يجعل كلفة عمر التي اعتذر بها إلى خالد في قوله : « ماعزلك لريبة فيك » حجة لما قيمتها لارواية لاسند لها وأما حديث ذهاب خالد إلى المدينة ولقائه عمر ومعاتبته واعتذار عمر فقد رواه جمع من المؤرخين الأثبات ، وقد ستقنا رواياتهم فيما قدمنا من حديث ، وبعض الرواة عين وقت ذهاب خالد إلى المدينة ، فجعله بعد عزله عن عمله كله بالجيش وهو العزل الثانى ، وكان قدومه إلى المدينة بطلب من عمر ، فأنى يستقيم للدكتور هيكل قوله : « فالثابت أن خالدا لم يذهب إلى المدينة » .

أهكذا يهجم العلماء على العلم والتاريخ ؟

لا ، بل إن الدكتور هيكل يثبت في كتاب « الفاروق عمر » ذهاب خالد إلى المدينة ، فيقول فيه : « بينما كان ذلك بجري يحمص كان عمر ينتظر بالمدينة مقدم خالد عليه معزولا عن عمله ... فلما طال به الانتظار وأبطأ خالد عليه ظن الذي كان وأدرك أن أبا عبيدة في لينة وتودده وتواضعه قدر ما ينزل بنفس خالد من الهم إذ يعرف المصير الذي أراد له أمير المؤمنين ... فكتب إلى خالد يستقدمه ... لم يبق لخالد إلا أن يرجع إلى المدينة معزولا يلقي أمير المؤمنين ، فخرج يريد قنسرين ... فلما بلغها كظم غيظه وتجمل وخطب أهل عمله ، وذكر مجيدفعاله معهم ولم يذكر عمر لهم بسوء ، ثم ودعهم وعاد بأهله ومتاعه إلى حمص فخطب أهلها وودعهم وفصل عنهم منصرفا إلى المدينة ، فلما بلغها ولقي أصحابه بها ألفى أمر عمر فيه قد سبقه اليهم ... ثم انه لقي عمر فقال له : « لقد شكوتك إلى المسلمين وبالله انك في أمرى غير مجمل يا عمر .. ولعل عمر انما قسا على خالد وبالع في القسوة عليه بعد عوده إلى المدينة معزولا ، لأنه رأى جماعة من المتعصبين لخالد يحاولون إثارة الفتنة » هذا كلام الدكتور هيكل .

أبعد هذا يأسدنة العلم وغطارفة البحث الحر يبقى صحيحا قول الدكتور هيكل :  
« فالثابت أن خالدا لم يذهب إلى المدينة » ؟ ؟

أبعد هذا يازعماء التحليل العلمى يبقى قول عمر لخالد : ماعزلتك لريبة فيك . رواية لا سند لها ٢ . أم يجب أن يقال : فالثابت أن بعض الباحثين لم يثبت في بحثه ، خلط وأثبت مانفى ، ونفى ما أثبت في موضوع واحد ، ومسألة واحدة . . وهذا ان دل على شيء فأنما يدل على ما يسود هذه الكتب « المفخمة » وعلى مقدار ما فيها من ضحالة البحث وتفاهة ما يزعمونه تحقيقا علميا وبحثا عن وقائع التاريخ .

والدكتور هيكل يقول في كتاب « الفاروق عمر » : « وعندى أن عمر إنما عزل خالدا لأن الثقة بين الرجلين لم تكن قائمة » والدكتور هيكل يقول في كتاب « الصديق أبو بكر » : « الرأى عندى فى هذا الخلاف أنه كان اختلافا فى السياسة ... أما عمر — وكان مثال العدل الصارم — فكان يرى أن خالدا عدائى امرئ مسلم ، ونزاعلى امرأته قبل انقضائه عدتها فلا يصح بقاؤه فى قيادة الجيش » .



أفرايت إلى موازين العلم والتاريخ التي تكتب بها حياة عباقرة الإسلام؟ وقد شرح الدكتور هيكل « الثقة » التي لم تكن قائمة بين عمر وخاله ، فأدى ذلك إلى أن يعزل عمر خالدا عن العمل في جيوش المسلمين ، شرحا رجوع بها حديث سوء رأى عمر في خالد وقد أريناك خبيء أمره والدكتور هيكل يؤكد ذلك باعتراض يفترضه فيصوره في قوله : « إن الخليفة لا يلي الدولة لحسابه ، بل لحساب المسلمين جميعا ، فكان من الواجب لذلك على عمر أن ينسى ما بينه وبين خالد » . أفهتكم هذا الدرس الذي يلقيه محمد حسين هيكل على عمر بن الخطاب ليعرفه الواجب عليه في سياسة الدولة ؟ أولى لك يادكتور فأولى ، ثم أولى لك فأولى . ومن غيرك لها . . . ؟

وهذا الذي كان بين عمر وخاله ، وكان يجب على عمر — وقد أصبح خليفة للمسلمين أن ينساه ، هو أحقاد جاهلية ، وإحن شخصية في زعم رواية ميتة ارتضاها الدكتور هيكل ، وبنى عليها حكمه القاطع بأنها كانت سببا في عزل عمر خالدا .

ولكن الدكتور هيكل لا يرضيه إلا أن يكون حنيا بعمر بن الخطاب ، يلتمس له العاذير في فلسفة الحياة وشاعرية الأسلوب ، فيقول : « وهذا الاعتراض له وجهته . ولكن في المنطق النظري — وهذه الوجهة تتضاءل كل التضائل أمام الواقع من أمر هذه الحياة ، فنحن معشر هذا الناس — وعمر بن الخطاب واحد من هذا الناس طبعاً — لا نتصرف في شئون الحياة بعقولنا وحدها ، بل إن لعواطفنا علينا سلطاناً أى سلطان » .

هيكل يقرر  
أن عمر بن  
الخطاب تأثر  
بشعوره  
الخاص نحو  
خالد

وهكذا راح الدكتور يبسط نظريته هذه في أسلوب شاعري يلف المعاني لفائمه ينفلت منها انقلات الرقطاء من مضايق الأحجار إلى النتيجة المصودة فيقول : « ولا ريب أن قد تأثر عمر بشعوره نحو خالد ، واعلم كذلك قد ظن أن خالدا حسده على الخلافة » ؟

أفرايتهم إلى التحليل العلمي والتحقيق التاريخي في مؤلفات الباحثين المعاصرين ؟ هذا التحليل ، وذلك التحقيق الذي سدها ولحمته هدم ما بنى الإسلام من شخصيات فارعة العظمة ، وتشكيك الناس في حقائق التاريخ التي تصور عظماء الإسلام في حقيقةتهم العليا من الحياة .

لكن الحق يأبى أن يظل ملفوفاً في دثار الأباطيل ، فهذا هو الدكتور هيكل عينه يقول في كتاب « الفاروق عمر » : « وكان العدل في فطرة عمر منذ نشأته ، ثم نمت فكرة العدل في نفسه حتى بلغت الكمال ، لأنه سما بعقله وقلبه فوق شهوات هذه الحياة فلم يجعل لها عليه سلطاناً » فأيهما نصدق ؟ أتصدق الدكتور هيكل الذي يقرر أن عمر ابن الخطاب تأثر شعوره فلم يقيم للعقل ولا للعدل وزناً ، بل تصرف مع بطل الإسلام وسيف الله تصرفاً أملتته شهوات هذه الحياة الدنيا ؟ أم نصدق الدكتور هيكل الذي يقرر وقائع التاريخ الصحيحة ، فيجرب على قلمه بقصد أو بغير قصد : أن عمر سما بعقله وقلبه على شهوات هذه الحياة فلم يجعل لها سلطاناً عليه ؟ !

إلى هنا كان الدكتور هيكل قد بلغ المدى الذي كان يريد أن يبلغه ، وهو أن عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد إنما كان إرضاءً لشهوة نفسه وحقد شخصي ، يضرب بعروقه إلى ثرى الجاهلية الجاهلاء : وقد ظل عمر حياته يتسقط لخالد الأخطاء التوافه وهنات الهفوات ، ويتلمس له السقطات ، ويحصى عليه السيئات ، فيرمية بقتل امرئ مسلم حرام الدم ، ويرميه بزوجه على امرأته ، ويطالب بالقصاص منه أو رجمه ، وإذا لم يظفر بكيد لخالد على يدي أبي بكر ، فليكن أول عمل له في دولة الإسلام عزل خالد عن إمارة الجيوش الإسلامية ؟ بل عزله عن الجندية في تلك الجيوش التي قادها من نصر إلى نصر ، وإنما يصنع عمر ذلك الصنيع يبطل الإسلام سيف الله خالد بن الوليد لأن عمر واحد من هذا الناس الذين لعواطفهم عليهم سلطان يقسروهم على أن يهددوها قواعد العدل والصدق والمروءة والرجولية ومقتضيات الخلق الكريم ، بله الدين ، ودين الإسلام وشرائعه .

لو كان هؤلاء الباحثون يكتبون بروح إسلامية لقالوا في سماحة ويسر إن لعمر ابن الخطاب سياسة معروفة في عزل الولاة والأمراء ، اختطها في خلافته ، فقد عزل جماعة من الولاة والأمراء بعد أن حاكهم ، لأن عمر كان يحرص على تركيز السلطة كلها في يديه ، ويجب من أمرائه أن يرجعوا إليه في الصغير والكبير والقليل والكثير فأبى عليه خالد ذلك فعزله .

ولكن الدكتور هيكل يأبى أن برد عزل خالد إلى هذه الخطة في سياسة الحكم، بل يحب أن يكون مرده سوء رأى عمر في خالد وفقدان الثقة الذى يجعل عمر ينسى العقل والدين والمروعة فيتصرف نحو خالد تحت تأثير العواطف الحاقدة وسلطانها والإحن الموروثة ونزواتها، ولا يفوت الدكتور أن يختم نتيجته بهذه الكلمة المدافعة « وبذلك تكشف السر في عزل خالد وتكشف مكان هذا السر من نفس عمر » .

لم يشأ الدكتور هيكل أن تكون عبقرية عمر بن الخطاب بلونها الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نعتها بها ، ولا بالمعنى الذى عرفه الإسلام في عليا الفضائل ورفيع الأخلاق إذا تكاملت في رجل ، ولا بالمعنى الذى أراد المسلمون وعرفوه واقعاً مشهوداً في تكيف عمر بروح الإسلام حساً ومعنى ، ولا بصورتها التى اتفق الناس عليها في الشرق والغرب من عدل في الحكم وحكمة في السياسة كانت تستهدف روح الإسلام مما جعلها مضرب المثل في اقتدار هذا الدين القيم على صنع النماذج الحية للفضائل الإنسانية في شخصيات الرجال .

ولكن الدكتور هيكل شاء أن يضيف على عمر بن الخطاب لوناً من العبقرية إن لا يكن الإسلام يعرفه فإن الحياة غير الإسلامية تعرفه لعظائماً ، فهو لون ينظم عمر في سلك هؤلاء العطارفة الذين تدوى بأسمائهم أرجاء الفضاء وآفاق الأرض من ساسة « قرنهم » العشرين ، أو ليس من الوسائل التى تذرع بها هؤلاء الساسة في كسب الزأى العام إلى جانبهم أن يذيعوا في الناس إذاعة لا تعبر تعبيراً صادقاً عن آوائهم في بعض الأحداث والحوادث خشية أن يثور الناس على تلك الآراء ، أو إرادة تسكين الحواطر وتهذبة النفوس ، فكانوا بذلك عبقرين وعظماء ؟؟ فحسب عمر بن الخطاب عظماء الإسلام أن يجد كاتباً عصرياً يجعله نداً لسائس سواس الإنجليز أو الأمريكان أو حتى البلاشفة ولا عليه أن يعيش كما عاشوا في ظل حياة من الكذب والنفاق والخداع ، وكانوا بعد ذلك عباقره عظماء ١١ .

عود إلى مبدأ  
« الغاية تبرر  
الوسيلة »

لقد كان لعمر بن الخطاب — في رأى الدكتور هيكل — من هذه العبقرية « المناققة » حظ وأى حظ ، وإذا شئت أن تزداد علماً يخطط عمر من هذه العبقرية فاسمع إلى الدكتور هيكل يقول في فصل عقده تحت عنوان « مصير خالد بعد اخضاع الشام » من كتاب

« الفاروق عمر » : « واطمأن عمر اذ برت يمينه ألا يلي له خالد عملاً أبداً؟ ثم لم تثر لعزل خالد عاصفة ، ولم يمالئ خالد أحداً على اثارها ، فغلب جانب البرفيه جانب الشدة والبأس ، فأذاع في الأمصار « انى لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا خيانه ولكن الناس فتنوا به خفت أن يوكلوا اليه ، ويبتلوا به ، فأحييت أن يعلموا أن الله هو الصانع ؛ وألا يكونوا بعرض فتنة » قال الدكتور هيكل معقبا : « أفنعتبر هذه الإذاعة تعبيراً صادقاً عن رأى عمر في خالد ، وتشهد أنه اقتنع بأن الرجل لم يرتكب أثم الخيانة ، ولا أثم الإسراف حين أجاز الأشعث بعشرة آلاف ؟ أم اذاغته سياسية قصد بها ابن الخطاب الى تسكين الخواطر التى لمارت لما أصاب سيف الله تعصبا له واعجابا به وخشية أن يجرى عمر فى سياسته على تغليب الهوى والأخذ بالظنة فى أمر بناء « الامبراطورية » الناشئة ؟ أغلب الظن أنها كانت اذاعة سياسية أريد بها الاعتذار عن أمر أو شك حين وقوعه أن يحدث حدثا » .

هذا نص كلام الدكتور هيكل ، ولو أردنا أن نضع النقاط تحت الحروف أو فوقها لكان معنى كلام الدكتور الذى لامعنى له سواء ، أن عمر بن الخطاب أذاع فى الناس كلاما لم يقصد الصدق فيه ، وعند علماء الأخلاق قدر عظيم من النعوت والأوصاف التى تنطبق على صاحب هذا الخلق فى الناس ، فهل الى ذلك قصد مؤلف كتاب « الفاروق عمر » ؟ . لعل من يفهمون ذلك من كلام الدكتور على حق فيما يفهمون ، ولعلهم مخطئون ؟ . واسكنهم ان أخطأوا وأمنعوا فى الخطأ فلن يكونوا مخطئين حين يفهمون أن الدكتور هيكل وأضرابه لا يفهمون الإسلام بروح الإسلام ، وإنما يكتبون عن الإسلام بأقلام غريبه عن الإسلام أو على الأقل يكتبون بروح تتعبد بتقليد أساتذتهم المستشرقين . ألا ترى الى هذا اللفظ الضخم الذى اجتلبه الدكتور هيكل من العرب ليزين به سيرة عمر بن الخطاب اذ يسمى الدولة فى عهده ، وهو الخليفة الثانى فى الإسلام « الامبراطورية » الناشئة ؟ والقارىء المسلم لابد أن يحفل لسماع هذا الوصف ، لانعرايته على لغة الإسلام ، بل لانعرايته على حقيقة الإسلام كما يعرفها ذوو العلم من المسلمين الأحرار ، ولكن السطحيين من أغرار المسلمين . والمتعمقين فى الاستشراق من عبيد.

التقليد الغربي يهشون لهذا الوصف . ويرون أنه إبداع في التعبير الفخم المفعم لشأن الدولة في شخص « إمبراطورها » عمر بن الخطاب .

ونعود إلى كلام الدكتور هيكل انجدة يذكر بقصد أو بغير قصد في شيء من الصراحة السهوانة أنه يعتمد ويصحح رواية اعتذار عمر عن عزله خالدا وإذاعته في الأمصار أنه لم يعزله لريبة أو خيانة ، وكان قد سبق له أنه قال : إنها رواية لا سند لها . وهكذا يكون التحقيق العلمي في وقائع التاريخ ؟ !

ويعض الدكتور هيكل في هذا اللون من منطقة « العصري » فيشكك في كل رواية تاريخية تحمل معنى كريما في تصرف من تصرفات عمر بن الخطاب نحو خالد بن الوليد فلم يرض الدكتور لقلمة أن تفلت منه بمنجى عن الشك والتشكيك روايات تحكى أن عمر بن الخطاب حزن لموت خالد ، وخالد قريب لعمر قرابة دانية فهو ابن عم أمه على التحقيق وخاله في عرف الناس ، وخالد بعد ذلك سيف الله وبطل الإسلام ، يقول فيه عمر نفسه : « إنه كان ليحب الشرف وأهله ، وإن كان الشامت به لمتعرضا لقتل الله » ويقول فيه : « كان والله سدا إذا لنحو العدو ، ميمون النقية » فيقول له على : فلم عزله ؟ فيقول عمر : ندمت على ما كان مني . ويسمع عمر أم خالد تندبه بقولها :

أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كبت وجوه الرجال

فيقول لها صدقت ، والله إنه لكان كذلك . ويقول فيه : « على مثله تبسكي البواكي » .

ولكن الدكتور هيكل بعد أن يستعرض هذه العبارات الدامعة الدامية الصادقة في حزنها يقول : « أفكان عمر صادق الحزن على خالد حين خرج عن مألوف رأيه فترك نسوة قريش يندبنه ، ثم أظهر الندم على عزله ، وقال فيه كل ما قال ؟ أم اقتضته مروءته أن يكون مجحلا مع ابن خاله في مماله ، ولم يكن مجحلا معه في حياته ، فترك النسوة يبكين لعل في البكاء ما يخفف لوعتهن ، وقال ما قال ليعزى به بنى خالد وأهله ، والله أعلم بالسرائر » .

يا قوم إلا تكونوا تتقون الله فاتقوا المروءة ، وإلا تكن مروءة فاتقوا الشيطان . ثم ألا بقية من حياء ؟ عمر بن الخطاب المحسود من أجله الإسلام يقوم في محسد الأبطال

كلمات باكية يصف بها بعض حزنه فيأتى « محمد حسين هيكل » ليشكك في حزنه ، ويشكك في صدقه ؟

هذا فى الحق بلاء من البلاء . .

الحق أن قارئ كتاب « الفاروق عمر » يخرج من قراءته بصورة لعمر بن الخطاب عبقرى الاسلام وفاروقه وثانى خلفائه الراشدين ، جديدة كل الجدة على معارف المسلمين التاريخية ، تنكرها عقولهم وتنفر منها قلوبهم ، فهل الى هذا النشاز من الحديث قصد الدكتور هيكل ؟ وهل الى هذا النكر من لغو القول أراد ؟ لعل من يفهم هذا على حق ولعلمهم مخطئون .

ولسنا ندرى ما الذى جعل عمر بن الخطاب يشغل مكانه الممتاز من نفس النبى صلى الله عليه وسلم ، ويحتل مكانه الخطير فى دنيا الإسلام وفى تاريخه ، ويتبوأ مكانه العظيم فى قلوب المسلمين منذ دخل فى الإسلام الى يوم الناس هذا والى أن تقوم الساعة ، اذا كان - فى تصوير الدكتور هيكل - لا يعرف الصدق حق فى مقام الموت الذى يسمو بمن مات الى مقام السيرة المبرأة عن الشماتة والحق ؟ . وأية فضيلة من الفضائل الإنسانية بله الفضائل الإسلامية تبقى بعد ذلك صادقة الوجود فى شخصية عمر بن الخطاب الذى يصوره للناس مؤلف كتاب « الفاروق عمر » ؟ ؟ .

الى هنا ونغض من عنان القلم ليقف ، فليس من قصدنا أن تعرض الآن لغير قضية عزل خالد فى كتابى الدكتور هيكل . وأسلوبه فيها نموذج للطرائق التى عالج بها الدكتور هيكل القضايا الإسلامية فى كتبه التى نعتقد أنها من وجهة النظر الإسلامى فى حاجة الى نظرات فاحصة ومحصة ، وفى ظننا أننا قد استطعنا بهذا العوض لقضية العزل أن نضع فى يد القارئ ما يردده عن الاندفاع وراء الأسلوب الشعرى مأخوذاً بجمال التعبير وسهجات الخيال عن حقائق الحوادث من وقائع التاريخ ، وبذلك نكشف السر فى اتجاه الدكتور هيكل ، ذلك الاتجاه فى تصوير قضية عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ، ونكشف مكان هذا السر من نفس مؤلف كتابى « الصديق أبو بكر » « والفاروق عمر » ونحن فى طريقنا الى جولة مختصرة فى كتاب « حياة محمد » للدكتور الأديب .





# الفصل الرابع عشر

## تحرير قصة عزل خالد

، تحقيق أسبابه

---

العزل عن الإمارة العامة - بين عمر وأبي عبيدة - بين خالد وأبي عبيدة - العزل،  
عن الجندية إطلاقاً - تحرير وضع القصة - ليس لقصة ابن نورة مدخل في العزل -  
تزييف أبطولة الحقد الجاهلي - رأى الأستاذ العقاد - الأسباب الجدية للعزل - حق  
الحاكم على ولاته - سياسة عمر وأبي بكر - ليست الحوادث أكبر من عقولنا -  
صلابة الطبع عند عمر وعند خالد - افتراق في السلوك والأعمال اصطدام بين  
طبيعتين - وقف الطبيعة الخالدية ضرورة سياسية - حقيقة دوافع العزل - فتح الباب  
أمام الكفائات - بدء التصادم بين عمر وخالد - خالد يأبى أن تقيد حريته في دائرة  
عمله - تقدير عمر لعبقرية خالد - طبيعة لاتغالب - العزل الثاني وأثره - اعتذار  
عمر - سياسة عمرية عامة - تسامى العبقریات عن الصغائر - عظمة خالدية - مظاهر  
الولاء بين عمر وخالد .

---



عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد مرتين - المرة الأولى عزله عن القيادة العامة العزل عن  
وإمارة الأمراء بالشام ، وكانت هذه المرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة غداة تولى الإمارة العامة  
عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر الصديق ، وكان الكتاب بهذا العز أول كتاب كتبه عمر  
مستهلا به عمله في سياسة الدولة ، وولى مكان خالد أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح .

وكان أبو عبيدة حبيبا إلى عمر قريبا إلى طباعه وخلائقه المكسوبة ولا سيما بين عمر  
خليقة التخشن والزهادة في الدنيا والتجاني عن مظاهرها ، وهي أظهر خلائق عمر وأبي عبيدة  
الإسلامية التي نبعث منها عظمتها في العدل والسياسة ، واستطارت جهارته في الحق قولا  
وعملا ، وأمر أمير المؤمنين عمر قائده أبا عبيدة أن يسرح جند العراق الذين قدموا إلى  
الشام في حملة خالد إلى عراقهم تنفيذا لوصية أبي بكر قبل وفاته ، وأمر أن يحتبس منهم  
من يحتاج إليه ، وقال له : وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى لك عنه .

وكان أبو عبيدة من أعرف الناس بحق خالد وأعظمهم تقديرًا لبعبريته وفضل عقله  
وشجاعته وكان به حفيًا ، فقد أخفى عليه كتاب عزله إجلالا له أن يدخل عليه ما يسوؤه  
ويروعه حتى علم به خالد من غيره فعاتبه على ذلك .

وكان خالد يعظم أبا عبيدة ويعرف له فضله وسابقته ، وزفة مكانه في الإسلام . بين خالد  
روى الإمام أحمد عن عبد الملك بن عمير قال : استعمل عمر أبا عبيدة على الشام وعزل  
خالد بن الوليد ، فقال خالد : بعث عليكم أمين هذه الأمة . سمعت رسول الله صلى الله  
عليه وسلم يقوله ، فقال أبو عبيدة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خالد  
سيف من سيوف الله . بفم فتي العشيرة » . ولما ولى أبو بكر رضي الله عنه خالدًا على  
جيوش الشام شق عليه فراق العراق وكانوا ها بوه هيبة شديدة وكان إذا نزل يقوم عذابا  
من عذاب الله عليهم وليثا من الليوث . فلما قرأ كتاب أبي بكر ورأى أنه ولده على أبي  
عبيدة ، وعلى الشام تسخى بنفسه وقال : أما إذ ولاتي أبي عبيدة فإن في الشام من العراق  
خلفا . وكتب إلى أبي عبيدة من بين الأمراء نميذا له كتابا يعلمه بأمر أبي بكر له أن يقوم  
على جند الشام ويتولى أمرهم ، فكان مما قاله خالد في كتابه لأبي عبيدة : « فأنت على حالك  
التي كنت عليها لا نعصيك ولا نخالفك ولا تقطع أمر راوئك ، فأنت سيد المسلمين لا  
ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك » .

وكان أبو بكر قد كتب إلى أبي عبيدة يخبره بإمارة خالد عليه وعلى الأمراء الذين معه ، وأمره بالسمع والطاعة لأمره ، وقال له : فإنني لم أبعثه عليك ألا تكون خيرا منه عندي ، وأمره بالسمع والطاعة لأمره ، وقال له : فإنني لم أبعثه عليك ألا تكون خيرا منه عندي ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . فقابل ذلك أبو عبيدة بالغبطة والابتهاج ، وشكر لأبي بكر صنيعه وجزاه الخير وهتف محييا القائد العبقري بطل الإسلام خالد بن الوليد .

وقد ظل هذا الود القائم على التقدير الصادق والاحترام والثقة متبادلا بين القائدين العظميين لم تذكره شوائب الأثرة التي تصطدم بين المتنافسين على النعظم يبعث بها الرياسة وسلطان الإمارة ، بل زاده الايثار الصادق الذي قامت عليه صداقتها قوة ورسوخاً .

ومن الشواهد على هذه الروح العالية ما روى أن أبا عبيدة دفع كتاب نوليته وعزل خالد إلى خالد بعد وصوله إليه بنحو عشرين يوما : فلما قرأه خالد أعظم ذلك فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة فقال له : يغفر الله لك : أتألك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك ؟ فقال أبو عبيدة : وأنت يغفر الله لك ، ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وما كنت لأكثر عليك حزنك حتى ينقض ذلك كله ، ثم قد كنت أعلمك أن شاء الله ، وما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، وإن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن اخوان وقوام بأمر الله عز وجل ، وما يضير الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ودنياه ، بل يعلم الوالي أنه يكاد يكون أدناها إلى الفتنة وأوقعة في الخطيئة لما تعرض من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل ، وقليل ما هم .

العزل عن  
الجنديّة اطلاقاً  
وقد ظل خالد رضى الله عنه قائد فرقة يعمل تحت إمرة أبي عبيدة حتى فتح الله عليه .  
« قنسرين » فولاه أبو عبيدة عليها ، وكتب إلى أمير المؤمنين يصف له الفتح وبلاء خالد فيه ، فقال عمر قوله المشهورة : « أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر هو . كان أعلم بالرجال مني » .

وقد يتبادر إلى بعض الأفهام من قول عمر : « أمر خالد نفسه » أن خالدا اقتحم إلى هذا الفتح اقتحاما دون أن تكون هناك خطة موضوعة تحت سمع وبصر القائد العام أبي عبيدة . وهذا بعيد جدا أن يكون من خالد وأن يقبله أبو عبيدة ويرضى به ، وإنما يريد عمر رضى الله عنه : أن خالدا فيما أتى به من أفانين الشجاعة وضروب

البطولة قد وضع نفسه في موضعها الذي ألقته في المواقع الخطيرة من الاقدام والمخاطرة ، ولم ينزل به عن خوالده ألا يكون أمير الأمراء ، وقائدا ليس عليه أمير ، ومن هنا كانت خصيصة أبي بكر في أعلاميته بخصائص الرجال .

وكأنما يعنى عمر بذلك أن استمساك أبي بكر بخالد وعدم موافقته على عزله برغم الالحاح عليه إنما كان عن يقين في مقدرة خالد وعبقريته العسكرية التي لا يغنى عنها فيها إلا آحاد الأفذاذ من أبطال الأمم ، وخالد هو خالد في عبقريته وبطولته ، سواء أكان أميرا أم جنديا يعمل تحت راية الأمراء ، فتأثيره حق يفرضه الموقف لخصائصه التي لا تتغير بتغيير العنوان .

وفي « قنسرين » جاء العزل الثاني لخالد ، وذلك في السنة السابعة عشرة ، فقد بلغ أمير المؤمنين أن خالدا وعياض بن غنم أدربا في بلاد الروم وتوغلا في دروبها ورجعا بغنائم عظيمة ، وأن خالدا أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف ، فكتب أمير المؤمنين إلى قائده العام أبي عبيدة يأمره بالتحقيق مع خالد في مصدر المال الذي أجاز منه الأشعث تلك الاجازة الغامرة ، وعزله عن العمل في الجيش إطلاقا ، واستقدمه إلى المدينة .

أخذ أبو عبيدة كتاب أمير المؤمنين فتحير في الأمر ، لحرصه أشد الحرص على أن لا يحزن خالدا أو يسيء إليه ، ولحرصه أشد الحرص على تحقيق واجب السمع والطاعة لأمر أمير المؤمنين ، فروى ثم رأى أن حق الطاعة أكد من حق خالد في مودته وصادق جهاده ، ولا سيما بعد محنة العزل الأول فقد رأى منه أنبل وأشرف ما تنطوى عليه نفس إنسانية من كريم الخلاق ، ورأى منه أصدق آيات الشجاعة وأروع مظاهر العقريّة ، فلم تضعف نفسه ولم تفتر عزيمته وقد أصبح قائد فرقة بعد أن كان أمير الأمراء .

ولكن أبا عبيدة لم يكن أقل نبلا وكرما من خالد . فقد كان في موقفه هذا حفيا بخاله أبلغ ما تكون الحفاوة ، معظما له أرفع ما يكون التعظيم . لم يرض أن يلي التحقيق مع خالد بل جلس للناس على المنبر ، واستدعى خالدا ، وترك يريد الخلافة يتولى التحقيق وترك بلالا مولى أبي بكر يقوم بالتنفيذ ، وانتهى الأمر ببراءة خالد أن يكون مد يده إلى غنائم المسلمين فأجاز منها بعشرة آلاف ، ثم ترحل خالد إلى المدينة فودع أهل عمله ،

وقدم على أمير المؤمنين وعاتبه أجمل عتاب ، فأعتهبه عمر أكرم إعتاب وقال له : « والله يا خالد انك على لكريم وإنك إلى لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء » .

تحرير وضع  
القصة

هذه هي وقائع التاريخ التي لا تختلف فيها رواية عن رواية ، ولا يمارى فيها باحث استشرق أو استغرب ، وعلى ضوءها في بساطتها بعيدة عن « الرتوش » وشاعرية الأساليب يجب أن يجرى البحث عن أسباب عزل عمر خالداً أولاً وثانياً ، ليعلم الناس حقيقة الدوافع العليا في تصرفات رجل كان الحقيقة الكبرى في معجزات التكوين الانساني مكيفا بروح الاسلام ، ذلك الفحل لا يقنع أنفه ، الفاروق عمر بن الخطاب ، أول حاكم في الإسلام جعل الشريعة الإسلامية عملاً في واقع الحياة ، كان هو نفسه نموذجاً الأعلى في أمثلة التطبيق وشواهد التكيف . وإذا أردنا أن نحرر قضية العزل في وضعها الصحيح جاءت على هذه الصورة :

أولاً : عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قائد جيوش الشام خالد بن الوليد عن الإمارة العامة لتلك الجيوش ، وأنزله إلى مرتبة قائد فرقة ، فعمل تحت إمرة القائد الجديد أبي عبيدة بن الجراح زهاء أربع سنوات .

ثانياً : عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أحد قواد الكتائب خالد بن الوليد عن عمله في الجيش كله ، وحاكمه في تصرف من المالية .

فما ذلك العزل أولاً وثانياً ؟

وما أثر ذلك في نفسى الرجلين العظيمين ؟

ليس من المعقول بداهة أن يكون سبب العزل الأول مازعمة بعض الرواة وتهالك عليه بعض الباحثين من قصة مالك بن نويرة ، وزواج خالد امرأته لأمرين : الأول : أننا زيفنا الروايات التي تعزو إلى عمر بن الخطاب مقاولات في هذه القصة لا تتفق مطلقاً مع واقع التاريخ ، ولا تتفق كذلك مع أخلاق الرجلين العظيمين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد .

ليس لقصة  
ابن نويرة  
مدخل في  
العزل

الثاني : أن ذلك - على الصورة المزعومة معزوة إلى عمر - لو كان هو السبب أو بعض السبب الذي حمل عمر على عزل خالد لما كان هناك وجه مطلقاً في إبقاء خالد أمير فرقة في

الجيش ، كان يقوم بأمرها أعظم القواد بعد خالد ، وكان هو الذى خلف خالد فى الإمارة العامة ، بل كان الواجب يقضى بعزل خالد عزلها عنها عن الجيش كله ، ثم إقادته بمالك بن نويرة ، أو رجمه لنزوه على امرأته

وإذا كانت إقامة الحد على وجهيه فد فانت بحكم أي بكر وتأوله لفعل ، خالد فالذى لا يفهم ولا يعقل هو عزل عمر بن الخطاب صاحب تلك المقالات المزعومة خالد ابن الوليد صاحب تلك الأفاعيل المزعومة أيضا ، عزلا جزئيا بتنزيله من منصب الإمارة العامة فقط ، وإبقائه عاملا فى الجيش ، بل أميرا من أمرائه ، وقائدا من قواده ، وعمر — فى زعم ضعفة الرواة ونواسى الباحثين — يتهم خالد فى دينه وأخلاقه ومروءته ورجوليته بتلك التهمة الخطيرة ، وهى قتله رجلا مسلما معصوم الدم لينزوه على امرأته ، فلا يصلح لحمل شرف الجندية فى جيوش الإسلام ، بانه منصب الإمارة فيها ، لأن صاحب هذا الخلق لا يؤمن على دم أو عرض أو مال .

وهذه الروايات السقيمة المهلهلة التى هللت بها بعض الباحثين تنسب إلى عمر بن الخطاب أقوالا توعدها خالد إذا صار إليه أمر الخلافة ، وها هو ذا يصبح خليفة المسلمين ، بيده سلطان الإسلام ، يقضى به ما يشاء على من شاء ، فلا ترفع بالإنكار عليه رأس ، ولا تطرف به عين ، فأين ذهبت تلك الإيعادات المرعدة ، والأقاويل المهددة؟ أيجوز فى زعم هؤلاء أن يزن عمر بن الخطاب ، وهو من هو فى الجاهلية والإسلام ، بالجبن عن إقصاء خالد وعزله عزلا كليا مادام يتهمه بتلك التهمة الخطيرة؟ وهذا العزل الكلى أدنى ما يستوجبه الحق والعدل ، لو صحت تلك التهمة على خالد ، أو لو صح اعتقاد عمر صحتها ؟ أم يقول هؤلاء : إن عمر بن الخطاب كانت له قبل أن يلى الخلافة سياسية فى فهم الدين وتطبيق الشريعة ومعاملة الأشخاص ، والحكم على الأشياء ، نسيها أو تناساها بعد أن أصبح خليفة المسلمين ؟ لم لا ؟ أفليس كذلك يصنع الحكام والوزراء فى الشرق والغرب فى هذا العصر التقدمى ؟ بل ؛ أوليس عمر واحد من هذا الناس الذين لعواطفهم سلطان عليهم يغلب على عقولهم فى تصرفاتهم فى شئون الحياة ، ولو كانت تلك التصرفات لحساب المسلمين — كما يقول بعض الباحثين ؟

( م ٢٠ — خالد بن الوليد )



وقدم على أمير المؤمنين وعاتبه أوجل عتاب ، فأعقبه عمر أكرم إعتاب وقال له : « والله يا خالد انك على لكريم وإنك إلى لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء » .

تحرير وضع  
القصة

هذه هي وقائع التاريخ التي لا تختلف فيها رواية عن رواية ، ولا يمارى فيها باحث استشرق أو استغرب ، وعلى ضوءها في بساطتها بعيدة عن « الرتوش » وشاعرية الأساليب يجب أن يجرى البحث عن أسباب عزل عمر خالد أولاً وثانياً ، ليعلم الناس حقيقة الدوافع العليا في تصرفات رجل كان الحقيقة الكبرى في معجزات التكوين الانساني مكيها بروح الاسلام ، ذلك الفحل لا يقدر أنفه ، الفاروق عمر بن الخطاب ، أول حاكم في الإسلام جعل الشريعة الإسلامية عملاً في واقع الحياة ، كان هو نفسه نموذجاً الأعلى في أمثلة التطبيق وشواهد التكيف . وإذا أردنا أن نحرر قضية العزل في وضعها الصحيح جاءت على هذه الصورة :

أولاً : عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قائد جيوش الشام خالد بن الوليد عن الإمارة العامة لتلك الجيوش ، وأنزله إلى مرتبة قائد فرقة ، فعمل تحت إمرة القائد الجديد أبي عبيدة بن الجراح زهاء أربع سنوات .

ثانياً : عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أحد قواد الكتائب خالد بن الوليد عن عمله في الجيش كله ، وحاكمه في تصرف من المالية .

فما ذلك العزل أولاً وثانياً ؟

وما أثر ذلك في نفس الرجلين العظيمين ؟

ليس من المعقول بداهة أن يكون سبب العزل الأول ما زعمه بعض الرواة وتهالك عليه بعض الباحثين من قصة مالك بن نويرة ، وزواج خالد امرأته لأمرين :

ليس لقصة  
ابن نويرة  
مدخل في  
العزل

الأول : أننا زيفنا الروايات التي تعزو إلى عمر بن الخطاب مقاولات في هذه القصة لا تتفق مطلقاً مع واقع التاريخ ، ولا تتفق كذلك مع أخلاق الرجلين العظيمين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد .

الثاني : أن ذلك - على الصورة المزعومة معزوة إلى عمر - لو كان هو السبب أو بعض السبب الذي حمل عمر على عزل خالد لما كان هناك وجه مطلقاً في إبقاء خالد أمير فرقة في

الجيش ، كان يقوم بأمرها أعظم القواد بعد خالد ، وكان هو الذى خلف خالدًا فى الإمارة العامة ، بل كان الواجب يقضى بعزل خالد عزلاً نهائياً عن الجيش كله ، ثم إقادته بمالك بن نويرة ، أو رجمه لنزوه على امرأته

وإذا كانت إقامة الحد على وجهيه قد فاتت بحكم أي بكر وتأوله لفعل ، خالد فالذى لا يفهم ولا يعقل هو عزل عمر بن الخطاب صاحب تلك المقالات المزعومة خالد ابن الوليد صاحب تلك الأفاعيل المزعومة أيضاً ، عزلاً جزئياً بتنزيله من منصب الإمارة العامة فقط ، وإبقائه عاملاً فى الجيش ، بل أميراً من أمرائه ، وقائداً من قواده ، وعمر — فى زعم ضعفة الرواة ونواسى الباحثين — يتهم خالدًا فى دينه وأخلاقه ومروءته ورجوليته بتلك التهمة الخطيرة ، وهى قتله رجلاً مسلماً معصوم الدم لينزو على امرأته ، فلا يصلح لحمل شرف الجندية فى جيوش الإسلام ، بله منصب الإمارة فيها ، لأن صاحب هذا الخلق لا يؤمن على دم أو عرض أو مال .

وهذه الروايات السقيمة المهلهلة التى هللت بها بعض الباحثين تنسب إلى عمر بن الخطاب أقوالاً توعد بها خالدًا إذا صار إليه أمر الخلافة ، وها هو ذا يصبح خليفة المسلمين ، بيده سلطان الإسلام ، يقضى به ما يشاء على من شاء ، فلا ترفع بالإنكار عليه رأس ، ولا تطرف به عين ، فأين ذهبت تلك الإيعادات المرعدة ، والأقاويل المهددة؟ أيجوز فى زعم هؤلاء أن يزن عمر بن الخطاب ، وهو من هو فى الجاهلية والإسلام ، بالجن عن إقصاء خالد وعزله عزلاً كلياً مادام يتهمه بتلك التهمة الخطيرة؟ وهذا العزل الكلى أدنى ما يستوجبه الحق والعدل ، لو صحت تلك التهمة على خالد ، أو لو صح اعتقاد عمر صحتها ؟ أم يقول هؤلاء : إن عمر بن الخطاب كانت له قبل أن يلى الخلافة سياسية فى فهم الدين وتطبيق الشريعة ومعاملة الأشخاص ، والحكم على الأشياء ، نسيهاً وتناساها بعد أن أصبح خليفة المسلمين ؟ لم لا ؟ أفليس كذلك يصنع الحكام والوزراء فى الشرق والغرب فى هذا العصر التقدمى ؟ بل ؛ أوليس عمر واحد من هذا الناس الذين لعواطفهم سلطان عليهم يغلب على عقولهم فى تصرفاتهم فى مشئون الحياة ، ولو كانت تلك التصرفات لحساب المسلمين — كما يقول بعض الباحثين ؟

( م ٢٠ — خالد بن الوليد )

أم الأمر لا هذا ولا ذاك ، ولكنها روايات زائفة صنعها أعداء الإسلام وتلقاها  
ضعفاء الرواة ، وقبلها من تلقوا تاريخ الإسلام بعيدا عن روح الإسلام ومصادر  
الإسلام ؟

تزييف  
أبطولة  
الحقد الجاهلي

وإذا كان باطلا من الباطل أن يكون مقتل مالك بن نويرة وما يستتبعه من مسخف  
نواصي له مدخل أى مدخل فى أسباب العزل الأول أى عزل خالد عن الإمارة العامة ،  
فأشد منه إيغالا فى الزيف والعيث ما زعمته بعض الروايات وفرط حبه بعض الباحثين  
من رد أسباب العزل إلى حقد قديم وضغائن جاهلية ، سواء أكان مردها - فى زعم  
رواتها ومقلديهم - تلك الأقصوصة الصببانية فى اضطراع عمر وخالد وهما طفلان يعبان  
مع لداتهما من الأطنال ، أم كان مردها إحنا أسرية وأحقادا قبلية . لأن ذلك يبطاه  
ما يبطل مدخلة مالك بن نويرة وزواج امرأته فى أسباب العزل .

وإلا فهل قال لنا أصحاب نظرية الحقد الجاهلي بين عمر بن الخطاب وخالد بن  
الوليد لماذا أبقي عمر على خالد قائدا فى قواد الجيوش الإسلامية ، وأميرا من أمرائها  
وهو يحقد عليه حقدا موروثا منذ الجاهلية ، وقد واثته الفرصة أحسن ما تكون  
ليضرب خصمه القديم ضربة نشفي نفسه من أحقادها ؟ لهم يقولون : إن عمر ذهب  
فى ذلك مذهب كبار السامة بعيدى النظر وعميقى النظر فى الدهاء ، فهو يعلم مكانة  
خالد فى الجيش فلم يهجم على عزله نهائيا ليبعده عن العمل إطلافا ، خشية ثورة الجيش  
انتصارا لقائده العبقري سيف الله خالد بن الوليد ، ولكن الدكتور هينكل يتبرع بالرد  
على هؤلاء فيقول : « إن خالد لم يحقق ما ندمه أبو بكر لتحقيقه » وإذن فهو لا يزال  
فى غمرة الامتحان فلا ثورة تخشى ، بل يقول الدكتور هينكل : « إن عمر عزل خالد  
فى موقف لا يظلمه فيه من يأمر بعزله » أفلا كان هذا الموقف أنسب بالعزل النهائى مادام  
الباعث على العزل أحقادا جاهلية وسوء رأى لا يتصل بالإسلام من قريب أو بعيد ؟

رأى للاستاذ يقول صاحب « عبقرية خالد » : « وأبعد شيء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل  
العقاد خالد لضغينة فى نفس عمر أو لتلك المنافسة التى تستحكم بين الأشباه والنظراء ؛ أو لغير  
سبب من تلك الأسباب التى كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة .

« وأسخف من هذه الظنون أن يسبق إلى الوهم كما سبق وهم بعض المؤرخين أن

عمر قد عزل خالدا لبغضاء قديمة ، مرجعها إلى الصراع بينهما في أيام الصبا وأن خالدا صرع عمر وكسر ساقه ، فلم يزل بقية حياته واجدا عليه ، وأجهل الناس بأخلاق عمر من يجمع به الوهم إلى ظن من هذه الظنون .

« فليس بين رجال التاريخ من هو أصعب مخطئة من عمر بن الخطاب ؛ لأنه ليس بينهم جميعا من هو أشد حسابا لنفسه ومراجعة لنيانه منه ، وأغلب الظن عندنا أنه لو أحس في نفسه نية ذحل أو ثار قديم لكان أثر هذا الاحساس أن يؤجل عزل خالد ، ولا يُعجل به مخافة من خدعة نفسه وتضليل هواه » .

ويقول في كتاب « عبقرية عمر » : « على هذا الوجه وحده ينبغي أن نلتمس التأويل في محاسبات عمر ومعاملاته إذا وقع منها ما يحتاج إلى تأويل ، وقل في محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج إليه ، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره ، وحسابه لنفسه أعسر من حساب الآخرين .

« ففي جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة لم توضع مسألة في موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادة كما وضعت مسألة خالد بن الوليد رضي الله عنه .

« ولا يعقل أن تكون هذه المسألة شذوذا عن خطته مع جميع القادة والولاة لأن الذي صنعه فيها عمر هو الذي كان ينتظرا أن يصنعه سواء كان القائد خالدا أو كان رجلا غيره . . . وهذا الذي ينفي الشذوذ والحيف ، أو ينفي المعاملة الخاصة التي تكيل للناس بكيلين ، وتزن بميزانين ، وتتنظر إليهم بنظرين مختلفين .

« عزل عمر خالدا وهو سيف الاسلام وبطل الجزيرة والشام ، وإذا كان لابد لخالد من عازل أو قاض عادل فلن يكون عازله وقاضيه غير عمر بن الخطاب . . . هو على قدر عزله بلا مرأى وهو قدر كبير .

« فقال أناس : منافسة الند للند ، والشبيه للشبيه ، وقال أناس : عزله لغير خطأ أتاه ، وقال أناس إنها ترة قديمة ، ولولاها ما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله ، وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده .

« والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيلها لهم وتقر بها إلى

حديثهم ، لأن المشابهة بين عمر وخاله كانت مشابهة خلق ، وخلق ، توحى الظن بالتنافس والملاحاة ، وكانت مشابهة خاله لعمر في خلقته تلتبس على بعض الناس ، فيكلمون عمر وهم يحسبونه خاله بن الوليد .

« فمن شاء أن يخبط بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله ، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته ، وأمسك عن الخوض في أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى ، وكتب إلى الأمصار يرثه من الخيانة ، ويعلمهم « أنه لم يعزله لسخطه ولا خيانه ، ولكن الناس فتنوا به » ... قال : « فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، ألا يكونوا بعرض فتنة » « ولما سأله خاله في ذلك قال له ؟ « إن الناس فتنوا بك فخشيت أن تفتن بالناس »

« فمن شاء أن يخبط بالظن هنا فليخبط ماشاء ، وله شبهة فيه ، ولكنه لا يرجع إلى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه ، ويوقن أن عمر لم يحاسب خاله بميزان غير الذي حاسب به جميع القادة والولاة ، وإن الدهش الحق أن يبقى في الولاية والقيادة بعد ما أخذه عليه ، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين » .

وهذا كلام جيد جدا ، يقوم على تحقيق في البحث ودراسة الشخصيات من طريق تعرف خصائصها الثابتة حتى تكون تلك الخصائص ميزانا صادقا لنقد الروايات المتضاربة ، ومن ثم يكون الباحث بمنجاة من الحيرة في التصويب والتزييف ، ويكون أيضا أقرب إلى العصمة عن الانزلاق إلى تلقف الأقاصيص والروايات التي قد توافق هوى خفيا في النفس ، وإن كانت تخالف وقائع التاريخ . وخاصة هذا المنهج - في نظرنا - استقراء مقومات الشخصية عن طريق واقعها التاريخي ، والموازنة بين الروايات على أساس تلك المقومات ، ولا يتم الاستقراء والموازنة إلا بعد الإحاطة بجميع ماردده التاريخ حول تلك الشخصية في سيرتها من الحياة ، وهو منهج في دراسة الشخصيات يعطيك الحقائق التاريخية من أقرب طرائقها ، حتى ليخيل إليك قبل التأمل أن البحث يوزن الاستقصاء الروائي ، ولو كانت النتيجة لا تتغير . وهو منهج - كما فهمناه - يزيدنا إيمانا بما أسسنا عليه طريقنا في هذه البحوث .

وإذا انتهى البحث إلى إقصاء قصة مالك بن نويرة ولواحقها من الهذر  
النواصي ، وكذلك إقصاء قصة الحقد الجاهلي عن أن تكون واحدة منها لها مدخل  
من قريب أو بعيد في أسباب عزل عمر خالدا فلنبحث عن الأسباب الجدية التي أدت  
إلى ذلك العزل ، ومن هنا يتصل الكلام في العزل الأول بالكلام في العزل الثاني ،  
ويصباحا أمام البحث حادثاً واحداً ظهر في صورتين .

كان من اليسير أن نقول إن من حق كل حاكم جديد يقوم بأعباء الحكم في أمة من  
الأمم ألا يلزم بالعمل مع عمال سلفه في الحكم ، وألا يلتزم نظمه وطرائقه في الحكم ،  
مادام قائماً في حكمه على حدود النصوص التي لا مدخل للاجتهاد فيها ، لأن لكل حاكم  
عقلاً وتفكيراً وتوجيهاً ، وتقديراً للأمور ، وفهماً للحوادث والأشياء ، ووزناً  
للأشخاص ، يختلف كثيراً أو قليلاً عن حظ سلفه من هذه الأمور ، وهذا الاختلاف  
بين الحاكمين في سياسة الحكم ، له يد كبرى فيما يطرأ على الأمم من تقاليد ، وما عر بها  
من أطوار اجتماعية ، تنقلها من مرحلة في التاريخ السياسي والاجتماعي إلى مرحلة  
أخرى ، تعلو بها أو تسفل تبعاً لروح الحاكم واستعداد الأمة إلى أن تبلغ مداها المقدر لها  
في الحياة ، ثم يعتريها الفناء على صورة من الصور التي تجدد بها الجماعات والأمم .

تولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر الصديق ، وهما من طبيعتين مختلفتين  
في خصائص الحاكمين ، تمثل كل طبيعة منهما لونا من السلطان والحكم في سياسة  
الأمة ، ولكنه لون لا يخرج بصاحبه عن طبيعة الإسلام وروحه كما فهمه ورآه وسمعه  
تطبيقاً عملياً من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر الطبري : أن أبا بكر دعا في مرضه الذي توفي فيه عبد الرحمن بن عوف ، وقال له :  
أخبرني عن عمر بن الخطاب ؟ قال عبد الرحمن : ما سألتني عن أمر إلا وأنت أعلمنا  
به ، قال أبو بكر : وإن ؟ قال عبد الرحمن : هو والله أفضل من رأيك فيه من  
رجل ، ولكن فيه غلظة ، قال أبو بكر : ذلك لأنه يراني رقيقاً « وهذا تصوير دقيق  
صادق لاختلاف طبيعتي الخليفتين ، وكانت مظاهر اختلافهما تبدو في حياة النبي  
صلى الله عليه وسلم فيحسم الأمر بما يريه الله تعالى ، ومن أوضح شواهد موقف الشيخين في  
قصة أسرى بدر ، وموقفهما في صلح الحديبية . ذكر القرطبي من رواية يزيد بن هارون  
عن عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم .

بدر جىء بالأسارى وفيهم العباس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماترون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ؛ استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : كذبوك وأخرجوك وقتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم ، فقال العباس وهو يسمع : قطعت رحمتك ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئا ؛ فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ؛ وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، فيخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال : « فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم » . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » أتم حالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق » .

ولما تولى أبو بكر الخلافة وأصبح في يده حكم الأمة وسياستها وازره عمر أصدق المؤازرة ، ولكنه كان يختلف معه في بعض الأمور فيرجع إليه أبو بكر تارة وتارة ، ويرده إلى سلطان الحكم مرة ومرة ؛ اختلفا في قتال المرتدين ، فكان أبو بكر يوجبه ويتشدد فيه ، وكان عمر لاهيا ، فرده أبو بكر إلى رأيه في حزم وقوة ، وكان من أظهر مواضع اختلافهما مدى السلطة التي تعطى للعالم والولاية والقواد في الأنحاء التي يكونون عليها حاكمين باسم الخلافة . فأبو بكر كان من سنته مع عماله وأمرائه أن يترك لهم حرية التصرف كاملة في حدود النظام العام للدولة مشروطا بذلك بتحقيق العدل كاملا بين الأفراد والجماعات ، ثم لا يبالي أن يكون لواء العدل منشورا بيده أو بيد عماله وولائته ، فلم يوالى حق يستمده من سلطان الخلافة في تدبير أمر ولا يتهدون رجوع في الجزئيات إلى أمر الخليفة ، وكان أبو بكر لا يرى أن يكسر على الولاية سلطانهم في مال أو غيره مادام العدل قائما في رعيتهم .



وأما عمر بن الخطاب فكان يرى أنه يجب على الخليفة أن يحدد لأمرائه وولاته طريقة سيرهم في حكم ولاياتهم ، ويحكم عليهم أن يردوا إليه ما يحدث حتى يكون هو الذي ينظر فيه ثم يأمرهم بأمره ، وعليهم التنفيذ ، لأنه يرى أن الخليفة مسئول عن عمله وعن عمل وولاته في الرعية مسئولية لا يرفعها عنه أنه اجتهد في اختيار الوالى . فلما تولى الخلافة خطب الناس ، فقال : « إن الله ابتلاكم بى ، وابتلانى بكم ، وأبقانى بعد صاحبي فوالله لا يحضرنى شيء من أمركم فيليه أحد دونى ، ولا يتغيب عني فإ لو افية عن الجزء والأمانة ، ولئن أحسنوا - الولاة - لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكأن بهم » وكان يقول : لو أن عناقا بشط العراق ضاعت لحسبت أنى مسئول عنها ، وكان يقول . أيما عامل لى ظلم أحدا وبلغتني مظلومته فلم أغيرها فأناظلمته ، ويقول . أرايتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ما على ؟ قالوا : نعم قال . لا ، حتى أنظر في عمله ، أعمل بما أمرته أم لا ؟

ثم نظر عمر فرأى عمال أبي بكر وأمرائه بسيرة على السيرة التي عودهم إياها أبو بكر من الاستقلال في الرأي وحرية التصرف فيما تحت أيديهم من عمل الدولة وأموالها ، فأراد أن يكلفهم ، ويعدل بهم إلى سيرته ومذهبه ، فرضى بعضهم وأبى آخرون ، وكان ممن أبى عليه ذلك خالد بن الوليد .

روى ابن حجر في الإصابة عن مالك بن أنس . أن عمر لما ولي الخلافة كتب إلى خالد ألا تعطى شاة ولا بعيرا إلا بأمرى ، فكتب إليه خالد إما أن تدعنى وعملى ، وإلا فشأنك بعملك ، فقال عمر : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه ، فعزله ، ثم كان يدعو إلى العمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما شاء فيأبى عليه .

ف عزل عمر خالدًا من وجهة سياسة الحكم وحق الحاكم في تصريف شؤون الدولة ومسئوليته عنها ، طبيعي يقع كل يوم مثله في الحياة . ولا يبدو فيه شيء غريب يحتاج إلى بيان أسباب تجاذبها رويات وآراء وميول وأهواء ونزعات . فعمر بن الخطاب خليفة المسلمين في عصر كان الناس فيه ناسًا لا يزالون يستروحون روح النبوة . له من الحقوق الأولية أن يختار من الولاة والقادة من ينسجم معه في سياسته ومذهبه في الحكم ليعمل في سلطانه مادامت الأمة غنية بالكفايات الراجعة . فليس لعامل ولا قائد أن يتأبد في

منصبه ، ولا سيما إذا اختلفت مناهج السياسة بين الحاكم والولاة ، ما كان هناك من يغنى غناؤه ويجزى عنه .

وقد أثبت الواقع التاريخي أن عمر رضى الله عنه كان موقفا أتم التوفيق وقد نجح في سياسته هذه نجاحا منقطع النظير ، فعزل وولى ، فلم يكن من ولاه أقل كفاية ممن عزله ، ومرد ذلك لروح التربية الإسلامية التي قامت على أن تضمن دائما للأمة رصيда مذخورا من البطولة والكفاية السياسية الفاضلة . وكان يسير على البحث أن يذهب في قصة عزل خاله هذا المذهب ولكن التاريخ شاء وشاء معه ميل في بعض الناس أن ينظر لهذه القصة نظرا يبعد بها عن البساطة واليسر ؛ ويدخل بها في مضائق « التعليل » الذي لا يرضى بتبرئة عمر الا بتأثيم خاله ، ولا بتبرئة خاله الا بتأثيم عمر ، كأننا النائم ضربة لازب لواحد من الرجلين العبقريين .

ولسنا ندري ما الذي يضير الحياة إذا انتهى البحث بالرجلين العظيمين الى مكانهما من السمو والعبقرية ؟ لاشيء سوى أن البحث حينئذ لا يكون — في نظر تلامذة الاستشراف — بحثا « حديثا » مشحولا برعاية « الحرية الفكرية » . وأهون بذلك — عندنا — داهبا مع همسات النساء أو لفتحات السامم إذا بلغ بنا البحث مستقره من اليقين .

ليست الحوادث أكبر من عقولنا  
فليمض البحث في طريقه ، ولينظر إلى عزل خاله كحادث يجب أن يوضع موضع المحاكمة ، وليناعد من تفكيرنا أننا أضمر من أن نحكم بين فذى العبقرية الإسلامية عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ؛ لأننا في الحق إنما نحكم على حادث من حوادث التاريخ ولا نحاكم عمر ولا خالدا ؛ ولأنه لا يضير عمر ولا يضير خالدا أن يكشف البحث عن وجه الحق في حادث يرتبط بهما ، وإنما يضيرنا نحن ويضير التاريخ معنا أن نسبت عن الحادث التاريخي تتجاذبه الأهواء والروايات الزائفة كما يضيرنا ويضير التاريخ معنا أن نخطيء في تقدير عمر وخالد . فالحادث كيهما كان ليس أكبر من تفكيرنا ، لأن إسلامنا الذي هو مادة الفكر للشخصية الإسلامية ، ففتح للعقل البشري أبواب البحث في الوجود كاه على مصاريحها ، ولا شك أن الوجود أعظم من الحوادث والأشخاص . بل

إن الإسلام رقى بالعقل البشرى إلى معارج أسمى من هذا الوجود المنظور ، رقى به إلى النظر في جلال الله وصفاته القدسية .

فالذين يقفون بالعقل الإسلامى عند سفح الحوادث التاريخية استكبارا للشخصيات المرتبطة بها يغلطون ، فيخلطون بين الحوادث والناس ؛ وينزلون بذلك العقل عن منزلته ولا يقدرونه حق قدره ، بل هم يخطئون في فهم روح الإسلام بوضعهم حوادثه التاريخية وأشخاصه موضع القداسة التقليدية التى تخشى البحث وتفرق من النقد ، وهذا طرف فى الاتجاه ليس بأقل خطرا من الطرف الآخر الذى لا يرى أن يرفع حادثاً أو شخصاً عن مزالق التائيم والتجريح ، وليس هذا ولا ذاك من النصفة فى البحث المستقيم .

كان بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد تقارب شديد فى الطبائع الأصلية الثابتة ، وكان بينهما اختلاف شديد فى الأخلاق المكسوبة ، فيجمعهما الصلابة ، والأيدى فى الطبع المركز ، ويفرق بينهما السلوك فى الحياة .

صلابة الطبع  
عند عمر  
وخالد

وصلابة الطبع عند عمر تجلت فى مواقف عديدة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد تجلت فى موقفه من الإسراء بالدعوة ، وفى طريقة إعلان إسلامه لملأ من قريش وفى الطريقة التى هاجر بها من مكة إلى المدينة ، وفى موقفه من أسارى بدر ورأيه فيهم ، وفى موقفه من النبي صلى الله عليه وسلم وقد تهيأ للصلاة على عبد الله بن أبي بن سلول ، وفى موقفه من صلح الحديبية وحديثه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مع أبي بكر فى شأن هذا الصلح حتى قال عمر نفسه : مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ . مخافة كلامى الذى تسكمت به .

وتجلت صلابة طبعه فى موقفه من أمهات المؤمنين وكن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبن إليه ويكثرن عليه فى النفقة وزينة الحياة الدنيا . وفى موقفه فى بيعة أبي بكر من الأنصار وبنى هاشم وفيهم على وبجانبه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فى كل موقف من هذه المواقف مثل من أمثلة الطبع الصليب والأيدى الذى لا يلين عند عمر . وقصة إسلامه مثل كامل يجمع بين مثلين فى تصوير صلابة الطبع . مثل

في مبدئها يصور عمر في جاهليته المتعطرة . ومثل في نهايتها يصوره في إسلامه الشامخ .  
بعزة الإيمان وقوة الاعتداد بالعقيدة التي دان لها بقلبه وعقله وروحه وجسمه .

وقد كان هذا الخلق في عمر معروفا مشهورا حتى قال طلحة بن عبيد الله لأبي بكر  
حين عهد إلى عمر : استخلفت على الناس عمر . وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت  
معه . فكيف به إذا خلا بهم ؟ .

ووصفه عبد الرحمن بن عوف حين سأله أبو بكر عنه فقال : هو والله أفضل من  
رأيت فيه من رجل . ولكن فيه غلظة . وكان عمر نفسه يمس هذا الشعور نحو من  
الناس . فكان يقول على ملئهم : اللهم إني غليظ فليكن . وبلغ من هيبة الناس له أن  
الرجال تفرقوا عن مجالسهم بالأفنية لما تولى الخلافة حتى ينظروا ما يكون من أمره ،  
فخطب الناس فقال : « بلغني أن الناس هابوا شدتي ، وخافوا غلظتي ، وقالوا : قد كان  
عمر يشتد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا . ثم اشتد علينا وأبو بكر  
والينا دونه . فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق . فقد كنت  
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكنت عبده وخادمه . وكان من لا يبلغ أحد صفته  
من اللين والرحمة . وكان كما قال الله « بالمؤمنين رءوفا رحما » فكنت بين يديه سيفا  
مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمدني . فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ذلك  
حتى توفاه الله وهو عني راض . والحمد لله على ذلك كثيرا . وأنا به أسعد . ثم ولي أمر  
المسلمين أبو بكر فكان من لا يدعون دعوته وكرمه وإيمانه فكنت خادمه وعونه .  
أخلط شدتي بليته . فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمدني . فلم أزل معه  
كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيرا . وأنا به أسعد .  
ثم إني وليت أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت . ولست أضعف إنما  
تكون على أهل الظلم والنعدي على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا  
ألين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يتعدى عليه حتى أضع حده  
على الأرض وأضع قدمي على الخلد الآخر حتى يذعن بالحق . وإني بعد شدتي في تلك أضع  
بخدي على الأرض لأهل العفاف والكفاف » .

أما صلابة الطبع وقوة الأيد عند خالدين الوليد . فقد كانت حياته كلها مثلاً واحداً لها

فهو رجل نهد على الحرب لم يفارقها في جاهلية أو إسلام . شب وفي يده أعنة الخيل . وقيادة الجند ، ألفت نفسه القتل والقتال في الهجوم والدفاع وألفت نفسه الدماء تسيل . والردوس عن الأعناق تميل . وهو الذي يقول لما رأى صبر أهل « أليس » وشدة كلهم في حربه : « اللهم إن لك على إن منحتنا أكتافهم ألا استبقى منهم أحدا قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم » ولما نزل أهل « قنسرين » على رأيه — وكانوا قد اعتاصوا عليه وتأبوا — فطلبوا منه الصلح . أباه عليهم إلا على إخراج مدينتهم فأخرجها ولما أمره أبو بكر بالتوقف عن الهجوم . وهو في الحيرة . ليستجهم جنده ويدبر أمر مافتح من البلاد . ويحمي ظهره . أقام سنة لا يقاتل . فقال . ألا إنها سنة كأنها سنة نساء .

وقد فرقت الحياة بين عمر وخالد في السلوك والأعمال .

فعمرو بن الخطاب كان مع النبي ﷺ وزيرا ومشيرا . وكان مع أبي بكر سندا ومعينا . ثم كان بعده خليفة يرعى أمور المسلمين ويسوسهم بساطان الله . فهو رجل سياسة وتفكير

افتراق في السلوك والأعمال

أما خالد فسلوكه في الحياة وعمله فيها لم يختلفا في شيء عن طبعه الأصيل . فقد ظل حياته في الإسلام كما كان في الجاهلية قائدا عسكريا . يحوض الغمرات ويقتحم الميادين يقاتل ويقتل . وهي حياة تتجاوب مع ماله من طبع صليب وخلق أيد . ينفر من القيود . ويميل إلى الحرية . ولم يعود أن يؤمر فيطيع . ولكنه تعود أن يأمر فيطاع . يقوم أمره على السرعة الحاسمة والضربة القاصمة . لا يتلبث للعقبات يداورها ويحاول التفادي منها ولكنه يواجهها مواجهة المحارب حتى يهزمها . صريح صراحة يحسبها من لم يرزه جفوة وغلظة . تزدهيه الشدائد وتطربه . ويحرص على الموت في مظانه ويطلبه يصف نفسه ويذكر أحب شيء إليه في الحياة فيقول : « ما ليلة يهدي إلى فيها عروس أنا لها محب . أو أبشر فيها بعلام . أحب إلى من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح فيها العدو . فعليكم بالجهاد » .

وهو إذ يعزم السير إلى مالك بن نويرة بالبطاح بعد فراغه من أسد وغطفان . وتتوقف الأنصار عن متابعته . وهم كنيية الإسلام في الصبر عند اللقاء لا يثنيه توقفهم

عن عزمته . ولكنه يمضى قدما فيقولون له : ما بهذا عهد إلينا الحليفة . بل عهد إلينا إن نحن فرغنا من البزاحة واستبرأنا القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا . فيجيبهم جوابا ينزعه من طبعه الأصيل في تفديس الاستقلال في الرأي وحرية التصرف فيقول : « إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إلى أن أمضى . وأنا الأمير . وإلى تنهى الأخبار . ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى انتهزها . وكذلك لو أبلىنا بأمر ليس منه عهد إلينا به لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به » وفي خطبته التي جمع بها الأمراء يوم اليرموك تحت لوائه لون من ألوان ذلك الطبع الأصيل .

أما سلوك عمر في حياته فكان يتطلب منه طبيعته الصليية . فوجه ذلك إلى قهر رغائبه من الحياة الدنيا وزينتها . واشتد في ذلك بما يناسب ما انتهى إليه أمره من تبوءه أرفع مكان في الإسلام ينو إليه أعظم أملا في تاريخ الحياة . فكان يرى أنه المثل الأعلى في التأسي به . ولو خاض غمرات الدنيا لخاض وراءه الناس . فملك أمره . وساس نفسه قبل أن يسوس الناس . وكان يرى أن يكون ولانه وأمرؤه في أقطار الإسلام على سنته زهادة في الدنيا وتجانبا عن زخارفها . وكان يقول لهم : « يا معشر الأمراء : إن هذا المال لو رأينا أنه يحل لنا لأحللناه لكم . فأما إذ لم يحل لنا وظلمنا (١) أنفسنا عنه فاذلوه عنه أنفسكم » فكان حريصا أشد الحرص على تعرف أحوالهم والاطلاع على تصرفاتهم اطلاعا كاملا وتقييدهم بأوامره .

وليس من شك في أن للبيئة الخاصة . أي البيت والأسرة . أثرا في سلوك كل من عمر وخالد . فعمر بن الخطاب لم ينهد في بيت ثراء وسعة في الرزق وكثرة في المال . بل شب على التقشف وخشونة العيش . فلما بلغ في الإسلام ما بلغ راض نفسه على أشد مما كان عليه في بيئته الخاصة . بيته وأسرته . استجابة لمقتضيات منصبه من التأسي به باعتباره مثلا أعلى للفضيلة الإسلامية .

(١) ظالم نفسه : منها .

أما خالد فقد نهّد في بيئة يكتنفها ثراء المال وعز الجاه ، وهما من أهم أسباب الاعتداد بالنفس الذي يبدو لأول نظرة أنه لون من ألوان الزهو والخيلاء ، ينال المتعة من أدنى سبلها ، فلما بلغ في الإسلام ما بلغ لم يجد ما يمنعه وهو في مكانه من الإسلام أن يستجيب للمتعة إذا رضى عنها الإسلام وقرت بهاعين شريعته ، فإذا انضم هذا إلى خصائص خالد الذاتية عرفنا مقدار ما بين الرجلين العظيمين من تباعد في وسائل الاتفاق .

وأدنى ما بينهما في التمثيل أن عمر بن الخطاب يمنع نفسه طعاماً شهياً ليس فيه أدنى شبهة مخافة أن يقال له يوم القيامة « أذهبتم طبيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » . وخالد بن الوليد لا يبالي أن يدخل الحمام فيتدلك بغسل فيه خمر فتنتها وأذهب خمريتها ، أو أن يعرس ببنت بجاعة بن مرارة الحنفي ، وجراحه لا تزال تنطف دما من سيوف قومها .

ومن هنا بدأت طلائع الافتراق بين عمر وخالد ، لأن طبيعة خالد العسكرية ظلت اصطدام بين . على صلابتها وإلفها للاستقلال الكامل وحرية التصرف في عمله الذي أسند إليه ، وعمر طبيعتين لا يرضيه ذلك استجابة لطبيعته وسلوكه في الحياة ، فكان اصطدامهما أشبه باصدام الحديد بالحديد ، لأنه اصطدام طبيعتين من نوع واحد اتجهتا في الحياة اتجاهات مختلفاً ، فأرادت كل طبيعة منهما الاحتفاظ بخصائصها ، وقد كانا في مكانين من الدولة ليس فوقهما مكان ، فعمر خليفة المسلمين وخالد قائد جيوش المسلمين ، فلا مفر إذاً من أن تقف إحدى الطبيعتين عن سيرها ليفرغ الأفق للأخرى حتى تأخذ بحالها الحيوى في النهوض بالأمة .

وكان طبيعياً بمقتضى منصبى الرجلين العظيمين أن تقف الطبيعة الخالدية لتترك المجال للقاروق ، لأن خالد كان قد بلغ مداه في مكانه من الدولة ؟ أما عمر فكان قد بدأ الخالدية أشواطه ، ولما يبلغ المدى المقدر له في مكانه من الدولة ، ومن عجائب التوفيق في تاريخ هذه الأمة أن عمر بن الخطاب لم يعوض في مكانه إذ خلا منه ، ولكن خالد لم يفرغ مكانه من مثله أيام عمر ، وكأنما كانت عبقرية خالد الغامرة حجاباً انسدل دون عبقريات فياضة بالبطولة ، حتى إذا وقفها ابن الخطاب وهي مستولية على الغاية القصوى في العظمة انكشف الحجاب وتراءت شمائل في القيادة العسكرية لعديد من أبطال الإسلام ، كانوا كلهم خالد بن الوليد في قوته وبطشه وظفـره ويمـن بقيـته .



حقيقة دواعي  
العزل

فقيمة المسألة في دوافع عزل عمر خالد أن طبيعته الرجاين العظيمين كانت من نوع يعسر معه أن تستجيب إحداها للأخرى ، وليس هناك شك ولا تخون ولا سوء رأى ، ولا ضغائن جاهلية ، ولا اتهام بانتهاك حرمة الشريعة ، وشرائع الحق والعدل والنقوى ، وإنما هناك قوة مهيمنة بسطت الخلافة الراشدة سلطانها على الأمة الإسلامية في شخص عمر بن الخطاب ؛ صادفت هذه القوة أمامها قوة أخرى مهيمنة بسطت الوقائع المظفرة سلطانها على الأمة الإسلامية في شخص خالد بن الوليد ، وحق الخلافة في بسط سلطانها مستمد من الأمة بوحى الدين والشريعة ، وحق القيادة الظاهرة في بسط سلطانها مستمد من الوقائع في ميادين القتال ، والأمة قد استوحت دينها وشريعته فتمنحت حق السيطرة عليها بسلطان الخلافة الراشدة لعمر بن الخطاب ، وهذا حق لا يتعدد ، فليس من الجائز أن تمنح هذا الحق لغير عمر مادامت يد عمر مبسوطة به في كفاية وغناء ، بيد أن حق الوقائع المظفرة في منح السيطرة للقيادة الناجحة حق يتعدد بتعدد الكفايات والاستعداد ، أو هو حق يجب أن يتعدد ، ويأبى التفرد عند الأمم الناهضة ، فالأمة الحية الناهضة تتسع لعشرات الأبطال من الفوادى والوقائع الظاهرة ، ولا تسألها لتسع لغير خليفة واحد يسوس أمرها بميزان واحد من العدل .

فتح الباب  
أمام  
الكفايات

وإذا كان خالد بن الوليد قوة باهرة من الكفاية والغناء في باب البطولة والقيادة العسكرية ، فليس من الخير لأمة ناشئة ناهضة أن توكل إلى كفاية رجل وغنايه مهما بلغ من العبقرية ، بل الخير كل الخير أن يفتح الباب لغيره من أهل الكفايات والغناء حتى يكون للأمة رصيد من البطولة تنفق منه عند الحاجة .

وقد يتساءل الباحث أليس من الخير للأمة أن تتجمع لها هذه الكفايات في العمل متياسرة لتكون نتائج أعمالها في سواد عظمتها مجتمعة ؟

قلنا نعم ، إذا أمن الاصطدام بين القوى المسيطرة على مقومات الدولة ، والعاملات على تشييد صرح الإسلام ، ولكن الاصطدام وقع بين أعلى قوتين في الدولة ، قوة الخلافة والحكم ممثلة في الطبيعة العمرية ، وقوة القيادة العسكرية ممثلة في الطبيعة الخالدية ، وما من شك في أن هذا الاصطدام بين هاتين القوتين لو مد في حبله لأدى إلى كارثة لا يعلم مدى ما تصيب من كيان الأمة ونظام الدولة إلا الله تعالى ، فسكان من الخير والمصلحة تمنح إحدى الكفايات عن مكانها ليتخرج في ميدانها أقرانها .

وقد بدأ التصادم بين عمر وخالد في خلافة أبي بكر ، لأن عمر - وكان وزير أبي بكر - كان يريد أن يطبق سياسته المستمدة من طبيعته في سلطان أبي بكر ، ولا تقصد - طبعاً - هنا إلى شيء مما تناقلته روايات زائفة محمولا على لسان عمر في قصة مالك ابن نورة ، ولا إلى ما تخيله النواسيون في أقصوصة زواج خالد بامرأة مالك بعد قتله بكفره وإلحاده - وإنما نقصد إلى ما هو ثابت في روايات هي أرجح عندنا ميزانا ، لأنها لا تخرج بالخلاف بين الرجلين العظيمين عن حقيقة الجديهِ إلى ضرب من السخف الصبيانى أو عبث الفارغين من أرباب البطالة المترفين ، بل هي روايات ترد الخلاف بينهما إلى خلاف بين طبيعتين قويتين ، وقوتين عظيمتين مما يلازم حياة عمر وحياة خالد في خطوطهما الأصلية الثابتة الخالدة .

قال ابن حجر في الإصابة : وكان سبب عزل عمر خالد ما ذكره الزبير بن بكار قال : كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم ، ولم يرفع إلى أبي بكر حسابا ، وكان فيه تقدم على أبي بكر ، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر ؛ أقدم على قتل مالك بن نورة ونكح امرأته ، فذكره ذلك أبو بكر ، وعرض الدية على متمم بن نورة ، وأمر خالد بطلاق امرأة مالك ، ولم ير أن يعزله ؛ وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد .

فالدَى كرهه عمر من خالد هو قسم المال في أهل الغنائم ، دون أن يرفع إلى الخليفة حساباً بما صنع ، وأنه كان يفعل أشياء لا يراها الخليفة ، مثل قتل مالك بن نورة وزواجه بامرأته ، وقد أسلفنا وجه ما صنع أبو بكر في مؤاساة متمم أخى مالك بإعطائه شيئاً من قبيل الترضية ، وتسمية ذلك في عبارات الرواة دية توسعة في اللفظ ، وفي أمر أبي بكر خالد بطلاق امرأة مالك إقرار لصحة هذا الزواج ، وإلا فما معنى الطلاق لو لم يسبقه زواج صحيح ؟ وما معنى إقرار صحة الزواج لو لم يكن قتل مالك في نظر الخليفة - على الأقل - لا تأثيم فيه على خالد ؟ وإنما أمر أبو بكر خالد بطلاق امرأة مالك تأديباً وزجراً له على تقدمه في أمور لها منافذ من التأويل . .

فلما تولى عمر بن الخطاب الخلافة وأصبح مسئولاً عن كل حركة في الدولة خالد يأبى أن الإسلامية كتب إلى خالد يأمره ألا يتصرف في شيء من المال قل أو كثر إلا بأمره وإذنه ، تفيد حريته في فرد عليه خالد أمره وجعل حريته عدل منصبه ، وكتب إليه بمثل ما كتب إلى دائرة عمله

أبي بكر : إما أن يدعه وعمله مطلق اليد ، مستقل الرأى ، حر التصرف فى دائرة عمله ، وإلا فشأنه وعمله يولى عليه من يشاء ، فأبى عليه عمر ، وقال : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه ، فعزله عن الإمارة العامة ، وجعله أميراً على فرقة أكبر القواد وأمثلة الأمراء وقائد القواد .

وقد عرف الناس ما بين عمر وأبى عبيدة من انسجام كامل فى السلوك والأخلاق المكسوبة ، على ما بينهما من اختلاف فى الطبع الأصيل ، لأن أبى عبيدة كان من لون الطبيعة الصديقيه لنا ورحمة ، ودعة ودماثة ، وهذا الاختلاف كان عوناً على الانسجام فى السلوك والأعمال ، فقد كان أبو عبيدة رجل سلم وتسليم ، مالم تنتهك حرمة الله ، لا يبالى الدنيا وسلطانها وزخارفها ، ومن ثم كان عمر شديد الإعجاب به والحب له .

تقدير عمر      وفى هذا التصرف من عمر حكمة سياسية عظيمة نعتقد أنه قصد إليها ؛ ذلك أنه لعبقريه خالد أظهر بهذا التصرف الحكيم تقديره الصادق لعبقرية خالد الحرية ، ولا شك أن عمر فى منصب الخلافة إنما يعمل لحساب المصلحة العامة التى تستهدف خير الإسلام والمسلمين ، وأظهر خلائق عمر بن الخطاب العملية التى انفرد بها فى التاريخ أنه جعل من شخصه وأسرته « وسيلة إيضاح » لتحقيق المصلحة العامة فى نصوص الشريعة الإسلامية من وجهة التطبيق العملى .

والمصلحة العامة التى استهدفها عمر هى التى جعلته يقف بعزل خالد عند عزله عن الإمارة العامة ، ويترك له مجال العمل — فيما هو من خصائص عبقريته — متسعاً . لأن الباعث الحقيقى على العزل هو تجنب اصطدام القوتين الأساسيتين فى نظام الدولة بالحد من حرية خالد ، وخاصة فى التصرف المالى ، وكان أهم الأعمال عند عمر ، فيكفّيه أن يعمل فوقه أمير يرجع إليه ، فاعله بذلك يضمن عسدم اندفاعه فيما لا يوافق سياسة الخلافة الجديدة .

وفى استمرار خالد يعمل قائداً تحت لواء أبى عبيدة وإمرته زهاء أربع سنوات بالروح التى كان يعمل بها وهو أمير الأمراء ، فتباع عمر عجائبه ومعجزات شجاعته فيثنى عليه ويقرظه أبلغ تقرّيط ، ويمجده أعظم تمجيد ، أوضح دليل وأبلغه على أن عمر

رضى الله عنه ، إنما قصد بتنحية خالد عن الإمارة العامة الحد من طبيعته الفوارة  
المندفعة لينسجم معه في سياسته العامة في وقت بدأت تستقر فيه معالم الدولة ،  
فهى في حاجة إلى أناة مسالمة ، فإن لم تغن أغنت عنها كتائب الأبطال من جند  
الإسلام .

ولذلك لم تحدث تلك التنحية أثرا في نفوس المسلمين ، ولم يرفع أحد رأسه بإنكارها  
والاحتجاج عليها ، لأنهم رأوها عملا من أعمال الخلافة التي تقصد منها إلى حفظ  
التوازن بين القوى العاملة في بناء الدولة ، ولم يروا فيها عملا يقصد إلى الخط من شأن  
القائد البطل خالد بن الوليد ، ولا إلى حرمان جيوش المسلمين من عبقريته الجياشة  
المظفرة لأن خالد لا يزال في مكانه من ميدان الجهاد ، وهو إذا كان « رسميا » قد وضع  
تحت إمرة أبي عبيدة فإن ذلك لم يغير من مكانه في إدارة دفعة الحرب ، فأبو عبيدة  
يعرف قدره ، فكان لا يخطو إلا برأيه ، وكان عمر نفسه حريصا على أن يقف  
أبو عبيدة من خالد موقف التقدير لعبقريته ، فقد أمره أن يحبس خالد عن الرجوع إلى  
العراق مع جنده الذين وفدوا معه ، لإغاثة جند الشام ، وقال له : « إنه لا غنى بك عنه »

ولم يكتف عمر بذلك ، بل كان يرى أن يلزم خالد أبا عبيدة ، فيكون معه أينما  
توجه ؛ ذكر أبو جعفر الطبرى : أن أبا عبيدة كتب إلى عمر يستشيريه أيدا بالهجوم  
على « خُـل » وفيها جموع المنهزمين من الروم ، أم يبدأ بدمشق وقد أمدها هرقل بعدد  
من أهل حمص ؟ فكتب إليه عمر يقول : « أما بعد فابعدوا بدمشق ، فانهبوا لها ،  
فإنها حصن الشام ، وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل « خُـل » بخيل تكون  
بإزائهم في تمورهم ؛ فإن فتحها الله عليكم قبل دمشق فذاك الذي نحب ، وإن تأخر  
فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت  
وسائر الأمراء حتى تغيروا على « خُـل » فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى  
حمص ، ودع شرحبيل وعمر ، وأخلهما بالأردن وفلسطين ، وأمير كل بلد وجند على  
الناس حتى يخرجوا من إمارته » . فهذا الحرص من عمر بن الخطاب على أن يكون  
خالد إلى جانب أبي عبيدة يلزمه من بين الأمراء ، وأبو عبيدة هو القائد العام وتحت  
( م ٢١ — خالد بن الوليد )

لوائه القوة العظمى في جيوش الشام دليل قاطع على سمو المسكنة التي يحتلها خالد بن الوليد في تقدير عمر ووزنه .

طبيعة  
لاتغالب

يبد أن طبيعة خالد العسكرية لم تسكن إلى روح الهدوء التي ساد بها أبو عبيدة الجيوش الإسلامية ، فقد كثر في عهده الصلح والمسالمة ، وقلت عنوة الفتوحات والمغالبة ، فاتتهز خالد فرصة ولايته على « قنسرين » — وكان فتوحها إحدى معجزاته الحربية ، وكانت كلمة عمر التي قرظه بها حين أبلغه أبو عبيدة شأن خالد في فتوحها قدمشت إلى مسامعه ، ورأى فيها شهادة من عمر بفضل أبي بكر في موقفه من خالد « أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر هو كان أعلم مني بالرجال » — فعاد إليه طموحه ، وجاشت نفسه بغوارب البطولة ، فخرج هو وعياض بن غنم في سائرة فأوغلوا في دروب الروم ، وغنموا غنائم كثيرة عادوا بها إلى ولاياتهم ، فانتجعهم طلاب الجدى ورواد الجود ، فأعطى خالد فأغدى ، وكان ممن غمره خالد بعطاءه الأشعث بن قيس الكندي ، أجازته بعشرة آلاف درهم ، فبلغ أمر هذا العطاء عمر بن الخطاب — وكان لا يخفى عليه شيء من أمر الناس — فأعظمه ورأى فيه مظهرا من طبع خالد الأصيل ، وجنوحا إلى ما كان يكره منه من التقدم وحرية التصرف في المال ، والاندفاع بالمسلمين في الإدراب ، وتبين لعمر أن ماصنع مع خالد من العزل عن القيادة العامة لم يكن حاسما لأمره وعاد الأمر كما بدأ ، فهل من المصلحة العامة أن يسكت عمر بن الخطاب ، فيتجدد ما كان يخشاه من اصطدام بعدما أقر في الأمة سياسته وأثره بالناس مذهبه في الحسم ، والنزاهة أمراؤه وولاته .

رأى عمر أنه ليس من المصلحة في شيء أن يسكت على تصرف خالد ، وأنه لا بد له من حسم الأمر بصورة قاطعة تقف بخالد موقفا ينأى به عن مباشرة عمل يعرضه للاضطدام بالسياسة العامة في الدولة ، وتكون زجرا عاما يعيش في الناس فيحسبون مثله حسابا .

العزل الثاني أصدر عمر أمره بعزل خالد نهائيا عن العمل في الجيش كله ، ولم يكتف بذلك بل أمر بمحاكمة خالد والتحقيق معه ، واستقدمه إلى المدينة ، وهذا هو العزل الثاني ، وإثره

وهو يحمل معه سببه صريحاً ، وتمت المحاكمة والتحقيق ، وقد ناقشنا الشكل الذي قالت الروايات إن المحاكمة جرت عليه ، وهو شكل إن صح فتأويله ما عرف في طبع عمر ، وأغلب الظن أن عمر رأى أن خالداً في قوة رجوليته أقوى على احتمال شدته الزاجرة من غيره ، فضر به للناس مثلاً حتى لا تحدثهم أنفسهم بمخالفة السياسة العامة التي وضعها وسارت عليها الخلافة العمرية لنظام الدولة الإسلامية الناشئة .

وهذا العزل الناني هو الذي تحركت له بعض النفوس بالعطف على خالد والإشفاق اعتذار عمر على جيوش الإسلام ، وقد أبعد عنها قائدها المظمر سيف الله خالد بن الوليد ، وأحس عمر هذه الحركة ، فأراد أن يبين للناس الدوافع التي حملته على هذا التصرف مع خالد ، فكتب إلى الأمصار ما خطب به الناس فقال : « إني لم أعزل خالداً عن سخطه ، ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكأوا إليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » .

ولما قال له طلحة بن عبيد الله : مالك عزلت خالداً ؟ قال له : ما عتبت على خالد إلا في المال ؛ وخطب الناس فقال : « إني أعتذر إليكم من عزل خالد بن الوليد ، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطى ذا البأس ، وذا الشرف ، وذا اللسان ، فأمرت أبا عبيدة » .

والتأمل في اعتذار عمر وتصرف خالد في المال ، يرى لخالد وهو في موقفه الحربي أصدق العذر وأقومه ، لأنه قائد يحرص على النصر بكل ما يستطيع من بذل في الأنفس أو المال ، وما قيمة المال إذا كان ثمناً للنصر ؟ وخالد وهو يباشر الحرب يعلم أن فيمن معه من ذوى البأس من لم تكن له كبر نية في الجهاد ولم تخلص نيته لمحض ثواب الله ، فهذا في حاجة إلى ما يقوى عزيمته ، ، ويثير حماسه من هذا المال ، ولم تشرع الأنفال واختصاص المقاتلين في الجهاد بسلب المقتولين مهما عظم قدره إلا لمثل هؤلاء ، فكان خالد يعطى ذا البأس ، وذا الشرف ، وذا اللسان على هذا الأساس القويم وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى من غنائم الحرب ذا البأس ، وذا الشرف وذا اللسان ، ولما رجع من حنين ظافراً أعطى الطلقاء من رءوس قريش ، وأعطى أشراف الأعراب من أضراب الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، والعباس بن مرداس وغيرهم مائة ، مائة ، وخمسين ، وخمسين وترك سادة المسلمين من المهاجرين والأنصار .

وكأنما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يرى أن الإسلام قد استقر وضرب بجرانه فلا حاجة به إلى تألف الناس بالدنيا فليوكل الناس إلى إيمانهم وضماؤهم حتى تؤدي التربية الإسلامية رسالتها وتحدث أثرها في تخريج نماذج للفضيلة في أرقى معانيها .

سياسة عمر  
عامة  
كانت هذه السياسة هي سياسة عمر مع ولاته وأمرائه عامة لم ينفرد بها خالد بن الوليد ؛ ولكن التاريخ - كما قلنا - أفرد به بفصل منه إعظاما له .

وقد ورد أن عمر أشرك المثنى بن حارثة الشيباني مع خالد بن الوليد في سبب واحد لعزلهما ؛ روى ابن عساکر : أن عمر رضى الله عنه كان يقول قل خلافتي : « أما والله لئن صير الله هذا الأمر إلى لأعزلن المثنى بن حارثة عن العراق ، وخالد بن الوليد عن الشام ، حتى يعلم أن الله هو الذي نصر ، ليساها » . وكذلك عزل زياد بن أبيه ، واعتذر بنحو عذره في عزل خالد والمثنى ؛ قال ابن الأثير في أسد الغابة : لما عزل عمر زيادا قال له : يا أمير المؤمنين ! أخبر الناس أنك لم تعزلي لخزاية ؛ فقال عمر : « ما عزلتك لخزاية ، ولكني كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك » . وعزل المغيرة ابن شعبة عن كتابة أبي موسى الأشعري ، فقال له المغيرة : أعن عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « لا عن واحدة منهما ، ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على العامة » .

وهذا المذهب في تربية الأمم من أحكم المذاهب وأفضلها ، فإن الأمة إذا وكت إلى عبقرية فرد أو أفراد ، وحملها الراعي على فضل عقل بعض أبنائها ماتت فيها جذوة التنافس ، وارتاحت إلى الكسل والتواكل ، وضعفت عن سلسلة العبقرية وفضل العقل ؛ وهذا أمر مشهود محسوس في واقعنا من الحياة حتى أصبح من أكبر عيوب الشرق أن زعماءه وقادة الإصلاح فيه لا يعنون بتدريب من يخلفهم في مراكزهم ، ويركزون جهودهم حول أشخاصهم ، وإن سجدت الحياة بأحد من ذوي الاستعداد الفكري الرفيع من طينة غير طينة الزعماء والقادة تنسك لهم هؤلاء ، وأبوا عليهم تسديدهم وإرشادهم وتشجيعهم ، حتى إذا فقدت الأمة قادتها تولى أمرها من ليس هناك .



أما أثر هذا الحادث في نفسى الرجلين العظيمين :عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد فكان نفعه من نفعات التربية الإسلامية التي جعلت من رجال الصدر الأول مدرسة لنخرج نماذج حية للفضائل الإنسانية في مثلها العليا .

تسامى  
العبقريات  
عن الصغائر

تلقى خالد رضى الله عنه أمر العزل الأول راضياً أحسن ما يكون الرضا ، وسلم الأمر إلى القائد الجديد أجل ما يكون التسليم ، وعمل تحت إمرته نحواً من أربع سنوات ، فلم يعرف عنه أنه اختلف عليه مرة واحدة .

ولا ينكر فضل أبي عبيدة وسمو أخلاقه في تخفيف وقع الحادث على خالد ، فقد كان لحفاوته به وعرفانه لقدره ، وملازمة صحبته ، والأخذ بمشورته وإعظامه لآرائه وتقديمه في الوقائع التي حدثت بعد إمارته الجديدة ، أحسن الأثر في صفاء قلبه صفاء جعله يصنع من معجزات العبقرية والشجاعة ، ويظهر من براعة التفكير والسياسة ما أربى على عجايبه وهو أمير الأمراء ، وعمله في فتح دمشق وقنسرين وفحل شاهد صدق على روحه السامية التي قابل بها حادث العزل ، وكان في حاله سيف الله خالد بن الوليد .

أما العزل الثانى فقد تلقاه خالد في رضاء أسيف ، وأسف خالد لم يكن على فائت من سلطان الدنيا ، ولو كان أسف خالد على عظمة زائلة لكان موضع ذلك الأسف العزل الأول ، وقد ثبت أن سلوك خالد يوم العزل الأول يقطع بأنه لم يأسف على شيء ، لأنه يبقائه جندياً يصول في مجال عبقريته قد بقى له كل شيء يحرص عليه في هذه الحياة .

وإنما كان أسفه على حرمانه من ميادين الجهاد ، وهى مطارح آماله ومسارح عبقريته ، ومظاهر طموحه ، فهو رجل حبيب إليه الحرب حباً لم يترك عنده موضعاً للذة فى سواها ، فهى قررة عينه ، ومضمار أنسه ، وملهى نفسه ، فمن حقه أن يأسف وأن يحزن إذ يرى أنه أبعد عنها فلا يشهد لها ولا تشهد ، ومن حقه أن يأسف إذ يرى ثمرات عبقريته وهى يانعة يتعهد لها غيره ، وهو منها بمكان لا يرتضيه العباقر من أبطال الجهاد وعشاق الحروب .

يؤمن التاريخ إيماناً لا ريب فيه أن خالد بن الوليد كان يوم عزله قد بلغ قمة العظمة التي ليس فوقها أمثاله من العباقر مكان ، وأنه بلغ من قلوب المسلمين ومحبتهم وتعظيمهم مكاناً جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلن إلى الناس أنه يخشى عليهم الفتنة به ،

عظمة خالدية

وبلغ من قلوب أعدائه أن كان ينصر عليهم بالرعب منه ، ورجل هذا شأنه كان يستطيع لو قال برأسه هكذا لأشعل نار الثورة في كل مكان يذكر فيه اسمه من أقطار الإسلام والمسلمين ، لكن خالد بن الوليد رجل ملاً بالإيمان قلبه ، وامتزجت روح الإسلام بلحمه ودمه ، واستنارت روحه بنور النبوة وهداياها ، فهو منذ آمن بالله ورسوله شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله . فكان جندياً من جنود الإسلام أثبت عليه طبيعة الجندية وحبه العميق للإسلام أن يكون سبباً لوقف تياره المندفع بالفتوحات التي كان قطب رحاها ، وقائد قواها وبطل أبطالها .

عزل عمر خالد في المرة الثانية ، واستقدمه إلى المدينة ، فخطب خالد أهل عمله مودعاً ، فكان أقصى ما سمحت به نفسه في إظهار أسفه على هذا العزل الذي فرق بين القائد وجنوده أن قال للناس : « إن أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى إذا كانت بثنية<sup>(١)</sup> وعسلاً عزلني » فقام إليه رجل فقال : اصبر أيها الأمير ، فإنها الفتنة . فقال خالد : « أما وابن الخطاب حتى فلا » وهذا لون من الإيمان القاهر الغلاب ، لم يرزقه إلا المصطفون من أخصاء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : فأية قوة روحية سيطرت على أعصاب خالد في هذا الموقف الخطير ؟ وأي إلهام ألقى على لسان خالد ذلك الرد الهادئ الحكيم ؟

إنها قوة الإيمان ، ووحى الإيمان بعظمة الإسلام الذي يسمو بصاحبه إلى آفاق لا يحسب فيها للأشخاص والأشياء حساب ، آفاق لا تعرف الغل ولا الضغينة ، ولسكنها مشارق للإخاء والمحبة والإخلاص ، فالأشخاص فانية . والأشياء زائلة ، والحوادث منقضية ، والإسلام خالد لا يزول .

سكن الناس وهدأت نفوسهم بعد أن سمعوا كلمة خالد في توطيد قواعد الخلافة العمرية ، وعرفوا أن قائدهم المعزول ليس من طراز الرجال الذين يبنون عروش عظماتهم من أشلاء الفتن والثورات الهدامة ، وإنما هو طرز في الرجال من أولئك العباقرة الذين

---

(١) البثنية . الأرض السهلة اللينة . قال في لسان العرب : وقول خالد بن الوليد لما عزله عمر عن الشام حين خطب الناس فقال : إن عمر استعملني على الشام وهو له مهم ، فلما ألقى الشام بوائيه وصار بثنية وعسلاً عزلني واستعمل غيره : فيه قولان ، قيل البثنية حنطة منسوبة إلى بلدة مشروقة بالشام . . . والآخر أنه أراد البثنية الناعمة من الرملة اللينة . أي سكن وذهبت شوكته ،

خلقوا للبناء والتشييد ، فإن أرادتهم الحياة على هدم ما بنوا تساموا بأنفسهم أن يذلها  
الغرور المفتون .

نحمل خالد إلى المدينة فقدمها حتى لقي أمير المؤمنين ، فعاتبه عتاب الأسيف ، فقال  
له : « لقد شكوتك إلى المسامين ، وبالله إنك في أمرى غير محمل يا عمر » فأعته أمير  
المؤمنين أحسن إعتاب واكمه ، فقال له : « والله يا خالد إنك على لكريم ، وإنك  
إلى لحبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء أبداً » .

وفي الطبرى : أن خالداً لما قدم على عمر قال عمر متمثلاً :

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله صانع

وحسبنا في إخلاص عمر لخالد ومحبه له وتقديره لكفاءته ماورد في حديث الثورى ، مظاهر الحب  
وقد قيل لعمر : استخلف ، فقال : ولو أدركت خالد بن الوليد ثم وليته ، ثم قدمت  
على ربى ؟ فقال لى : من استخلفت على أمة محمد ؟ لقلت : سمعت عبدك وخيلك يقول :  
خالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين .

ولما بلغ عمر موت خالد قال : « قد ثلم في الإسلام ثمة لا ترتق ، وليته بقى مابق في  
الحمى حجر ، كان والله سداداً لنحور العدو ، ميمون النقية » وروى ابن عساكر :  
أن هشام البختري دخل على عمر في ناس من بنى مخزوم ، وكان هشام شاعراً ، فقال له  
عمر : أنشدنى ما قلت في خالد ، فلما أنشده قال له : قصرت في الثناء على أبى سليمان  
رحمه الله ، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وإن كان الشامت به لتعرضاً لقلت  
الله ثم تمثل بقول بعض الشعراء :

فقل الذى يبقى خلاف الذى مضى تهيأ لأخرى مثلها فسكان قد  
فما عيش من قد عاش بعدى بنافعى ولا موت من قد مات يوماً بمخلد

رحم الله أبى سليمان ! ما عند الله خير له مما كان فيه ، ولقد مات فقيداً وعاش حميداً ،  
ولكن الدهر ليس بقائل (١) .

(١) ليس بقائل : أى ليس بتارك أحداً يخلد في هذه الدنيا ، فهو من الإقالة في المعنى ، مادته :  
قاله قايلاً ، قال في اللسان : وحكى اللحياني أن قلته لغة ضعيفة .

هذا موقف عمر من خالد بعد عزله عن العمل في جيوش الإسلام ، وهو موقف غنى عن كل تعليق ، أما موقف خالد من عمر فقد سقنا كثيراً من دلائل شرفه ونباله وإخلاصه ، وحسبنا أن نختتم هذا الفصل بحديث يرويه ابن عساكر ، وفيه يبسط خالد بن الوليد نفسه حجة عمر بن الخطاب في عزله بأبلغ بيان وأوضح معذرة ، قال : « دخل أبو الدرداء على خالد في مرضه الذي مات منه ، فقال له خالد : يا أبا الدرداء ، لئن مات عمر لترین أموراً تشكرها ؟ فقال أبو الدرداء : وأنا والله أرى ذلك ، فقال خالد : « قد وجدت عليه في نفسی في أمور لما تدبرتها في مرضی هذا ، وحضرتني من الله حاضر عرفت ان عمر كان يريد الله بكل ما فعل ، كنت وجدت عليه في نفسی حين بعث إلى من يقاسمني مالی حق أخذ فرد نعل ، وأخذت فرد نعل ، فرأيتہ فعل ذلك بغيری من أهل السابقة ومن شهد بدرآ ، وكان يغلظ علیّ وكانت غلظته على غيری نحوآ من غلظته علیّ ، وكنت أدل عليه بقراءة فرأيتہ لا يبالي قريبآ ولا لوم لائم في غير الله ، فذلك الذي أذهب ما كنت أجد عليه ، وكان يكثر على عنده ، وما كان ذلك إلا على النظر ، كنت في حرب ومكايده ، وكنت شاهداً وكان غائبآ ، فكنت أعطى على ذلك خالفه ذلك من أمری » .

فهل رأى الناس احتجاجاً أفضل وأبين من هذا ؟

ولم يكتف خالد بذلك في إخلاصه لعمر ، بل ختم حياته بالوصية إلى عمر فقال : « وقد جعلت وصيقي وتركتي وإفاد عهدي إلى عمر بن الخطاب » .

## نهاية عبقرى

يستشعر الباحث فى سيرة خالد بن الوليد قوة خفية فى حياة هذا البطل العظيم أرفع فى معناها الدافع من القوى المشهودة فيه كعبقرى من عباقرة التاريخ ، فهو رجل عسكري من الطراز الأول فى العبقرية العسكرية له جميع خصائصها ومزاياها .

فإذا ذكر التاريخ العسكري بطولة الإسكندر وهانيبال ونابليون مثالا للنبوغ الحربى المظفر جاء اسم خالد بن الوليد فى السطر الأول من صفحة العبقرية العسكرية على أنه كلمة الإعجاز المنزلة من سماء الأمة العربية لتحدى الطبائع فى أجناس البشرية .

وسيرة خالد بن الوليد كتاب من أسلوب الإسلام ومنطقه فى تربية الرجال ، يجب أن تتعبد الأمة الإسلامية فى شتى أقطارها بآياته وسوره فى هذا العصر الذى لا يعرف لغير القوة معنى فى هذه الحياة .

والتعبد بسير الأبطال ضرب من إعادة الحياة إليهم فى أشباههم من سلالة دمائهم ، فإذا أرادت الأمم الإسلامية أن تحيا حياة كريمة فعليها أن تتطهر من دنس الضعف والاستضعاف فى صورته كلها ، ولا سيما تلك الصورة الخبيثة التى تغلف لها فى أغلفة «التسامح» على ألسنة العبيد وربائب الاستعباد من المزورين على طبيعة الإسلام وتاريخه فى النسب الجغرافى الدعى ، ولتدخل بعد هذا التطهر إلى محراب البطولة ، وييدها كتاب « خالد بن الوليد » على طرته قول الله تعالى «فإما تثقفنهم فى الحرب فشد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »

عدل وقوة هما جماع سياسة الإسلام ١١

فى سيرة خالد بن الوليد أمران ؛ أمر ينبع من الطبع العربى كخصيصة على امتياز هذا الجنس من البشر فى ولادة البطولة المقدمة ، ومثل خالد فى هذا مثل غيره من

أبطال التاريخ العربى قبل الإسلام ، وسواء فى ذلك التاريخ الأسطورى فى نحو سيرة « عنتر » العيسى وأضرابه ، والتاريخ الواقعى فى نحو سيرة عمرو بن ود العامرى وأقرانه من فوارس الشجعان .

والأمر الثانى فى سيرة خالد ينبع من طبيعة الإسلام ، وروحه وتربيته ، الإسلام فى نصاعته وقوته كما فهمه أبو بكر الصديق غب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تألبت عليه العرب قاطبة مرتدين عن دين الله ؛ وكما فهمه عمر بن الخطا عملا فى حياة الناس الواقعية ، يسود حركاتهم وسكناتهم ، ويدخل معهم فى بيوتهم ، ويصنع لهم صنغار الأمور وكبارها ، فإذا خرجوا به نماذج فى أشخاصهم إلى حياة الناس كانوا به مثلا بأوضاعهم المختلفة فى مشئون الحياة على خلائقه وآدابه التى يريد أن تكون عليها أمته فى عالمها الواقعى .

لا الإسلام الذى وجهته الفتن العاصفة على مشيئتها أو مشيئة الفاتنين المفتونين من أحلاسها بعد عهد الخلفاء الراشدين .

ولا الإسلام الذى اتخذ المستبدون أداة لإذلال للأمة ، وإفساد لأخلاقها ومسح لطبيعتها .

ولا الإسلام الذى ادعاه مفرطحو الرءوس ، عراض الأكام والجيوب ، بفعلوه ذريعة للترهل الأبله والنفاق الدليل .

فهم خالد الإسلام ذلك الفهم العميق دون تفلسف أو شطح فى التأويل . ولكنه فهم كانت الفطرة الصافية والطبيعة القوية ، والبطولة الجريئة من أعظم وسائله ، فكان نموذجا للعبقرية فريدا فى خصائصه المكسوبة التى وجهته فى وقائمه الإسلامية ، ومن هنا كانت الميزة العظمى لخالد على أقرانه من أبطال التاريخ العربى قبل الإسلام ، فكثير منهم واجه من الوقائع مثل ما واجه خالد ، ولكنهم لم يظفروا بمثل ما ظفر خالد ، وكثير منهم لهم عوائق وعقبات فلم يخلصوا منها بمثل ما خلاص خالد .

وليس من الحق أن يزعم زاعم أن خالد كان أقواهم بنية ، وأصلبهم عوداً ، وأشجعهم جنانا وأجراًهم إقداماً ، فكل ذلك كان لأوثاك منه حظ لا يقل . إن لم يزد

عن حظ خالد ، ولأبطال الأساطير تصوير من صنع الخيال .

وإنما امتاز خالد على أقرانه بتقمصه روح الإسلام من وجهها القاهر الغلاب منذ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفث في روعه يوم إسلامه وحي البطولة الإسلامية ، فلم يعدل به فيما حزه أحدًا من أصحابه ، وهناك آمن خالد بالله ورسوله إيمانًا سما به عن الحياة ، فما كان يكثر شيء فيها أو يأسى على فائت منها ، فكان مبدؤه الذي عاش في إسلامه عليه تلك الحكمة الخالدة التي ألقى بها إلى جنوده في موقف لا يقفه ولا يقدم عليه إلا خالد بن الوليد في إسلامه : « إن المسلم لا ينبغي له أن يكثر شيء يقع فيه مع معونة الله له » .

وعلى هذا المبدأ ، وبهذه العقيدة كان خالد يخوض وقائع الجهاد مثلاً مضروباً لجنده ، فلم تنكس له راية ، ولا سقط له لواء ، ولا عرف الهزيمة منذ كان قائداً مستقلاً ، وعلى هذا المبدأ وبهذه العقيدة ودع خالد جنده وودع ميادين الجهاد يوم عزله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن عمله في الجيش كله إلى حيث يحتم كتاب حياته بفصل من الإعجاز لا يوحى به إلهاماً إلا لمن كان على إيمان خالد وثقته في الله تعالى ، وصادق حبه للإسلام .

إيمان يذهب بخالك في التضحية والإيثار مذهبا لم تعرفه الحياة لغيره من الأبطال ، إيمان يسوقه إلى نهاية تنكرها حياته ، وينكرها هو على نفسه ، فهو قد اقتحم وخاطر ، وقاتل وقتل ، وإذا به يودع المدينة عائداً إلى حمص - على أرجح الروايات - مرابطاً بها أكثر من أربع سنوات ، ثم يأتيه الموت وهو على فراشه ، فيبكي ؛ إى وربى إن البطل خالد بن الوليد بكى ساعة حضرته الوفاة؟ أم تبكى أيها البطل المغوار؟ أتهاب الموت وتخشى الردى؟ وأنت الذى طالماً فرّس من لقائك الموت ، وأوردت الأبطال موارد الردى؟ لا ، وعبقريته خالد ما بكى خالد خشية الموت أو خوف الردى ، ولكنه بكى لأنه يموت بغير السيف فى حومة الوغى .

بكى خالد وهو يقول : « لقد حضرت كذا وكذا زحفا ، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم ، أو طعنه برمح ، وهأنذا أموت على فراشى . حتف أنفى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء » .



« ولقد طلبت القتل في مظانه ، فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى » .  
« وما من عمل أرجى عندى بعد لا إله إلا الله من ليلة شديدة الجليد في سرية من  
المهاجرين بينها وأنا متترس والسما تنهل علىّ وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار ،  
فعليكم بالجهاد » .

حياة عريضة ملء سمع الدنيا وبصرها ، ونهاية هادئة هدوء الإيمان إذا استقر في  
قلوب الصديقين .

رضوان الله وسلامه على خالد في العبقريين .

تم والحمد لله .

« المؤلف: »

صادق إبراهيم عرجون

## الفهرس

صفحة	
٣ — ٥	المقدمة
٧ — ١٢	تمهيد

## الفصل الأول

### خالد قبل إسلامه

من ص ١٥ إلى ص ٢٨

١٥	مطالع الحديث عن الشخصيات
١٥	البيئة العامة وأثرها في حياة الأفراد
١٦	موطن خالد
١٦	قبيلة خالد
١٨	بيت خالد وأسرته
١٩	مكانة أبيه في قريش وموقفه من دعوة الإسلام
٢١	إخوة خالد ومن أسلم منهم
٢١	مكانة خالد في الجاهلية وموقفه من الإسلام
٢٢	في غزوتي أحد والحندق

## الفصل الثاني

### خالد في طريقه إلى الإسلام

من ص ٣١ إلى ص ٤٥

٣١	متى أسلم خالد ؟
٣٤	كتاب أخيه الوليد إليه وأثره في نفسه
٣٤	رؤيا صادقة

صفحة

٣٥

خروجه إلى رسول الله وإسلامه

٣٥

لقاؤه عثمان بن طلحة وعمرو بن العاص خارجين للإسلام

٣٦

احتفاء النبي صلى الله عليه وسلم به وثناؤه عليه

٣٦

ألوان من العبر في قصة إسلامه

### الفصل الثالث

خالد في الإسلام على عهد النبي صلى الله عليه وسلم

من ص ٤٧ إلى ص ٦٣

٤٩

مجال العبقریات

٤٩

العرب والعبقرية

٤٩

مكانة خالد في الإسلام

٥٠

روح الإسلام وطبيعة خالد

٥٠

أول وقائع خالد في الإسلام

٥٥

إمارة خالد في غزوة مؤتة

٥٧

اختلاف الروايات في هذه الغزوة

٥٩

نقد وتحقيق

٦١

رأى في الموضوع

### الفصل الرابع

فتح مكة

من ص ٦٧ إلى ص ٧٧

٦٧

أمل المسلمين في فتح مكة

٦٧

خروج النبي في أصحابه معتمراً

٦٧

المفاوضة مع قريش ورجوع النبي بأصحابه عن مكة

٦٨

وقفه عمر بن الخطاب في هذا الرجوع

٦٨

نقض قريش العهد

٦٩

ندم قريش وإرسال أبي سفيان ليؤكد العهد

صفحة

٧١	خبيبة أبي سفيان في سفارته
٧١	تجهيز رسول الله للفتح
٧٢	تأثير خالد في فتح مكة
٧٣	إسلام أبي سفيان وهزيمة المسلمين في قلبه
٧٤	خالد يدافع
٧٥	خالد يحطم العزى

### الفصل الخامس

#### خالد في بني جذيمة

من ص ٨١ إلى ص ٩٦

٨١	خالد في قصة بني جذيمة
٨١	روايات القصة
٨١	الرواية الأولى
٨٢	مناقشة في هذه الرواية
٨٣	رواية أخرى
٨٤	أغرب روايات القصة
٨٥	نقد وتمحيص
٨٩	أمثلة الروايات
٨٩	مناقشة وترجيح
٩٤	رواية وتأويلها
٩٤	استثناس

### الفصل السادس

#### خالد في بعوث شتى

من ص ٩٩ إلى ص ١١٤

٩٩	خالد في غزوة حنين
١٠٠	انسحاب لا يخذش البطولة
١٠١	شجاعة النبي وأثرها

صفحة	
١٠٢	خالد في محاصرة ثقيف
١٠٢	بعث خالد للتثبت من بنى المصطلق
١٠٣	سرية خالد إلى أكيدر
١٠٦	بعث خالد لهدم اللات
١٠٨	بعث خالد إلى نجران هادياً ومعباً
١٠٩	كتاب خالد إلى رسول الله مبشراً
١١٠	كتاب رسول الله بوفد بنى الحارث
١١٠	حنين خالد إلى الجهاد
١١١	رواية أخرى في سرية خالد إلى نجران
١١٢	التوفيق بين الروايتين

## الفصل السابع

### خالد في حروب الردة

من ص ١١٧ إلى ص ١٣٨

١١٧	حال الناس بعيد وفاة رسول الله
١١٧	شجاعة الصديق ورسوخ إيمانه
١٢٣	أين رأى خالد ؟
١٢٥	توجيه خالد إلى طليحة الأسدي
١٢٦	وصية أبي بكر لخالد
١٢٦	تنبيه وتذكير
١٣٠	خالد وعدى بن حاتم
١٣١	خالد في وجه طليحة
١٣٣	هزيمة طليحة ورجوعه إلى الإسلام
١٣٤	حملة تأديبية
١٣٨	سياسة حكيمة

## الفصل الثامن

أحدوثة مالك بن نويرة : عرض وتحليل

من ص ١٤١ إلى ص ١٥٨

١٤١	قصة غامضة
١٤١	مالك بن نويرة ومسير خالد إليه
١٤٢	حكمة حازمة
١٤٤	غرور وتيه جاهلي
١٤٥	اختلاف الروايات
١٤٥	رواية ملفقة
١٤٧	رواية زائفة
١٤٩	رواية مشهورة ولكنها مريبة
١٤٩	عوامل الريبة في هذه الرواية
١٥٤	رواية مقبولة
١٥٥	موقف أبي قتادة وابن عمر
١٥٦	لعب الخيال في أقصوصة زواج خالد امرأة مالك
١٥٦	وجه الرأي في هذا الزواج
١٥٧	نتيجة

## الفصل التاسع

واقعة اليمامة : بين خالد ومسيلمة

من ص ١٦١ إلى ص ١٨٧

١٦١	هول معركة اليمامة
١٦٦	عبقريّة خالد في إدارة المعركة
١٦٦	نبوءة صادقة
١٦٧	ادعاء مسيلمة النبوة
١٦٨	شعوذة وخبث دهي
١٧٠	عصية عمياء

صفحة

١٧٠	أول لواء لحرب اليمامة
١٧٠	توجيه خالد إلى حرب مسيلة
١٧٣	مجاوعة بن مرارة ومكانته في قومه
١٧٤	بدء المعركة
١٧٥	نفضات البطولة الإسلامية
١٧٥	حملة صادقة
١٧٦	قتل مسيلة . من قتله ؟
١٧٦	بدء النهاية في المعركة
١٧٧	خدعة مجاعة
١٧٨	الصلح بين التأيد والمعارضة
١٧٩	كتاب أبي بكر إلى خالد وإمضاء الصلح
١٨٠	غدر لم تتم
١٨٠	رسول خالد إلى أبي بكر
١٨١	هل وفد خالد على أبي بكر بعد اليمامة ؟
١٨٢	زواج خالد بنت مجاعة
١٨٣	رجولية بطل وبطولة رجل
١٨٤	عتب أبي بكر ودفاع خالد
١٨٥	تحليل وتوضيح

## الفصل العاشر

### دولة الفرس بعد العرب : فتح العراق

من ص ١٩١ إلى ص ٢٢٠

١٩١	أسس الفتح الإسلامي
١٩١	مقومات الدولة في الإسلام
١٩٢	العراق باب فارس
١٩٢	الإسلام يشير في العرب روح المغالبة
١٩٢	المثنى بن حارثة وفتح العراق



١٩٣	أمر أبي بكر خالداً بغزو فارس
١٩٣	سياسة خالد في حرب الفرس
١٩٤	من خالد بن الوليد إلى طارق بن زياد
١٩٥	تلاحق الهزائم بالفرس
١٩٥	واقعة « المذار »
١٩٦	واقعة « الولجة »
١٩٦	نهج خالد في إثارة الحماسة
١٩٧	واقعة « أليس »
١٩٧	غرور فارسي أجوف
١٩٩	واقعة « أمغيشيا »
١٩٩	عبقريّة خالد في رأي الصديق
١٩٩	فتح الحيرة
٢٠٠	حيلة ومكيدة
٢٠٠	عزلة خالدية
٢٠٠	محاصرة قصور الحيرة
٢٠١	براعة في المفاوضة
٢٠٢	تحليل براعة خالدية
٢٠٤	عدل فوق الرحمة
٢٠٥	عهد خالد لأهل الحيرة
٢٠٥	الحيرة قاعدة الجيوش الإسلامية
٢٠٧	أقصوصة طريفة
٢٠٧	أقصوصة أخرى
٢٠٨	غزو فارس في عقر دارهم
٢٠٨	تيمن خالد بالغال
٢٠٩	واقعة الأنبار

صفحة	
٢٠٩	سياسة ماهرة
٢١٠	واقعة « عين التمر »
٢١٢	فتح دومة الجندل
٢١٣	شهادة خصم
٢١٤	وقائع « خنافس » و « الحصيد »
٢١٥	واقعة « المصيخ »
٢١٦	انتصار خالد بالربع
٢١٧	مناوشات وتطهير
٢١٧	واقعة « الفراض »
٢٢٠	عزلة خالدية

## الفصل الحادى عشر

### دولة الروم بعد الفرس والعرب من ص ٢٢٣ إلى ص ٢٥٢

٢٢٣	مقدمات غزو الشام
٢٢٣	مشاورة أبى بكر لأهل الراى
٢٢٣	تأثير خالد بن سعيد ثم عزله
٢٢٤	عقد الألوية وطموح عمرو بن العاص
٢٢٥	موقف الصديق والفاروق من طموح عمرو
٢٢٦	لواء يزيد بن أبى سيفان ووصية أبى بكر له
٢٢٧	لواء شرحبيل بن حسنة
٢٢٧	لواء أبى عبيدة بن الجراح
٢٢٨	سرور أبى بكر بكتائب المجاهدين
٢٢٨	فزع الروم ورأى هرقل
٢٢٩	مشاورة أمراء المسلمين واجتماع جيوشهم
٢٢٩	بعث خالد بن الوليد أميرا على الأمراء
٢٣٠	كتاب أبى بكر بالإمارة إلى خالد

صفحة	
٢٣١	بين خالد والمثنى
٢٣٢	مغامرة جريئة
٢٣٣	نظرة وعبرة
٢٣٥	بين خالد وأبي عبيدة
٢٣٦	أدب رفيع
٢٣٦	جولات في الطريق
٢٣٨	سياسة حكيمة
٢٣٩	زمام الإمارة في يد خالد
٢٤٠	إيمان
٢٤٠	قصة « جرجة »
٢٤٢	هزيمة الروم
٢٤٢	نبل عبقرى
٢٤٣	نظرة عابرة في قصة جرجة
٢٤٢	ترتيب الوقائع الشامية
٢٤٤	طريقة أخرى في ترتيب الوقائع
٢٥٠	نتيجة

## الفصل الثانى عشر

عزل خالد : لماذا عزل صهر بن الخطاب خالد بن الوليد  
من ص ٢٥٥ إلى ص ٢٧٥

٢٥٥	سؤال
٢٥٥	خوالد خالد
٢٥٦	بين الباحث والمؤرخ
٢٥٧	مفاجأة
٢٥٨	إعظام التاريخ عزل خالد
٢٥٨	خالد عدل عمر
٢٥٩	اختلاف الروايات في أسباب العزل

٢٥٩	الرواية الأولى
٢٦٠	نقد وتحليل
٢٦٤	الرواية الثانية
٢٦٥	موازنة وتمحيص
٢٧٠	الرواية الثالثة وبهرجتها
٢٧٠	» الرابعة وتزييفها
٢٧١	» الخامسة ونقدها
٢٧٣	رواية راجحة

### الفصل الثالث عشر

رأى الدكتور هيكل في عزل خالد وبواعثه : عرض وتحليل ونقد

من ص ٢٧٩ إلى ص ٢٩٢

٢٧٩	هيكل وأثر البحث الحديث في الناشئة
٢٧٩	أثر الأفكار الغربية في فهم الإسلام وتاريخه
٢٨١	إتكاء هيكل على أقصوصة مالك بن نويرة
٢٨١	تزيد في التاريخ
٢٨١	نقد وتزييف
٢٨٢	غضب أبي بكر على خالد وسببها
٢٨٣	تعقيب غير موفق
٢٨٣	مجانة نواسية لا تحسب في تحقيق التاريخ
٢٨٤	أبو بكر وعمر بن الخطاب في تصوير الدكتور هيكل
٢٨٦	إلحاح في قصة مالك نويرة
٢٨٧	منطق مدخول
٢٨٨	» الغاية تبرر الوسيلة » سياسة عمرية في نظر هيكل
٢٨٩	أحقاد جاهلية هي التي حركت عمر نحو خالد في نظر الدكتور هيكل
٢٩٠	اضطراب في البحث

صفحة

٢٩٢

هيكل يقرر أن عمر بن الخطاب تآثر بشعوره الخاص نحو خالد

٢٩٤

عود إلى مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة »

## الفصل الرابع عشر

### تحرير قصة عزل خالد وتحقيق أسبابه

من ص ٣٠١ إلى ص ٣٢٨

٣٠١

العزل عن الإمارة العامة

٣٠١

بين عمر وأبي عبيدة

٣٠١

بين خالد وأبي عبيدة

٣٠٢

العزل عن الخندية إطلاقاً

٣٠٤

تحرير وضع القصة

٣٠٤

ليس لقصة ابن نورية مدخل في العزل

٣٠٦

تزييف أبطولة الحقد الجاهلي

٣٠٦

رأى للأستاذ العقاد

٣٠٩

الأسباب الجدية للعزل

٣٠٩

حق الحاكم على ولاته

٣٠٩

سياسة عمر وأبي بكر

٣١٢

ليست الحوادث أكبر من عقولنا

٣١٣

صلابة الطبع عند عمر وخالد

٣١٥

افتراق في السلوك والأعمال

٣١٧

اصطدام بين طبيعتين

٣١٧

وقف الطبيعة الخالدية

٣١٨

حقيقة دوافع العزل

٣١٨

فتح الباب أمام الكفريات

٣١٩

بدء التصادم بين عمر وخالد

٣١٩

خالد يأبى أن تقيد حريته في دائرة عمله

٣٢٠

تقدير عمر لعبقريته خالد

صفحة	
٣٢٢	طبيعة لاتغالب
٣٢٢	العزل الثاني وأثره
٣٢٣	اعتذار عمر
٢٢٤	سياسة عمر عامة
٣٢٥	تسامى العبقریات عن الصغائر
٣٢٥	عظمة خالدية
٣٢٧	مظاهر الحب والتقدير
٣٢٩ - ٣٣٢	نهاية عبقرى









